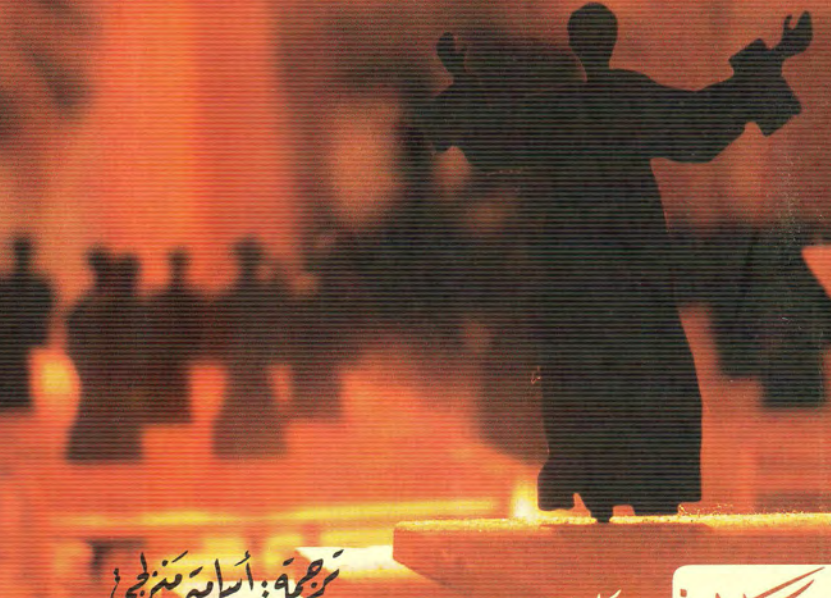
هرمان هيسه

نرسيس وغولدموند



ترجمة: أسامة منزلجي

تقديم: أحمد العلي

رواية

مسكيلياني

هرمان هيسه

نرسيس وغولدموند

رواية

ترجمة: أسامة منزلجي

مسكيلياني للنشر

الكاتب: هرمان هيسه

عنوان الكتاب: نرسيس وغولدموند

ترجمة: أسامة منزلجي

تقديم: أحمد العلي

مراجعة وتدقيق: زهير بوحولي

خط الغلاف: الفنّان سمير قويعة

تصميم الغلاف: الشاعر محمّد النبهان

الناشر: مسكيليانى للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 537090811(966+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

ر.د.م.ك: 3-68-833-9938-978

الطبعة الأولى: 2017

مسطرة واحدة للعُمر

(1)

لم أعرف في طفولتي أيًّا من الأبطال الذين اعتادوا من هم في سنّي على تقمّصهم. كنت أنفر من «غرندايزر» و«الرجل الحديدي» و«سوبرمان». لم أحب عالم المصارعين يومًا، ولم تأخذني شخصيّات «مجلة ماجد» إلى أبعد من النوم. كانت قسماتي لطيفة، تشبه طفلي ذا الأربعة أشهر الذي يصرخ أمامي الآن: رأسٌ دائري، وذقنٌ كأنه كُرة عجينٍ صغيرة وُضعت بخفّة أسفل الفم، الفم الرقيق المحشور بين وجنتينٍ معتدلتي الانتفاخ. أنفٌ مرسومٌ بقلم رصاص تكادُ تُمحى خطوطه، عينان كثيرتان (كأن اتساعهما لا يصف جمالهما) وجبينٌ مثل مسحة العطف الخفيفة. كنت هكذا، تمامًا، بهذه البراءة، وأذكر تمامًا أنني، في سنٍّ متقدمة بعض الشيء، كنت أعدّ الحليب لي بنفسي وأستلقي على ظهري بعد أن ألقمت جهاز الفيديو شريطًا لفيلم هندي يُدعى (غانغا، جامونا، وسراسوتي). بطل الفيلم هو أميتاب باتشان (غانغا)، عاشقٌ كبير ومدافع عنيد عن الفقراء وحقوقهم، وقد تمّ سجنه عندما لفّق له الإقطاعي الشرير بعض التهم كي يتخلص منه ويتحكم في المزارعين كما يشاء. ولكن فكرة التخلص من غانغا إلى الأبد لم تغب عن بال الشرير، فقام في اليوم التالي على إطلاق سراح غانغا واجتماعه بزوجته (جامونا) وطفله الرضيع، بنصب كمين له تحت

جسر كان يعبر عليه مع أسرته ذاهبين لتحصيل ما فاتهم من السعادة. انفجر الجسر، وانهار نصف الشاحنة في النهر الجاري أسفله. تمكّن غانغا من إنقاذ طفله ولكن النهر قد جرف جامونا إلى حيث لا يعلم. وعلى الرغم من أن غانغا قد ظنّ زوجته ماتت، فإن صديقه القديم قد رآها فاقدةً الوعي على إحدى ضفاف النهر، لا تذكر شيئًا من ماضيها، ودون أن يدري أنها زوجة غانغا، فأنقذها وأحبها. أمّا غانغا وطفله، فقد رعتهما إحدى الغواني (سراسوتي) وقد أنقذها غانغا يومًا ما من براثن الشرير نفسه فتابت عن حياتها الماجنة وعشقته حتى الجنون. يسير الفيلم هكذا، تدفعه أحداث الفراق واللوعة والصراع بين الغني والفقير والطيّب والشرير حتى النهاية، نهاية مثل انتصار عالٍ للخير، رأس الهرم وقدر الأقدار كلها: ينتصر غانغا على الشرير، يلتمّ شمل العائلة من جديد، ولكن على الغانية أن تموت لكي يصبح غانغا حُرًّا من جديد، وعلى صديقه أن يموت لكي تصبح جامونا حُرّةً من جديد. بهذه التوليفة من الحُزن والسعادة، يتركني الفيلم كل مرّة، لأكثر من عشرين عامًا، ويدفعني لمشاهدته مرة أخرى.

لم أفهم حقًّا فيلم طفولتي هذا إلا قبل سنوات قليلة. «غانغا» هي إلهةٌ من الإلاهات الهندوس، تُمثّل نهرًا مقدّسًا في الهند يُدعى بالعربية: نهر الغانج. يحج إلى هذا النهر ملايين الهندوس سنويًّا إذ يؤمنون بأن مياهه تغسل خطاياهم. الإلهة غانغا هي الأعلى مرتبة بين الآلهة الهندوسية وتمثّل المعرفة المطلقة والخير والانعتاق من الشرور. ويجري بالتوازي مع نهر الغانج، نهرٌ مقدّس آخر يُدعى «جامونا»، تُمثّله إلهةٌ بنفس الاسم تهتم بالحُب المطلق والعطاء غير المحدود. هذان النهران، إذ يجريان متوازيين، يلتقيان في بقعة من الأرض الهندية ثم يفترقان بعدها. خلال الافتراق الأخير، الافتراق الذي يُضعف

كلا النهرين، تتفرع من هذه الأنهار أنهارٌ أخرى موسميّة مؤقته، أنهار ضرورية لبقاء الأراضي التي تجاور النهرين الرئيسيين حيّة (من بينها نهر سراسوتي).. ولكن لابد من التقاء النهرين في النهاية واختفاء تلك الأنهار المؤقته، لابد من موتها جميعًا كي يُعاد شمل غانغا وسراسوتي ثم ينهمران معًا في المحيط الهندي، يذوب كلّ منهما في الآخر وينعتقان من دائرة اللقاء والفراق إلى الحياة الأبدية في حضن المحيط. وهذه صورة مجازية عن المعتقد الهندوسي الذي يقول إنّ الروح البشريّة تبقى سجينة الأجساد، وتحلّ في أكثر من شخص تباعًا وعبر حيوات متعددة كي تُراكم الأعمال الخيّرة والحسنات التي تمكّنها من الانعتاق من دائرة الحياة والموت والتحليق نحو ربها لكي تحيا إلى جواره في سلام إلى الأبد. وقد نسجت الأساطير الهندوسية الكثير من الحكايات التي تدور حول إلاهات الأنهار تلك وأعمالها وعلاقاتها ومصائرها وطُرُق انعتاقها.

الإقطاعي الشرير في الفيلم وكل معاونيه هم رمز الجفاف والعطش والقحط والموت، أمّا غانغا وجامونا فهما رمز الخير والرواء والأراضي الخصبة والحياة، وأمّا سراسوتي وصديق غانغا فهما الأنهار المؤقتة المُعينة للخير كي يبسط يده على الأرض من جديد.

(2)

هل كان بإمكاني في طفولتي أن أتمثّل قيم الخير وأن أبتعد عن قيم الشر لو قيلت لي قصص الأنهار كما هي، دون الخيال الجامح الذي حوّل الأنهار إلى شخصيات روائية، وحاك منها قصصًا تتحدث فيها وتتصارع وتعشق وتحيا وتموت؟. لا، أبدًا. كان لابد من إعطاء الأنهار وجوهًا وأصواتًا، كان لابد لها أن تُغنّي وترقص، وأن تصيغ

الأفكار والمعتقدات المقدسة، تلك التي تمثّلها الأنهار، على شكل حوارات وصراعات ماثلة أمامي. وإلّا لما تمكّن هذا الفيلم من النيل مني لأكثر من عشرين عامًا، لما حفظتُ كل أغانيه عن ظهر قلب ولما استدعيته الآن عندما انتهيت من قراءة «نرسيس وغولدموند» ، فما فعله هيرمان هسّه في هذه الرواية هو تمامًا ما فعله كاتب الفيلم.

(3)

تتغذى شخصيّة غولدموند على المعتقدات الطاويّة، في حين أن شخصيّة نرسيس تتغذى على معتقدات الرهبنة المسيحية. يعتقد الطاويّ بأن الوصول إلى الله يبدأ من الأسفل، أي من الأرض والحياة والمكابدة، وأنه لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال امتحان الجسد وإنهاكه، الانغماس التام في السفر والملذات والتعرّف إلى الشعوب ومُعاينة مصائرها، أي الاندماج من جديد مع الطبيعة بوصفها أمًّا (وهي ما يقصده غولدموند بأمّه في الرواية). وعلى النقيض، يعتقد الرهباني بأن الانعزال عن الدنيا والناس في دَير أو محبس، وقراءة الكتب المقدسة، والتأمّل المجرّد في الحياة والتفكّر فيها، هو ما يوصل إلى الله. لكن هسّه، وهذا هو الصادم، يقول لنا إنّ كلا الطريقين موصلان إلى الله، ما جعل صداقة غولدموند ونرسيس هي الأعزّ عليهما من كل شيء، وإنهما لولا هذه الصداقة لما تمكّنا من بلوغ مبلغهما في الحياة؛ فنرسيس صار مدير الدير، وغولدموند أصبح فنّانًا استطاع الوصول إلى هدفه في الحياة عبر النّحت.

تتناول الرواية، من خلال تتبع غولدموند، أغلب التناقضات التي قد يمر بها المرء وهو يواجه الحياة، وتُشير أيضًا إلى أن نرسيس قد واجهها جميعًا وهو في مُعتزله: الخير والشر، الحياة والموت،

الله والشيطان، الخلود والفناء، الصديق والعدو، الأمان والخوف، الحضارة والغابة، التنظيم والفوضى، الوفاء والخيانة، الحُب والكره. كان هدف غولدموند غير المُعلن من خلال تجواله هو مُراكمة الخبرات، وكان عدوّه غير المُعلن أيضًا هو تجدّد غاياته، تجدّد ما يُريد تحقيقه وتبدّله كلّما حققه. أما نرسيس فلم يكن عدوّه سوى فكرة واحدة: أن لا تكون نفسك، أن تحاول تزييف ما أنت عليه، ولذلك فقد كان هدفه طوال حياته ومصدر عذاباته هو أن يجد نفسه، أن يرى نفسه كما هي دون تأثير الآخرين فيها ودون أهداف موضوعة لها من خارجها. ولهذا قام بدفع غولدموند خارج الدير. دفعه كي يجد كل منهما نفسه ومن ثم يلتقيان، مختلفين ومؤتلفين، مثل شعار الطاويّة: الدائرة المنقسمة إلى شطرين متجاورين أبيض و أسود، وفي كل شطر دائرة صغيرة من الشطر الآخر. ويجب أن لا ننسى بأن الفكري والجمالي أمران متمازجان، والفصل بينهما هو فصل إجرائي لغرض الإيضاح لا أكثر؛ لا وجود في الحياة لهذه الشخصيّات الحادّة في معتقداتها، فنحن نتقمّصهما معًا كل يوم، ونتنقّل نفسيًّا في كل لحظة بين السّعي واليأس والكره والحب والبهجة والضغينة والخوف والأمل والإيمان والكفر. ليس التسكع في الشوارع والنوم خلف حاويات القمامة وفي مواقف العمائر ما سيوصلك إلى أيّ شيء، وليس الانعزال في البيت والتحوّل إلى عالة وصخرة ما سيوصلك إلى أيّ شيء أيضًا. الرواية هي مسرح لمذهبين فكريين، لا تنسَ ذلك.

(4)

الفكرة الجذرية في الرواية ذكرتني بمقولتين لم تفارقا خيالي؛ قال المُعلّم الهندي الصوفي كَبير وكأنه يتحدث عن نرسيس: «شعرتُ

بحاجة إلى حجّ عظيم، فجلست ساكنًا لثلاثة أيّام، وأتاني الله». أما المعلّم البولندي الصّوفي أنجليوس سيلسيوس فقال وكأنه يتحدث عن غولدموند: «ضحكة ربّي وحبه يخطُران في كلّ مكان.. ولكنه لا يجيء لزيارتك في البيت إلّا عندما تخرج منه». وذكّرتني أيضًا برحلة الشاعر في قصيدة جبران (المواكب: هل تخذت الغاب مثلي منزلًا دون القصور) كأن الشاعر هو غولدموند.. وتذكّرت أيضًا مطلع قصيدة السيّاب التي تغازل عُشتار أو الطبيعة بوصفها أمًّا مثل أمّ غولدموند (أنشودة المطر: عيناكِ غابتا نخيل ساعة السّحر). أمّا هذه العلاقة السّاحرة بين نرسيس وغولدموند، تلك الصداقة النادرة، فقد استدعت إلى ذهني أسطورة أنكيدو صديق قلقامش، وهفستيون صديق الإسكندر المقدوني.

هناك دائمًا صديقٌ تُحب أن ترى نفسك شيخًا إلى جانبه. صديقٌ يُعطيك وجهُه شكلًا تقريبيًّا لما وصل إليه حال وجهك. تقيس عمرك بنفس المسطرة التي يقيس بها عمره، تتبادلان إشارات مختصرة كأنها شفرات عن أحداث لا تحتاج إلى شرح أو إطالة. هناك صديقٌ تُحب أن تشيخ إلى جانبه.. جِدْه، وقُل له ذلك، في وجهه.

أحمد العلي

نيويورك في 2015/11/14

الفصل الأول

هنا في بلاد الشمال، وقبل زمن بعيد، زرع أحد الحجاج الرومان شجرة كستناء منعزلة، قوية وحيدة بالقرب من صف من أعمدة مدورة ذات أقواس مزدوجة قائمة عند مدخل دير ماريابرون: شجرة نبيلة، قوية، تميل أوراقها معا برقة أمام هبوب الرياح، بثقة شجاعة هادئة، وفي وقت متأخر جدا من الربيع حتى بعد أن يزهو كل شيء حولها بالخضرة وتكتسي حتى أشجار الجوز التابعة للدير باللون الخمري، تنتظر هي أقصر الليالي لترسل، من خلال بويقات الأوراق، إشعاعات براعمها الغريبة الباهتة. وفي شهر تشرين أول، بعد أن يعصر الخمر ويجمع الحصاد بوقت طويل، تسقط ثمارها الواخزة عن تاجها الآخذ بالاصفرار، ثمار لا تنضج كل عام، يتشاجر أولاد مدرسة الدير للحصول عليها. وكان غريغوري، المساعد الإيطالي لرئيس الدير يشويها على حطب الموقد. وكانت الشجرة الجميلة، المترفعة الرقيقة، التي تظلّل المدخل إلى الدير، ضيفًا رقيقا يرتعش، قادما من بلاد أكثر دفئا، وتمُتّ بصلة قربى سرّية إلى أعمدة المدخل المزدوجة النحيلة، وإلى دعائم أقواس النوافذ وزخارفها، أحبها كل اللاتينيين والإيطاليين، ونظر إليها السكان الأصليون بأفواه فاغرة وكأنّهم ينظرون إلى كيان غريب.

مرت من تحت هذه الشجرة الغريبة أجيال عديدة من أولاد

مدرسة الدير، يضحكون، يثرثرون، يلعبون، يتشاجرون، منتعلين أو حفاة، حسب فصول السنة، كل منهم يحمل لوحة، أولاد يضعون زهرة بين شفاههم، وأولاد يكسرون الجوز، وأولاد يحملون كرات من الثلج. وكانت هناك دائما وفود جديدة منهم، كل سنتين تأتي وجوه جديدة، على الرغم من أن أغلبهم -بشعورهم الشعثة الشقراء- كانوا يشبهون من سبقهم. بعضهم يبقى ويغدو مترهبنا، ومن ثم راهبا، ويجز الشعر الأشقر. ويرتدي الرداء الرهباني ويشد الوسط بحبل، ويقرأ الكتب، ويعلّم الأولاد، ومن ثم يتقدم في السن ويموت. وآخرون، لدى نهاية فترة دراستهم، يأتي آباؤهم ويصحبونهم إلى البيت، إلى قلاع الفرسان، أو منازل التجار أصحاب المهن الحرة، ويطلق لهم العنان ليخرجوا إلى العالم، ليسيروا سيرا طائشا أو ليعلّموا. أحيانا، وبعد أن يصبحوا رجالا، يعودون ليلقوا نظرة على الدير يصحبون أولادهم الصغار ليتولى الآباء تعليمهم، يقفون برهة ويبتسمون حين يرون شجرة الكستناء، وتتوارد الأفكار على رؤوسهم، ومن ثم يخرجون من المكان ويغيبون عن الأنظار. وفي صوامع الدير وغرف مدرسته، بين الأعمدة المزدوجة القوية ذات الحجر الأحمر والأقواس المستديرة، عاش الرهبان يعلّمون، ويديرون المكان، يدرسون، ويهيمنون. هناك كان يحصَّل كل فرع من فروع العلم، ويورث جيلا بعد جيل: معرفة دينية ودنيوية، الظلام والنور، وتكتب الكتب ويُعلَّق عليها بالحواشي، وتستنبط النظم، وتجمع مؤلفات الأقدمين، ويلقى الضوء على كتب القداسات، ويعزز إيمان الناس، وتحبذ سرعة تصديقهم. هناك كان يوجد كل شيء، ثمة حيّز لكل شيء، للإيمان وللتعلم، للأعماق وللسطحية، لحكمة الإغريق وللإنجيليين، للسحر الأسود وللسحر الأبيض – ولكل منهما فائدته. كان هناك متسع للتوبة وللعزلة، مكان

للحياة الرغيدة، وللصحبة. والأمر يعتمد على الراهب الرئيس الذي يتولى الإدارة، وعلى النزعة السائدة، فالتي يعلو نجمها في وقت من الأوقات، تحجب الأخريات. وقد اشتهر دير ماريابرون لفترة معينة بطاردي الأرواح الشريرة والشياطين، وفي فترة أخرى بجمال ترتيله البسيط، ثم بأب ورع كان يشفي من الأمراض ويصنع المعجزات ومن ثم بمرق سمك الكراكي وبفطائر كبد الأيل – وكل منهما كان له زمنه. وكنت دائما تجد وسط هذا الحشد من الرهبان والفقراء، فاتري همة ومتحمسين صائمين ومعربدين. كان دائما يوجد، هنا وهناك بين العديد ممن يعيشون ويموتون ، فرد واحد منعزل عن البقية، يحبه الجميع، أو يخشونه، واحد يبدو من المختارين، ممن يبقى في البال وتدور حوله الأحاديث بعد أن يُنسى بقية أفراد جيله بوقت طويل.

وفي هذه الفترة التي نحن بصددها[1] عاش في دير ماريابرون اثنان من المنفردين المختارين، واحد متقدم في السن، وآخر شاب. فمن بين العديد من الرهبان الذين زخرت بهم الكنيسة، والمنامات، وقاعات الدرس، كان هناك اثنان، انتبه إليهما الجميع، وراقبوهما، هما الأب الرئيس دانييل والمترهبن المدرّس نرسيس الذي كان قد دخل حديثا في الرهبنة، إلا أنه خلافا لكل الأعراف ، وبسبب مواهبه الاستثنائية، عيّن مدرسا ، وخاصة لمادة اللغة الإغريقية. وقد حظي الاثنان، المبتدئ والأب الرئيس، باحترام كل من هم في الدير وباهتمامهم. كانا محط الأنظار ومبعث الفضول والإعجاب والحسد، وفي السرّ كان الافتراء يدور عليهما.

كان أغلب الإخوة يكنّون الحب للأب الرئيس، ولم يكن له أعداء. كان يفيض طيبة، وتواضعا، وبساطة. إلا أن مثقفي الدير كانوا يغذّون

(1) تدور أحداث الرواية في القرون الوسطى. (المترجم).

حبهم له بلذعة تأنيب. فيقولون إن هذا الرئيس قد يكون قديسا، لكنه لن يكون قط فقيها. إن بساطته هي سمة الحكمة، لكنّ لغته اللاتينية بائسة، أما اليونانية فهو يجهلها تماما.

كنت ترى المستعدين للابتسام أحيانا لبساطة الراهب الرئيس أكثر استعدادا للافتتان بنرسيس الفتى المذهل، والشاب الوسيم الذي ينطق باليونانية في أناقة ويتّسم بحسن السلوك وقوة التأثير الخليقين بفارس، نرسيس ذي العينين النافذتين الهادئتين، عينيّ مفكّر، وذي الشفتين الرقيقتين الجميلتين، المحدّدتين بصرامة، نرسيس الذي كان يجذب إليه العلماء بمنطقه الألمعي، ويفرض محبّته على الجميع لصفائه ونبله. لقد فتن الكثيرين، ولم يُثر استياء أحد لأنّه كان دائما شديد الهدوء، متحكّما في النفس، فائق الكياسة.

رئيس دير ومترهبن، كان كلّ واحد منهما يحمل حسب طريقته دلائل على اتصافه بنعمة خاصة. فكلّ منهما بسط سيطرته على طريقته، كلّ منهما عانى من ألمه الخاص، وكلّ منهما انجذب إلى الآخر، وشعر بقربه إليه أكثر من أي واحد من نزلاء الدير.

ولكن لا أحد منهما عثر على الآخر، على الرغم من بحثه عنه، ولا أحد منهما استطاع أن يتخلى عن تحفظه في حضور الآخر. فلقد كان الرئيس يعامل الراهب المبتدئ بلطف جم، بكل مداراة رقيقة، يوبخه كما يوبخ المرء أخا أصغر منه سنّا، أخا أصغر رقيق الصحة بشكل غريب، وربما مبكّر النضج بشكل خطير يدعو إلى القلق. وكان المبتدئ يولي انتباهه لكل أمر يصدر عن الرئيس ولكل نصيحة، في رضوخ تام، ولم يكن يناقش قط، ولا كان يتهجم على أحد، وإذا كان حكم مُتقدِّمه عليه صحيحا، وكان كل ما ينتابه هو غواية الفخر، فقد استطاع أن يخفي نقيصته هذه بصورة تامة. لم يكن ثمة شيء يمكن

أن يؤخذ به ضده. كان مثالاً لكلّ شيء، لكنه متحفظ. وكان الوضع كما يلي: إذا استثنينا المثقّفين فلم يكن ممكنا أن يدخل ضمن دائرة صداقاته الضيّقة إلا قلّة قليلة من الناس، وإضافة إلى ذلك فقد كان تميّزه الخاصّ يسربله مثل ريح صرصر ويطوّقه من كلّ الجهات.

ذات مرة، وبعد أن اعترف، قال له الرئيس: «وأنا يا نرسيس مذنب لأني أصدرت عليك أحكاما متهورة. لقد حسبتك متغطرسا، ولعلي أجحفت في حقك. إنك شديد الانعزال يا أخي، لك معجبون كثر، ولكنك بلا أصدقاء. أتمنى أن أجد ذريعة لأعنفك قليلا. لكني لا أجد. كنت أود لو أرى منك عصيانا كما يفعل الشبان الذين في سنك. و لكن لا يبدر منك أي عصيان. أحيانا يا نرسيس تثير قلقي».

التفت الشاب بعينيه السوداوين إلى الرجل العجوز:

«أبتِ إني قبل كل شيء لا أريد أن أسبب لك الحزن. ثم لعلّي كنت متغطرسا، أتوسل إليك أن تعاقبني على ذلك. إنني أحيانا أتوق إلى معاقبة نفسي. أرسلني إلى معتزل يا أبت، أو دعني أقم بعمل أخ عادي».

أجاب الرئيس: «أنت صغير جدا على كليهما، أيها الأخ العزيز، وتتمتع بموهبة رائعة يا بني، في الحديث وفي الفكر. وبإسناد مهام أخ عادي إنما أسيء استخدام هذه المواهب الراقية وأدنّسها. أنت خلقت لتكون مدرّسا أو عالما. فهل هذا ما تتمناه لنفسك ؟».

«سامحني يا أبت، لست واثقا تماما مما أريده. سوف أستمتع دائما بدراسة العلم، وكيف لا ؟ لكني لا أعتقد أن التعلم سيكون المجال الوحيد لأداء الخدمة. قد لا تكون رغبات الإنسان هي التي تقرر مصيره و تحركه، قد يكون مُسيَّرا.»

ازداد الرئيس جدية، إلا أن وجهه العجوز ابتسم وهو يجيب:

«إنني وفق ما تعلمت أن أعرفه عن البشر وجدت أننا في شبابنا نميل جميعا إلى أن نطلق على رغباتنا اسم مقدّرات. فما هو المقدّر لك حسب شعورك ؟».

أغمض نرسيس عينيه السوداوين نصف إغماضة حتى غابتا داخل ظل رموشه، ولم يُحِرْ جوابا. وران على المكان صمت طويل.

قال الرئيس بلهجة آمرة «تكلم يا بني».

وبصوت منخفض، وعينين مطرقتين إلى الأرض، بدأ نرسيس إجابته:

«أشعر يا أبت، أنه مقدّر لي قبل كل شيء أن أعيش في هذا الدير. أعلم أني سأصبح راهبا، أو قسيسا، أو نائبا للرئيس، وربما رئيسا للدير. إني زاهد في المناصب الرفيعة، لكني أعرف أنها سوف تُسند إليّ».

ران الصمت على الاثنين.

سأله العجوز بنبرة شك «ما الذي يمنحك هذا الاعتقاد؟ بغض النظر عن ثقافتك، ما الذي يسمح لك بأن تقول هذا؟».

كان نرسيس بطيئا في الإجابة: «لأني أحمل في داخلي إدراكا لعادات البشر وتقلبات أمزجتهم: ليس ما أتصف به أنا وحدي، بل ما يتصف به الآخرون. هذه الخاصية لديّ تجبرني على خدمة البشر بالسيطرة عليهم. ولو لم يكن هناك نداء داخلي يجذبني إلى الرداء الكهنوتي لأصبحت قاضيا، حاكما».

أومأ الرئيس موافقا «لعل الأمر كما تقول، ولكن هل أقمت الدليل على مقدرتك الشخصية هذه على معرفة البشر وأقدارهم؟ بأي شاهد؟ وهل أنت مستعد لإعطائي مثالا على ذلك؟».

«نعم أنا على استعداد».

«جيد، إذن – ربما لن أقدم على التطفل محدّقا إلى قلوب الإخوة دون علمهم، فربما تقول أنت لي، أنا رئيسك، ماذا تعرف عني؟».

رفع نرسيس ناظريه ليثبتهما على متقدمه.

«أهذا أمر يا أبت؟».

«نعم، أنا آمرك».

«من الصعب أن أقول، يا أبت».

«وأنا أيضا، أيها الأخ، أجد من الصعب علي أن آمرك بالطاعة في هذه المسألة. لكني أفعل. هيا تكلم، إذن».

رفع نرسيس رأسه وهمس قائلا:

«إنني لا أعرف عنك إلا القليل، يا أبت. أعرف أنك أحد خدام الرب، أنك تفضل رعي الماعز، أو قرع الجرس إيذانا ببدء صلاة الفجر في صومعة للتنسك وتخليص الفلاحين من خطاياهم، على أن تمارس سلطتك كرئيس لدير ضخم. أعرف تفانيك في حب سيدتنا العذراء، وأعرف أن معظم صلواتك موجهة إليها. أحيانا تصلي كي لا تبعد دراسة اللغة الإغريقية وفروع المعرفة الأخرى الأرواح عن الرب لتكون تحت رعايتك، وتصلي في مرات أخرى كي تصبر على غريغوري، مساعدك. وأحيانا تصلي لتحظى بنهاية هادئة. في هذا الأمر أعتقد أن نداءك سيسمع، وأن نهايتك ستكون هادئة».

ساد الصمت التام ردهة مقر الرئيس الصغيرة، إلى أن بادر العجوز أخيرا بالكلام. فأجاب بصوت ودود:

«أنت حالم وصاحب رؤى. حتى الرؤى التقية الصافية يمكن أن

تخدعنا. إنني لا أثق بها، وعليك ألا تفعل. والآن، أيها الأخ الحالم، هل تستطيع أن تفهم كيف لي أن أشعر بكل هذا في قلبي؟»

«يا أبت، أفهم أنك تفكر في ذلك بطريقة حسنة جدا. وإليك رأيي: «إن هذا الفقيه الشاب في وضع على جانب من الخطر، لقد رأى رؤيا، ولعله يكثر من التأمل، وربما لا خير في أن أفرض عليه كفارة، وسوف أفرض مثلها على نفسي. بهذا كنت تفكر لتوك».

نهض الرئيس واقفا، وصرف الراهب المبتدئ وهو يبتسم.

قال: «هذا حسن. لا تحمل رؤياك على محمل الجد، أيها الأخ الشاب. إن الرب يتطلب منا أكثر من الرؤيا بكثير، فلنقل إنك أسعدت رجلا عجوزا بقولك له إنه سيحظى بميتة هينة، وإن قلب الرجل العجوز ابتهج برهة من الوقت لسماعه وعودك. وهذا يكفي. غدا، بعد قداس الصباح الباكر، ستتلو مجموعة من الصلوات، وستتلوها بتواضع وورع، وكذا سأصلي أنا. والآن انصرف، يا نرسيس، لقد قلنا ما فيه الكفاية».

في يوم آخر اضطر الرئيس دانييل إلى إصدار الحكم الفصل بين نرسيس وأصغر الآباء المعلمين سنا، بين هذين اللذين لم يتوصلا إلى الاتفاق على نقطة معينة في خطة التدريس. فقد ألح نرسيس، بكل حماس، على ضرورة إحداث تغييرات معينة، واستطاع زيادة على ذلك، أن يدافع عنها على أسس مقنعة. لكن الأب لورينز، إذ انتابه ما يشبه الحسد، رفض أن يوافق عليها، حتى بات يتبع كل اجتماع بينهما انزعاج وتجهم وصمت حين يفتتح نرسيس الذي يشعر أنه على حق، الموضوع من جديد. وأخيرا قال له الأب لورينز المتألم:

«حسنا يا نرسيس فلننه جدالنا. أنت تعرف أنه في هذا الموضوع أنا من يجب أن يقرر وليس أنت. وعليك أن ترضخ لإرادتي، وأنت

لست زميلا لي في التدريس، وإنما أنت مساعدي، ولكن بما أنه يبدو أن هذه القضية تلقي بثقلها عليك، وبما أني أقل منك معرفة ومواهب، على الرغم من أني متقدمك، فلن أدّعي أن الكلمة الأخيرة هي لي، بل لنأخذ خلافنا إلى أبينا الرئيس، ونسأله أن يحله بيننا».

وهذا ما فعلاه، واستمع الرئيس دانييل إلى هذين الفقيهين، بكل لطف وجدّ وهما يتجادلان حول تدريس قواعد اللغة. وبعد أن فرغ كلاهما من إعلان أفكاره، نظر إليهما العجوز نظرة فكهة، ثم هز رأسه الأبيض قليلا وهو يقول:

«أيها الأخوان العزيزان، لا أعتقد أن أيا منكما يفترض أني أعرف أكثر منكما في هذه الأمور. إن مما هو جدير بأكبر الثناء على نرسيس أن المدرسة تقع في منطقة شديدة القرب من قلبه، وإنه على هذا يعمل على تحسين خطة التدريس. ولكن إذا كان متقدمه يرى خلاف ذلك، فإن على نرسيس أن يمتثل له ويلزم الصمت، بما أنه لا وزن لأي تحسين يستحدث في المدرسة إذا كان سيودي بالجو الطيب من النظام والطاعة الذي يسود المقر. إنني أضع اللوم على نرسيس لأنه لم يتمكن من السيطرة على نفسه، وأمنيتي لكما أنتما العالمين الشابين ألاّ تستبعدا مطلقا وجود متقدم أقل ذكاء منكما. فإن ذلك أفضل فريسة للغرور».

بهذه المزحة المرحة صرفهما، إلا أنه حتما لم يهمل في الأيام الموالية مراقبة الاثنين عن كثب، ليكتشف بنفسه إن كان السلام والوئام قد سادا بينهما من جديد.

ثم حدث أن ظهر وجه جديد في الدير الذي شهد وجوها كثيرة جدا تأتي و تذهب، وأنّ هذا الوجه الجديد لم يكن من النوع الذي يمر

دون أن يلفت إليه الانتباه ليُنسى سريعا بعد رحيله. كان فتى صغيرا، وكان والده، الذي أحضره في أحد أيام الربيع، قد أعلن منذ زمن طويل عن وصوله، ليدخله إلى مدرسة الدير. فربطا حصانيهما تحت شجرة الكستناء، وخرج البواب من البوابة لمقابلتهما. رفع الفتى نظره إلى أغصان الشجرة العارية الساكنة ، وقال: «لم أر شجرة مثل هذه حتى الآن. إنها شجرة جميلة نادرة، أتمنى أن أعرف اسمها».

لم يبال الوالد، العجوز، ذو الوجه الشاحب، المحدّد بعناية، بكلمات ابنه الصغير. لكنّ البواب فرح بمجيء الصبي فأخبره باسم الشجرة. فشكره الصبي الصغير بأدب جمّ، ومدّ إليه يده وقال:

«اسمي غولدموند، وسأنتمي إلى هذه المدرسة». ابتسم البواب وقاد القادمين الجديدين عبر البوابة ومنها ارتقوا المدرج الحجري العريض. دخل غولدموند الدير دون وجل، شاعرا أنه هنا قابل مخلوقين، الشجرة والبواب، ويمكنه بسهولة أن يصادقهما.

استقبلهما الأب مدير المدرسة، ومع اقتراب المساء استقبلهما رئيس الدير بنفسه. وقدم هذا الفارس، الذي يعمل في خدمة الإمبراطور ابنه غولدموند إلى هذين الاثنين، ودُعي للنزول بعض الوقت في مقر الضيوف. لكنه قبل هذا الامتياز لليلة واحدة فقط، قائلا إن عليه أن يعود في اليوم التالي. وقدّم للدير على سبيل المنحة أحد الحصانين اللذين حملاهما إليه، فقبل الرهبان. وكان حديثه مع القساوسة حديثا متملقا باردا، إلا أن الأب المدير والأب الرئيس نظرا بعين السرور إلى غولدموند المتسم بالاحترام، والصامت، لقد بث هذا الصبي الجميل الحسن التنشئة للتوّ السرور في نفسيهما. وفي اليوم التالي راقبا، بقليل من الأسف، الوالدِ وهو يركب مطيته عائدا. وكانا سعيدين جدا باحتفاظهما بولده. وأخذ غولدموند لمقابلة أساتذته،

وأعطي سريرا في منامة الدارسين. وقد استأذن من والده وسيده في المغادرة وفي عينيه خوف وإجلال، ووقف يحدق إليه وهو يبتعد إلى أن غاب الحصان والراكب عن الأنظار من خلال القوس الضيق في جدار الساحة الخارجية بين المطحنة ومخزن الحبوب. وعلقت دمعة على رموشه الذهبية الطويلة حين استدار، لكنّ البوّاب، الذي مكث هناك بانتظاره، ربت على كتفه بتحبّب.

قال مواسيا «لا تحزن، يا سيدي الصغير. أغلب من يأتون إلى هنا يبدؤون بقليل من الحزن على آبائهم، أو أمهاتهم، أو إخوتهم. ولكن قريبا سترى! ستكون حياتك هنا طيبة كما في أي مكان آخر».

قال الفتى: «شكرا لك، يا أخي البوّاب، ولكن لا أمّ لي ولا إخوة، ليس لي غير والدي».

«حسنا هنا ستجد رفاقا في اللعب والدرس، وألعابا جديدة لم تعرفها من قبل، وأشياء أخرى. سترى ذلك سريعا. وإذا احتجت إلى إحداها وأحببتها حبا خاصا، فتعال إليّ».

ابتسم غولدموند «أوه، شكرا جزيلا يا أخي البواب. والآن، إذا أردت أن تكون صديقي، أرني بسرعة الحصان الصغير الذي حملني إلى هنا، أود أن أحييه، لأرى إن كان بدوره سعيدا بمقامه هنا».

قاده البواب من فوره إلى الاسطبل، القريب من مخزن الحبوب. وكان المكان وقت الغسق الرخي يفوح برائحة الجياد الحادة، وبرائحة الشوفان وروث الأحصنة، وعثر غولدموند على حصانه البني الصغير في مربطه، الحصان الذي حمله إلى الدير. وعانق صدر رقبته بذراعيه، وسرعان ما تعرف إلى سيده، ومد نحوه رأسه، ووضع

غولدموند وجنته على جبين الفرس الواسع المنقط ، وراح يداعبه بلطف ويهمس له في أذنه «رعاك الله يا بليس، يا حصاني الصغير، أيها الشجاع. كيف حالك؟ أما زلت تحبني؟ هل تفكر في منزلنا؟ هل ملأت بطنك بالطعام؟ صديقي بليس، يا حصاني الصغير، ما أسعدني ببقائك معي. سآتي دائما لأراك».

أخرج من محفظته قطعة خبز – وجبة الإفطار التي احتفظ بها لحصانه واقتطع منها قطعة ليعطيه إياها. ثم استأذن في الانصراف، وتبع البواب خلال ساحة الفناء، الفسيحة مثل رقعة السوق في مدينة كبرى، وقد أضحت أكثر امتدادا بما نما حولها من أشجار الزيزفون. وعند البوابة الداخلية شكر البواب ومد إليه يده، ثم اكتشف أنه لم يعد يعرف الطريق إلى صفه المدرسي، مع أنهم بالأمس بينوا له الاتجاه. ضحك قليلا واحمر وجهه خجلا، واستدار ورجا البواب أن يدله، وكان سعيدا جدا للقيام بذلك. وهكذا انضم غولدموند إلى رفاقه، الذين كانوا مجموعة من الفتيان والأولاد من الطبقة الأرستقراطية يجلسون على المقاعد، فالتفت الصبي إلى الراهب المبتدئ المدرس، نرسيس، وقال «أنا التلميذ الجديد غولدموند».

حياه نرسيس باقتضاب، وأشار، دون أن يبتسم، إلى مكان في المقعد الأخير، وتابع من فوره إلقاء درسه.

جلس غولدموند. دهش لاكتشافه أن المدرس صغير جدا في السن، ولا يكبره إلا ببضع سنين، ودهش أيضا، وكان سعيدا جدا لأنه وجد أن هذا المدرس شديد الوسامة، والوقار، وعلى قدر كبير من دماثة الخلق، ومع ذلك كان فاتنا وجديرا بحبه. لقد كان البواب لطيفا جدا معه، ورئيس الدير رحب به بكل ود، وهناك في مربطه يقف «بليس»، يحمل معه شيئا من روح المنزل، وها هنا الراهب الشاب الرائع، رصين

كفقيه، راق كأمير، بصوته البارد الصافي، يفرض نفسه على سامعيه. أنصت غولدموند بسعادة، دون أن يفهم ما يقال. شعر بسكينة. لقد حل بين أناس صالحين، وكان مستعدا لأن يبادلهم حبا بحب، وأن يجتهد ليجعلهم أصدقاءه.

في هذا الصباح وهو في سريره، بعد أن استيقظ، شعر بانزعاج شديد، كان ما يزال مرهقا من طول الرحلة، واضطر إلى البقاء وهو يتمنى رحلة موفقة لوالده. أما الآن فكل شيء على ما يرام وهو سعيد. وراح يملّي بصره من الأستاذ، تبهجه قوته ونحوله، وعيناه الباردتان، المتوهجتان رغم برودهما، وشفتاه المرسومتان بصرامة اللتان تنطقان بكل مقطع لفظي بوضوح تام، وصوته المحلِّق الذي لا يناله تعب.

ولكن بعد انتهاء الدرس، وقد انتفض الدارسون الضاجون واقفين، استيقظ غولدموند ليدرك، والخجل يسربله أنه كان يغط في النوم منذ وقت طويل. ولم يكن هو الوحيد الذي لاحظ ذلك، لقد رآه أيضا المجاورون له على المقعد، وراحوا يتهامسون عنه مع رفاقهم. وما إن غادر الأستاذ غرفة الدرس حتى أحاط الرفاق الصاخبون بغولدموند.

قال أحدهم يبتسم ساخرا: «ألم تستيقظ بعد؟».

وتهكم آخر: «يا له من فقيه. هاكم واحدا سيغدو منارة مشعة في الكنيسة. أول درس جعله يغط في النوم».

واقترح ثالث: «احملوا البُبو إلى سريره»، وقفزوا ليحملوه من ذراعيه وساقيه، ورفعوه عاليا، وهم يصيحون ساخرين.

سببوا له من الخوف قدرا جعله يستشيط غضبا. وراح غولدموند يكيل الضربات لمن حوله في كل الاتجاهات، محاولا تحرير نفسه. وتلقى بعض اللكمات، إلى أن انتهى به الأمر إلى الانطراح أرضا، على الرغم من أن أحدهم كان ما يزال يمسك به من قدمه، فرفسه

ليتخلص منه، وسرعان ما اشتبك معه في قتال. كان عدوه فتى طويل القامة، قويا وتجمهر الجميع لمشاهدة المعركة. لكنّ غولدموند احتفظ بثباته، وسدد إلى عدوه القوي عدة لكمات، واكتسب من بين رفاقه بعض الأصدقاء حتى قبل أن يعرف أيٍّ منهم اسمَه الكامل. وفجأة إذا بهم يفرّون هاربين وللتوِّ ظهر الأب مارتن، الأخ الأستاذ، ووقف ينظر إلى أسفل نحو غولدموند الذي بات وحيدا. حدق بارتياب إلى الفتى، الذي أفشت عيناه الزرقاوان ارتباكه، وقد احمر وجهه قليلا وبدا عليه الفزع.

سأله: «حسنا، وكيف الحال معك؟ أنت غولدموند – أليس كذلك؟ هل كان أولئك الشياطين يسببون لك أي أذى؟».

قال الصبي «أوه، لا إني أحتفظ بمكاني معهم».

«ولكن مع أي منهم؟».

«كيف لي أن أقول. إنني لا أعرف أحدا هنا. أحدهم تشاجر معي».

«أوهو! وهل هو الذي بدأ؟».

«كيف لي أن أعرف؟ لا. أعتقد أني أنا من بدأ. لقد استفزوني فثار غضبي».

«حسنا يا سيد، هذه بداية جيدة. اسمع، إذا تشاجرت مرة أخرى في قاعة الدرس فسوف تجلد لذلك. والآن – اذهب لتناول الغداء».

وقف يتابع غولدموند بنظره ويبتسم، والصبي يهرول هاربا، مرتبكا ليلحق بالآخرين محاولا، وهو يركض أن يمسد شعره الأشقر بأصابعه.

غولدموند نفسه وافق على أن أول إنجازاته في الدير كان على جانب كبير من التهور ويدل على التمرد. شعر بالخزي، وهو يبحث عن

رفاقه لينضم إليهم على الغداء. إلا أنهم رحبوا به بينهم بكل احترام، وأقام سلام الفرسان مع عدوه، ومنذ ذلك اليوم أصبح محبوبا جدا من رفاقه.

الفصل الثاني

على الرغم من أن غولدموند صادق الجميع إلا أنه لم يعثر على الفور على صديق صدوق. لم يكن بين رفاقه من شعر أنه حميم وقريب منه، مع أنهم جميعا اكتشفوا مشدوهين، رفيقا مسالما جدا في هذا المقاتل الشجاع الذي يكيل الضربات يمينا ويسارا.

والآن بدأ هذا الفتى غولدموند يكافح ليصبح أفضل دارس في المدرسة. وكان هناك اثنان في الدير شعر نحوهما بالحب، وكانا يشيعان فيه السرور ويملكان عليه أفكاره، وكنَّ لهما إعجابا وتبجيلا عميقين: هما الأب رئيس الدير دانييل والمدرس المبتدئ نرسيس. كان يرى في الرئيس شخصا مقدسا، بعاداته البسيطة والطيبة، بإرادته المتواضعة ولطفه وهدوئه الصامتين ، يعطي أوامره وكأنه يؤدي خدمة، كل هذا جذب غولدموند إليه. وكان يتمنى أكثر من أي شيء أن يكون خادما خاصا لقداسته، كان الفتى الصغير يود أن يقدم له، كتقدمة دائمة، كل ما به من اندفاع للتضحية، ومشتاق إلى أن يتعلم منه كيف يعيش حياة عنيفة ونبيلة، حياة منسجمة مع القداسة. هكذا كانت إرادته، وهكذا كانت رغبة والده وهكذا أمر، وكأنه أمر من عند الرب. ومع أنه لا أحد في الدير لاحظ ذلك إلا أن هذا الفتى الدمث المتورد شعر وكأن عبئا يثقل على كاهله، أشبه بميل سرّي للتكفير. حتى الأب الرئيس لم يلاحظه، على الرغم من أن والد غولدموند لمّح

إليه، مبديا بوضوح رغبته في أن يبقى ابنه في الدير إلى الأبد. وبدا أن ثمة وصمة خفية تلوث مولد غولدموند وتستلزم التكفير عنها. لكن الفارس لم يثر إعجاب الرئيس الذي رد ردا مجاملا غاية في التملق على كلماته الباردة المتغطرسة نوعا ما، دون أن يولي اقتراحاته الكثير من الانتباه.

الشخص الآخر الذي أثار حب غولدموند كان أنفذ بصيرة، وقد فهم أكثر من غيره كل شيء. لكن نرسيس نكص. لقد أدرك تماما البراءة التي طار بها العصفور الذهبي نحوه. لقد عرف، هو المتوحد في كيانه الرائع، أنه هو نفسه يشبه غولدموند، مع أن الوالد كان في كل شيء خارجي عكسه تماما. كان نرسيس مفكرا ومحللا، وغولدموند حالما وطفلا. لكن الأشياء التي يشتركان فيها كان بإمكانها أن تتجاوز الفروق. كلاهما كان أشبه بالفرسان ومرهفا، كلاهما منعزل بدلائل ظاهرة عن بقية أقرانه، بما أن كلا منهما تلقى تحذير القدر الخاص.

لقد اشترك نرسيس بحماس في هذه الروح الغضة التي يعرف سبلها وقدرها المكتوب تمام المعرفة. وأشرق غولدموند سرورا لمرأى أستاذه المفكر الوسيم، لكن غولدموند كان مذعورا، والطريقة الوحيدة التي خطرت على باله ليرضي بها نرسيس كانت أن يرهق نفسه في الجد والاجتهاد كما يجدر بطالب بارع صبور، وما كبحه كان أكثر من مجرد الحياء: لقد كبح حبه لنرسيس شعوره بأن هذا المعلم يشكّل خطرا عليه. كيف يسعه أن يقبل رئيس الدير الورع والطيب بأفكاره وفي الوقت نفسه أن يبقى على حب هذا الطالب المرهف، نرسيس المثقف، الثاقب البصيرة؟. إلا أنه عمل بكل ما لديه من طاقة شابة على أن يتبع هذين المتنافرين. وقد سبّب له هما الاثنان الكثير من المعاناة. وكثيرا ما شعر غولدموند، خلال أشهره الأولى في المدرسة،

باضطراب فؤاده اضطرابا عظيما ، وتمزق عقله شر تمزق بين هذا وذاك بحيث وصل إلى حد الإغواء الموجع بترك الدير، أو إلى أن يلجأ إلى التقاتل مع أقرانه ليهدئ من غليان حاجته الداخلية وليشبع جوعه. لقد كان هذا الرفيق الطيّع الطيّب يشتعل غضبا لسماع كلمة صغيرة وقحة، أو مزعجة، ويهتاج لغير ما سبب ويثور ثورة عارمة لا ينجح في إخمادها إلا بعد صراع مرير، ومن ثم يدير ظهره لمعذبيه في صمت يعلوه شحوب الموت وهو مغمض العينين. بعد ذلك يهرع إلى المذاود باحثا عن فرسه «بليس»، ويميل بخده على جبينه، ويجهش بالبكاء من كل قلبه. هذا الألم كان يستحوذ عليه بشكل بطيء، وأخيرا أصبح ظاهرا للجميع. فغارت وجنتاه، وأصبحت غالبا ما ترى عينيه كليلتين، والضحكة التي كانت تبهج برنينها الجميع عزت باطراد.

هو نفسه لم يكن يعرف ما ينقصه. في أعمق أعماقه كان يرغب في أن يغدو فقيها طيبا جديرا بالثقة، وأن يقبل بسرعة في صف الرهبان المبتدئين، وأن يبقى هكذا حتى الممات، أحد إخوة الدير الهادئين المكرسين. كان يعتقد أن كل مواهبه وقوته تكمن في هذه الأهداف المسالمة البسيطة، ولم يكن يفكر في أساليب أخرى للكفاح ولا كان يعرفها. لذا كم بدا له أمرا غريبا وقاسيا أن تحقيق هذا الشيء، هدفه العادل والرصين، كان على ذلك القدر من الصعوبة. وكان بين حين وآخر يستولي عليه القنوط عندما يشعر أنه مذنب برغبات آثمة، بتكاسل في الدراسة، بأحلام اليقظة، بتخيلات كسولة أو بالإغفاء في غرفة الدرس، وأصبح يصاب بنفاد صبر من أستاذ اللغة اللاتينية وينخرط في شجارات لا أساس لها مع رفاقه. أما ما كان يسبب أشد الاضطراب في روحه فمعرفته أن حبه للأب الرئيس دانييل لا يمكن أن ينسجم مع ميله الآخر إلى نرسيس، مع أنه كان متأكدا طوال

الوقت من أن نرسيس يحبه، ويشاركه ألمه، ومستعد للتخفيف منه. وكان تفكير نرسيس منشغلا بغولدموند أكثر بكثير مما كان يحلم به هذا الأخير. كان يتمنى لو أن هذا الصبي المحبوب النضر، صديقه، يرى فيه جزأه المقابل والمكمل له، تاق إلى النفاذ إلى روحه، لقيادته، لإنارة عقله، ورعايته وإبرازه إلى الوجود إلا أن أسبابا عديدة منعته، وكان يعرف كل هذه الأسباب: فأشد ما أعاقه كان ازدراءه للعديد من الرهبان والطلاب في الأديرة التي تجعل من تلاميذها ورهبانها المبتدئين أشخاصا مفضلين. وكثيرا ما شعر، باشمئزاز في عيون الرجال المسنين النهمة المسلطة عليه، وكثيرا ما قابل عرض صداقتهم ومداعبتهم برفض أخرس. الآن بات يعرفهم بشكل أفضل. هو أيضا شعر أن لديه رغبة ملحة في أن يرعى الفتى الجميل غولدموند ويوجهه، أن يبعث ضحكته المشرقة الصافية، أن يمشط شعره الباهت اللون بلمسة أصابع رقيقة. لكنه لم يكن ليفعل ذلك قط. فبوصفه أستاذا مبتدئا، مشربا بهيبة المدرس، ولكن دون أن يحظى بمنصب الأستاذ وسلطته، اعتاد على تعقل واحتراس مخصوصين، فحافظ على مسافة كبيرة بينه وبين الطلاب الذين لا يصغرونه إلا بسنين قليلة، كما لو كان يكبرهم بعشرين سنة: كان دائما يكبح بكل صرامة أي إعجاب خاص يشعر به نحو أي تلميذ، في حين أنه مع أولئك الذين يمقتهم مقتا فطريا، كان يجبر نفسه على معاملتهم بعناية وإنصاف خاصين. كانت خدمته موجهة إلى العقل، ولأجله كرس حياته الصارمة بكاملها، ولم يكن يستسلم لخطيئة الفخر والابتهاج بمعرفته وحصافته المتوقدة إلا بينه وبين نفسه، في لحظات تكون أفكاره أقل حذرا. لا – مهما كان ما ستقدمه له أية علاقة صداقة مع غولدموند، فإن مثل هذا الارتباط سيكون على جانب من الخطر: يجب ألا يدعه يلمس جوهر

حياته، المكيّف لخدمة الروح عبر الكلمة، حياة مرشد متأمل هادئ، يقود تلامذته، وليسوا هم فقط ، إلى مرام إدراك أرقى ، غافلا عن سروره أو ألمه.

كان قد مضى على غولدموند عام أو أكثر وهو في المدرسة. كان قد اشترك في ألعاب كثيرة مع أقرانه، ألعابِ الكرة وألعابِ الحرامية، والشجارِ بكرات الثلج تحت ظلال أشجار زيزفون الفناء الخارجي وتحت شجرة الكستناء المحبّبة القائمة بالقرب من البوابة. والآن حل الربيع، إلا أن غولدموند كان مثبط الهمة وضجرا. دائما يؤلمه رأسه، وفي المدرسة يجد مشقة في مقاومة النعاس، فقط لمتابعة الدرس كما يجب.

ذات مساء جاءه أدولف، ذاك الطالب الذي كان لقاؤه الأول به شجارا، وكان، خلال هذا الشتاء، قد بدأ معه دراسة إقليدس. حدث ذلك خلال الساعة التي تلي وجبة العشاء، ساعة اللعب، حين يلعب الطلاب في مناماتهم، يتسامرون في غرف الدرس، وإذا شاؤوا،تمشوا في الباحة الخارجية.

قال أدولف وهو يمسك بذراعه ويهبط معه مدرج الدير «غولدموند، لدي ما أقوله لك، شيء سيضحكك. أنت طالب نموذجي ولا بد أنك ترغب في أن تصبح أسقفا، لذا عدني وعدا صادقا قبل أن أخبرك به بأنك ستكون صاحبا صدوقا وألا تفوه بكلمة منه للأساتذة».

على الفور وعده غولدموند بذلك. في دير ماريابرون ثمة كلمة شرف تجمع الطلاب معا وكلمة شرف بين الرهبان تعلمهم، وأحيانا كان هذان الفريقان يشتبكان. أما هنا، كما في كل مكان آخر، فيسود القانون غير المكتوب ويطغى على المكتوب. ولم يحصل قط، منذ أن أصبح طالبا، أن خرق قانونا أوكلمة شرف من هذا النوع.

دنا أدولف منه وهو يهمس، وخرجا من البوابة وولجا مكانا تحت أشجار الزيزفون. قال: هنا تجتمع فرقة من الأصحاب ذوي عزم مخلصين وإنه هو، أدولف، قائدهم. وقد أخذوا من الأجيال المبكرة، واعتادوا أن يتذكروا شيئا فشيئا، أنهم هم أنفسهم لن يصبحوا رهبانا أبدا، وهكذا، فإنهم، ذات ليلة، سيتحررون من حبسهم ويتوجهون سرا إلى القرية. وهذه متعة ومغامرة لا يمتنع عنها أي طالب حقيقي، وإنهم، تحت جنح الظلام، سوف يعودون من جديد.

قال غولدموند «لكن البوابات ستكون موصدة».

طبعا البوابات ستكون موصدة. ولكن هذا هو ملح عملية الهروب، ثمة ممرات سرية سوف يعود منها المغامرون، وتلك لن تكون المرة الأولى التي يفعلون فيها هذا.

ظل غولدموند يتذكر عبارة الطلاب: «الذهاب إلى القرية»، وكثيرا ما سمعهم يرددونها. وكانوا يعنون بهذا هروب التلاميذ ليلا لممارسة صنوف المتعة والمغامرة. وهذا الانتهاك كان يعني ضربا مبرحا بالسوط من الآباء. لكنه كان يعلم جيدا أن تحدي مثل هذه العاقبة يعتبر، بين أولئك المصممين من نزلاء دير ماريابرون، مصدر فخر، وكان من قبيل الاحترام الفائق لأي شخص أن يطلب منه المشاركة في مثل هذا الانتهاك.

كان يمكن أن يجيب بـ«لا» ويهرع عائدا عبر البوابات إلى سريره، ويشعر بالاكتئاب والسقم. لقد كان رأسه يؤلمه طوال النهار، ومع ذلك ها هو الآن يشعر بفقدان السيطرة أمام أدولف. ومن يدري ؟ لعل هناك مغامرات في الخارج، شيئا جميلا وجديدا ينعشه ويخرجه من ملله، ومن ألم رأسه ومن ألم حزنه و اكتئابه. إنه هروب إلى العالم مختلس ومحرّم ، ومشين قليلا ، ومع ذلك فقد يكون تنفيسا، سبيلا

إلى السعادة. وقف ينصت إلى كلام أدولف، وفجأة ضحك وأجاب: «نعم».

تسللا خفية هو وأدولف، تحت جنح ظلال أشجار الزيزفون على أرض الفناء الفسيح، المعتم لتوه، وكانت بوابته الخارجية قد أرتجت. قاده رفيقه إلى مطحنة الدير، وهناك، في الغسق، كان من السهل بمكان أن يهربا دون أن يسمعهما أحد، تحت غطاء قرقعة الدولاب، وبعيدا عن العيون. وتسلقا طاحونة الجدول بمشقة ودخلا إليها من النوافذ وهبطا على ركام زلق رطب من ألواح الخشب، وكان عليهما أن يجرا أحدها إلى الخارج، ويمداه عبر الجدول ليعبرا عليه. وأصبحا خارج السجن، وألفيا نفسيهما واقفين معا على طريق عالية، تمتد حتى تبهت في الشفق، داخل الغابة المظلمة. كل هذا كان مفعما بالسرّية و الإثارة، وأعجب غولدموند كثيرا.

كان أحد الرفاق ويدعى كونراد بانتظارهم عند طرف الغابة، وبعد انتظار طويل جاء آخر مسرعا لينضم إليهم: إنه إيبرهاد. تقدم الأربعة مخترقين الغابة، فوقهم صراخ طيور الليل، ونجمتان صافيتان تتلألآن في المدى البعيد، تطلان من بين سحب ساكنة وتنذران بالمطر. كان كونراد يثرثر ويضحك، وأحيانا كان الآخرون يشاركونه الضحك، لكنهم مع ذلك كانوا يشعرون بالرهبة والخوف من الليل،وكانت قلوبهم تخفق بقوة في صدورهم.

في الطرف النائي من الغابة وفي غضون ساعة قصيرة من الزمن، وصلوا إلى إحدى القرى. بدا كل شيء نائما،وكانت جملونات المنازل البيضاء الواطئة تومض بوهن في قلب الظلمة، يظللها بشكل مستعرض بروافد خشبية قاتمة. لم ير نور في أي مكان. وقادهم أدولف إلى الأمام مارين بالمنازل الصامتة، اجتازوا سياجا من شجر السنط فإذا بهم

يقفون في حديقة، تعلق بأقدامهم تربة المساكب الرخوة ، ثم يهبطون المدرج خلسة، ويتوقفون عند جدار منزل. نقر أدولف على المصارع، انتظر ثم عاد فنقر من جديد: تحرك أحدهم في الداخل، وسرعان ما سلط شعاع من الضوء من خلال الشقوق: فتح المصراع وراحوا يصعدون واحدا إثر آخر من النافذة، وإلى مطبخ، ذي مدخنة يعلوها السخام وأرضية ترابية. على حاجب الموقد وضع مصباح زيتي صغير، وقد علا فتيله الرفيع لهب خافت. كانت هناك فتاة قروية ضامرة الجسم، مدت يدها مرحبة بالوافدين الجدد، وخلفها، تسلل من قلب الظلام شخص آخر، امرأة شابة بجدائل فاحمة طويلة. وكان أدولف قد أحضر لهما هدايا، نصف رغيف من طحين الدير الأبيض وشيئا ملفوفا بورق البرشمان، لعله حفنة من البخور المسروق، حسب اعتقاد غولدموند، أو شمع ذائب من شموع المذبح، وما إلى ذلك. انسلت المرأة ذات الجدائل عائدة إلى الظل، واتجهت تتلمس طريقها، لا يهديها ضوء، إلى الباب، وطال غيابها، لكنها عادت مع إبريق حجري رمادي اللون، مرسوم عليه أزهار زرقاء، ناولته لكونراد. فشرب، ومرره إلى الآخرين: شرب الجميع، وكان عصير فاكهة قويا.

جلسوا معا على خفق اللهب الخافت، الفتاتان على مقعدين صغيرين صلبين بلا ظهر، وحولهما، على الأرض الترابية، الطلاب يتهامسون ويرشفون عصير الفاكهة، وكان أدولف وكونراد يديران الحديث وبين الفينة والأخرى كان أحدهم ينهض ويداعب عنق القروية الضامرة وشعرها، ويهمس بأسرار في أذنيها، إلا أنهم لم يمسوا قط الفتاة ذات الجدائل. قال غولدموند في نفسه، لعل الكبرى هي الخادمة في المنزل، والصغرى، الجميلة هي الإبنة. لكنّ الأمر كان سواء بالنسبة إليه، بما أنه لم يكن في نيته قط أن يعود ثانية إلى هنا.

إن زحفهم خفية من المطحنة وتسللهم خلال الغابة المظلمة، كان حدثا نادرا وممتعا، وإن كان ينطوي على خطر. صحيح أنه برمته محرّم، إلا أنه لم يشعر بأي ندم لخرقه أحد القوانين. لكنه شعر أن هذه الزيارة للفتيات ليلا خطيئة. ومع أنه قد لا يعني شيئا بالنسبة إليه، هوالذي سيغدو راهبا ويحيا عفيفا، فإن كل اتصال بالفتيات هو أمر شرير تماما. لا، لن يعود أبدا إلى هنا! ومع ذلك أخذ قلبه يخفق أسرع فأسرع على خفقان ضوء المطبخ البائس.

أخذ رفاقه يتفاخرون أمام الفتاتين، يجتهدون في إثارة رعبهما باقتباسات لاتينية صغيرة ينمقون بها حديثهم. وأثار الثلاثة إعجاب الفتاتين بهم، وأخذوا يزحفون مقتربين منهما أكثر فأكثر. ويتفوهون بكلمات غزل صغيرة خبيثة مع بعض المداعبات، مع أن أقصى ما جرؤوا على أخذه كان قبلة خفيفة. وبدوا أنهم يعرفون بدقة ما المسموح به لهم، وبما أن كل حديثهم كان همسا، فقد كان المشهد برمته ينطوي على حماقة، على الرغم من أن غولدموند لم يشعر أنه كذلك. اكتفى بالجلوس متربعا بسكون تام على الأرض، محدّقا إلى ارتعاش الضوء الخافت، دون أن يتبادل كلمة واحدة مع ّأي منهم. أحيانا كان يسترق نظرة من زاوية عينه، بما يشبه الرغبة، إلى مداعبات الآخرين الخائفة. ثم يسلط نظره بصرامة أمام أنفه. لكنه في سريرته كان سيسرّه لو أنه حرّمها هي خاصة على نفسه. إلا أن إرادته خذلته مرارا وتكرارا حين كانت عيناه تهيمان عائدتين لتستقرا على عذوبة وجهها الهادئة، فيجد أن عينيها مثبتتان عليه لا تتزحزحان. كانت جالسة تحدّق كالمفتونة.

مرت قرابة الساعة وكانت أطول ساعة مرت على غولدموند –وقد انتهى الطلاب من إلقاء نكاتهم وعباراتهم باللاتينية، وهدأ الجو،

وجلسوا يلفهم شيء من الارتباك. تثاءب ايبرهارد. وحذرتهم الفتاة الضامرة من أن الوقت قد حان للرحيل. نهض الجميع واقفين، ومد الجميع أيديهم إلى هذه الفتاة الخادمة، وكان غولدموند آخرهم. مدوا أيديهم إلى الصغيرة، ومن جديد كان غولدموند هو الأخير. قاد كونراد الطريق خلال النافذة، ثم ايبرهارد وأدولف من بعده: ولكن حين همّ غولدموند باللحاق بهم شعر بيد تستقر على كتفه وتعيده. ولكن لم يكن بوسعه أن يمكث. ولم يتلكأ إلا بعد أن وجد نفسه في الحديقة، ولم يحوّل بصره. أطلت ذات الجدائل السوداء من النافذة.

همست «غولدموند» فتوقف.

سألته «ألن تعود؟». بالكاد احتاج صوتها الحييّ إلى أن يلتقط نفسا. هز غولدموند رأسه نفيا. مدت ذراعيها إلى الأمام وضمت رأسه بين يديها، فاستشعر راحتي يديها الصغيرتين الدافئتين على صدغيه ومالت أكثر، حتى اقتربت عيناها السوداوان من عينيه. همست «عد» ولمس فمها فمه بقبلة طفولية.

اندفع مخترقا الحديقة لينضم إلى الآخرين، متعثرا بالمساكب، جارحا يده بشجيرة ورد، واجتاز سياج شجرالسنط، وركض خلال القرية ليلحق برفاقه، وإرادته تأمره «إياك أن تعود ثانية»، وكان قلبه يتنهد قائلا «غدا ! غدا» !

لم يفاجئ أحد طيور الليل تلك، وسترت الظلمة عودتهم. وصلوا إلى سور الدير، وعبروا الجدول، وارتقوا ليدخلوا إلى المطحنة ثم مشوا متمايلين تحت أشجار الزيزفون ومنها إلى الفناء، وهكذا، عن طريق ممرات سرية، ومن فوق أسقف الملحق، ومن خلال النوافذ ذات الأعمدة المزدوجة، إلى منامتهم.

في صبيحة اليوم التالي كان نوم الطويل ايبرهارد من العمق بحيث

إن رفاق غرفته اضطروا إلى إيقاظه بضربه بالوسائد. وصلوا جميعا في الوقت المحدد لإقامة القداس المبكر، ولتناول الحساء الصباحي، ومن ثم إلى المدرسة. ولكن في المدرسة كان غولدموند شديد الشحوب حتى أن الأب مارتن سأله إن كان مريضا. رماه أدولف بنظرة تحذير، فأجاب بأنه لا يشعر بأي ألم.

قرابة الظهيرة، وخلال درس اللغة اليونانية، لم يرفع نرسيس عينيه عنه. هذا الأستاذ أيضا لاحظ أن غولدموند مريض، لكنه لم يسأله عن شيء واكتفى بمراقبته عن كثب. بعد انتهاء الدرس ناداه، وتفاديا لمراقبة بقية الطلاب، حمّله رسالة إلى المكتب. وإلى هناك تبعه.

قال: «غولدموند، هل أستطيع أن أساعدك؟ أرى أنك بحاجة إلى مساعدة ما. لعلك مريض. إن كنت كذلك ندعك ترتاح في الفراش، ونأمر لك بحساء المرض، وكأس من النبيذ. لم تكن منتبها لدرس اللغة اليونانية هذا اليوم».

انتظر طويلا رده. رفع الفتى الشاحب بصره ونظر إليه بعينين مرتبكتين، نكس رأسه، ثم عاد فرفعه، وجاهد بشفتين مرتعشتين كي يصنع كلمة. لكنّ جهاده لم يثمر جوابا. وفجأة هبط بحركة جانبية، وأسند جبينه إلى مقرإ بين وجهين من خشب السنديان لملاكين صغيرين، وانفجر بعاصفة من البكاء، حتى أن نرسيس في غمرة حيرته وخجله، أدار وجهه عنه بعض الوقت، ثم عانق الفتى الباكي وأنهضه.

قال: «اهدأ! اهدأ!» بصوت أرق مما كان غولدموند حتى ذلك الحين قد سمعه منه «amice[1] ابك ما تشاء، وسرعان ما ستستنفد كل دموعك. فاهدأ – واجلس: لا داعي للكلام. أرى أنك عانيت ما فيه

(1) amice: صديقي.

الكفاية. لعلك كنت تكافح طوال فترة الصباح لتقف معتدلا ولا تدع أحدا يلاحظك. ابك – هذا أفضل ما بإمكانك فعله. أنفد ما لديك بهذه السرعة، وبات بإمكانك أن تقف من جديد؟ تعال معي إذن، إلى جناح المرضى لتتمدد، وغدا ستستيقظ وتكون قد تحسنت. تعال يا بني».

قاده برفق إلى جناح المرضى، متجنّبا المرور بغرف الطلاب، ووضعه في صومعة هادئة، ومدده على أحد السريرين الشاغرين وبينما بدأ غولدموند مذعنا، يخلع ملابسه، ذهب ليناديِ الأخ الطبيب ويخبره أن الفتى مريض. وكما وعد توجه إلى قاعة الطعام وطلب له حساء وشرابا منبّها، وكان الطلاب المصابون بمرض غير خطير يعتبرون هاتين المادتين الـbeneficial هبة عظيمة من الدير.

استلقى غولدموند في السرير وجاهد كي يستعيد اتزان عقله. قبل ساعة من الزمن كان يمكن أن يدرك بوضوح سبب شدة إرهاقه في ذلك اليوم. الصراع المخيف المحتدم في قلبه الذي جعل عينيه حمراوين جدا، ورأسه مفرغا. إنه الجهد المهلك، الذي يبذله، في كل دقيقة، لينسى الليلة التي قضاها خارج الدير، أو بالأحرى ليست الليلة في حد ذاتها، بما حدث فيها من تسلق زلق لجدول المطحنة، والمسير المهيب الطائش داخل الغابة المظلمة، والركض هنا وهناك أثناء تجاوز الأسيجة والخنادق، والدخول من النوافذ، واختراق ممرات – وإنما لحظة واحدة منها: تلك اللحظة الوحيدة من الليل حين وقف في الظلام، عند عتبة نافذة المطبخ، يحس بأنفاس الخادمة ويسمع كلماتها، ويلمس يدها، ويتعرف إلى قبلتها على شفتيه.

والآن أضيف إلى كل هذا رعب آخر، ومعرفة جديدة. لقد شاركه نرسيس فيما يعتلج في صدره. نرسيس يحبه، وله في تفكيره مكان، هو، الرقيق والحكيم، الأستاذ ذو الشفتين الساخرتين، الجميلتي

التكوين. لكن غولدموند كان أحمق وذرف الدموع أمامه، خجلا، لا يقوى على نطق كلمة واحدة، لقد وقف يجهش بالبكاء أمام عينيه. وبدل أن يفعل ما كان يأمل أن يفعله، بإخضاع هذا الشاب المثقف باستخدام أنبل الأسلحة، الفلسفة، واللغة اليونانية، ومآثر الروح، وباتباع المذهب الرواقي القديم، أخذ يرتجف وينشج كالطفل. إنه لن يغفر لنفسه هذا أبدا. لن يتمكن بعد الآن من النظر في عيني نرسيس دون الشعور بالخجل. ومع ذلك، فمع دموعه ذهب أسوأ جزء من حزنه. إن هذه العزلة، والسرير المريح، شفياه، فتصف الألم الممض الذي يعانيه مصدره اليأس، وخلال ساعة من الزمن جاء أخ عامل مع الحساء، وقطعة من الخبز الأبيض، وكأس صغيرة من الخمر، خمر من النوع الذي يحتسيه الطلاب في أعياد الميلاد. أكل غولدموند وشرب، وسرعان ما أتى على نصف ما في الطاس، إلا أنه، وقبل أن ينهيه، أزاحه جانبا، وجاهد ليعود إلى التفكير. لكنه لم يتمكن، فأمسك بطاس الحساء وأتى على ما فيه حتى آخره. بعد ذلك، حين فتح الباب برفق، وتسلل نرسيس إلى الداخل ليعود الطالب المريض، كان غولدموند قد استغرق في النوم، وعاد التورد إلى وجنتيه. فوقف نرسيس بعينين فضوليتين، يرنو إليه بهدوء، بما يشبه الحسد. لقد أدرك أن غولدموند ليس مريضا، وأنه لا حاجة إلى إرسال خمر له في صباح اليوم التالي. الآن وقد رفع الحظر، يمكن أن يصبحا صديقين. اليوم كان الفتى هو الذي احتاج إليه، وكان قادرا على تقديم خدمة له. في المرة القادمة قد يكون هو الجانب الأضعف، الطرف المحتاج إلى الحب، والمواساة، والعون، وعندئذ سيتلقاها من هذا الطالب، إذا ما وصل الأمر إلى هذه المرحلة.

الفصل الثالث

غريبة كانت الصداقة التي نشأت بين نرسيس وغولدموند، صداقة لم ترض إلا القليلين، ويبدو أحيانا أنها كانت تثير استياء الأصدقاء. كان على نرسيس المفكر في أول الأمر، أن ينوء بالعبء الأثقل. فبالنسبة إليه كان كل شيء يدخل في خانة الفكر، حتى الحب. وفي الحب القائم بينهما كان هو الروح المرشدة، وكان هو فقط من بين الاثنين مدركا لفترة طويلة، أعماق علاقتهما واتساعها ومعناها. وعلى الرغم من أنه كان محبا، إلا أنه ظل وحيدًا أمدًا طويلاً، مُدركًا أن صديقه، لن يكون له في الواقع إذا لم يرشده إلى معرفة ذاته. لقد استسلم غولدموند لهذا الحب الجديد، بفرح متلهف، عابثا دون وعي منه كالطفل. ونرسيس المسؤول والواعي، تقبل قدرهما السامي، وتفكر فيه مليا.

كان نرسيس، بالنسبة إلى غولدموند، مصدر ارتياح وحرية. إن أول رغبة كامنة فيه أيقظها مرأى خادمة جميلة وقبلة منها: انتعشت كل أشواقه التي تنتظر الإشباع، لكنه ذعر حتى اليأس، ونكص. وكان أعمق مخاوفه هو أن كل ما حلم به في حياته حتى ذلك الحين، وآماله وإيمانه بمهمته، والمستقبل الذي شعر أنه مقدر له، كله بات مهددا من جذوره بخطر تلك القبلة التي منحت له عند النافذة، ومرأى عيني الخادمة السوداوين. إنه بعد أن قرر له والده أن يكون راهبا، بقبوله

هذا الأمر من أعماق قلبه، محلقا بكل طاقة عنفوانه الشاب إلى العفة البطولية التقية، أدرك، عن طريق هذه اللمسة العابرة، هذا النداء الأول من الحياة لأحاسيسه، أن هنا يكمن عدوه و إبليسه، أن النساء هن مصدر غوايته الأسوأ والدائم.

أما الآن فبدا أن القدر قد خفّ لنجدته. الآن، وهو في ذروة احتياجه، كشفت هذه الصداقة أمام توقه حديقة مزهرة، أقيمت فيها مذابح جديدة لتبجيله. هنا بإمكانه أن يحب دون ملامة، محولا كل نيران الحس المحفوفة بالمخاطر إلى لهب قرباني نقي.

ولكن حتى في فترة مبكرة من صداقتهما لاقى معوقات غير منتظرة، وغريبة، وبرودة مفاجئة، ومطالب مرعبة. كان مما يتنافى وطبيعته تماما أن يرى في صديقه تناقضا وتضادا. فقد تبدى له أن ما ينقص هو فقط الحب، فقط تفان مطلق وصادق، يجعل اثنين في واحد، ويمحو كل الفروق لبناء جسر بين كل التناقضات. ومع ذلك فكم كان نرسيس هذا عنيدا وواثقا، واضحا ومتصلبا،. فقد كان يرى أن هبات الحب الطبيعية وغير الضارة، التشرد الممتع معا في فيافي الصداقة والرغبة، بدت أشياء مجهولة، ولم يسع إليها أحد من قبل. هذا الاستمتاع في طرق دروب لا تؤدي إلى مكان، في الهيام الحالم دون هدف، في الرفض واللا احتمال. صحيح أنه حين كان غولدموند مريضا انزعج، وأنه في شؤون المدرسة والتعلم قدم له يد المساعدة والنصح، في العديد من النقاط: كان يشرح له فقرات صعبة في الكتب، ويفتح له ممرات جديدة في عوالم النحو والصرف، والمنطق، والفلسفة، إلا أنه لم يكن قط يبدو راضيا حقا، ولا كان على اتفاق مع صديقه. والحق أنه كثيرا ما ظهر وهو يؤنبه، ويستخدم كلماته على سبيل السخرية.

شعر غولدموند أن هذا أكثر من حذلقة، أكثر من قضية، إنه

شخص أكبر سنا وأكثر حكمة، يستعرض قوته: وأن ثمة ما هو أعمق بكثير يكمن وراءه، إلا أنه لم يتمكن من سبر عمق ذلك الشيء، وهكذا كانت الصداقة غالبا ما تسبب له الاضطراب والحزن. كان نرسيس في الواقع يعرف تماما ما هو الجزء القيم من غولدموند، ولم يكن أعمى عن جمال الفتى النضر الرقيق، وطاقته على الحياة وحماسه لها، وشبابه الواعد الحيوي، ولا كان متحذلقا ليغذي الروح الفتية الغضة باللغة اليونانية، أو أن يقابل حبه البريء بالمنطق. بل لقد دلل هذا الفتى ذا الشعر الأشقر وغالى في ذلك، وبدا له ذلك خطرا، بما أن الحب لم يكن في حالته الطبيعية، بل كان معجزة. شعر أنه حتى يشبع روحه بهذه النضارة، يجب ألا يسمح لعاطفته بأن تُضلّه ولو للحظة نحو المتع الحسية. لأنه إذا كان غولدموند يرى أنه رهن لحياة الرهبنة والتقشف، للجهاد مدى الحياة سعيا وراء القداسة، فإن نرسيس قد خُلق لمثل هذا النمط من الحياة، ولم يكن يسمح له إلا بالحب في أسمى معانيه، ولم يكن نرسيس يصدق أن لدى غولدموند أي نداء باطني لحياة الدير. إنه دون غيره، يستطيع أن يستشف ما في قلوب الناس، وهنا، هو يستشف في روح من يحب صفاء مضاعفا بإدراك. لقد سبر أعماق طبيعة غولدموند التي كان يدرك تماما، على الرغم مما بينهما من اختلاف، أنها نصفه الآخر، الضائع، ولقد رأى أن هذه الطبيعة تعاني من ضغط الحجز، بدأ بتخيلات الفتى الزائفة، وبأخطاء في تنشئته، وأشياء

لا بد أنه سمع والده يقولها، كشفت منذ زمن بعيد النقاب عن كل ما يحيط بالسر لحامله، أن يحرر روحه من قشرتها الخارجية، ويعيّد هذه الطبيعة إلى ذاتها. ستكون مهمة صعبة، والأدهى من ذلك، ربما، أنه بفعله هذا سيكون عليه أن يخسر أعز صديق لديه.

ببطء، وبعناية متناهية، اقترب من غايته. مرت شهور قبل أن تقوم أية محاولة بينهما لاختبار صداقتهما، لإجراء أي فحص دقيق. لقد كانا متباعدين كثيرا. فبالرغم من الصداقة، كان التوتر على أشده. كان أحدهما مبصرا، والآخر أعمى، وهكذا مضيا معا، يدا بيد. ألا يعرف الأعمى شيئا عن عماه فذلك وحده يشكل عزاءً له. وقد جرب نرسيس القيام بانقضاضه الأول بمحاولة اكتشاف التجربة التي أدت إلى ضعف غولدموند وبكائه، اللحظة التي قرّبت ما بينهما. وكان الاكتشاف أسهل مما كان يظن. وقد ظل غولدموند يشعر لوقت طويل بالحاجة إلى الاعتراف بوقائع تلك الليلة، لكنه ما كان ليأتمن في هذا غير رئيس الدير دانييل، ولم يكن الرئيس كاهن اعترافه. لذا حين ذكّر نرسيس صديقه، في اللحظة التي وجدها مناسبة لذلك، بالمناسبة الأولى التي أدت إلى عقد أواصر صداقتهما، وأتى برفق على مقاربة أسباب ذلك الحزن، أجابه الفتى دون إبداء أي رفض:

«أتمنى لو أنك كنت كاهنا مكرسا، إذن لاعترفت لك. كان سيسعدني أن أتحرر من إثم ما، وأن أكفر عنه بكل سرور. ومع ذلك لا يمكنني أن أفضي به إلى كاهن اعتراف».

وبحذر اقترب نرسيس أكثر، لقد عثر على دربه.

بادر بالقول، على سبيل المحاولة «أتذكر في ذلك الصباح حين بدا عليك المرض، لا يمكن أن تكون قد نسيت، بما أن ذلك اليوم شهد بداية صداقتنا. إنه لا يبارح ذاكرتي. لعلك لا تعيه، أما أنا فقد شعرت بعجزي الشديد في ذاك اليوم».

أجاب غولدموند غير مصدق «أنت عاجز! إنني أنا العاجز: أنا الذي كان عليّ أن أقف هناك وأجهش بالبكاء وأجاهد كي أنطق بكلمة واحدة، إلى أن بدأت أخيرا أعوي كطفل وليد. آه! ما أزال أشعر

بالخجل حين أفكر في ذلك! حسبت أني لم أعد أقوى قط على أن أريك وجهي بعدها. كم أكره التفكير في أنك رأيتني وأنا في حالة تدعو إلى الرثاء!».

عانقه نرسيس بحذر شديد.

قال: «أنا أتفهم شعورك بالخجل من ذلك. أنت الشاب الشجاع الرائع يقف ويبكي أمام صديقه – بل أكثر من ذلك، أمام أستاذه. وهذا ينافي طبيعتك. واعتقدت أنا أنك كنت مريضا. حتى أرسطو لو كان أصيب بالبرد لتفوه بأقوال غريبة. لكن السبب طوال الوقت لم يكن المرض، ولا حتى الحمى، ولهذا تراك شعرت بذلك الخجل الشديد! ومن يخجل لأنه يرتعش من أثر الحمى؟ أنت خجلت لأن ثمة شيئا قهرك، لأن عدوا غلبك. هل كان قد حدث أمر غير عادي آنذاك؟».

لم يجبه غولدموند على الفور. ثم قال ببطء: «نعم، كان أمرا غير عادي. دعني أفترض أنك كاهن اعترافي. على كل حال، لا بد أن يأتي يوم وأبوح به».

بعينين مسدلتين أخبر صديقه قصة تلك الليلة. فرد عليه نرسيس وهو يبتسم:

«الحقيقة هي أنه ممنوع «الذهاب إلى القرية». إلا أننا قد نرتكب العديد من الممنوعات، ولا نكاد نزعج أنفسنا حتى بالتفكير فيها. أو قد نعترف وننال الغفران. وهكذا نتحرر من الإحساس بالذنب. فلم لا تشترك ككل طالب آخر تقريبا، في مثل هذا الهروب الصغير؟ أهو بهذا السوء؟».

احتدم غضب غولدموند، وصب سيلا عارما من الكلمات:

«إنك في الحقيقة تكلمني كمتحذلق. أنت تعلم علم اليقين ما حدث في القرية. طبعا أنا لم أعتبر خرق عدد من قوانين الدير، والهروب مع

بضعة من التلاميذ ذنبا عظيما – ولكن حتى هذا التصرف يسيء إلى الاستعداد لحياة الرهبنة».

هتف نرسيس بحدة: هل تعلم، يا amice، أنه بالنسبة إلى أعظم القديسين كانت مثل هذه المخالفات ضرورية؟ ألم تسمع أن أقصر الطرق إلى القداسة قد تكون عيش حياة عربدة شهوانية؟».

قال غولدموند مدافعا عن نفسه «أوه، يكفي. ما أردت قوله هو أن ما ثقل على كاهلي في ذلك اليوم ودفعني إلى البكاء ليس خرقي لأي قانون، بل شيء آخر، إنها الفتاة! انتابني شعور لا يمكنني أن أنقله إليك، شعور بأنني لو كنت استسلمت لتلك الغواية، لو أني للحظة مددت يدي لألمسها، لما تمكنت من العودة إلى هنا، كان ذلك الجحيم ابتلعني، كالمستنقع، ولما أفلت منه قط. وأحسست أنها ستكون نهاية كل الأحلام الجميلة، وكل فضيلة، وكل حب للرب، ولطيبته».

هز نرسيس رأسه في تأمل عميق.

قال وهو يزن كلماته: «إن حب الرب ليس دائما يعادل حبنا للفضيلة. آه، لو كان الأمر بهذه السهولة! نحن نعرف ما هي الطيبة، فهي مكتوبة. لكنّ الرب لا يكمن فقط فيما هو مكتوب يا بني. إن وصاياه العشر هي أضأل جزء منه. إننا قد نحفظ الوصايا عن ظهر قلب، ومع ذلك نظل أبعد ما نكون عن الرب».

«أرى دون شك أنك تشعر أن في النساء، في الحب الشهواني، علة كل ما ترى أنه «إثم» وأنه «الحياة الدنيا». وتعتقد أنك غير مؤهل لارتكاب كل الآثام الأخرى. أو، إذا ما ارتكبتها، لا تثقل عليك بهذه الصورة، ويمكن الاعتراف بها والتفكير فيها، إلاّ هذا الإثم».

«نعم، هذا ما أشعر به».

«كما ترى، أنا أفهمك، وهذا لا يعني أنك على خطإ تام. وقصة

حواء والأفعى حتما ليست حكاية بلا مغزى. ومع ذلك، يا amice، فأنت مخطئ. ربما كنت ستكون على حق لو أنك الرئيس دانييل، أو قديس شفيع، مثل قديسك كريسوستوم، أو لو كنت أسقفا أو كاهنا، أو حتى راهبا صغيرا متواضعا، لكنك لست أيّا منهم. أنت طالب شاب، وحتى لو رغبت في البقاء هنا في الدير إلى الأبد أو أراد والدك ذلك نيابة عنك، فأنت لم تنذر نفسك بعد، لم تتكرس. فإذا ما تعرضت اليوم، أو غدا للغواية من قبل امرأة جميلة، وتركت لها المجال لإغوائك، فلن تكون بهذا قد حنثت بأي عهد، أو دنست أيّا من المقدسات».

هتف غولدموند بحنق شديد: «صحيح أنه لا يوجد عهد مكتوب، ولكن يوجد واحد غير مكتوب، وهو الأكثر قداسة. إنه العهد الذي أخذته على نفسي. ألا ترى أن ما يمكن أن يصح بالنسبة إلى الكثيرين غيري لا يصح بالنسبة إليّ ؟ ألست أنت نفسك غير مكرّس؟ أنت لم تقسم على أن تعيش حياة عفة، ومع ذلك فلا يمكن أن تلمس امرأة. أم هل أنا مخدوع فيك ؟ هل أنت حقا كما تبدو؟ ألست كما أظنك؟ ألم تقطع أنت أيضا في قلبك عهدا منذ زمن طويل، على الرغم من أنك لم تجاهر به، أمام إخوتك ومتقدميك؟ ألا تشعر أنك ملزم به إلى الأبد؟ لست إذن مثلي؟».

«لا، يا غولدموند، أنا لست مثلك، أو بالأحرى لست كما تظنني. صحيح أنني أخذت على نفسي عهدا أخرس – هنا أنت على حق – لكني في غير هذا لا أشبهك في أي شيء. اليوم سأقول لك شيئا أعتقد أنك ستتذكره ذات يوم: إن لصداقتنا معنى واحدا، هدفا واحدا لا غير – وهو أنني سأبين لك إلى أي مدى أنت تختلف عن صديقك».

وقف غولدموند في مكانه تسربله الحيرة. كان للنظرة في عيني نرسيس، ولنبرة صوته، من القوة ما لا يمكن مقاومته. ولكن لماذا

قال نرسيس هذه الكلمات؟ لم يكون قسم نرسيس الصامت أمنع من قسمه؟ أتراه لا يرى فيه غير طفل، لا يستحق غير أن يُستفز ويكون عرضة للتندر؟ ومرة أخرى أغارت عليه كل إرباكات علاقتهما الغريبة وحزنها.

لم يعد يخامر نرسيس أي شك حول طبيعة غولدموند السرّية. إن حواء، الأم الأبدية، تكمن خلفها. ولكن كيف حدث أن فتى بهذا الجمال والمرح، يمور بالحيوية والرغبة الغضة، يواجه مقاومة بهذه المرارة؟ لا بد أن ثمة شيطانا يعمل عمله فيه، أو عفريتا خفيا سمح له أن يجزئ هذا المخلوق النبيل على الرغم منه .

في ذلك الوقت أخذ رفاق غولدموند يهملونه، باطّراد، وينبذونه، أو بالأحرى، وإلى حد ما، كانوا هم من شعروا أنه ينبذهم ويتجنبهم. لقد أزعجت صداقته لنرسيس الجميع. وكان النمّامون، الذين أحبوا أحد الصديقين، قد افتروا على هذه العلاقة وقالوا إنها شرّ مناف للطبيعة. ولكن حتى أولئك الذين رأوا بجلاء أنه ليس هناك أي شر يستدعي الاستنكار هزّوا رؤوسهم مع ذلك استهجانا. لم يقبل أحد بعلاقة هذين الاثنين. وقد قالوا إنهما بهذه الصداقة الحميمية نأيا بنفسيهما عن الإخوة جميعا، فأمثالهما لا يرقون إلى مستوى هؤلاء النبلاء، وشخصيتاهما لا تتلاءمان وروح الجماعة، وروح الدير الخيرية، ومضادتان للمسيحية.

بدأت الإشاعات الدائرة حول الاثنين، والتذمر والافتراءات عليهما تصل إلى أسماع الأب الرئيس دانييل. كان قد راقب الكثير من الصداقات بين الشبان، وهو الأربعيني الملازم غالبا لمعتزله. ولهذين الاثنين مكانتهما المرموقة في حياة الدير العامة . تارة يكونان هدفا للمزاح وطورا مصدرا للخطر. وكان هو يبقى بعيدا يراقبهما

عن كثب، دون أي تدخل مباشر. ومثل هذه الصداقة الاستثنائية الحميمية نادرة، وهي حتما لا تخلو من خطر. ولكن بما أنه لم يكن يشك في نقائها، فلم يقف عائقا في طريقها. ولو لم يكن نرسيس كما هو، يتموضع في منتصف المسافة بين الطلاب والرهبان المدرسين، لما تردد الأب الرئيس في إصدار أوامر في حقه للتفريق بينهما. كان يسيء إلى غولدموند أن ينأى بنفسه عن الاختلاط بأقرانه، ويعاشر شخصا أكبر منه سنا، وأستاذا. ولكن هل من العدل إعاقة نرسيس، المثقف، الشاب المتفرد والمتميز بذكائه، نرسيس المساوي له، وليس يفوقه، بشهادة كل أخ آخر؟هل من العدل إعاقة سيره في الطريق التي اختارها، إعاقة رسالته في التعليم؟ ولو لم يظل نرسيس متفوقا في تدريسه، ولو أن صداقته تسببت في تكاسله، لعمل الأب الرئيس على الفور على التفريق بينهما. ولكن لا يمكن إيراد أي دليل ضده، ليس هناك غير الإشاعة، وارتياب الآخرين الغيور. ثم إن دانييل كان واعيا بموهبة نرسيس الفذة، وبمعرفته الثاقبة، الغريبة، المتجرئة على البشر، ربما. ولم يغال كثيرا في تقدير هذه المواهب. كان من الممكن أن يُعجب بمواهب الآخرين أكثر مما لو كانت في نرسيس. لكنه لم يشك مطلقا في أن هذا المدرّس قد وجد في صديقه ميزة خاصة، وفهمه أكثر من أي شخص آخر. من ناحيته لم يلاحظ في غولدموند أي شيء غير عادي، عدا سحره وجماله، غير قدر من حماس متلهف، شبه رصين، من هذا الطالب الشاب، لاعتبار الدير الذي ينزل فيه ضيفا، بيتا له، واعتبار نفسه راهبا معترفا به. ولم يكن يخشى أي خطر من أن يستحث هذا الحماس المؤثر ولكن الغرور يحرضه. أما أشد ما كان يخشاه على غولدموند من أصدقائه فهو أن يلوث نرسيس روح الفتى بشيء من التكبر الثقافي وبسوداوية الروح، على الرغم من أن الخطر

بالنسبة إلى هذا الطالب بالذات، لم يكن من الفداحة بمكان حيث تقع مثل هذه المجازفة، لا، لا يمكن أن يدع الريبة تساوره، ولا أن يبدو جاحدا لوضع ذوي الأرواح العظيمة هؤلاء تحت رعايته.

لقد تفكر نرسيس مطولا في أمر غولدموند. إن مقدرته على فهم أنماط الشخصيات البشرية ورغبتها وتمييزها قد حققت هدفها مع الطرف الآخر منذ زمن طويل. ولقد عثر لتوّه على ما كان يبحث عنه. إنه يفهم توهّج الشباب هذا وتوقّده كل الفهم. إن غولدموند يحمل كل ما يدل على أنه رجل قوي وفائق الموهبة، خصب في جسده وعقله، أو على الأقل يدل على رجل ينطوي على قدرة فذة على الحب تكمن رغبته وسعادته في أنه سريع التوهج، وأنه يحمل في جنباته موهبة نكران الذات. ولكن لماذا كان هذا الكيان الغض، المخلوق ليكون عاشقا، هذا الشاب ذو الإدراك المرهف، القادر على الحب، وينتشي أيما نشوة وبشكل كامل لشم عبير زهرة، أو لاستقبال شمس الصباح، أو لمرأى حصان، أو سرب من العصافير، أو لسماع مقطع موسيقي – أقول لماذا يتشبث بصرامة برغبته في أن يغدو كاهنا وزاهدا؟

تفكر نرسيس في هذه القضية مطولا. كان يعرف أن والد غولدموند هو الذي حرك هذه الغاية في الفتى. ولكن أما كان قادرا على خلق الرغبة لديه؟ أية شعوذة مارسها على ولده لجعله يؤمن بذلك النداء الداخلي وكأنه واجب؟ وأي نوع من الرجال هو هذا الوالد؟ على الرغم من أنه كثيرا ما يدير إليه دفة حديثهما عن عمد، وكثيرا ما كان غولدموند يتحدث عنه، فلم يكوّن نرسيس صورة واضحة عن هذا الوالد: لم يتمكّن من رؤيته.

أليس هذا أمرا غريبا ومريبا؟ وحين كان غولدموند يحكي حكاية سمكة السلمون التي اصطادها وهو طفل، أو يرسم فراشة بالكلمات،

ويقلد صرخة طائر، ويتحدث عن أحد الرفاق، ويحكي حكاية عن كلب أو عن متسول، كانت صورهم تُبعث، حتى لتكاد تُرى. لكن حين كان يتكلم عن والده لا يحدث أي شيء. لا، لو كان الوالد حقا شديد القوة والسلطان على حياة غولدموند المبكرة، لتمكن صديقه من وضعه بشكل أفضل بما لا يقاس، لأعاده إلى الحياة باستمتاع جم. لم يكنّ نرسيس كبير احترام لهذا الأب: لقد أزعجه ذلك الفارس، وأحيانا كان يشك في أن يكون هو بالفعل والد غولدموند. لقد كان صنما أجوف. ومع ذلك فمن أين له كل ذلك السلطان؟ كيف تمكن من أن يملأ روح غولدموند بأحلام دخيلة تماما على أعمق أعماق الفتى؟

كان غولدموند غالبا ما يفكر في نرسيس، فبالرغم من تأكده من حب صديقه العميق، ظل هناك شك مضجر، دائم في أن هذا الصديق إنما يعامله وكأنه طفل. فما معنى أن يكرر نرسيس على مسامعه كم أنهما مختلفان عن بعضهما البعض؟ في حين أن هناك ما هو أفضل من مجرد التفكير، وهذا الطالب لا رغبة لديه في التفكير المتمعّن، وهناك أشياء كثيرة تُملأ بها الأيام الطويلة الصافية. وكثيرا ما كان يختفي مع الأخ البواب، لأنه يكون معه على سجيته، ويتملقه لكي يسمح له بامتطاء بليس فرسه، من جديد، وكان الاثنان الوحيدان من العامة اللذان يقيمان في الدير ويحبانه كثيرا، هما الطحان وابن الطحان. معهما كان يطارد القضاعات في جدول المطحنة، أو يشاركهما في إعداد رغيف من خبز الأسقف الرائع، الذي كان غولدموند يميز شذاه وعيناه مغمضتان من بين كل الأطعمة التي يتناولها. ومع أنه كان لا يزال يقضي ساعات طوالا مع نرسيس فقد كان يتبقى منها الكثير يستعيد خلاله المتع السالفة والعادات. وكان يستمتع بالمشاركة بالقداس الصادح، وبصلاة المساء، بالترتيل مع جوقة الطلاب،وكان

يحب أن يتلو صلواته بجانب المذبح، وينصت إلى لغة الكبيسة اللاتينية المهيبة، وأن يراقب، من خلال غمامة البخور، بريق الزخارف وأردية الكهنة أثناء أداء القداس، وأن يحدّق عاليا إلى صور القديسين الجليلة ذات التقاطيع الصارمة المعلقة على طول أقواس صحن الكنيسة: الإنجيليون، كل منهم ممسك بحيوانه، والقديس يعقوب بقبعته وعصاه في طريقه إلى الحج.

هذه الصور كانت تجذبه، فيبتهج إذ يشعر، من خلال أطرها الحجرية أو الخشبية، بنشوء فهم سرّي في عقله، إذ ، كما هو سائد، يعتبرها أنصاره ومرشديه وحماته في حياته، الخالدين المطلعين على كل شيء. وكان أيضا يشعر بما يشبه الحب، أو انجذابا عميقا، خفيا، نحو الأعمدة، والكتابة المنقوشة فوق النوافذ ومداخل الأبواب، وكل زخرفة في المذابح، ونحو الأكاليل الجميلة المنحوتة بدقة، نحو السويقات، والأغصان، والأزهار، وأجمات الأوراق الخضراء النامية، تنبجس نافرة من حجارة كل وطيدة[1]، مضفورة بإصرار شديد وبحيوية. لقد بدا له سرا عزيزا وعويصا أن توجد هنا، خارج الطبيعة الأم، بنباتاتها وحيواناتها، هذه الحياة الثانية الخرساء، التي ابتكرها البشر أنفسهم من الحجارة: الناس، والحيوانات، والنباتات، كلها من الحجر والخشب، وكثيرا ما كان يمضي ساعة حرة في نسخ هذه الرسوم المزخرفة، من حيوانات ووجوه بشرية، وتكتلات من الأوراق الخضراء، وأحيانا كان يبذل جهدا مضنيا ليعيد رسمها في مخيلته، أو معتمدا على أحصنة وأزهار حقيقية، وأقنعة أناس أحياء.

كان يحبّ الأغاني التي يرتلونها في كنيسة الدير، خاصة ترتيلة مريم العذراء: الخفة المتجهمة الواثقة لتلك الترانيم، وهي تعود لتكرر

---

(1) الوطيدة: قاعدة العمود أو التمثال.

مرارا وتكرارا، ترجّع التسابيح وانبجاسات التضرع. وكان إما يتبع ما تشيعه من قساوة بالغة بصلواته، و إما يهمل ما تعنيه الكلمات ويولي انتباهه فقط إلى إيقاع الموسيقى الفخيم سامحا لتأثيرها أن يتغلغل فيه، بنغماتها العميقة الطويلة المناسبة بابتهال هادر، مدوّ، يعيد الثقة بورع في الحب. إنه من صميم قلبه لم يكن يحب التعلم، ولا انطوى على أي ميل إلى دراسة قواعد اللغة والمنطق. مع أن لتلك المواضيع جمالها الخاص، لقد كانت روحه تشتاق إلى الصورة وإلى عالم هدير الترتيل.

كان بين حين وآخر يتغلب على ابتعاده عن رفاقه، فمما يثير الحزن والضجر أن يطول مقامه وسط البرد واليأس. وفي المدرسة كان يدفع جاره العابس إلى الضحك، أو يغري رفيق غرفته الصامت بالثرثرة ليلا في المنام، ويكافح طوال ساعة لاكتساب المحبة، عساه يستعيد بذلك بعض العيون، بعض الوجوه، بعض القلوب. وقد كوفئت هذه الصداقة المعروضة عليه مرتين، وعلى كره شديد منه، باقتراح الذهاب «إلى القرية» ثم تولاه الخوف، ونكص متقوقعا داخل ذاته، لا، لن يذهب بعد الآن «إلى القرية». لقد نجح في نسيان ذات الشعر الأسود، لم يعد يفكر فيها مطلقا – أو نادرا ما يفعل.

الفصل الرابع

ظل سر غولدموند صامدا أمام الحصار الذي ضربه نرسيس حوله. وطويلا اجتهد نرسيس، أو هكذا بدا، وبدون أية نتيجة، أن يمنح ذلك الشيء المخبأ صوته المميز وأن يعلّم تلميذه الكلمة التي يتغلب بها عليه. ولم يكن غولدموند في أحاديثهما يعطي صورة واضحة لمنزله، للحياة التي خرج منها لينضم إلى الدير. كان قد تكلم عن والد مبهم الشخصية، محترم غاية الاحترام، ولكنّ التصوير كان غير واضح، وحكى حكاية غامضة عن أم، توفيت منذ زمن بعيد ونسيت ولم يتبق منها غير اسم بالكاد يُذكر ولا شيء آخر.

كان نرسيس قد توصل بالتدريج، وهو المستشف الماهر لشخصيات الآخرين، إلى أن يرى في غولدموند أحد الذين اضطروا إلى أن يفقدوا جزءا من حياتهم، ولا يستطيعون، بقوة حاجة ما أو سلطة سحرية ما فيهم، أن يفكروا في أمور معينة وقعت في ماضي حياتهم. وجد أنه لن يكسب شيئا عن طريق الإرشاد أو الاستجواب، وجد أنه أفرط في الوثوق بقوة العقل، وتفوه بالكثير من الكلام العقيم التافه.

لكنّ حبه لغولدموند لم يكن عقيما، ولا عادتهما في الإكثار من التلاقي كانت كذلك. وعلى الرغم من الأعماق التي تسببت في تباعدهما إلا أن كلا منهما تعلم الكثير من صحبة الآخر. وقد تكونت بينهما ببطء، إلى جانب لغة العقل، لغة أخرى، لغة الإشارات ولغة

الروح، وكأنما ينهض بين بنائين، طريق عال مخصص لعبور سائقي العربات، تمر منه محفات، ويمكن للراكبين أن يعدوا متنقلين من مكان إلى آخر، وتوجد حوله أزقة عديدة، ودروب بين الحقول في اتجاهات متعددة، وممرات مستترة يلعب فيها الأطفال، ودروب تحت الأشجار يتمشى عليها العشاق، وآثار قطط وكلاب غير واضحة. وشيئا فشيئا عثرت مقدرة غولدموند السحرية على الإفصاح عما يجول في خاطره بلغة الصور على سبل الوصول إلى أفكار صديقه، متسللة إلى كل ما يقال بينهما: وهكذا تعلم نرسيس، بدون مساعدة الكلمات، أن يرفق بنفسه وأن يفهم الكثير عن طبيعة غولدموند وتصوراته. وفي ضوء ذلك وببطء، امتد جسر من الحب، بين الروحين، ووجدت الكلمات طريقها إليه. وأخيرا، وبينما هما جالسان في المكتبة يوم عيد، ودون توقع مسبق، أثير حديث قادهما إلى قلب مغزى صداقتهما، وأضاء كامل امتدادهما إلى المستقبل.

جلسا يتناقشان في علم التنجيم، العلم المحرّم، وغير المتداول في الدير. قال نرسيس إنه من المضني تنظيم أصناف البشر المختلفة المتعددة، بصفاتهم المقدورة، ومقاديرهم، وتنسيقها طبقا لنمطيهما. وهنا انفجر غولدموند قائلا:

«أنت لا تتكلم إلا عن الفروق ! لقد أخذت أدرك ببطء أنها تؤلف غرابة أطوارك أنت. إنك حين تتحدث عن هذا الفرق الشاسع القائم بيننا أشعر أنه لا يكمن إلا في توقك الشديد الغريب إلى العثور على فروق».

قال نرسيس: «أجل. لقد أصبت كبد الحقيقة. هذا ما أقصده — أي أن الفروق لا تكاد تعني لك شيئا، بينما هي أهم شيء بالنسبة إلي. إن طبيعتي هي طبيعة العالم، والفرع الثقافي الذي يلائمني هو العلم.

والعلم، وسأستخدم كلماتك أنت، ما هو إلا السعي الحثيث الغريب وراء الفروق. وليس هناك من تعريف أفضل له. وبالنسبة إلى العلماء ليس ثمة ما يفوق التعريف الواضح للفروق في الأهمية. فمثلا، إن العثور على الدلالات التي تميز كل إنسان من كل من عداه من البشر إنما هو معرفته».

فقال غولدموند «ولكن كيف. هذا يعني أن الإنسان الذي ينتعل حذاء فلاح هو فلاح، ومن يضع تاجا على رأسه هو ملك. هذا هو معنى مفهومك عن الفروق! ولكن هذا يمكن للأطفال أن يعرفوه، ولا داعي للجوء إلى أي علم».

قال نرسيس «ولكن حين يرتدي الفلاح والملك رداء موحدا لا يعود الأطفال يميزون بينهما».

قال غولدموند «ولا العلم أيضا».

قال نرسيس «ربما يستطيع. أعترف أن العلم ليس أكثر حذاقة من طفل: إلا أنه أشد صبرا. وهو يعمل بدقة أكبر، ويرى ما هو أبعد من مجرد فروق واضحة».

قال غولدموند «وكذا يفعل كل طفل حاذق. يمكنه أن يتعرف على الملك من مظهره وهيئته. ولكن لنكن واضحين: أنتم المثقفون الكبار معتزون بأنفسكم، ودائما تظنون أننا أقل ذكاءً منكم. إن في إمكاننا أن نشحذ فطنتنا دون الاستعانة بالعلم».

قال نرسيس «يسعدني أن أرى أنك لاحظت ذلك . وسرعان ما ستلاحظ أيضا أنني لا أعني البراعة والمكر حين أتكلم عن وجود فروق بيننا. أنا لا أقول: إن فطنتك أكثر حدة، أو إنك أفضل مني أو أسوأ «. إنني فقط أقول: «أنت لست أنا».

قال غولدموند «هذا يمكن فهمه بسهولة. ولكنك لا تكتفي بالحديث

عن الفروق في المظاهر الخارجية: أنت تتحدث عن وجود فرق في المصير والمقدر. لم، مثلا، يكون قدرك مختلفا عن قدري؟ أنت، مثلي، مسيحي، ونحن الاثنان عازمان على أن نعيش حياة الرهبان، وأنت مثلي، ابن لأبينا الطيب المتربع في السماء. وهدفنا واحد – السعادة الأزلية– ، وعزمنا واحد العودة إلى رحاب الرب».

قال نرسيس: «حسنا جدا. صحيح أنه في كتب التعاليم كل إنسان مساو لأي إنسان آخر. لكنّ الأمر مختلف في الحياة. أعتقد أن التلميذ المخلص الحبيب إلى قلبه الذي أراح رأسه على صدره، وذاك التلميذ الآخر الذي خانه، لم يُقدَّر لهما مصير واحد».

قال غولدموند «أنت سوفسطائي يا نرسيس، ولن نلتقي، أنت وأنا، في سيرنا على مثل هذه الدروب».

قال نرسيس: «لا وجود لدرب يمكن أن نلتقي عليه يا غولدموند».

قال غولدموند «لا تقل هذا يا نرسيس».

قال نرسيس: «أنا جاد فيما أقول، ليس مهمتنا أن نلتقي، إلا بقدر ما هي مهمة الشمس والقمر، أو البحر واليابسة. نحن الاثنان، يا صديقي، شمس وقمر، بحر ويابسة، ليس قدرنا أن نغدو شخصا واحدا، بل أن يرى كل منا الآخر على ما هو عليه، أن يعي ذلك ويجلّه في الذي أمامه، أن يجد فيه إنجازه واكتماله».

أطرق غولدموند رأسه، مدحورا، وغمر الحزن وجهه. أخيرا أجاب قائلا:

«ألهذا كنت دائما تسخر من أفكاري؟».

تردد نرسيس في إعطاء رده. ثم قال، بصوت قاس، واضح:

«نعم، هذا هو السبب. يجب أن تتعلم أن تصبر عليَّ يا عزيزي غولدموند، لأني لم آخذ أفكارك على محمل الجد. صدقني إنني أولي

كل نبرة في صوتك، وكل إيماءة منك، وكل ابتسامة ترتسم على وجهك انتباهي ودراستي. كل ما يبدو فيك جوهريًا وضروريًا أراه حقيقيًا. فلماذا إذن يجب أن أفسح لأفكارك مكانة التشريف في عقلي - أنت يا من تمتلك عددا كبيرا من المواهب الأخرى؟».

ابتسم غولدموند بحزن وهو يقول: «لقد سبق أن قلت إنك دائما تعتبرني طفلا».

لكن نرسيس كان ما يزال صلبا «إن بعضا من أفكارك تبدو لي أفكار طفل. ولكن تذكر ما قلناه قبل قليل، إن الطفل المتوقد الذكاء ليس بحاجة إلى أن يكون أغبى من إنسان مثقف. فقط عندما يتكلم الأطفال عن العلم يحتاج المثقفون إلى أن ينصتوا إليهم بجدية».

ونفد صبر غولدموند: «ولكني حين لا أتكلم في العلم تهزأ مني ! تتكلم وكأن كل تقواي ورغبتي في إحراز تقدم في دراستي، وتوقي إلى أن أكون راهبا ليس أكثر من هذر».

نظر نرسيس إليه برصانة شديدة. وقال: «حين تكون غولدموند حقا فإنك لا تهذر. إنني لا أتوق إلى أي شيء قدر توقي إلى الإحاطة بك يا غولدموند إحاطة تامة. أنت لست راهبا - ولا مثقفا. يمكن للمثقفين وللرهبان أن ينحتوا من خشب أكثر خشونة. أنت تتخيل أنك أقل ثقافة مني، وأن إلمامك بالمنطق قليل، ولست تقيًا كفاية. لا شيء من هذا صحيح. كل ما في الأمر أنك لا تمثل ذاتك كما يجب».

على الرغم من أن غولدموند عند هذا الحد من حديثهما غادر صديقه، متخبطا في حيرته، غاضبا منه في سيرته، فلم تمر أيام قليلة حتى شعر برغبة في صلته. وهذه المرة نجح نرسيس في أن يبين له الفرق الحقيقي بين طبيعتيهما ، مستعينا بصورة حية واضحة، خليق به هو أن يستخدمها ويقبلها.

كان نرسيس قد بدا فظا بكلامه: أما اليوم فشعر أن غولدموند قد أنصت إليه بلهفة أكبر، سمح لكلامه أن يغوص أعمق في روحه، وسرعان ما بدأ يهيمن عليه. وأغواه نجاحه الذي أحرزه بأن يقول كلاما أكثر حتى مما كان ينوي أن يقوله: وأفسح المجال لفصاحته كي تدفعه إلى الأمام.

قال: «اسمع، إنني لا أتفوق عليك، إلا في يقظتي، في حين أنك نصف يقظ، وأحيانا تكون حياتك كلها حلما، إنني أسمّي الرجل يقظًا ذلك الذي يدرك، بمعرفة وفهم واعيين، مدى عمق الطاقات الكامنة في روحه وضخامتها ، وكامل القوة، والرغبة والضعف الدفينة في أعماقه، ويعرف كيف يقدر نفسه حق قدرها. إن المهمة التي تقرب أحدنا من الآخر، والهدف النهائي والغاية من صداقتنا، هي أن تتعلم مني كيف تفعل ذلك. إن الطبيعة والذكاء فيك يا غولدموند متباعدان أحدهما عن الآخر ، وكذلك الإدراك الواعي وعالم الأحلام. لقد نسيت طفولتك التي ما زالت تكافح كي تنهض من أعماق كيانك، كي تتملّكك. وسوف تظل دائما تسبب لك العذاب حتى توليها انتباهك. ولكن كفى. استيقظ. كما قلت لك، فأنا أتفوق عليك. هنا أنا أقوى منك. لذا فأنا قادر على تقديم يد المساعدة لك. ولكن في كل ما عدا ذلك، يا amice أنت ملكي، أو بالأحرى سوف تصبح كذلك بعد أن تعرف نفسك».

ظل غولدموند ينصت إليه جيدا إلى أن قال «لقد نسيت طفولتك». حين سمع هذا أجفل وارتد وكأن سهما اخترق جسمه، إلا أن نرسيس لم يلاحظ ذلك وكان يتكلم، كعهده دائما، وعيناه نصف مغمضتين، أو يحدق إلى المدى البعيد النائي، وكأنما إذ لم يكن يرى جيدًا فإن الكلمات تأتيه بسهولة أكبر. لم يلاحظ ارتعاشة شفتي غولدموند، ولا الشحوب الذي بدأ يحتل وجهه.

أخذ غولدموند يتلعثم قائلا «تتفوق عليّ – أنا؟»، فقط رغبة منه في أن يدلي بجواب ما: شعر وكأن جسمه كله قد أصابه الوهن.

وانتهى نرسيس إلى القول: «إن الحالمين والعشاق والشعراء، يتفوقون في أغلب الأشياء على أمثالي من المفكرين، لقد ورثت طبيعتك من أمك. وأنت تحيا الحياة حتى الثمالة. لقد خلقت كي تحب بكل قواك، كي تعرف الحياة وتتذوقها بكاملها. أما نحن المفكرون، فغير قادرين على أن نحيا بنصف استمتاعكم أنتم وبواقعية كلية، على الرغم من أننا غالبا ما نبدو أننا نهديكم. إن حياتنا هي حياة هزيلة مجدبة، أما اكتمال الوجود فمن نصيبكم، من نصيبكم نسغ الثمار، وحديقة العشاق، ومباهج الجمال الممتعة. بيتكم هذه الأرض، ومنزلنا هو فكرتنا عنها. الخطر الذي يداهمكم هو أن تغرقوا في عالم الأحاسيس، وخطرنا هو تلهفنا إلى أن نتنفس في أصقاع خالية من الهواء. أنت شاعر. وأنا مفكر. أنت تنام على صدر أمك، وأنا أبقى ساهرا في البراري. عليّ تشرق الشمس، وعليك يشرق القمر، وبصحبته كل النجوم. أحلامك فتيات وأحلامي ملأى بفتيان».

كان غولدموند ينصت إليه جاحظ العينين، وكان نرسيس يتكلم بما يشبه الانغماس الخطابي. وكان الكثير من كلماته ينغرز، كالخناجر في قلب صديقه، وأخيرا امتقع وجه الفتى وأغمض عينيه، وحين رأى نرسيس، غولدموند شاحبا شحوب الموتى، لم يسعه إلا أن يهمس:

«ذات مرة انفجرت أجهش بالبكاء أمامك، كما تذكر. يجب أن لا يحدث هذا ثانية. لن أغفر لنفسي، ولن أسامحك أيضا. أسرع الآن، اتركني ! دعني وحدي ! لقد وجهت إليّ كلاما فظيعا».

كان نرسيس سقيم القلب. لقد حملته أفكاره بعيدا، وجد أنه يحسن الكلام أكثر من المعتاد. إلا أنه الآن أدرك، فزعا، أن ثمة فيما

قاله لتوه شيئا سدد ضربة مميتة إلى صديقه، وأنه بشكل ما نفذ إلى صميمه. ووجد من الصعب عليه أن يغادره في مثل هذا الوقت. لذا تلكأ لبرهة من الزمن، إلى أن تلقىّ إنذارا من العبوس المرتسم على جبين غولدموند. ثم انطلق وهو في حال من التشوش العظيم، تاركا صديقه وسط العزلة التي كان بحاجة إليها. ومع أن غولدموند بكى، إلا أن دموعه لم تكن كافية لإطلاق الحزن المكبوت في روحه في قلب آلام جرحه البليغ، ويأسه التام، من وجود أية وسيلة لألمه – وكأن صديقه قد سدد فجأة طعنة إلى قلبه – وقف وحيدا، يلهث لهاثا عميقا: وضاقت أنفاسه كما في حشرجة الموت، وشحب لون وجهه، وتدلت يداه على جنبيه. إنه الألم القديم في روحه، وشعوره أن عليه أن يشهد أمرا مريعا، أمرا قد يكون مخيفا إلى حد لا يحتمل. والآن لم تعد هناك نوبات بكاء عنيفة لتخفف من أسى عقله. يا أم الرب المقدسة، ماذا إذن؟ هل طرأ جديد؟ هل أصابته ضربة قاتلة؟ هل قتل إنسانا ما هذا الكلام الفظيع الذي كانا يتبادلانه؟

كان يلهث كمن جرع سما، ويكاد ينفجر بفكرة أن عليه أن ينفض عنه شيئا قاتلا، شوكة غرزت في قلبه. خرج من الغرفة بخطى متعثرة، ناشرا ذراعيه إلى الأمام كسباح، وهام دون وعي منه، في أشد أجزاء الدير سكونا وفراغا، وطرق الأروقة، وهبط المدرج، ثم إلى الهواء المطلق. كان قد وصل إلى قلب الدير، إلى مركزه، وانتشر عبير الورد في الجو الدافئ تحت الضوء الممتع، وقد أصابه الصقيع.

كان نرسيس عندئذ قد فعل دون قصد منه ما كان يرغب عن وعي ولوقت طويل في عمله: لقد سمّى الشيطان الذي يتلبس صديقه ثم طرده، فقد أثارت إحدى كلماته سرا مكنونا في صدر غولدموند، فانتفض شيطانه متألما. وهام نرسيس طويلا بين غرف الدرس بحثا

عن صديقه، لكنه لم يعثر عليه.

وقف غولدموند في ظل الأقواس المفتوحة على حديقة الدير الصغيرة: ومن فوق العمود راحت رؤوس ثلاثة من الحيوانات، كلاب أو ذئاب، ترميه بنظرة شزراء. واضطرم الألم في رأسه اضطراما لا يجد له طريقا للتنفيس أو التخفيف. وتشبثت رعشة أشبه برعشة الموت بحنجرته: رفع بصره، لا يدري ماذا يفعل، فرأى فوقه، على تاج أحد الأعمدة، رؤوس الحيوانات الثلاثة، فبدا له على الفور وكأن ثلاثة رؤوس متوحشة رابضة تكشر عن أنيابها وتعوي داخل أحشائه.

وأدرك وهو يرتعش وقال: «يجب أن أموت الآن وفورا». ثم أردف وهو يرتجف خوفا «أن أفقد عقلي وبعد ذلك سوف تفترسني هذه الحيوانات».

غاص وهو يهتز ويرتعش، وجثم عند أسفل العمود، وتعاظم ألمه حتى وصل إلى حده النهائي. دفن وجهه بين يديه، فساد عقلَه الظلامُ الذي تاق إليه.

كان رئيس الدير قد أمضى نهارا سيئا. كان راهبان عجوزان قد مثلا أمامه، نكدين، يتبادلان التعنيف، ويتقاذفان الافتراء على مسمع منه هو، رئيسهما، يتذمران حول خلاف قديم، تافه، ما يزال يعتمل فيهما، هو وليد حقد متبادل، وإذا به الآن يعود ليثور فيهما إلى حد النزاع المرير. وأنصت مطولا إلى مشاحناتهما، وعاتبهما ولكن دون إحراز نجاح يذكر، وأخيرا صرفهما عنه بقسوة. وكل منهما يحمل كفارة ثقيلة. ثم هبط، وقد شعر بالإرهاق، ليصلي في صحن الكنيسة، فأدى صلاته، ثم نهض دون أن يشعر بالانتعاش، ومشى متقدما إلى داخل الدير، على هدى عبير الورد الخفيف، ليتوقف برهة ويشم الهواء. عثر على الطالب غولدموند متمددا على بلاط الأرض فاقدا وعيه،

فأخذ يحدق إليه وقد تملكه الرعب والدهشة من سكون الموت الذي بدا عليه، وشحوب وجنتيه، وكان جسمه الغض عادة يمور بالحياة. لا شك في أن هذا اليوم هو يوم شؤم، وجاء هذا ليزيد الأمور سوءا! حاول أن يُنهض الفتى، لكنه وجد أنه أضعف من أن يقوم بهذه المهمة. فتنهد، وانطلق ليستدعي اثنين من الإخوة الشبان، ليرفعوه ويحملوه إلى جناح المرضى، وأرسل في طلب الأب آنسليم، الطبيب، وأخيرا استدعى نرسيس للمثول أمامه، فعثروا عليه على الفور، ولبى النداء.

سأله «أكنت تعرف قبل الآن».

«عن غولدموند؟ نعم يا أبت. أخبروني أنه مريض، أو أنه جرح نفسه، ورأيتهم يحملونه».

«نعم عثرت عليه في حالة إغماء، ممددا في مكان لا يسمح له بالتواجد فيه. في الجزء الداخلي من الدير: وهو ليس جريحا، وإن كان فاقدا الوعي، وهذا لا يعجبني. أشعر أن لك يدا في الأمر، أو على الأقل تعلم علة ما حدث. لهذا تراني أرسلت في طلبك. تكلم».

أعطى نرسيس، ببروده المعتاد في حديثه ومظهره، تقريرا مختصرا عما قاله غولدموند، وكيف أن ثمة قوة خفية تفعل فعلها فيه. فهز رئيس الدير رأسه منزعجا.

قال: «هذا كلام غريب»، واجتهد كي تخرج كلماته هادئة «لقد وصفت لتوك حديثا وكأنه هجوم على روح أخرى. بل أكاد أقول إنه هجوم عنيف يشنه راهب متقدم، أو كاهن اعتراف. لكنك لست المتلقي لاعتراف غولدموند. بل لست مؤهلا لتلقي أي اعتراف: أنت لست مكرسا لذلك! فكيف تسمح لنفسك أن تتكلم مع هذا الطالب وكأنك تحظى بترخيص روحي لإرشاده في أمور لا يتمتع إلا كاهن الاعتراف بقدرة فيها؟ وكما ترى، كانت النتيجة شريرة».

أجاب نرسيس بهدوء ولكن بثبات «ما زال الوقت مبكرا جدا يا أبت للحكم على النتيجة. لقد ذهلت قليلا للأثر العنيف لما قلته، لكني لا أشك في أن نتيجة كلامي مع غولدموند هي أنها ستشفيه».

«سوف نرى. لم أستدعك لنتكلم عن هذا الأمر، إنما عمّا فعلته أنت. ما الذي حملك على قول ما قلته لهذا الطالب؟».

«إنه صديقي، كما تعلم. وأكنّ له حبا خاصا، وأشعر أنني لم أفعل ذلك إلا بدافع شعوري أني أعرفه أفضل مما يعرف هو نفسه».

ارتعش الأب الرئيس وقال: «إنك تتمتع بمواهب مميزة، وآمل ألا تكون قد استخدمتها لتسبب أذى دائما. هل غولدموند مريض؟ هل هو مصاب بالحمى؟ هل يمضي لياليه أرقا، أم أنه لا يأكل كما يجب؟ هل يشكو من ألم جسدي؟».

«لا، لقد كان جسمه صحيحا حتى هذا اليوم».

«وما عدا ذلك؟».

«كان عليل الروح يا أبت. كما تعلم لقد وصل منذ وقت طويل إلى السن التي يتصارع فيها البشر مع شهواتهم الحسية».

«أعلم أنه في السابعة عشرة».

«بل في الثامنة عشرة يا أبت».

«الثامنة عشرة. إذن، هو في سن متأخرة بما يكفي. إلا أنها مجرد صراعات طبيعية، يواجهها كل إنسان في حياته. ولا تستدعي منك أن تقول عنه إنه عليل الروح».

لا، أيها الأب المقدس، هي بحد ذاتها لا تستدعي ذلك، ولكن روح غولدموند كانت عليلة مسبقا، ومنذ زمن طويل. لذا، فإن مثل تلك الصراعات تعتبر أشد خطرا عليه منها على غيره. أعتقد أنه الآن

يعاني لأنه نسي جانبا من ماضيه».

«فعلا. أي جزء منه إذن؟».

«أمه، وكان متعلقا بها. إنني لا أعرف عنها أكثر منه. كل ما أعرفه هو أن بعضا من حزنه دفن معها. يبدو أنه لا يعرف أي شيء عن أمه. يعرف فقط أنه فقدها في وقت مبكر، لكنه يجعلني أشعر أنه يخجل منها، مع أنه لا بد ورث عنها أغلب مواهبه، بما أن لا شيء مما يخبرني به عن والده يدل على أن ذاك الوالد يمكن أن يكون قد أنجب مثل هذا الابن الوسيم الحسن. لا شيء مما أقوله لك هو مجرد أقاويل يا أبت، لقد استنبطت استنتاجاتي من دلائل معينة».

هذه الكلمات الأخيرة أثارت تفكير الأب الرئيس. في أول الأمر بدا له نرسيس أحمق، ومتعجرفا، بل إن ابتسامة صغيرة ارتسمت على شفتيه وهو ينصت. وأخذ الآن يفكر في والد غولدموند، الفارس ذي الوجه الذاوي والأسلوب المميز في الحديث. وتذكر، وهو يفتش في ذاكرته، بعض الكلمات، التي قالها عن أم الفتى. قال إنها سببت له العار، وهربت منه. الصورة التي تركها في ذهن الفتى هي أنه يجتهد كي يمحو كل ذكرى لآثام يمكن أن تورثها له. وقد نجح في ذلك، كما قال الفارس، وبات ابنه مستعدا لتكريس نفسه للرب، للتكفير عن الخطايا التي ارتكبتها أمه في حياتها.

لم يبلغ انزعاج الأب من نرسيس هذا المبلغ من قبل. ومع ذلك، كم كان هذا المفكر مصيبا، كم يبدو على معرفة عميقة بصديقه! وأخذ يستزيد من استجوابه حول كل مجريات حديثهما.

«لم يكن في نيتي قط أن أثير في غولدموند الهم الثقيل والألم اللذين يغيران عليه. لقد ذكّرته بأنه لا يعرف نفسه، وقلت له إنه نسي أمه وفترة طفولته. ولا بد أن شيئا في كلامي نفذ إلى روحه، وغاص

عميقا في ظلمة نفسه التي كنت أكافح طويلا لبلوغها. وبدا كأنما خرج عن طوره: أخذ يحدّق إلي وكأنه لم يعد يعرفني، وكأنه نسي اسمه هو. كنت كثيرا ما أقول له إنه قد نام ولم يحدث قط أن استيقظ بشكل كامل. والآن استيقظ، وليس هناك أدنى شك في ذلك».

بعد ذلك، صُرف نرسيس دون كفارة، ولكن أُمر بالامتناع عن مقابلة صديقه في الوقت الحاضر.

أوصى الأب آنسيلم بتمديد الفتى على السرير، ثم جلس إلى جانبه ليرعاه. ورأى أن من الأفضل عدم استخدام أية وسائل قوية لإعادة غولدموند إلى وعيه، وقال العجوز في نفسه، وهو يرمقه بعينين حانيتين متغضنتين، يبدو عليه شحوب الموتى. ثم جس له نبضه، ووضع يده على قلبه. قال في نفسه، يجب اتخام هذا الفتى بوجبة لذيذة دسمة، أو بحزمة من الحميض، أو ما شابه. كلهم متشابهون! ولم يتمكن من النظر إلى لسانه.

كان آنسيلم كلِفًا بغولدموند، وإن لم يكن يحتمل صديقه نرسيس ذاك المبتدئ الممتلئ عجبا، الأصغر سنا من أن يغدو مدرسا على أي حال. إنه مصدر أذى! نرسيس هذا يجب أن ينال نصيبه من هذا الحادث المؤسف السخيف. ما حاجة هذا الطالب الدمث النضر، ذي القلب المنفتح الفطري، إلى معاشرة ذاك المتحذلق المتغطرس، المختال بلغته اليونانية التي يعتبرها أهم شيء في العالم!

بعد ذلك بوقت طويل، وحين فتح الأب الرئيس باب جناح المرضى، وجد الأب العجوز آنسليم ما يزال يرنو إلى مريضه بقلق. يا له من وجه لا تشوبه شائبة، جميل وغض: ومع ذلك فكل ما وسعه أن يفعل هو أن يجلس ويتأمله، ويود بقوة لو يعيده إلى الحياة، لكنه عاجز عن تقديم أي عون. يمكن أن يكون الفتى بحق يعاني من مغص، وسوف

يصف له الراوند مع شراب منبه. ولكن كلما طال تأمله لتلك القسمات المشوهة الشاحبة، زادت ريبة الأب آنسيلم. لقد سبق له أن مر بمثل هذه التجربة ! على مدى حياته الطويلة جلس مرات عديدة مع أولئك المسوسين بالشياطين. وتردد حتى بينه وبين نفسه، في صياغة كل ما يدور في عقله: يجب أن يتريث ويمحّص قبل أن يتكلم، لكنه أخذ يفكر بتهجم، إذا كان هذا الفتى المسكين قد أصيب بلعنة ساحر، فليس علينا أن نبتعد كثيرا في بحثنا عن المجرم: وهو الذي سيكشف لنا الأمر كله !

اقترب الأب الرئيس من السرير، ومال برفق على الفتى، ورفع أحد جفنيه.

سأل «هل تستطيع أن ترفعه؟».

«أفضل أن أتريث قليلا. إن قلبه سليم. يجب ألا يقترب منه أحد».

«أهو معرّض لخطر الموت؟».

«لا أعتقد. لا وجود لجروح على جسده، أو أي أثر لضربة أو لسقوط. فقط أغمي عليه. لعله المغص. إن الألم الممضّ قد يسلبنا الوعي. ولو كان قد تسمم لظهرت أعراض حمى. لا، سوف يستعيد وعيه وحياته».

«ألا يمكن أن يكون السبب هو عقله؟».

«لا أظن ذلك، ألم يعرف أي شيء عنه؟ لعل أحدا سبب له رعبا: كإشاعة خبر موت، أو وجه له إهانة أو انخرط في شجار عنيف معه. إذن لاتضح كل شيء».

«إننا لا نعرف أي شيء. احرص على ألا يدخل عليه أحد. أرجوك لا تغادره حتى يستيقظ يا أبت، فإذا أصبحت حالته خطرة نادني، حتى وإن كان ذلك في منتصف الليل».

وقبل أن يرحل الأب الرئيس العجوز عاد فمال على الفتى، وتذكر الفارس، والده، واليوم الذي ترك فيه هذا الصغير الجميل ذا الشعر الأشقر هنا ليدرس في الدير، وولع به الجميع على الفور. هو أيضا فرح لقدومه. لكنّ نرسيس أصاب في أمر واحد: إن الفتى لا يشبه أباه في شيء. أواه، ما أكثر الحزن في العالم! ما أشدّ عبث كل طموحاتنا وعقمها! هل أهمل العناية بهذا الفتى المسكين؟ بل هل تلقى اعترافاته بآذان صاغية؟ هل كان صوابا ألا يعرف هذا الطالب حق المعرفة، في هذه الدار، غير نرسيس؟ هل يستطيع نرسيس أن يساعده وهو المبتدئ الغرّ، وما هو براهب ولا كاهن مكرّس؟ هو، صاحب الأفكار والآراء المفعمة بالغطرسة، والمملوءة بالحقد؟ الرب وحده يعلم إن لم يكن نرسيس هذا نفسه قد أسيء تدريبه منذ زمن طويل: الرب وحده يعلم إن لم تكن طاعته كلها مجرد قناع، إن لم يكن في قلبه أكثر من وثني. وعلى الأب الرئيس أن يكون ذات يوم مسؤولا عن كل ما يمكن أن يصيب هذين الاثنين.

حين أفاق غولدموند كان الظلام قد حلّ. كان مصابا بدوار ورأسه خال من الأفكار. شعر أنه يستلقي على سرير، ولكن لم يعرف أين. اجتهد كي يتذكر، لكنه لم ينجح. كيف وصل إلى هنا: من أي بلد غريب ذي آفاق معرفة جديدة؟ لقد زار مكانا بعيدا نائيا، رأى فيه مناظر رائعة نادرة، رهيبة لا يمكن نسيانها. ومع ذلك فها هو ينساها كلها، يشع جمالا، ومن ثمّ يعود فيتلاشى؟ حاول جاهدا كي يغوص في دخيلته، إلى الأعماق التي خرج منها ذاك الشيء. ماذا كان؟ ثمة سرب من الصور العقيمة يحوم حوله. يكاد يرى رؤوس حيوانات ثلاثة من رؤوس الكلاب، واشتم نفحة من عبير الورد. ما أشد الألم الذي ألمّ به! أغمض عينيه. ألم رهيب! وغاص في النوم.

ثم استيقظ ورأى الشيء الذي كان يبحث عنه، من خلال ضباب من الأحلام يتبدد بسرعة: رأى الصورة، فانكمش على نفسه في نوبة ألم واستمتاع. رأى – وعيناه مفتوحتان – المرأة المضيئة، الطويلة القامة، ذات الشفتين الحمراوين الممتلئتين، وقد طيّرت الرياح شعرها: إنها أمه! وفي تلك اللحظة سمع صوتا، أو خيّل إليه أنه سمعه، يقول ما يلي: «لقد نسيت طفولتك». أنصت وفكر، ثم تذكر. إنه صوت نرسيس. نرسيس! وفي لمح البرق تبدّى كل شيء أمام عينيه، رآه كله. انجلى كل شيء رآه. أمي، أمي! لقد سويت جبال من القمامة بالأرض، جفت محيطات من النسيان: مرة أخرى سطعت عليه ابتسامة من العينين المشرقتين الزرقاوين عيني المرأة المفقودة، الشبيهة بملكة، إن جمال صورتها يفوق الوصف.

الأب آنسيلم، الذي كان قد أغفى وهو جالس على كرسيه، بجانب السرير، استيقظ. سمع الفتى يتحرك ويتنفس. نهض غولدموند برفق، وسأل «من هناك؟».

«لا تخف إنه أنا الأب آنسيلم. سأشعل الضوء».

أشعل الفتيل، فأضاء وجهه اللطيف المتغضن.

سأله الفتى «ولكن هل أنا مريض؟

«لقد وقعت مغشيا عليك يا بني. هات يدك لأجس نبضك. كيف تشعر؟».

«أشكرك أيها الأب آنسيلم. أنت شديد اللطف معي. لا أحتاج إلى شيء إنني فقط مرهق».

«لا شك في أنك مرهق، وسرعان ما سيغلبك النعاس من جديد. ومع ذلك، خذ أولا جرعة من النبيذ المتبّل، ها هو جاهز بانتظارك. وسوف نشترك في شرب كأس واحدة نخب صداقتنا، يا ولدي».

كان حاضرا بإبريق من شراب مسكر، وغلي الماء ليمزج معه. قهقه الطبيب قائلا «أنت وأنا غططنا في النوم طوال تلك الفترة الطويلة. سوف تقول إنني جراح ممتاز ولا يليق بي أن أسهر على مريض، وعجوز جدا ولا يسعني أن أظل مستيقظا للقيام بذلك. كما ترى — كلنا بشر. والآن دعنا نشرب هذا الرحيق السحري معا. لا شيء يضاهي جودة شرب نخب مشترك في الليل. «في صحتك».

ضحك غولدموند، وتقارع الكأسان، وشاركه الشراب. إن هذا الشراب المسكر الحار المتبل بالنثور وكبش القرنفل، ومحلى بشمندر سكري رائع، لم يشرب في حياته شرابا أطيب مذاقا منه.

تذكر كيف أنه مرض مرة واحدة من قبل، وسهر نرسيس على راحته: أما الآن فيقوم الأب آنسيلم بهذه المهمة، وهو شديد اللطف والرقة. وشعر برغبة في الضحك، فكل شيء رائع ولذيذ، ها هو مستلق ليلا بالقرب من مصباح وكأس نبيذ فارغة مع طبيب عجوز.

قال الأب: «هل تشعر بمغص؟».

«لا».

«وأنا الذي قلت إنك تعاني من مغص! إذن لا شيء بك. مد لسانك. حسنا، مرة أخرى يبرهن العجوز آنسيلم على أنه أحمق! غدا ستبقى في سريرك، وسآتي وأعودك. هل أنهيت شرب النبيذ؟ آمل أن يفيدك! فلنر، ما يزال هناك قليل منه. حسنا، إذا ما تقاسمناه بالتساوي سيكون نصيب كل منا كأسا أخرى. أخيرا بثثت الخوف في قلوبنا يا غولدموند. إنك تتمدد في الدير كالجثة. والآن هل أنت متأكد من أنك لا تعاني من المغص؟».

ضحكا واشتركا في شرب البقية الباقية من خمر الفتى المريض: أرسل غولدموند الهادئ من عينين صافيتين نظرة كلها سعادة وحبور.

وغادر العجوز ليأوي إلى سريره. وظل غولدموند مستلقيا يقظا فترة أخرى. وتصاعدت الرؤى من جديد داخله. مرة أخرى عادت إلى الحياة في روحه صورة والدته المتوردة بشعرها الأصفر. وملك عليه حضورها كيانه كله، كالريح العذبة التي تهب عبر حقل التبن، كنسمة دفء، كنسمة حياة، ورقة، وشجاعة. آه، يا أماه كيف أمكنني أن أنساك؟.

الفصل الخامس

على الرغم من أن غولدموند كان دائما يعرف شيئا عن أمه، إلا أن مصدره الوحيد حتى ذلك الحين هو قصص الآخرين عنها. كانت صورتها قد تلاشت من ذاكرته. وكان دائما يخفي عن نرسيس جزءا من الشيء القليل الذي اعتقد أنه يعرفه عنها. وأصبحت «الأم» فكرة محرّم عليه تداولها في الحديث. لقد كانت في وقت سابق راقصة جميلة، وجامحة، نبيلة، لكنها متحدرة من أسرة دنيئة وفاسدة. وقد انتشلها والده، أو هكذا قال لابنه، من حمأة الفقر والعار. ولما لم يكن متأكدا من كونها مسيحية عمد إلى تعميدها وهداها إلى الإيمان، ثم تزوجها، وجعل منها سيدة محترمة. إلا أنها بعد مرور بضع سنين من الرضوخ له، ومن الحياة المنضبطة، عادت إلى ألاعيبها القديمة وممارساتها، من إثارة الشقاق، وإغواء الرجال، فكانت تغيب عن منزلها على مدى أيام وأسابيع متواصلة، حتى ساءت سمعتها ووصفت بالساحرة، وأخيرا، خرجت ولم تعد، على الرغم من أن زوجها غفر لها مرارا، وأعادها إلى حظوته.

استمرت سمعتها السيئة سائدة فترة بعد ذلك، مثل نار شريرة تومض إثر عبور مذنّب، إلى أن خمدت بدورها، دون أن تخلّف أي أثر، وشيئا فشيئا شفي زوجها الطيب من سنين عديدة من الرعب والريبة، والعار، والمفاجآت المتوالية. وبدّل حبه لزوجته الفاسقة بحبه لابنه

الذي كان يشبه أمه في وجهه وهيئته. وشاب شعر الفارس وبات تائبا، وأخذ يغرس في نفس غولدموند الإيمان بأن عليه أن يضحي بنفسه تكفيرا عن أمه.

هكذا كان يتحدث والد غولدموند عن زوجته الضائعة، على الرغم من أنه لم يكن من السهل دفعه إلى التحدث عنها، وحين أودع غولدموند الدير أعطى الأب الرئيس لمحا عن فحوى الأمر. وكان ابنه على علم بكل شيء، ولكن على أساس أنه مجرد حكاية شريرة وضيعة وعليه أن يطرحها من ذهنه وإلى الأبد: وبذل قصارى جهده لينسى.

ولكن ما فقده بحق ونسيه كان ذكراه الحقيقية الخاصة عن أمه. تلك الأم الأخرى المختلفة، في روحه، لم تكن مبنية من أقاويل الفارس، أو من الإشاعات المتطرفة المتكتمة التي يروّجها الرجال من الخدم. هذه الحقيقة الواقعة، التي كان يراها بقلبه، سرعان ما نسيها، إلا أن صورتها الآن، نجمة طفولته، قد أخذت تبزغ:

ذات يوم هتف قائلا لصديقه «لا أدري كيف نجحت في نسيانها. لم أحب في حياتي أحدا كما أحببتها، حبا متوقدا، غير محدود. ولم أجل أحدا قط قدر إجلالي لها، ولا رأيت من يضاهيها جمالا. إنها بالنسبة إليّ الشمس والقمر. ويعلم الرب كيف كان يمكن إخماد حبي لها المشرق في ذهني، لأجعل منها في نهاية المطاف تلك الساحرة الشريرة الشاحبة التي لا شكل لها. كما أضحت بالنسبة إليّ وإلى أبي لسنين عديدة».

بعد ذلك بفترة قصيرة كان نرسيس سينهي فترة الترهبن، وسرعان ما سيخلع عليه الرداء الكهنوتي ويرسّم كاهنا. كان موقفه من صديقه قد تغير، على الرغم من أن غولدموند، الذي كان، قبل أن يصاب بالإغماء، يشعر بالغيظ من أسئلة نرسيس وتحذيراته،

وبوصفها تنمّ عن حذلقة وغطرسة تثيران الضجر. بات الآن، ومنذ أن أعاد الألم إليه ذاكرته، مفعما بالامتنان المشدوه باستمرار لمهارة مدرّسه وحكمته. ما أعمق ما كان هذا المثقف الحاذق يغوص داخله: ما أشد دقة سبره لألمه الدفين! وأيضا ما أشد مهارته في شفائه! لم يخلّف إغماؤه أي أثر عليه، وليس هذا فقط، بل إن اشتياقا بدا وكأنه قد ذاب عن طبيعته، هو توق تافه إلى أن يغدو قديسا، ورصين رصانة معينة، أو عبث من المغالاة في التقوى! هو إيمانه بأن من واجبه الإلزامي أن يكون أشد رهبنة من الرهبان أنفسهم. وأصبح غولدموند أكبر سنا وأصغر سنا في وقت واحد منذ اليوم الذي اكتشف فيه ذاته الحقيقية. وكان مدينا بالشكر لنرسيس من أجل كل هذا.

لكنّ نرسيس كان منذ بعض الوقت قد غدا شديد التعقل مع صديقه فأصبح يراقبه بتواضع، وليس كما في السابق بوصفه مدرّسه والمتقدم عليه، على الرغم من أنه كان قد اكتسب مُريدًا متلهفا على الدرس. إلا أنه رأى أن ثمة منبعا خفيا يمنح غولدموند مواهب حرم هو منها إلى الأبد. وقد أوكل إليه أمر تنميتها، في حين أنه لم يحظ بأي نصيب منها. وأسعده أن يرى صديقه وهو يكتمل ويتحرر، ومع ذلك كانت سعادته ممزوجة بالحزن. شعر أنه مجرد قشرة، ويجب التخلص منها: دَرجة يجب تخطيها على سلم الكمال: وتراءت له العاقبة القريبة لعلاقتهما، التي أثلجت قلبه بسعادة غامرة. وكان ما يزال يعرف غولدموند أكثر مما كان يعرف هذا الفتى نفسه، الذي على الرغم من أنه استعاد معرفته بروحه، وكان على استعداد لأن يتوجه إلى حيث تقوده، إلا أنه لا يعرف بعد الطريق التي ستشير إليها. إلا أن نرسيس أدرك أن درب صديقه يمر من أصقاع ما كان هو ليجرؤ قط على اجتيازها.

بات غولدموند أقل رغبة في التعلّم، كان قد فقد كل لهفة على الانخراط في أية مناظرة. أصبح الآن في أحاديثه يعرب عن خجله من العديد من مناظراته السابقة.

في تلك الأثناء بما أنه لم يعد مترهبنا، أو بسبب ما فعله لغولدموند، بعثت تلك الأيام الأخيرة في نرسيس شعورا بحاجته إلى الانعزال، وإلى محاسبة الذات، askesis وإلى ممارسة العبادة، كم بعثت فيه حافزا قويا لمزيد من الصيام، ولتلاوة صلوات مطولة، وللإكثار من الاعتراف، ولتحميل نفسه كفارة طوعية. وبذل غولدموند أقصى جهده لمشاركته في هذه الميول، فمنذ أن شفي أضحت غرائزه أشد حدة. وعلى الرغم من أنه حتى ذلك الحين لم تكن لديه أدنى فكرة عما يخبئه له المستقبل، فقد كان يتضح له كل يوم، وأحيانا يهز الرعب قلبه، لكون قدره الحقيقي بات الآن وشيك الحدوث، وأن زمن الراحة والبراءة قد ولّى، وأن الحياة فيه قد نهضت لملاقاة قدره. كانت النذر تبدو أحيانا حبلى بالسعادة، فتحرمه من نوم الليل، مثل مداعبة لذيذة مربكة، إلا أنها كثيرا ما كانت سوداء مفزعة.

عادت أمه، المنسية منذ زمن بعيد، إلى الظهور من جديد، جالبة معها سعادة غامرة، ولكن إلى أين يغويه بالتوجه نداؤها الشبيه بصفارة الإنذار ؟ إلى الانطلاق إلى عالم المجهول، إلى الافتتان، إلى الحاجة، أو ربما إلى الموت. لا يمكن أن تعيده إلى الأمان، إلى سكينة مدارس الدير ومناماته، وحياة الصحبة الطويلة مع الرهبان: ليس في ندائها أي أثر لنبرة الأوامر التي يصدرها إليه والده، والتي ظل ردحا طويلا من الزمن يحسب أنها تمثل رغباته هو. إلا أن هذا الشعور الجديد، القوي أحيانا، والحاد، والمفعم بالحياة، مثل أي إحساس في جسد غولدموند، أيقظ كل ما لديه من تقوى فأخذ يصب

كل ما يعتمل فيه من انفعال راق نبيل، بتكرار صلوات عديدة لأم الرب المقدسة، باتجاه السماء ، مما أعاد إليه ذكرى أمه. إلا أن العديد من تلك الصلوات كان ينتهي برؤية أحلام مستحوذة غريبة ملؤها الفرح والانتصار، هي أحلام يقظة للأحاسيس نصف الواعية، رؤى للمخلوقة التي لها في كل أحاسيسه نصيب، وبعد ذلك إذا بالعالم الأم يمتد حوله، بكل عطوره، ورغباته العارمة، تناديه الحياة بصوتها المبهم، وإذا به يرى عيني أمه الأعمق من البحر، السرمديتين كرياض الجنة، كهدهدة رقيقة بكلمات بلا معنى، أو بحق مفعمة بكل ما في الأحاسيس من رقة: فيغدو مذاق الحياة حلوا ومالحا على شفتيها، وينسدل شعر أمه الحريري حوله، على فمه وعينيه المتلهفتين يحف به في لطف ، ولم تكن أمه فقط مثال النقاء، ليست فقط ذروة في رقة الحب ووعدا صافيا نقيا، بالسعادة المستبشرة، وداخلها، في مكان ما تحت المغريات، اختبأ كل صخب العالم وظلمته، كل طمع وخوف، وإثم، وحزن متذمر غاضب، وكل ولادة، والجنس البشري كله.

ويتوه ابنها في خضم هذه الأحلام، في النسيج المتشابك لأحاسيسه المتقدة بالحياة. وما عاد إلى الحياة في ذاكرته، كما السحر، كان أكثر من الماضي الذي أحبه، وطفولته ورقة أمه، ولألاء فجر حياته: إنها تلك الأفكار الحبلى بما هو آت من وعود وتهديدات، ومغريات وأخطار. كان أحيانا يستيقظ من رؤيا أمه على صورة العذراء وصورة امرأة فاتنة في آن، يملؤه إحساس مروّع بالذنب، وبأنه دنّس المقدسات، وأهان الرب، وأنه موت لن يقوم منه ثانية. وفي أحيان أخرى كان يرى كل شيء متناغما متحررا. تمتد من حوله الحياة ملأى بأسرارها: حديقة سحرية تنمو فيها أشجار مسحورة، وأزهار أكبر من أي أزهار في العالم، وأغوار غامضة، عميقة. ومن بين الأعشاب تلمع عيون

حيوانات مجهولة، وتنزلق أفاع قوية، ملساء على الأغصان، من كل فرع فيها تتدلى عناقيد من ثمار لُبِّيَّة تتلألأ، حين يقطفها تنتفخ في يده، وتفرز نسغا دافئا لزجا، مثل دم، أو تكون لها عيون، تنزلق بحركة ماكرة. ويميل على إحدى الأشجار ويتحسس جذعها، ويجذب غصنا إلى أسفل ليملّيَ منه بصره، ويتلمس ما بين الغصن والسويق، ثمة كثة من الشعر الشعث الكثيف، مثل شعر تحت إبط الإنسان. وذات مرة حلم أنه هو نفسه قديسه الشفيع، كريسستوم المقدس[1]، ذو اللسان الذهبي، الذي كان فمه من ذهب، تخرج منه كلمات من ذهب، وكانت الكلمات سربا من العصافير الصغيرة، ترتفع وتحلق مبتعدة بمجموعات متلألئة.

وذات مرة حلم أنه بلغ مبلغ الرجال، إلا أنه ظل يجلس على الأرض كالأطفال، ويأخذ الغضار ويعجنه شأن الأطفال، إلى أن يتخذ الغضار أشكالا: حصانا صغيرا، ثورا، امرأة صغيرة. تشكيل الغضار هكذا كان يبهجه، وكان يزود رجاله ونساءه الصغار بأكبر أعضاء تناسلية أمكنه تشكيلها، لأن ذلك كان يبدو له، في الحلم عملا بارعا جدا. ثم مل من لعبته، فنهض وتركها، ثم شعر فجأة بشيء يقف خلفه، شيء ضخم لا يصدر صوتا، فالتفت فإذا به يرى، وقد امتلأ رعبا وذهولا عظيمين، ولكن أيضا مع شيء من السرور من عمله، يرى أن رجاله ونساءه الصغار من الغضار قد أضحوا ضخاما ودبت فيهم الحياة. أخذت العمالقة الخرساء القوية تتقدم حتى تجاوزته، وهي تنمو وتنمو أثناء سيرها، وخرجت إلى العالم، شاهقة كالأبراج.

كان يحيا في عالم الحلم حياة أكثر واقعية من الواقع. ولم تعد

---

(1) جون كريسستوم (346-408م) بطريرك يوناني، أسقف القسطنطينية ما بين (397-404م). يوم الاحتفال به هو 7 كانون الثاني.

المدرسة والفناء، والمنامة، والمكتبة، وكنيسة الدير، غير سطح الواقع، غشاء خارجيا يرتعش، يكسو عالم صور الأحلام، الذي هو أعمق تكثيف للحياة. إن أي شيء تافه جدير بأن يمزق هذا الحجاب، رنين كلمة يونانية، وسط سياق درس مضجر، نفحة عطر تنبعث من محفظة الأب آنسيلم، جامع العقاقير النباتية، المملوءة بالأعشاب، أو نظرة إلى كتلة الأوراق الخضراء المتشابكة فوق أقواس إحدى النوافذ، مثل هذه الأشياء التافهة، يمكن أن تبدد الوهم المسمى الواقع، فتفتح تحت سلامه الرصين الأعماق المدوية، والسيول، وذرى العالم المرسوم في ذهنه المتوجة بالنجوم. وكان يمكن لحرف ابتدائي باللغة اللاتينية أن يحدد شكل عيني أمه المتقدتين، وأن تفتح نغمة ممدودة في ترتيل السلام المريمي بوابة داخلية في الفردوس، ويغدو حرف اللغة اليونانية، حصانا خابّا، أو أفعى تزحف إلى أعلى منزلقة وهي تختفي وتظهر بين الأزهار، إلى أن تغيب ويبقى هو يحدق إلى صفحة كتاب قواعد اللغة المضجرة.

لم يكن قط يخبر بهذا أحدا، ما عدا أنه كان بين الحين والآخر يُلمّح به إلى نرسيس. وذات مرة قال له «أعتقد أن كأس زهرة أو دودة منزلقة صغيرة على درب في الحديقة تفصح عن أمور، وتخفي كثيرا غيرها ، تفوق كثيرا ما تحتويه آلاف الكتب الموجودة في المكتبة العامة. يحدث كثيرا، وأنا أكتب حرفا باليونانية، مثل ثيتا أو أوميغا، أن أحرّف فقط حركة قلمي، ليمتد شكل الحرف، ويتحول إلى سمكة، وأجدني في الحال، أسترسل في التفكير في كل الجداول والأنهار في العالم، في كل ما هو رطب، وبارد. في الحر الذي كتب عنه هومر، وفي المياه التي سار عليها بطرس مقتربا من المسيح. أو قد يصبح الحرف عصفورا، ينمو له ذيل، فينشر ريشه، ثم يندفع طائرا. حسنا يا نرسيس، لا أعتقد أن

مثل تلك الأحرف تثير فيك أي تفكير. أما أنا فأقول لك ما يلي: إن الرب يكتب بها العالم».

قال نرسيس حزينا: «إني أجلّها أيما إجلال، إنها أحرف سحرية، ويمكنها أن تبعث أي حلم. ولكن، للأسف، لا يمكن الاستعانة بها في تعلم العلوم. إن الفكر يحب التعريفات، والأشكال الواضحة، ويحتاج إلى الثقة برموزه الدالة على الأشياء: إنه يحب ما هو كائن، وليس ما سيكون، لذا لا يحتمل أن يسمي حرف أوميغا أفعى أو حرف ثيتا عصفورا. والآن غولدموند، هل تؤمن بما قلته لك، بأن علينا ألاّ نجعل منك قط عالما؟».

«آه، نعم، لطالما اتفق غولدموند معه، ولطالما وطّن نفسه على ذلك».

قال وهو يكاد يضحك: «لم أعد آبه للسعي لتحصّل علمك، الآن بات شعوري نحو كل علمك وذكائك هو نفسه ما كنت أحس به ذات يوم نحو والدي. كنت أعتقد أني أحبه حبا جما، وآمل أن أكون مثله، ووثقت بكلامه ثقة عمياء. لكنّ والدتي عادت، لتبين لي ما هو الحب الحقيقي، فتقلصت ذكرى والدي حتى التلاشي حين ظهرت صورتها. وهذا أزعجني، حتى درجة الكراهية. والآن أكاد أعتقد أن التعلم كله يشبه والدي، إنه موجه لكراهية أبي، وإنه لا ينطوي على أي حب، وهكذا بدأت أكرهه قليلا».

على الرغم من أنه قال كل هذا مازحا، إلا أنه لم يتمكن من رسم أية ابتسامة على وجه صديقه الحزين. تفحصه نرسيس بصمت، وكانت نظرته أشبه بالمداعبة. ثم قال:

«أنا أفهمك جيدا. الآن لم نعد بحاجة إلى الجدال: لقد وعيت، وبتّ ترى الفرق القائم بيننا، الفرق بين رجال يشبهون والدهم وأولئك

الذي تحدد مصيرهم امرأة، إنه الفرق بين الروح والعقل. وأيضا الآن سرعان ما ستدرك أن حياتك في الدير، وتوقك لتغدو راهبا ليس سوى خطأ، أداة في يد والدك استخدمها ليزيل عنك ذكرى والدتك. أو ربما فقط كوسيلة للانتقام منها. أم أنك ما زلت تتوهم أن قدرك هو أن تبقى لتمضي حياتك كلها هنا؟».

تفكر غولدموند برهة، متفحصا يدي صديقه النحيلتين، الرقيقتين البيضاوين، الناعمتين ولكن المصممتين. وكان يمكن لأي ناظر أن يميز فيهما يدي راهب.

رد بصوت بطيء مغرّد «لا أدري». صوت كان قد بدأ يستخدمه في الكلام منذ بعض الوقت، صوت بدا كأنه يتوقف بعد كل مقطع لفظي. «كيف أشرح لك؟ قد تصدر حكما قاسيا قليلا على والدي. لقد عرف الكثير من الحزن. ولكنك قد تكون محقا في هذه النقطة. لقد أمضيتُ سنين كثيرة في هذا الدير، إلا أنه لم يأت قط لزيارتي. إنه يأمل مني أن أمكث هنا إلى الأبد. ولعل من الأفضل لي لو أفعل هذا، ما دمت أنا أيضا قد تعودت دائما على أن أتمنى ذلك. لكني اليوم لم أعد أعرف نفسي، ولا أعرف ما هي رغبتي الحقيقية، ولا ما هي أمنياتي. في وقت من الأوقات كان كل شيء يبدو سهلا جدا، سهلا لحفظ الأحرف في كتاب قواعد اللغة: أما الآن فلم يعد شيء سهلا، ولا حتى تلك الأحرف. لم أعد أعرف ما هو مقدّر لي، ولا أريد أن أفكر في الأمر الآن».

أجابه نرسيس: «ولا أنت بحاجة إلى ذلك. قريبا ستتضح الدرب أمامك. وقد بدأت ذلك بإعادتك إلى أمك، وسوف تقرّبك منها أكثر مما أنت عليه الآن. أما بالنسبة إلى والدك فإن حكمي عليه ليس قاسيا جدا. هل تشعر برغبة في العودة إليه؟».

«لا، يا نرسيس، لا يجب أن أفعل ذلك، ولو شعرت أنّ باستطاعتي

فعل ذلك، لفعلته، حالما أنتهي من المدرسة. ولربّما فعلته الآن، ما دام لم يكن في نيتي قط أن أغدو فقيها مثقفا. لقد تعلمت ما يكفي من اللغة اليونانية ومن اللاتينية ومن الرياضيات. لا، لا أريد أن أعود إلى والدي».

أخذ يحدق في الفراغ بلا هدف. ثم هتف فجأة:

«ولكن ما هذه الخدعة التي تستخدمها لإعادة استجوابي مرارا وتكرارا، بكلمات تضيء عقلي، وتجعلني أستبطن دخيلتي؟ وها أنا فقط بسبب سؤالك عما إذا أردت العودة إلى والدي أدرك أني لا أريد. كيف تفعل ذلك؟ وكأنك على علم بكل شيء. لقد علمتني أشياء كثيرة عن صداقتنا لم أكن أعلم بها حين سمعتها، وفيما بعد صارت تبدو مفعمة بالمعنى و بالأهمية، أنت من قال لي إنني استمددت حياتي من والدتي، وأنت أول من اكتشف أني خاضع لسحر ما، وأنني قد ضيّعت ذكرى طفولتي. كيف توصلت إلى هذه الدرجة؟ هل يمكنني أن أتعلم منك هذا أيضا؟».

ابتسم نرسيس وهزّ رأسه.

«لا، amice، هذا لا يمكنك أن تتعلمه مطلقا، ثمة أناس في وسعهم تعلم أشياء كثيرة، لكنك لست منهم. لن تكون أبدا متلقّيا للعلم. وما حاجتك إلى ذلك؟ لست بحاجة إليه. إنك تتمتع بمواهب أخرى، تفوق ما لديّ: أنت أكثر ثراءً، وإن لم تكن قويا مثلي، وحياتك ستكون أصفى من حياتي، وأقسى. غالبا لا ترغب في فهمي، وتحيد من جانب إلى آخر مثل مهر غرّ. والأمر لم يكن دائما سهلا، لا بد أني آلمتك. لكنك كنت غافلا، وكان يجب أن أنبّهك. بل إنك كنت تتألم لمجرد تذكيرك بأمك، وكان ألمك على درجة من الفداحة حيث إنهم عثروا عليك ممدّدا شبه ميت في الجزء الداخلي من الدير. وكان عليّ أن – لا، كفاك تمسيدا

لشعري ! لا، كفى أقول لك ! لا أحتمل ذلك».

«إذن أنت تعتقد أني لن أكون قط متلقيا للعلم ! وسأظل طوال حياتي غبيا، كطفل».

«سيظل هناك أناس تتعلم منهم. لقد علمتك، أيها الطفل قدر استطاعتي، وقد انتهى الدرس الآن».

هتف غولدموند «أوه لا، لم نبلغ هذا المستوى من الصداقة بسبب ذلك. أي نوع من الصداقة تلك، التي تنتهي عند أول مَعْلَم يصادفنا. هل طالت معرفتك بي بحيث بتّ أثير فيك الضجر؟ هل مللت صداقتي؟».

أخذ نرسيس يتمشى جيئة وذهابا بخطى سريعة، مطرق البصر، ثم توقف أمام صديقه.

همس له «دعني وشأني. أنت تعلم حق العلم أنك لا تثير ضجري».

وأخذ يحدق نظره إليه كالمرتاب، ومن ثمّ عاد يتمشى جيئة وذهابا، ثُم توقف من جديد، وحدق إلى غولدموند، بعينين صارمتين تطلان من وجهه المتجهم. وبصوت كله تصميم، صاف وخفيض قال: «اسمع يا غولدموند، لقد كانت صداقتنا صداقة جيدة، كان لها هدف معين، وقد بلغته، ومنذ الآن أنت مستيقظ من شبه غيبوبتك. ولكن الآن لم يعد لديك ما تنجزه. ما زالت أهدافك غير واضحة، ولم يعد بمقدوري أن أرشدك ولا أن أصحبك. اسأل أمك، اسأل خيالها، وأنصت. إن أهدافي ليست مبهمة ولا نائية، إنها هنا من حولي في الدير، تتطلب جهودا جديدة في كل ساعة. يمكنني أن أكون صديقا لك، ولا يمكنني مطلقا أن أحبك. أنا راهب، وقد أخذت عهدا على نفسي بالالتزام أمام الرب. وقبل أن أقدم نذري الأخير سوف أطلب إعفائي من منصبي كمدرس، لأعتزل وأصوم وأكفر عن خطاياي. وخلال تلك

الفترة يجب ألا أنطق بكلمة واحدة، ولا حتى معك».

فهم غولدموند. أجاب بنبرة حزن:

«إذن فستفعل الآن ما كان يتوجب عليّ أن أفعله لو أني انخرطت في سلك الرهبنة. ولكن بعد أن تنتهي فترة اعتزالك، وصومك، وسهرك، وصلاتك المقررة، ماذا تنوي بعد ذلك؟».

أجاب نرسيس «أنت تعرف».

«نعم، بعد بضع سنين ستصبح مدير المدرسة. وربما المشرف على نفقات المدرسة. سوف تحسن أسلوب التعليم، وسوف تضيف رقاعا جديدة إلى المكتبة: وربما ستؤلف أنت نفسك كتبا. أليس كذلك؟ تهز رأسك نفيا. ماذا ستفعل إذن؟».

ابتسم نرسيس ابتسامة حزينة «أتسألني عما سأفعل في نهاية المطاف؟ من يدري؟ قد أموت وأنا مدير للمدرسة، أو رئيس للدير، أو أسقف. كله سواء. ولكن ما أهدف إليه هو ما يلي: أن أكون دائما حيث أستطيع أن أخدم بشكل أفضل، حيث يجد مزاجي واجتهادي، وتجد مواهبي تربتها الأجود لتعطي أينع ثمارها. هذا هو هدفي الوحيد في الحياة».

قال غولدموند «إنه هدف الراهب الأوحد. أليس هذا ما ترمي إليه؟».

قال نرسيس: «آه نعم، وهو هدف موضوعي تماما. إن الراهب قد يقضي حياته في تعلم اللغة العبرية، أو قد يكرّس نفسه لوضع الحواشي على مؤلفات أرسطو، أو أن يزخرف كنيسة الدير، أو أن يغلق على نفسه ويجلس ليتأمل في الرب، أو مائة شيء وشيء آخر. لكن لا أحد منها هو الهدف النهائي. وأنا لا رغبة لدي في مضاعفة ثروات الدير، ولا في إجراء الإصلاح على سلك الرهبنة، ولا على الكنيسة. إن ما

أريده هو أن أخدم الروح التي تسكنني، كما أفهم أوامرها لا أكثر. فهل يعتبر هذا هدفا؟ «.

تفكر غولدموند في كلامه، ثم قال:

«أنت على حق. هل ظللتُ طويلاً عائقا في طريق تحقيقك له؟».

«عائقا؟ أوه، يا غولدموند، لم يقدّم إنسان يد العون لي أكثر مما فعلت أنت. إنك تضع صعوبات في طريقي، ولكني لست من النوع الذي ينكص أمام الصعوبات. لقد تعلمت منها جميعا، وبشكل ما تغلبت عليها».

قاطعه غولدموند بنبرة ساخرة:

«تغلبت عليها كلها. ولكن قل لي ألم تكن، بمساعدتك لي وإعادة ذاكرتي إليّ، وتحرير روحي، وبالتالي استعادتي لصحتي – ألم تكن بذلك بحق تخدم الروح؟ ألم تسلب الدير مبتدئا مطيعا متحمسا؟ ولعلك أوجدت عدوا للروح، يفعل ويشعر بشكل يناقض كل ما تعتبره مقدسا؟».

قال نرسيس بجدية رصينة: «ولم لا amice؟ لا زالت معرفتك بي قليلة! صحيح أني أفسدت داخلك راهبا واعدا، وعوضا عن ذلك فتحت دربا قد يقودك إلى مصير راق. ولكن حتى لو أحرقت هذا الدير الجميل كله غدا وأحلته أنقاضا، أو بثثت إشاعة فاضحة في كل أرجاء العالم، فلن أشعر ولو للحظة بالندم لأني ساعدتك في ذلك».

أحاط كتفي غولدموند بيدين وديتين:

«اسمع يا غولدموند الصغير، إن هذا أيضا يشكل جزءا من طموحي! وسواءٌ أصبحتُ مدرسا أو رئيس الدير، كاهن اعتراف أو أي شيء آخر، فلا أرغب قط في أن أكون من النوع الذي حين يصادفني رجل قوي، رجل ذو قدر عال ومقدرة حقيقية أجدني غير قادر على

فهمه، وأجدني أضحيت عدوا له في قلبي، وغير قادر، إن أردت، على تعزيز أهدافه. وأقول لك ما يلي: قد يؤول بنا الحال أنت وأنا إلى هذا المآل أو ذاك، وقد يقابلنا حسن الحظّ أو سوؤه إلاّ أنّك لن تفقد مساعدتي لك إذا طلبتها بصدق، وشعرت في قرارتك بحاجة إليّ، بما أن يدي لا يمكن أن تُرفع ضدك مطلقا».

كان لهذه الكلمات رنين الوداع، وقد كانت بحق نذيرا سبق افتراقهما. وبينما وقف غولدموند يرنو إلى صديقه، بوجهه الحازم وعينيه اللتين تبدوان كأنهما تتجاوزانه بنظرتيهما، شعر، دون أدنى شك، أنهما الآن لم يعودا أخوين ورفيقين، ولا صنوين: إن نمطي حياتيهما قد باعدا بينهما للتو. وهذا الرجل الذي يواجهه ليس حالما، ويعمل - كما عليه أن يفعل - على خدمة مبدأ خفيّ حول التذكير بالمصير: إنه راهب نقش اسمه على الرق الرسمي، متقبلا واجباته الصارمة وقانونه، جندي يعمل لخدمة السلك الرهباني، والرب والكنيسة. أما الآن فإن غولدموند بات يعرف حق المعرفة أن لا مكان لأمثاله هنا: إنه بلا منزل، وعالم المجهول ينتظره، وهكذا كان حال أمه: لقد غادرت المنزل والبلاط، الرجل والطفل، الصحبة وكل الأوقات الجميلة، والنظام والترتيب، والمهابة، والواجب، لتنطلق في العالم المتقلّب المترامي، وفيه غرقت دون شك. لم يكن لها هدف محدد، مثله. الأهداف وضعت للآخرين، وليس له. آه، كم كان نرسيس دقيقا في رؤية كل هذا، ومنذ زمن بعيد: كم كان محقا !.

بعيد هذا سرعان ما بدا أن نرسيس قد تلاشى من حياته، وكأنه اختفى فجأة. وتولى أستاذ آخر إعطاءه دروسه، وظل مقرؤه في المكتبة العامة خاليا. إلا أنه ظل يحوم في المكان، ولم يختف تماما، فيُرى أحيانا يمر بسرعة بين أرجاء الدير، وأحيانا أخرى يُسمع صوته الهامس في

مذبح جانبي، وهو راكع يصلي على بلاط الأرض. لقد لجأ إلى معتزله للوفاء بقسمه النهائي، وكان معروفا عنه أنه يحافظ بصرامة على صيامه، وينهض ثلاث مرات أثناء الليل ليؤدي الطقس الديني. كان ما يزال موجودا، لكنه شبه غائب في عالم آخر، ويمكن رؤيته، وإن نادرا، ولكن لا يمكن الاتصال به. لم يكن بإمكانهما تبادل الحديث، وهكذا لم يعد بينهما أي شيء، وعلى الرغم من أن غولدموند كان متأكدا من أنه سيعود، وسيجلس من جديد إلى طاولته، إلى مكانه على مائدة الدير، سيسمع صوته ثانية في المدرسة، إلا أنه لن يعود قط كما كان. إن نرسيس لم يعد ينتمي إليه.

وهكذا، بينما هو يفكر بهذا، أخذ يتضح له أن نرسيس وحده جعله يحب الدير والرهبان، بدروسهم في قواعد اللغة والمنطق، ودرسهم، وفطنتهم. إن نرسيس هو الذي أضفى على كل هذا معناه: إن نرسيس القدوة جذب انتباهه، أصبح هدفه أن يكون مثله. صحيح أن رئيس الدير كان موجودا، وأن غولدموند كان أيضا يجله، لقد أحبه أيضا، ورأى فيه قدوته، لكنّ الآخرين، المدرسين، ورفاقه من الطلاب، والمنامات، وأرجاء الدير، وقاعة الطعام، ودروس الإعراب وتمارينه، وخدمة الرب - أي أن كل ما يتصل بماريا برون - يبقى بلا معنى من غير نرسيس. لماذا لا يزال موجودا هنا؟ إنه ينتظر تحت سقف هذا الدير وكأنه واق من المطر مشكوك في نجاعته، فهو يحتمي تحت أية شجرة أو سقيفة، ضيفا ما يزال يتوانى بسبب جفوة العالم.

منذ ذلك الحين وأيام غولدموند لم تعد أكثر من وداع متردد. وأخذ يسعى وراء كل الأشياء التي لها معنى بالنسبة إليه، كل ما بات يحبه في الدير، وبدأ يدرك، مذهولا، من بين الوجوه المحيطة به مدى قلة الذين سيتركون فيه ألما لفراقهم. هناك نرسيس ورئيس الدير

دانييل، والطبيب اللطيف، الطيب الأب آنسيلم، ثم، ربما هناك أيضا صديقه، الأخ الحمال، وربما الطحان، جارهم المرح. ولكن حتى هؤلاء لا يبدون حقيقيين تماما. ومن الصعب بما لا يقاس أن يقول وداعا لتمثال العذراء الحجري الضخم في الكنيسة، وللرسل القائمين فوق قوس الممر. كان يقف طوال ساعة متواصلة ليتفحصهم، أو يتفحّص النقش الدقيق، الجميل، لموقف الخورس، أو يحدق إلى نوافير الدير وإلى العمود بما يحمله من رؤوس الحيوانات الثلاثة. وفي الباحة كان يتكئ على أشجار الزيزفون والجوز. قريبا ستغدو كلها ذكرى، كتابا مصورا صغيرا في قلبه. ومنذ الآن، بدأ الجميع يتلاشون ببطء وهم ما يزالون يحيطون به. سوف يرافق الأب آنسيلم، الذي يحب صحبته، لجمع العقاقير النباتية، أو يتجاذب أطراف الحديث مع العاملين في المطحنة الذين يدعونه أحيانا إلى العلّية فيها لمشاركتهم وجبة من السمك المشوي، والنبيذ. إلا أن ذلك يبدو له منذ الآن غريبا، وشبه ذكرى. وهناك، في عتمة الكنيسة وفي صومعته، اتخذ نرسيس، الذي انسحب ليصوم ويصلي، حجم شبح، وبهذا الشكل أيضا كان هذا الواقع يتبدد من حوله: كان كل شيء يزفر بأنفاس الخريف وأنفاس الماضي.

لم يبق الآن غير شيء واحد له قيمة: وجيب قلبه العنيف، لهفة، رغبة ملحاح داخله، فرح أحلامه ورعبها. إلى هذه بات الآن ينتمي، ولها عليه أن يستسلم. وبينما هو يجلس بين رفاق صفه،ويبدو عليه أنه يدرس، يغوص في أعماق ذاته، وينسى وجود رفاقه، ويغرق في تيار قلبه الهادر، ويسمح لدوامته أن تجرفه معها، إلى قاعها العميق الذي يرجّع صدى موسيقى قاتمة، إلى أعماق غامضة تضج بصخب وأحداث سحرية كلها تناديه بأصوات أمه، ولها عيون تشبه عيني أمه.

الفصل السادس

ذات يوم استدعى الأب آنسيلم غولدموند إلى صيدليته، وهي عبارة عن غرفة صغيرة تعبق برائحة ذكية، وكان يشعر وهو فيها بالألفة. وعرض عليه الرجل العجوز نبتة جافة، وضعت بعناية بين صفيحتين من ورق البرشمان، وسأله إن كان يعرف اسمها، وإن كان باستطاعته أن يصفها له. وهي تنمو هناك في الحقول. قال غولدموند نعم، يعرفها حق المعرفة، إن اسم النبات هو حشيشة يوحنا. وسئل أن يذكر كل خواصها، وبدا الراهب العجوز راضيا عن إجابته. ثم أمر الطالب أن يخرج بعد ظهيرة ذلك النهار ويجمع حزمة من تلك النباتات الطبية، وأعطاه وصفا دقيقا للأماكن التي تحب أن تزهر فيها. قال «سوف تحصل على نصف نهار من اللهو للترويح عن أحزانك، ولن تخسر شيئا بعنائك، ولا أظنك تعترض على ذلك. إن بعض الدرس مطلوب لمعرفة مواصفات الأعشاب معرفتك لكل كتب قواعد اللغة السخيفة خاصتك».

شكره غولدموند لإسناد هذه المهمة المتعة إليه لقضاء بضع ساعات في قطف الزهور، بدل التململ على مقعد الدرس: ثم، وعلى أمل أن تكتمل المتعة، طلب أن يقترض حصانه «بليس» من الأخ السائس وبعد تناول وجبة الغداء، أخرجه من مربطه. صهل له محيّيا، فقفز إلى ظهره، وانطلق خابا، في وجه النهار الصيفي الدافئ يملؤه الطرب.

وتنقل هنا وهناك طوال ساعة من الزمن، يستنشق الهواء المنعش وعبير الحقول، وكان فرحه لا يقدر بامتطائه جواده. ثم تذكر مهمته الأصلية، فانبرى يفتش عن المكان الذي وصفه له الأب آنسيلم. وحين عثر عليه ربط فرسه في ظل شجرة قبقب، وراح يكلمه بعض الوقت، وأطعمه خبزا، ومن ثم انطلق لجمع النباتات الطبية حيث توجد شقق في الأرض المراحة، زرعت بكل نوع من أنواع الأعشاب ذوات سويقات صغيرة حمراء فاتحة، ولا تزال عليها بتلاتها الأخيرة، الباهتة اللون، وارتفعت للتو العديد من قرنات البذور الناضجة بين البيقية الزاوية، والهندباء البرية، الزرقاء زرقة السماء، وعصا الراعي المنقطة: وعظاءات خضراء اللون تجري رائحة عادية على كومة من الحجارة بين حقلين، وهناك، أيضا، ارتفعت أول الأحجار الصفراء من عشبة يوحنا المزهرة، وبدأ غولدموند يقطفها.

بعد أن جمع ملء ذراع جلس ليستريح على كومة الحجارة. كان الجو حارا. وأخذ ينظر باشتياق إلى الظل الأزرق الغامق، الذي يحدد الغابة النائية، مع أنه كان لا مانع لديه من أن يبتعد عن نباتاته وعن «بليس»، جواده، الذي كان لا يزال في استطاعته أن يراه من مكان جلوسه. لكنه ظل جالسا على كومة الحجارة، ساكنا تماما، متمنيا أن يرى عظاءات تمر من أمامه، ويشم ما جمعه من حشيشة يوحنا، ويباعد ما بين بتلاتها الصغيرة ليدخلها ويرى المئات من الرؤوس المدببة في كل منها.

قال في نفسه «ما أروع أن يكون لكل ورقة من هذه الوريقات التي تعد بالآلاف سماء كاملة مرصعة بالنجوم لتختبئ فيها». كان كل شيء حوله من قبيل المعجزة واللغز، العظاءات، النباتات، الأحجار، كلها معا ! لقد استبد العجز بالأب آنسيلم، الذي كان يحبه حبا جما، فلم

يعد قادرا على الخروج لجمع الأوراق النباتية: سكن الألم الروماتيزمي ساقيه، وباتت الآن أيام عديدة تمر عليه لا يأتي خلالها بأي حركة على الرغم من أن أيّا من نباتاته الطبية لم يكن قادرا على شفائه، لعل أيامه باتت معدودة، وستظل أعشابه وهي في خزانته تبعث عبيرها حتى بعد وفاة الأب آنسيلم. إلا أنه يمكن أن يعيش أيضا سنين عديدة، عشر سنين أو عشرين سنة، وهو يحمل الشعر الأبيض الخفيف نفسه، والتجاعيد المشوشة نفسها تحت عينيه: ترى كيف سيكون عليه شكل غولدموند بعد عشرين سنة؟ آه، ما أصعب فهم أي شيء، وكم يثير من الشجن، على الرغم من جماله الشديد. في الحقيقة لا أحد يعرف أي شيء. الناس يعيشون، يمشون في مشارق الأرض ومغاربها ويتغلغلون في غاباتها، ثمة الكثير من التحدي والكثير من بشائر النجاح، والكثير من المشاهد التي تثير اشتياقنا: نجم مسائي، زهرة الجريس الأزرق، بحيرة نصف مغطاة بالقصب الأخضر، عيون الوحوش، وعيون البشر، ودائما يبدو وكأن حدثا جديدا سيقع، شيئا لم يشاهد من قبل لكنه يثير الشوق إليه، وكأن ستارا سيزاح عن وجه العالم، إلى أن يخمد زخم الانفعال، ولا يبقى أي شيء، ويظل اللغز دون حل، والسحر الخفي محجوبا، بحيث إن الناس، في نهاية المطاف، يتقدمون في السن، ويصبح شكلهم مضحكا، مثل الأب آنسيلم، أو حكيما مثل رئيس الدير دانييل، على الرغم من أنهم قد يظلون في الحقيقة لا يعرفون أي شيء، يظلون ينتظرون، يرهفون أسماعهم.

التقط قوقعة حلزون فارغة، كانت قد تدحرجت واقعة عن حجر ، مع قرقعة، وأضحت دافئة تماما بفعل الشمس. أمعن النظر، وهو مستغرق في التفكير، في الخطوط الحلزونية المثلمة، وفي الالتواء الغريب للتاج الصغير، في المسكن الفارغ الهش، بإضاءاته اللؤلؤية.

أغمض عينيه، ليتعرف عليه فقط بأصابعه، وتلك لعبة قديمة كثيرا ما يلعبها مع نفسه: حمل القوقعة برفق بين أصابعه وأخذ يلامسها بلطف مرة بعد مرة، دون أن يضغط عليها، مبتهجا بكل شكل يلمسه، بكل سحر الأشياء المادية. كان يرى أننا نحيل، بعقولنا، إلى رؤية كل شيء ونتفكر فيه، وكأنه مادة مسطّحة، ليس لها غير طول وعرض. وبشكل ما شعر أن هذا يشير إلى غياب أي نوع من المعرفة وإلى لا جدواها، إلا أنه لم يتمكن من الإمساك بفكرته، وتحديدها. انزلقت صدفة الحلزون من بين أصابعه: أحس بنعاس شديد، ورغب في الإغفاء. مال رأسه إلى الأمام على نباتاته، فهبت نفحة قوية من عبيرها بما أنها أخذت تذبل، وهكذا أغفى تحت أشعة الشمس. احتشد النمل على حذائه، وحزمة الأعشاب الذابلة مستلقية على ركبتيه. وكان «بليس» يعض على شكيمته ويصهل وهو واقف تحت شجرة القبقب.

ثم أخذ أحدهم يقترب قادما من الغابة البعيدة، كانت صبية قروية، ترتدي ثوبا بلون أزرق فاتح باهت. وتعصب شعرها الفاحم بمنديل قرمزي ، وقد لفحت شمس الصيف وجهها، وتومض بين شفتيها زهرة منثور حمراء، ثم توقفت لتنظر إلى النائم، وأطالت وقوفها على مسافة منه، تتفحصه، بفضول، وبكثير من الريبة: ثم بعد أن اقتنعت بأنه مستغرق في النوم، اقتربت منه بحذر، على قدمين حافيتين. وزال عنها خوفها منه. هذا النائم الوسيم يبهج ناظريها، الآن لم يعد يبدو لها خطرا. كيف وصل إلى هنا إلى عمق الحقول؟ وفهمت، وهي تبتسم أنه إنما كان يقطف الأزهار، وأن أزهاره، قد نالها الذبول.

فتح غولدموند عينيه، عائدا من غابة من الأحلام. الآن بات رأسه مستندا على وسادة وثيرة، هي حجر امرأة، وثمة عينان غريبتان،

دافئتان وبنّيتان، ترنوان إلى عينيه المتسائلتين الناعستين. لم يجفل، لا يوجد خطر، والنجمتان البنيتان الدافئتان تسطعان عليه. ابتسمت المرأة لاندهاشه، وفي ابتسامتها رأى رقة شديدة حتى أنه أخذ هو نفسه فجأة يبتسم. قرّبت فمها من شفتيه المفترّتين عن ابتسامة، وفي لمح البرق تلاقت شفاههما، وتذكر غولدموند من جديد تلك الليلة في القرية، وفكر في الخادمة الصغيرة، وفي ضفيرتيها الفاحمتين. لكنّ قبلتها لم تكن قد انتهت بعد، ظل فمها مستقرا على فمه، يسكب حبه، يغريه، يداعبه، إلى أن تضامت شفاههما أخيرا بقوّة نهمة، مضرمة النار في دمه، ليجري مندفعا في جسمه، بينما أخذت المرأة السمراء تعلمه بحركاتها الخرساء صور فن الحب، تاركة له أن يفتش عنها ويعثر عليها، تاركة حبها ليضطرم فيه ومن ثم أخمدته.

هذه النشوة الوجيزة الصافية أومضت برهة بينهما ثم انطفأت متوهجة كلهب ذهبي خاطف، ثم انطوت على نفسها، وخمدت. استلقيا معا مغمضي العيون، وارتاح رأسه على صدر المرأة القروية. لم يتبادلا أية كلمة: لم تحرك عضلة في جسمها، واكتفت بمداعبة شعره، وتركته ليعود ببطء إلى وعيه. وأخيرا فتح عينيه.

قال: «أنت؟ من أين أتيت؟».

أجابته: «أنا ليزا».

كرر الاسم بعدها باستمتاع «ليزا، ليزا، أنت فائقة الجمال».

مالت بفمها على أذنه وقالت:

«ألم يسبق لك أن عشقت؟».

هز رأسه نفيا. ثم اعتدل في جلسته وراح يحدق فيما حوله، عبر الحقول وإلى السماء.

هتف: «أوه، كادت الشمس تغرب، يجب أن أعود».

«إلى أين».

«سأعود إلى الدير. إلى الأب آنسيلم».

«في ماريابرون؟ أهناك تعيش؟ أوه، ابق معي قليلا».

«ليته كان باستطاعتي».

«ابق إذن».

«لا، لا يجوز. والآن بات علي أن أقطف المزيد من هذه».

«ولكن هل أنت راهب من الدير؟».

«لا، ولكني طالب، ولن أبقى هناك. هل أستطيع أن آتي إليك يا ليزا؟ أين تعيشين. أين منزلك؟».

«ليس لدي مكان معين، يا قلبي. ولكن أخبرني باسمك. إذن يطلقون عليك غولدموند. هات قبلة، يا ذا الفم الذهبي. وبعد ذلك تذهب».

«أليس لديك مكان معين؟ فأين تنامين إذن؟».

«إذا أحببت أنام معك في الغابة، أو على التبن. تعال هذه الليلة».

«أوه، نعم سآتي أين أجدك؟».

«أتستطيع أن تنعب مثل بوم صغير؟».

«لم أجرب ذلك قط».

«حسنا حاول الآن».

حاول، فضحكت بسعادة.

«حسنا، تعال إلي هذه الليلة، خارج الدير، إذن، وصح كبوم صغير، وسأكون بانتظارك. إذن، فقد أعجبتك، يا ذا الفم الذهبي الوسيم؟»

«أوه، ليزا، نعم، أنت تعجبينني كثيرا. سآتي. ليحفظني الرب: يجب أن أذهب الآن».

خبّ غولدموند على صهوة جواده اللاهث عائدا إلى الدير، وفرح لأنه وجد الأب آنسيلم منشغلا جدا. فقد كان أحد الإخوة يخوض في جدول المطحنة، فجرح قدمه بحجر صوان كان فيه.

الآن يجب أن يبحث عن نرسيس. سأل الأخ الخادم على مائدة العشاء في قاعة الطعام. قال الأخ، لا، إن نرسيس لا يرغب في تناول أي شيء على العشاء في ذلك المساء. لقد كان صائما طوال النهار، ولا بد أنه نائم، لأنه سيقوم ليتعبد آناء الليل. وحث غولدموند خطاه. إذن، فإن صديقه، خلال فترة توبته واعتزاله، كان يمضي لياليه في صوامع التائبين، في الجزء الداخلي من الدير. توجه إلى هناك، دون أن يحسب حسابا للقوانين، ووقف على باب صومعة نرسيس وأخذ ينصت. ولكنه لم يسمع أي صوت آت من الداخل. فدخل على أطراف أصابع قدميه. ولم يخطر بباله قط أن كل هذا محرّم عليه تحريما تاما.

وهناك، على حشية قش ضيقة، كان نرسيس ، أشبه بجثة ممددة في العتمة، متيبسة، يستلقي على ظهره، ووجهه النحيل المتقع اللون يواجه السقف. ويداه متشابكتان على صدره. لكنه لم يكن نائما، كانت عيناه مفتوحتين واسعا. حدق إلى غولدموند، دون أن يفوه بكلمة، ليس بغضب، بل دون أن تظهر عليه أي دلالة على الحياة، وبدا منعزلا تماما عن الأمور الخارجية، وغارقا في التأمل فيما وراء الزمن. لقد كان يعاني آلاما فلم يتعرف على صديقه، ولا فهم ما قاله له.

«نرسيس، نرسيس، سامحني لأني أيقظتك. لكني أفعل هذا عبثا. أعلم أنه ممنوع عليك أن تكلمني، ولكن أتوسل إليك أن تغفر لي هذا، وأجب».

اعتدل نرسيس، وطرف بعينيه برهة دهشا. وكأن العودة إلى الحياة تكلفه جهدا كبيرا.

سأله بصوت ميت «أهذا ضروري؟».

«نعم، ضروري جدا. أنا هنا لأودعك».

«نعم، إذن فهو ضروري. لا يمكن أن تكون قد حضرت إلي إلا لأمر جلل. تعال الآن. واجلس بجانبي. تكفي ربع ساعة، وبعدها تبدأ أول جولة من عبادة الليل.».

جلس، نحيلا، ومضنى على لوح الخشب: واقترب غولدموند إلى جواره.

قال بصوت الآثم «سامحني». إن هذه الصومعة، وهذه الحشية القش، ووجه نرسيس المنهك من وطأة التركيز وقلة النوم، وعينيه شبه الغائبتين من وعي العالم، كل هذا أنبأه بأنه شخص مزعج.

«ليس هناك ما يستدعي الغفران. لا عليك مني. لا شيء ينقصني. تقول إنك أتيت تستأذنني في الرحيل. إذن فسترحل عن الدير؟».

«نعم، في هذا اليوم بالذات. آه، كيف أشرح لك الأمر؟ إن كل شيء قد تقرر فجأة».

«أجاء والدك؟ أم بعث برسول من لدنه؟».

«لا، لا أحد. الحياة ذاتها جاءتني. سوف أغادر خلسة، دون إذن من رئيس الدير ولا من والدي. سوف أفرّ من الدير، يا نرسيس وأجلب عليك العار «.

أطرق نرسيس وحدق في أصابعه البيضاء، النحيلة كالأشباح البارزة من كُمِّ رداء الكهنوت الواسع. لم ترتسم أي ابتسامة على وجهه المرهق، الصارم، لكن ما يشبه الابتسامة تبدت في نبرة صوته، وهو يجيب قائلا:

«amice، إن حياتنا قصيرة جدا. أخبرني بكل ما أريد معرفته.

وليكن ذلك بأشد ما باستطاعتك من إيجاز ووضوح. أم هل أقول لك أنا ما حدث لك؟».

قال غولدموند متوسلا «قل لي».

«أنت عاشق يا فتى، وقد تعرفت لتوك على امرأة».

«لا أدري كيف يتسنى لك دائما أن تعرف ما يجري لي».

«الأمر سهل. إن وجهك وهيئتك، o amice، يفضحان كل ما يدل على الثمالة التي يسميها الناس الوقوع في الحب. ولكن أرجو أن تخبرني أنت بالأمر».

لمس غولدموند كتف صديقه بحركة تنم عن حياء.

«أنت الذي أخبرني. ومع ذلك ففي هذه المرة يا نرسيس لم تحسن التعبير ولم تلتزم الدقة. إن هذا الأمر يختلف تماما عن حالة الثمالة. «لقد استلقيت هناك وسط الحقول، وأغفيت وعندما استيقظت كان رأسي مستندا إلى ركبتي امرأة، جمالها من الروعة بحيث أحسست أن أمي قد رجعت إلي، وأعادتني إلى رحمها. وهذا لا يعني أني نظرت إلى هذه المرأة وكأنها أمي. كانت عيناها ذاتي لون بني غامق، وشعرها فاحما، أما شعر أمي فكان ذهبيا كشعري، وكان وجهها مختلفا اختلافا تاما. ومع ذلك كانت هي. نادت علي، وكانت تلك المرأة رسولتها، وقد أراحت رأسي على حجرها، وقبّلته بنعومة وكأنه زهرة، وكانت رقيقة معي، شديدة الرقة حتى أن قبلتها الأولى جعلتني أشعر وكأن في داخلي شيئا قد ذاب، إلى أن سرى في كل جسمي ألم رائع. وعاد كل اشتياق سبق أن أحسست به في حياتي، وكل الأسرار والمخاوف اللذيذة التي كانت هاجعة داخلي، عادت إلى الحياة، وقد تغيرت وتجددت وأصبح لها معنى آخر. وخلال وقت قصير جعلتني أشعر أني كبرت سنين كثيرة. الآن زادت معرفتي، أصبحت فجأة متأكدا من ذلك تماما: من

أني الآن لم أعد أستطيع أن أعيش هنا، ولا حتى يوما آخر في هذا الدير. سوف أهرب حالما يهبط الظلام.».

أنصت نرسيس وهز رأسه.

قال: «لقد تكشف لك ذلك فجأة، ولكن هذا ما كنت أتوقعه دائما سوف أفكر فيك كثيرا. وسأتوق إلى إعادتك، amice، هل أستطيع أن أقدم لك أية مساعدة؟».

«نعم، إن كان باستطاعتك، قل كلمة لصالحي للأب الرئيس، حتى لا يصدر في حقي حكما مبرما. أنتما الإثنان الوحيدان في الدار اللذان تهمني أفكارهما، ورأيهما السديد. أنت وهو».

«أعرف. أهذا كل شيء؟».

«نعم، ولكن سأطلب منك ما يلي: حين تفكر فيّ في وقت لاحق، صلِّ لأجلي. و... شكرا لك يا نرسيس...».

«على ماذا يا غولدموند؟».

«على ما أبديته من صبر، وعلى صداقتك. وأيضا على أنك أنصتَّ إليَّ اليوم، في حين أن كل ما هو خارجك يتسم بصعوبة بالغة. وشكرا لك، أيضا، لأنك لم تحاول أن تعيقني».

ولم أفعل؟ أنت تعرف رأيي في كل هذا. ولكن إلى أين ستذهب يا عزيزي غولدموند؟ هل وضعت أمامك هدفا، أيها الذاهب إلى امرأتك؟».

«نعم، سوف آخذها معي. لا هدف غيرها لي: إنها تنتقل، ولا منزل لها، أو هذا ما تقوله، لعلها غجرية».

«فهمت. ولكن اسمع يا غولدموند: قد تكون طريقك معها قصيرة جدا. أعتقد أنه يجب ألا تثق بها ثقة عمياء. لعل لها زوجا أو عشيرة.

من يدري بأيّ وجه سيستقبلونك!».

مال غولدموند أكثر على صديقه، وقال:

«أعرف كل هذا، وإن لم أقلب التفكير، حتى الآن، فيه. ولكن كما قلت لك، لا هدف لي آخر. إن هذه المرأة لا تمثل لي هدفا، على الرغم من رقتها الشديدة ومعاملتها اللطيفة لي. وإذا كنت ذاهبا إليها فذلك ليس إكراما لها، وإنما لأنه يتوجب عليّ ذلك، لأنه يناديني».

تنهد ثم صمت، جلسا متلاصقين، حزينين، ولكن سعيدين بمعرفتهما أن صداقتهما لن تنتهي قط. وعاد غولدموند إلى الكلام فقال:

«لا تنظر إليّ وكأني أعمى تماما ومتهور. أنا سعيد بذهابي لأني متأكد من أني لا أستطيع أن أبقى، لأني اليوم رأيت معجزة، لكني لا أخدع نفسي، أو أتخيل أن الحياة خارج هذه الأسوار ستكون كلها سرور ومتعة. أستطيع أن أشعر أن طريقي ستكون شاقة، ولكن سواء أكانت شاقة أم هينة، فآمل أن تكون جميلة. رائع جدا أن أعشق إمرأة وأعرفها، وأمنحها الحب. لا تضحك مني إذا بدا لك ما أقوله من قبيل الجنون. ولكن قل لي ما يلي: أن أحب امرأة، وأدللها بحبي، وأضفر جسدي مع جسدها، وأشعر أن نفسي ملكها – أي كل ما تسميه «حالة حب»، الشيء الذي يبدو أنك تزدريه قليلا – ما الداعي إلى ازدرائه؟ إنه بالنسبة إلي دربي إلى قلب الحياة.».

«آه، نرسيس، يجب أن أتركك الآن. أنا أحبك، يا نرسيس، وأشكرك شكرا جزيلا لتخليك عن النوم اليوم إكراما لي. صعب عليّ كثيرا أن أودعك. هل ستنساني؟».

«لا تحزن من أجل هذا، أو تحزنني يا غولدموند. لن أنساك أبدا. سوف تعود إليّ. سأصلي كي تعود، وسأكون بانتظارك. وإذا ما وجدت

في أي وقت أن الظروف تقسو عليك، تعال إليّ، أو أرسل من قبلك رسولا. سدد الرب خطاك وحفظك، يا صديقي».

ونهض واقفا. عانقه غولدموند. لم يتبادلا القبل، كان يعرف أن صديقه ينفر من أي مداعبة، إلا أنه مسّد على يده.

اكفهرت الظلمة. أوصد نرسيس باب صومعته خلفه، وسار قاطعا الدير قاصدا الكنيسة، وصندله يقرقع على بلاط الأرضية. راقب غولدموند بعينين مفعمتين بالحب. القامة النحيلة تبتعد عنه ثم تغيب داخل إحدى انعطافات الرواق، تبتلعها ظلمة الكنيسة الفاغرة الفم. ما أشد اضطراب كل شيء، وروعته وعصيانه على الفهم. ثم هذا أيضا، كم هو مرعب وغريب: أن يأتي صديقه في مثل هذا الوقت، وهو منهك حتى شفا الموت من طول الصيام وعمق التأمل، ليسمّر أحاسيسه إلى صليب، مطأطأ الرأس رضوخا لقانون الطاعة الصارم، مصمما على ألا يخدم إلا الروح، مقدِّما جسده أضحية على مذبحه، وأصبح minister verbi divini[1] قلبا وقالبا. يتمدد هناك كجثة هامدة، شبه ميت من فرط الإرهاق، أبيض الوجه، نحيل اليدين شاحبهما، ومع ذلك مستعد لأن يولي تعاطفه المتفهم، الصافي للصديق الذي لا يزال يعلق بجسده، وشعره عبير امرأة. بل ومستعد للتضحية بفترة الراحة الوجيزة التي تفصل ما بين صلوات التوبة، ليستمع إلى أمنياته. ما أروع أن يوجد في العالم مثل ذاك الحب! الحب المملوء روحانية وفرحا المنزه عن الأنانية. ما أشد اختلاف ذلك الحب عن حب اللحم والدم المغمور بأشعة الشمس، الثمل، والمتهور. ومع ذلك فكلاهما حب. أواه، الآن غاب نرسيس عنه، بعد أن بيّن له مرة أخرى، وبوضوح تام، خلال الساعة الأخيرة التي أمضياها معا، مدى شساعة

(1) تعني: راهب الكلمة المقدسة.

البون بين طبيعتيهما. والآن سيركع نرسيس أمام المذبح على ركبتين متألمتين، تلبية لنداء يدعوه ليقوم آناء الليل ويتعبد ولا يسمح له بالنوم إلا ساعتين، أما هو، غولدموند فسيتسلل هاربا ويقابل ليزا في مكان ما تحت الأشجار، ليمارسا معا من جديد لعبة الحيوانات الممتعة. ولو كان نرسيس لقال في ذلك المكان كلاما فذا. ولكنه ليس نرسيسا. إنه ليس مؤهلا لحل الألغاز الصعبة المعسولة، بكلام فذ يشرحها: كل ما في استطاعته أن يفعله هو أن يسير في دربه المجنون بوصفه غولدموند، دون أن يعرف إلى أين سيوصله، كل ما كان في وسعه أن يفعله هو أن يستسلم لقدره، وأن يحب صديقه المكرس للصلاة في الكنيسة المعتمة حبا لا يقل عن حبه للدفء الرقيق لدى ليزا التي تنتظره.

أما الآن، وألف اشتياق تتصارع في قلبه، وهو يتسلل من تحت أشجار الدير، ويرتقي المطحنة ليهرب منها، لم يسعه إلا أن يبتسم لدى تذكره فجأة تلك الليلة قبل وقت طويل، حين كان مع كونراد، واستخدما هذا الممرّ السرّي ذاته للهروب من الدير، متسللَين معا «إلى القرية». كم كان خائفا على الرغم من كل الإثارة، وهما يزحفان، واحدا إثر آخر، من خلال الفتحة الصغيرة! والآن سيمر خارجا منها إلى الأبد، إلى دروب خطرة، أشدّ خطرا عليه بكثير، إلا أنه الآن لا يشعر بأي خوف، ولا يحسب أي حساب لرئيس الدير، ونسي الأخ الحمال، والمدرسين.

هذه المرة لم تكن هناك ألواح خشب في المطحنة، لذا كان عليه أن يعبر دون جسر. فتجرّد من ملابسه، ورمى ثيابه إلى الضفة الأخرى، ونزل إلى جدول المطحنة المدوم، البارد العميق، حتى صدره في المياه المثلجة. وعندما عاد وارتدى ملابسه رجعت أفكاره إلى نرسيس. عندئذ شعر بخجل شديد، وأدرك بوضوح، في تلك اللحظة، أنه لم يفعل إلا ما قاده الآخر إلى فعله وتنبأ له به. عاد إلى ذاكرته بوضوح

تام ذاك النرسيس الحاذق، الساحر، ذاك المفكر الذي تلفظ أمامه بكثير من الحماقات، الصديق الذي فتح له عينيه على ثمن مثل هذا الألم الحاد في ساعة مصيرية. كاد يسمع من جديد بعض الأقوال التي أدلى بها له صديقه نرسيس، وكأنه يلقيها أمامه: «أنت تنام على صدر أمك، وأنا أرسل ناظريّ إلى الصحراء». «أحلامك كلها تدور حول الفتيات، وأحلامي عن الفتيان».

شعر برهة من الزمن أن قلبه قد تجمد، وقف وسط الليل، وحيدا، يملؤه الخوف: خلفه الدير، المنزل الزائف، ولكنه أحبه ومكث فيه طويلا.

ولكن مع الخوف انتابه إحساس آخر: إن نرسيس منذ الآن وإلى الأبد، لم يعد متقدمه ومرشده، الصديق الذي يستخدم عينيه بالنيابة عنه. واليوم يشعر أنه ضل الطريق إلى بلد وعليه أن يعثر فيه على الطريق وحده، ولا وجود لنرسيس ليرشده. وفرح لإدراكه أنه يعرف هذا: كان يخجله ويدخل الاضطراب في قلبه أن يعود بفكره إلى أيام دراسته. الآن اتضحت الرؤيا أمامه، لم يعد تلميذا ولا طفلا.

جميل أن يعرف: ومع ذلك، ما أصعب الرحيل. ما أصعب أن يتذكر نرسيس، وهو راكع هناك على ركبتيه في الكنيسة المعتمة. ما أصعب ألا يبقى لديه ما يمنحه إياه، وألا يكون قادرا على مساعدته، وألا يعني له شيئا. ما أصعب أن يغادره لفترة طويلة، وربما إلى الأبد، وما أصعب ألا يتحسسه بعد الآن، أو يسمع صوته، أو ينظر في عينيه الجميلتين الصافيتين.

انطلق، وطرَق الدرب المحصاة. و على بعد مائة خطوة عن الدير توقف، أخذ شهيقا، ثم أطلق صرخة تشبه إلى حد بعيد صرخة بوم. فأجابه صراخ بوم آخر عن بعد ، قادما من جهة الجدول.

وخطر له أن يقول «إننا ننادي على بعضنا البعض كما تفعل بقية الحيوانات». وتذكر ما دار بينهما من حب في مساء ذلك اليوم. عندئذ فقط تذكر بجلاء كم كانت قليلة الكلمات التي تبادلاها، كيف أنه لا هو ولا ليزا خطر لهما أن يتكلما إلا بعد أن فرغا من الحب. حتى بعدئذ كانت كلماتهما سريعة وغير ذات أهمية.

ما كان أطول أحاديثه مع نرسيس! أما الآن، فيبدو أنه قد ولج عالما لا قيمة فيه للكلمات، حيث التخاطب بصرخات الطيور، ولا كلام. كان مستعدا لهذا، ما دام منذ اليوم لم تعد به حاجة إلى الكلام أو إلى الأفكار، هو محتاج فقط إلى ليزا، إلى مداعباتها المثيرة دون كلام، إلى شهوتها وإشباعها المتلهف.

كانت ليزا قد وصلت باكرا، واقتربت نحوه قادمة من الغابة. فمد كلتا ذراعيه ليلمسها، وبيدين حانيتين رقيقتين مسّد على رأسها وشعرها، ونحرها، وكتفيها، وجسدها البض النحيل حتى ركبيها. انزلقت ذراعه ملتفة حول خصرها، ومضيا معا دون أن ينطقا كلمة واحدة، ولا هو فكر في أن يسألها إلى أين تقوده. كانت خطواتها واثقة، متقدمة داخل الغابة، وكان يواجه بعض الصعوبات في مجاراتها، وبدت كأن عينيها تريان الظلام، مثل عيني الدلق أو الثعلب، وواصلت طريقها دون أن تتعثر مرة واحدة أو تضرب رأسها في الأغصان الخفية. تركها تقوده خلال الليل إلى الجزء الأكثف من الغابة، إلى أماكن سرّية، مسدودة دون كلام، في أرض خالية من الأفكار. لقد غفت أفكاره كلها، حتى الأفكار التي تدور حول بيته، والدير، وتفكيره في نرسيس.

واصلا تقدمهما دون أن يتبادلا كلمة واحدة داخل الغابة المظلمة، عبر الطحالب ذات النمو الرقيق وكتل الجذور القاسية. أحيانا، من

بين قمّتيْ شجرتين باسقتين غير كثيفتين كانت تومض بقعة نائية من السماء بضياء شاحب، ثم يعود الظلام دامسا. كانت الأغصان تضرب وجنتيه، والعُلّيق يعلق على ملابسه، ويعيق تقدمه. وكانت هي، في كل مكان، تعرف وجهتها دون أن ترتكب أي خطأ، دون أن تفقد أثرها، ونادرا ما توقفت، نادرا ما تخلفت. وبعد طول مسير خرجا إلى ساحة مكشوفة، فامتدت سماء باهتة أمامهما وحولهما تظلل أشجار صنوبر تفصل بين مساحات كبيرة، وامتد واد مكسو بالمروج. وخاضا في جدول ماء صغير يجري بصمت. هنا في هذا المكان المكشوف ساد هدوء أعمق مما كان داخل الغابة: فلا خشخشة بين الشجيرات، ولا حيوانات تجري مسرعة ولا طيور تصرخ لتعكر صفو الليل، ولا فروع تتكسر. وتوقفت ليزا بالقرب من كومة قش.

قالت «سنمكث هنا».

استقرا معا على التبن. في أوّل الأمر سعدا بجلوسهما، جنبا إلى جنب ليستريحا، وتمددا لطولهما ينصتان إلى صوت الصمت، وقد نال جسديهما قدر من التعب.كانا يشعران بالعرق يجف ببطء على جبينيهما، وبالبرودة على وجنتيهما. جثم غولدموند سعيدا بإرهاقه، ثم قوّس ركبتيه على سبيل الهزل، وعاد فمدد ساقيه، مستنشقا أنفاس الليل، وعبق التبن، على دفعات طويلة عميقة، لا يفكر في ماض ولا مستقبل. ولم يترك نفسه تنغمس في الحب إلا على مراحل بطيئة بتأثير من دفء حبيبته الساحر وعبيرها، وذلك بالرد، قليلا، على ملامسات يديها بمداعبات منه. كان سعيدا لأنها هي أيضا بدأت تنتشي، وتتلوى مقتربة منه، لا، لا حاجة هنا إلى اللجوء إلى الكلام والأفكار، كان يدرك بوضوح ما يلزم للحصول على هذه البهجة، إنه النسغ الشاب الذي يسري في جسده، وجمال الحسناء الرقيق،

الصافي، ودفؤها الممتع ونهمها المتشبث، ومعرفته على الفور أنها تطلب منه أسلوبا آخر في الحب مغايرا لما عرضته عليه في وضح النهار، إنها الآن لن تعلّمه ولن تغويه، بل ستظل مستلقية مشدودة الأعصاب، في انتظار أن تتلقى انقضاضه ورغباته المشبوهة. استلقى هادئا، وترك دفق اشتياقها الجنسي يتغلغل في جسده، وتزايد اللهب الصغير برقة وإثارة، ليغدو حياة راقصة فيهما معا، محوِّلا مكان نوم الفجر إلى قبة من البهاء المتوهجة بالقوة، منتشرة لتشمل الليل الواسع الصامت كله. وحين مال فوق وجه ليزا وهمّ بتقبيل شفتيها في الظلام، رأى فجأة وميضا شاحبا ضائعا يحيط بعينيها وجبينها: توقف متسائلا، إلى أن تكثف التوهج الخفيف بسرعة. ثم فهم، والتفت. كان القمر المتسلل قد تسنم كبد السماء المفتوحة فوق فرج الغابة، الطويلة، السوداء المنتشرة وأخذ يراقب الضوء الشاحب يزداد متدفقا برفق، هبوطا عبر جبينها ووجنتيها، وفوق نحرها الدافئ المدور. وهمس معبرا عن بهجته في أذنها: «آه — ما أجملك!».

ابتسمت، وكأنها تمنحه هبة: ارتفع معتمدا على مرفقه. راح يزيح عنها بلطف ثوبها، ويساعدها في طرحه جانبا، ويزيل عنها قشرتها إلى أن كشف عن صدرها وكتفيها فسطعت وسط الليل الرقيق، البارد. وواصل، كابحا افتتانه، تتبّعه للطيف الشفاف بعينيه، وشفتيه على امتداد جسدها، يقبلها، ويتأملها. كانت مستلقية كالميتة، كالمسحورة، عيناها مغمضتان، وعلى وجهها سيماء التهذيب البالغ، وكأن جمالها في تلك اللحظة كان قد انكشف للمرة الأولى، حتى بالنسبة إليها.

الفصل السابع

بينما ضوء القمر يتسلل ممتدا على الحقول، ويعلو أكثر فأكثر، ساعة بعد ساعة، كان العاشقان يستلقيان معا على سريرهما النفيس، غائبين في متعهما، يستيقظان ويغفوان، وحين يستيقظان، يلتفت كل منهما نحو الآخر، ليضرما النار بينهما من جديد ، وليندمجا، ليغدوا شخصا واحدا، ثم يعودان إلى النوم من جديد. وبعد أن انتهيا من عناقاتهما الأخيرة، همدا مرهقين، ليزا بوجهها مدفونا في التبن، وغولدموند ممددا على ظهره، يرنو عاليا إلى درب التبانة. وانتفض داخل كل منهما حزن عميق، أشاحا بوجهيهما عنه لائذين بالنوم. وحين أفاقا رأى غولدموند ليزا مشغولة بترتيب شعرها الطويل، فتابعها برهة من خلال عينين ناعستين.

أخيرا قال: «استيقظت منذ الآن؟».

التفتت إليه مجفلة، وكأنه فاجأها وأفزعها، وقالت وفي صوتها المنخفض نبرة من إحساس قليل بالذنب «يجب أن أتركك الآن. لم أقصد أن أوقظك».

«لكني استيقظت الآن، أعلينا أن نرحل على الفور إذن؟ ليس لدينا منزل».

قالت ليزا «نعم، نعم، لدينا. أنت قدمت من الدير».

«لن أعود إلى الدير مطلقا. أنا مثلك، أنا وحيد ولا مأوى لي. طبعا

سآتي معك».

أشاحت بوجهها عنه.

«غولدموند لا يمكنك أن تأتي معي. يجب أن أذهب إلى زوجي. سوف يضربني لأني غبت طوال الليل. سوف أخبره أني ضللت طريقي، وطبعا لن يصدقني مطلقا».

هنا تذكر غولدموند كيف تنبأ نرسيس بهذا. وها قد تحقق.

نهض واقفا ومد لها يده.

«لقد ارتكبت خطأ، ظننت أننا يجب أن نبقى معا إلى الأبد. ولكن هل تعمدت أن تتركيني نائما لترحلي دون مزيد من الكلام؟».

«أوه، حسبت أنك ستسيء الفهم، وإنك ربما ضربتني. إن زوجي يضربني، ولكن هذا من حقه، وفق القانون. ولم أرد أن تضربني».

ظل قابضا على يدها.

قال: «ليزا، لن أضربك أبدا. لا اليوم، ولا في أي وقت آخر. ألا تفضلين أن تأتي معي على أن تعودي إلى زوجك الذي يضربك؟».

أفلتت منه وابتعدت.

صرخت بصوت منتحب «لا، لا، لا!». ولما كان يشعر في سريرته أنها تكافح كي تبتعد عنه، وأن ضرب زوجها لها أحلى عندها من كلماته العذبة، حرر يدها، وطفقت تبكي. إلا أنها وهي تبكي كانت تركض. هربت منه وهي تضع يدها على عينيها المخضلتين ولم يضف أية كلمة أخرى، وتابعها وهي تبتعد. وأشفق عليها في نفسه، وهو يراها تعدو عبر المروج المجزوزة حديثا تبعدها عنه قوة ما، مجهولة تناديها، ومجرد إحساسه بهذا ألهب تفكيره. أشفق عليها، وأيضا أشفق على نفسه، قليلا: يبدو أن حظه قد خانه هذه المرة، جلس وحده، يشعر أنه

مهجور، حزينا مهزوما. لكنه كان ما يزال مرهقا ويتوق إلى النوم. ولم يكن قد شعر قط بمثل ذلك الإرهاق. لاحقا سيتاح له الوقت للحزن: وأغمضت عيناه من تلقاء نفسهما، ولم ينهض إلا بعد أن ارتفعت الشمس إلى سمت السماء، وأشرقت عليه وأيقظته.

الآن بعد أن نال كفايته من الراحة، قفز ناهضا وهرع إلى الجدول، فاغتسل وشرب. ثم بدأت الذكريات تتوافد عليه، على شكل صور أشبه بأزهار من أرض غريبة، أعادته إلى حديقة الليل البهيجة، إلى أحاسيس الرقة والجمال. فتبعها واقتفى أثرها وهو يقطع الحقول على غير هدى: استعاد كل متعة أحس بها، لمسها مرة بعد مرة واستمتع بها. كم من حلم أثارت فيه هذه السمراء الجميلة، كم برعما أزهر على يديها، كم رغبة قلقة بعثت لديه، كم أيقظت فيه من أشياء.

امتدت أمامه غابة وأرض بور، أرض مراحة وغابة قاتمة اللون، وبعدها كانت الطواحين، والقلاع، والقرى، ومن ثم بلدة مسورة. الآن بات العالم أخيرا مفتوحا أمامه، جاهزا لأخذه بين أحضانه، لمنحه نصيبه من المتعة والألم: لم يعد تلميذ مدرسة، يحدق إلى العالم من خلال نوافذ ضيقة، ودربه ليست نزهة صيفية نهايتها عودة ثانية. إن الأرض الشاسعة هي واقعه، وهو جزء منها، وفيها يكمن قدره، وسماؤها سماؤه، وتقلبات حالها من تقلباته. إنه كيان صغير في عالم واسع، يجري في الحقول كأرنب بري، ينطلق مسرعا في طريقه، كدودة بيضاء عبر أبدية خضراء وزرقاء، ولا وجود لجرس ليجره خارج سريره، ويرسله إلى الكنيسة والمدرسة ولتناول الطعام. كم هو جائع! نصف رغيف من خبز الشعير، وطاس من الحليب، وطبق من الحساء – يا للذكريات الساحرة! بطنه تعوي كالذئب. ثم وصل إلى حقل مزروع بالذرة الصفراء، تنتصب نصف ناضجة: أخذ يقشر

الكيزان بأسنانه وأصابعه، ويقضم الحبوب الصغيرة اللامعة بتلذذ، جمع المزيد، المزيد من كيزان الذرة، وحشا بها كل جيوبه. ثم عثر على ثمار بندق، ما تزال جدّ خضراء ، كسر قشورها باستمتاع، و جمع منها أيضا.

مرة أخرى دخل منطقة حراجية: من أشجار الصنوبر، مع بعض أشجار السنديان والدردار هنا وهناك. وهنا وهناك عثر على الكثير من عنب الأحراج، ثم توقف، وجلس ليرتاح. رأى أزهار الجريس الزرقاء تنمو وسط تجمعات خشنة هزيلة من عشب الغابة، ورفرفت فراشات بنية مشرقة مارة به، ومن ثم اختفت في طيران مشتت. في مثل هذه الغابة عاشت القديسة جنفييف، التي كان يحب النظر إلى وجهها. كم كان يود لو يتحدث معها. لعل هنا في الغابة ثمة ملاذ، حيث يقبع راهب عجوز مسدل اللحية في تجويف بين الصخور أو في كوخ مضفور من أغصان النبات. وقد توجد مواقد على الفحم في هذه الغابة، ومع هؤلاء القوم يسره أن يقضي وقته. قد يكونون من اللصوص، ومع ذلك فلن يؤذوه. كان يسره أن يقابل أناسا، من أي نوع كانوا. لكنه كان يعرف أن سيره على غير هدى في هذه الغابة سيطول – اليوم، غدا، أو أياما عديدة قادمة، دون أن يقابل أحدا. يمكنه أيضا أن يقبل هذا، إن كان هو قدره. إن المغالاة في التفكير أمر سيء، ومن الأسهل تقبل الأشياء حسبما تتوارد. سمع طائر نقار الخشب ينقر وحاول أن يلاحقه خلسة. حاول طويلا، وعبثا أن يعثر عليه ببصره، وأخيرا نجح، وجلس هناك القرصفاء برهة يراقبه وهو يثقب الشجرة التي يقف عليها ويدقها في عزلة، يحرك إلى هذه الجهة وتلك رأسه المشغول متباهيا. لماذا لا يملك لغة ليستخدمها في التخاطب مع الحيوانات؟ كان سيسره أن يحيّي نقار الخشب هذا، ويقضي معه

سحابة النهار، ويسمعه يتحدث عن عمله بين الأشجار، عن حياته وأصدقائه. آه، ليت في وسع الإنسان أن يغير شكله ! إنه يذكر كيف كان يحفر ، في أوقات فراغه، على الخشب مستخدما قلم السمّة، أشكالا لأوراق شجر وأزهار، وأشجار، وحيوانات، ولرؤوس بشرية، وكثيرا ما كان يمارس هذه اللعبة على نفسه فيعمل، مقتفيا في ذلك قليلا أسلوب الرب سبحانه، على تكوين مخلوقاته حسب هواه، مضفيا على كأس الزهرة عينين وفما، محوّلا الأوراق الخضراء الناتئة في غصن إلى أصابع بشرية، أو يثبت رأس إنسان على قمة شجرة. هذه اللعبة كانت تشيع فيه البهجة على مدى ساعات، وهو يرسم خطا ويترك نفسه على سجيتها ليفاجأ حين يتشكل له ورقة خضراء أو رأس سمكة، ذيل ثعلب أو حاجبا في وجه. الآن بات بإمكانه أن يجوب العالم، كما قال لنفسه، بالسهولة نفسها التي كانت تتحول بها خطوطه التي يرسمها عابثا إلى أشكال. تمنى غولدموند لو يغدو طائر نقار الخشب، ولو ليوم واحد ربما، أو لشهر، ويعيش متسنما قمم الأشجار، محوّما فوق ذرى الجذوع الملساء. ينقرها بمنقاره الحاد القوي، ويتوازن عليها مستعينا بريش ذيله. لكان تكلم بلسان نقار خشب ونبش الطيبات من لحاء الأشجار. ورن وقع ضرب المنقار عذبا في أذنه.

قابل غولدموند حيوانات عديدة وهو يشق طريقه داخل الغابة، قابل الكثير من الأرانب البرية تنطلق مسرعة كالسهام خارجة من بين نبات السرخس لدى اقترابه منها، بيضاء اللون تحت أذيالها الصغيرة. ومرة، في فسحة صغيرة، صادف أفعى طويلة ملتفة، لكنها لم تنزلق مبتعدة، فلم تكن أفعى حية، كانت مجرد جلد خاو، تناوله وأخذ يتفحصه. كان مغطى بكامله بزخارف جميلة، بنية اللون وخضراء، وبرزت الشمس، فإذا بالجلد هش كنسيج العنكبوت. شاهد

طيور الجنقلة بمناقيرها الصفراء، تحدق إليه من خلال عيون صغيرة خائفة، سوداء، مدورة، ثم تطفر منطلقة أسرابا، قريبة من الأرض. وكانت هناك طيور أبو الحناء، والدوري، وفي مكان ما من الغابة كانت هناك بركة ماء، مستنقع عميق آسن، مياهه غليظة مخضوضرة، تعج فوقها عناكب مسرعة بانشغال ومثابرة، يلاحق بعضها بعضا كالمسوسة، منهمكة بنشاط غامض، يحوم فوقها يعسوبان ينطلقان إلى هنا وهناك بأجنحة زرقاء غامقة.

ومرة، بعد هبوط الليل، شاهد شيئا – أو ربما لم يكن ثمة أي شيء، وإنما كان مجرد حركة سريعة واهتزاز بين الشجيرات القصيرة، سمع صوت تكسير أماليد، وصوتا مكتوما لتربة تُحفَر، ورأى حيوانا ضخما، لا تكاد تبدو ملامحه، ينخر بين الأوراق الخضراء ويندفع بعنف. لعله أيل، لعله خنزير بري، لم يكن متأكدا. توقف فترة طويلة، يلهث من الخوف، وأذناه منتصبتان من الرعب، ينصت لضرب القدمين المسرعتين المكتوم، وبعد أن عاد كل شيء إلى هدوئه، ظل ساكنا مشدود الأعصاب، وقلبه يخفق بقوة.

لم يتمكن من العثور على سبيل للخروج من الغابة، فكان عليه أن يمضي الليل فيها. وبينما هو يبحث عن مكان يأوي إليه، ويجمع كومة من الطحالب ليصنع سريرا، حاول أن يتصور حاله وهو لا يتمكن من إيجاد مخرج من الأدغال، ويضطر إلى العيش فيه، إلى الأبد. ورأى أن ذلك سيكون أمرا فظيعا. وأخيرا أخذ يعتاد على العيش على أكل ثمار العليق، بوسعه أن ينام على كومة من الطحالب إذا أراد، ولا شك في أنه سينجح قريبا في بناء كوخ، أو ربما، أيضا، أن يضرم نارا. أما البقاء وحيدا إلى أبد الآبدين، تحيط به جذوع الأشجار الساكنة، الهاجعة، لا رفاق لديه غير الحيوانات، تندفع مارة أمام ناظريه،

لا يستطيع أن يتبادل معها أي كلمة – سيكون ذلك شيئا لا يحتمل بشكل محزن. أن لا يرى أي إنسان آخر، أن لا يقول سَعدت مساءً أو سَعدت صباحا، أن لا يتبادل مطلقا النظر في وجوه إنسانية مع عيون إنسانية، أن لا يرى فتاة أو إمرأة، أو يشعر بقبلتها، أو يمارس معها لعبة الشفاه والأعضاء، السرّية الممتعة – آه، يا لها من فكرة بغيضة. وقال في نفسه، إن كان هذا هو قدري فيجب أن أسعى كي أتحول إلى حيوان، إلى دب أو أيل، وإن كنت بهذا إنما أسخر من روحي الخالدة. إن التحول إلى دب وعشق دبة، ليس بالحياة السيئة، على الأقل ستكون حياة أفضل بكثير من الاحتفاظ بعقله وأفكاره، وكل ما يجعل منه إنسانا، إلا أنه سيعيش وحيدا، بلا حب، حزينا.

استغرق في النوم على سرير الطحالب، أنصت بفضول وخوف، إلى أصوات ليل الغابة، العديدة الجديدة، المبهمة والغريبة. هؤلاء هم رفاقه الآن، وعليه أن يقبل الإقامة معهم، أن يعتاد عليهم جميعا، أن ينافسهم، وأن يتأنى في معاملتهم: الآن بات مساويا للغزلان والثعالب، وأشجار الصنوبر والتنوب، يجب أن يحيا حياتها، أن يشاركها الشمس والهواء، أن ينتظر معها بزوغ النهار، أن يجوع معها وأن يكون ضيفا بينها.

ثم استغرق في النوم، وحلم بحيوانات وبشر، أضحى دبا، والتهم ليزا وهو يمارس الحب معها. وفي قلب الليل أفاق مرعوبا لا يدري لماذا، يستشعر حزنا رهيبا في قلبه.

ظل مستلقيا وقتا طويلا يتفكر في قلق. ثم تذكر أنه أوى بالأمس وهذه الليلة، دون أن يتلو صلاته. فنهض وركع بجانب سرير الطحالب وتلا صلاة المساء مرتين معا، واحدة لليلة الفائتة وواحدة لهذه الليلة. وسرعان ما عاد يستغرق في النوم.

عند انبلاج ضوء النهار استيقظ مذهولا، ولم يتذكر أين هو، وسرعان ما خف خوفه من البرية، وهكذا اتكل على حياة الأدغال، وقلبه مفعم بفرح جديد، وإن ظل يسعى للعثور على سبيل للخروج منها، وواصل تشرده، ووجهه يقابل وجه الشمس. ومرة عثر على درب يشق الغابة، درب مطموس، قد نبت عليه قليل من النبات، وكانت الغابة من حوله تتألف من جذوع أشجار الصنوبر العتيقة والضخمة جدا، تسمق مستقيمة نحو السماء. وبعد أن سار مسافة قصيرة تحت هذه الأشجار أخذت تذكره بأعمدة كنيسة الدير الضخمة في ماريابرون، التي كان قبل وقت قريب، قد شاهد نرسيس يغيب داخلها. متى كان ذلك؟ أكان حقا فقط قبل يومين؟.

ظل يهيم على وجهه في الغابة ثلاثة أيام وثلاث ليال. ثم أسعده أن يجد أنه قد عاد إلى عالم البشر، إنها أرض محروثة ينبت عليها الشوفان والشعير، وثمة مروج، أبعد قليلا، شاهد عليها، هنا وهناك، ممرا بين الحقول. قطف غولدموند بعض الجاودار وأخذ يمضغه، ورحبت به أرض محروثة بكل ود، وكان كل ما يشاهده يبث فيه الشجاعة ويصادقه. بعد طول تشرد تحت الأشجار، الدرب الضيق، والتيس، ونبات القنطريون العنبري الغض المرتعش. قريبا سيقابل بشرا من رجال ونساء. وبعد وقت قصير شاهد أرضا محروثة، وقد أقيم عند حافتها صليب، فركع تحته وتلا صلاة.

قاده الدرب الملتف حول انعطافة رابية، إلى ظل شجرة زيزفون. وهناك سمع، والبهجة تملؤه طرطشة مياه جدول، وهي تتدفق من خلال أنبوب خشبي إلى حوض: شرب من هذا الماء النمير اللذيذ، ورأى، والسعادة تملؤه، تكتلا من الأسقف القشية المتلاصقة بين الأشجار العتيقة، ونبات العليق الذي توجد بينه ثمار ناضجة مبكرا.

ولكن أبعد كثيرا من كل هذه المشاهد الودودة تناهى إلى سمعه خوار بقرة، دافئا، رقيقا ،مرحبا كما لو أنه صوتٌ إنسانيٌّ.

استطلع حول الكوخ الذي رحبت به منه البقرة. فوجد أمام باب المنزل صبيا صغيرا أحمر الشعر أزرق العينين جالسا على التراب: وإلى جواره إبريقٌ من الصلصال، مملوء بالماء، وكان الصبي يصنع، أيضا بالماء والتراب معا، أقراصا من الطين، وقد تلطخت به ساقاه العاريتان. كان يعجن الطين بسعادة ورصانة، ويراقبه وهو يسحق خارجا من بين أصابعه، ويصنع منه كراتٍ صغيرةً، ويستعين بذقنه لتساعده في العمل.

قال غولدموند بهدوء «حفظك الرب يا بني الصغير». ولكن حين رفع الصبي بصره ليرى الغريب فغر فاه واسعا ليطلق صرخة، وتغضنت تقاطيع وجهه الصغير، واندفع مبتعدا إلى باب المنزل، وهو يعوي. تبعه غولدموند إلى المطبخ، فألفى الضوء خافتا جدا، حتى أنه للوهلة الأولى لم يتمكن من رؤية أي شيء بوضوح، بسبب قدومه من نور الشمس الساطع. ولكن توخيا للحرص ألقى تحية مسيحية لكل أرجاء المنزل. فلم يحظ بجواب، حتى بعد أن سمع صوتا رفيعا عجوزا يجأر، متحدثا ليهدئ من روع الصغير. وأخيرا خرجت امرأة عجوز ضئيلة الحجم في الظلام، تظلل عينيها لتميز الرجل الغريب.

قال غولدموند «حفظك الرب يا أماه، وليبارك كل القديسين وجهك الطيب. منذ أيام عديدة لم أقابل كائنا بشريا».

ألقت عليه العجوز نظرة ماكرة بسيطة.

وسألته مرتابة: «ماذا تريد؟».

قدم لها غولدموند يده، وداعب يدها قليلا.

«أردت أن أقول «حفظك الرب» يا أماه الصغيرة، وأن آخذ قسطا

قليلا من الراحة هنا في مطبخك، لأساعدك في إضرام نارك. ولا أمانع إذا قدمت لي كسرة خبز، ولكن لا داعي للعجلة».

رأى مقعدا، مسندا إلى الجدار، فجلس عليه ليرتاح، بينما كانت العجوز تقطع من رغيفها قطعة لتعطيها للصغير، الذي بات متلهفا وفضوليا، وإن كان مستعدا للانفجار في نوبة بكاء، وللهروب، ووقف إلى جوارها، يحدق عاليا إلى الغريب. قطعت قطعة أخرى، وقدمتها لغولدموند.

قال «شكرا لك، جزاك الرب».

سألته: «أمعدتك خاوية إلى هذا الحد؟».

«ليس من هذا، هي ممتلئة بثمار العليق».

«إذن، كل. من أين أتيت؟».

«من ماريابرون، من الدير».

«أنت كاهن؟».

«لا، وإنما طالب مسافر».

أنعمت نظرها فيه بشيء من السخرية والبساطة، ورأسها يهتز قليلا فوق عنقها العجوز المجعد النحيل. وتركته يمضغ لقمتين وأعادت الصغير إلى نور الشمس. ثم رجعت، وكلها فضول، لتسأله:

«ألديك أخبار؟».

«قليلة جدا يا أماه. هل تعرفين الأب العجوز آنسيلم؟».

«لا، ولكن ما باله؟».

«إنه مريض».

«مريض؟ أهو يحتضر؟».

«ربما من يدري؟».

«حسنا، فليمت إن كان لا بد. يجب أن أطهو الحساء. ساعدني في تقطيع الضّرم».

ناولته زندا من خشب الصنوبر، جُفّف جيدا على الموقد، وفأسا. قطّع لها كل الضّرم الذي تحتاجه وراح يراقبها وهي تضعه على الرماد، تنحني فوقه، تميل وتئز، إلى أن اشتعلت عيدان الإضرام. وأخذت تكوم ما لديها من غصينات الصنوبر، بطريقتها الخاصة، الدقيقة والسرية، فوق ألسنة اللهب، وتلظت النار بوضوح في الموقد المفتوح، ووضعت فوقه قدرا كبيرا أسود اللون معلقا من مسمار صدئ فوق حجر الموقد.

توجه غولدموند، تلبية لأوامرها، إلى الغدير لجلب الماء. وقشد الحليب من دلائها، ثم جلس يراقب في ضوء الغسق الملبد بالدخان تراقص ألسنة اللهب، ووجه العجوز، الجعد، البارز العظام، يتنقل جيئة وذهابا فوقه، وسط الوهج الأحمر. وعلى القرب، من خلال الجدار الخشبي، كان يسمع الأبقار وهي تتدافع وتحتك في زرائبها. كان كل شيء يشيع فيه سرورا عظيما. كل شيء هنا كان جميلا وطيبا، يحدثه عن السكينة، وعن بطن شبعانة: ثمة شجرة الزيزفون وإلى جانبها الغدير، واللهب المتقافز تحت القدر، وحركة الأبقار المضطربة وهي تعض على شكائمها وتخن، وصوت احتكاكها الأخرق بالجدار. وكانت هناك في الجوار عنزتان، وزريبة للخنازير، هكذا قالت له العجوز، في الجانب الآخر للكوخ. قالت إنها جدة سيد البيت، والجدة الكبرى للصبي الصغير الذي زعق. اسمه كونو: كان يتجول داخلا خارجا، لكنه لم يفه بأية كلمة، ويرفع نظرة مذعورة إلى غولدموند، وإن كان قد كف عن العويل. ثم جاء رب البيت وزوجته، وتملكه ذهول تام لدى رؤية هذا الغريب. في أول الأمر بدا الرجل فظا، إذ قبض بقوة

على ذراع الطالب مرتابا، وجره إلى الأمام ليتمكن من رؤية وجهه في ضوء النهار. إلا أنه بعد ذلك ضحك، وصفعه على كتفه، ثم دعاه إلى الدخول لتناول الطعام. جلسوا جميعا، وجعلوا يغمسون الخبز في وعاء الحليب، إلى أن انخفض مستوى الحليب، فتناول رب البيت الوعاء وراح يشرب. وسأل غولدموند إن كان بمقدوره أن يمكث معهم حتى الصباح وينام كضيف تحت هذا السقف. قال الرجل، لا، لا مكان له هنا، ولكن في الخارج يوجد ما يكفي من القش، ويمكنه بسهولة أن يصنع منه سريرا.

وضعت الزوجة ولدها الصغير إلى جوارها، ولم تسهم بأي كلمة في الحديث. لكنها وهي تتناول الطعام ازدادت عيناها فضولا ولم تعد تشبع من النظر إلى هذا الطالب الشاب المليح: شعره وعيناه على حد سواء فتناها، ثم رأت عنقه الأبيض، الرائع، وجمال يديه النبيل، وهما تتحركان برشاقة إلى هذه الجهة وتلك. إن هذا الغريب هو من سكان المدن ومن النبلاء، وشاب غض. أما أكثر ما جذبها إليه وفتنها فصوته الرجولي الشاب، الذي بدا وكأنه يغني لها، دافئ النغمات، وهو يناشدهم، وكان عذبا كمداعبة. وودت لو أنه يمكث مدة أطول لتنصت إليه.

بعد فراغهم من تناول الطعام توجه رب البيت إلى زريبة الأبقار للقيام ببعض العمل. وخرج غولدموند ليغسل يديه في الجدول الجاري، ثم جلس على حافة الحوض المنخفض، لينعش وجهه وينصت إلى خرير المياه. كان مرتبكا، لقد نال كل ما احتاج إليه من هؤلاء القوم، ومع ذلك لم تكن به رغبة في مغادرتهم الآن. ثم جاءته الزوجة مع إبريقها، وضعته تحت النبع ليمتلئ. وقالت بصوت منخفض:

«إذا مكثت هذه الليلة، فسأحضر لك لقمة لعشائك. هنالك خلف

حقل الشوفان الباسق، ثمة كومة من القش، ولن يتم إدخاله قبل الغد. فهل ستمكث؟».

أمعن النظر في وجهها المنمش، وراقب ذراعيها القويتين وهي ترفع الإبريق، وشعر بكل الدفء العارم الذي تفيض به عيناها الواسعتان الصافيتان. ضحك وهز رأسه موافقا، وسرعان ما غابت عن نظره، مع إبريقها المنزع، داخل إطار الباب. مكث لبعض الوقت، سعيد القلب، ينصت إلى تدفق الغدير ويشكرها: ثم ولج إلى الكوخ، يبحث عن رب البيت، ومد له وللجدة العجوز يده مودعا، مقدما شكره لهما. كان الكوخ يعبق بروائح الدخان والسخام، والحليب. قبل دقيقة كان يعتبره منزله الخاص، ومأواه، وإذا به الآن يغدو مكانا غريبا. قدم تحياته ثم غادرهما.

بعد منطقة الأكواخ عثر على كنيسة صغيرة، وبالقرب منها أيكة جميلة، ومجموعة من أشجار السنديان العتيقة القوية، وتحتها مرج. توقف برهة في ظلها، متنزها بين جذوعها الثخينة. قال في نفسه، ما أغرب الطريقة التي تعشق بها النساء، حقا إنهن لا يحتجن إلى الكلمات. وهذه المرأة التي لم تحتج معه إلى كلمة واحدة، لتخبره عن المكان الذي عليه أن يقابلها عنده، أما كل الباقي فقيل دون استخدام أي كلام. كيف عبرت له؟ بالعينين، وبنبرة خاصة في صوتها المنخفض، ومن ثم، بشيء آخر، بانبثاق معين، رقة تشع من كل جسدها، هي دلالة يعرف بواسطتها كل الرجال والنساء دون إفصاح أن كلا منهم مصدر سرور للآخر. كان كل شيء غريبا غرابة لغة سرّية، ومرهفة جدا، ومع ذلك تعلمها بسهولة شديدة، كان قلبه يطفر فرحا لدى تفكيره في الليلة القادمة، ويشتاق لمجيء الوقت الذي سيتعرف فيه على طريقة هذه المرأة القوية، الذهبية الشعر، في ممارسة الحب، كيف ستستجيب

أطرافها للمساته، وكيف ستتحرك مع حركته وتقبله: لا شك في أنها ستكون مختلفة كثيرا عن ليزا.

أين ليزا الآن يا ترى، بشعرها الفاحم المناسب، وبشرتها السمراء، وفخذيها القصيرين، السريعي الحركة؟ هل ضربها زوجها؟ ما أسرع ما حدث كل ذلك وانتهى، إن المتعة تنتظر في كل شارع، متعة عابرة، ملتهبة سريعة الزوال. إنه مسربل بالخطيئة، والزنا، وقبل زمن ليس بالبعيد كان يفضل أن ينتحر على أن يحمل ضميره مثل هذه الخطيئة، ومع ذلك ها هو، ينتظر مجيء المرأة الثانية، رائق القلب، مطمئن البال. أو لعله، ليس مطمئنا، على الرغم من أنه لا الشهوة العارمة ولا الزنا هما السبب في شعوره أحيانا بالقلق والكآبة: لعله كونه حيا، من يدري! نعم، في الحياة ذاتها يكمن نوع من الذنب، وإلا، إن لم يكن الأمر كذلك، فما الذي يدعو رجلا تقيا مثل نرسيس إلى الانهماك في التوبة، وكأنه مجرم؟ بل لماذا يجبر حتى هو، غولدموند، على رؤية هذا الذنب متجذرا عميقا في ذاته؟ أليس سعيدا؟ أليس قويا وشابا، أليس حرا كأي طائر يحلق في السماء؟ ألا تعشقه النساء؟ أليس رائعا أن يدرك أنه، هو عشيقهن، بإمكانه أن يمنح أي إمرأة يعشقها المتعة العميقة نفسها التي يعيشها هو ؟ لم إذن لا يشعر بسعادة غامرة؟ لماذا يتصاعد أحيانا هذا الحزن الغريب العميق داخله، ليفسد عليه سعادته الغضة الطائشة بقدر ما تفسدها حكمة نرسيس وعفته — لم لمسة الخوف هذه، وهذا التوق الشديد إلى الماضي؟ ما ذاك الذي يدفعه كثيرا إلى التفكير، يقدح زناد أفكاره، على الرغم من معرفته جيدا أنه ليس بمفكر؟

ومع ذلك فالحب ممتع. اقتلع زهرة أرجوانية من بين العشب، ورفعها أمام عينيه، وراح يمعن النظر في داخل الكأس الضيق الذي

تمتد عليه العروق بكل اتجاه، حول المدقات، دقيقة كالشعر. يا لحركة الحياة، ترتعش بالرغبة، بين أحضان امرأة على جبين المفكر! آه، لم على البشر أن يلموا بأي قدر من المعرفة؟ لم يستحيل عليه أن يتكلم مع هذه الزهرة؟ بل إن الحديث غير متاح بين اثنين من البشر: إذ من أجل أن يطّلع كلٌّ على أفكار الآخر يحتاجان إلى لحظة من السعادة المميزة، من الصداقة الحميمية، وإلى رغبة في الإنصات. لا، من حسن الحظ بحق أن الحب لا يحتاج إلا نادرا إلى الاستعانة بالكلام، وإلا لأضحى الحب ذاته مريرا، مفعما بسوء الفهم والجنون. يا لعينا ليزا، نصف المغمضتين، من نشوة الاستمتاع، كيف بدتا وكأنهما تحتضران من فرط المتعة، لا يظهر منهما غير بريقين رقيقين من بياضهما من خلال شق رفيع من الرموش المرتعشة: إن عشرة آلاف كلمة فصيحة، أو كلمات الشعراء لن تكفي للتعبير عن ذلك الإحساس. لا شيء – لا شيء، على الإطلاق، يمكن الإفصاح عنه حقا، أو التفكير فيه من بدايته، وحتى نهايته، ومع ذلك فكل منا يتوق دائما إلى الكلام، كل منا يشعر بلهفة إلى التفكير لا تخمد.

راح يتفحص وريقات الزهرة الصغيرة، تنهض، واحدة فوق أخرى، على طول الساق، وقد رتّب بشكل عجيب جميل. إن أشعار فرجيل جميلة، وهو يحبها، ولكن لفرجيل أشعار كثيرة لا يبلغ جمالها نصف جمال هذا التكوين اللولبي في الوريقات على طول الساق، ولا صفاءه، ومع ذلك فقد نُظِّمَت ببراعة، وهي مفعمة بالمعاني وبالبهجة. أي مخلوق رائع ونبيل ومترع بالفرح هو ذاك الكائن البشري الذي يمكنه أن يصنع زهرة مثلها. ولكن لا أحد يستطيع ذلك، لا بطل، ولا امبراطور، ولا بابا، ولا قديس.

نهض حين مالت الشمس نحو الغروب، ليبحث عن المكان الذي

حددته له المرأة. وهناك مكث ينتظرها. الانتظار ممتع، حين يعلم طوال الوقت أن ثمة امرأة، تنبض بالحب، في طريقها إليه.

جاءت ومعها صرة بيضاء، حزمت داخلها رغيفا كبيرا من الخبز وقطعة من اللحم المقدد. حلت العقد وفتحتها.

قالت له: «هذا لك. كل».

أجابها: «فيما بعد، أنا جائع إليك، وليس إلى الخبز. آه، أريني الجمال الذي أحضرتنيه!».

كانت قد أحضرت له ما يشبعه من الجمال، شفتين قويتين نهمتين وأسنانا براقة، وذراعين قويتين، لفحتهما أشعة الشمس، لكنّها تحت ملابسها، بدءا من أسفل عنقها، كانت بيضاء البشرة وبضّة. لم تكن تعرف من الكلمات إلا قليلها، لكنها من عمق حنجرتها كان باستطاعتها أن تغرّد بلحن يتّسم بغواية واضحة، وهي تشعر بلمسته على بشرتها، وبيديه وقد أضحتا أشد حساسية ورقة من أي شيء عرفته في حياتها كلها، إلى أن هزتها رعشة البهجة وخرخرت كقطة. كانت قد تعلمت بعض أساليب ممارسة الحب، أقل مما لدى ليزا، إلا أنها كانت تمنح حبها بقوة رهيبة، وكأنها تنوي أن تسحق قلبه. كانت تمور نهما، كطفل، بسيطة وتشعر بالذنب، على الرغم من كل ما تتصف به من قوة، وكان غولدموند معها سعيدا جدا.

ثم رحلت عنه، انتزعت نفسها بعيدا وهي تطلق تنهيدة، فلم تكن تجرؤ على التواني. وظل غولدموند هناك وحيدا، سعيدا وفي الوقت نفسه حزينا. ومضى وقت طويل قبل أن يتذكر الخبز واللحم المقدد وشرع يأكل وحده، وكان الظلام حالكا.

الفصل الثامن

مضى وقت طويل على غولدموند وهو يتنقل، ونادرا ما كان ينام في المكان الواحد مرتين، وفي كل مكان كان النساء يعشقنه ويسترضينه. ولفحته أشعة الشمس، ونحل جسمه من المسير الطويل المجهد والغذاء الهزيل. وكثير من النساء كان يغادره عند الفجر، وعديد منهن كن يبكين، إلا أنه كثيرا ما فكر قائلا:

«لماذا لم يحدث قط أن أيّا منهن لازمته ؟ لماذا، ما دمن أحببنني إلى درجة أنهن خرقن عهود زواجهن ليشبعن حاجتهن إليّ خلال ليلة من الزمن؟ أكان لزاما عليهن أن يهرعن عائدات إلى أزواجهن، الذين لا شك في أن معظمهن يخشين أن يسوطوهن؟».

ولا واحدة منهن توسلت إليه بحق كي لا يغادرها، أو طلبت منه أن يأخذها معه: لم تبد أي منهن استعدادا لمشاركته متعته، وحاجته إلى حياة التشرد، إكراما للحب. ولا هو تاق حقا إلى عرض ذلك عليهن، أو ألح بالفكرة على أي من عشيقاته، وحين اختبر قلبه وجد أن حريته عزيزة جدا عليه، ولم يعد يذكر خليلة واحدة مهما بلغت حلاوتها لم ينسها بالتي تلتها. ومع ذلك فمن المحزن قليلا والمحيّر أن يكون الحب في كل مكان يحل فيه سريعا خاطفا، الحب الذي يمنحه وذاك الذي يتلقاه معا، وما إن يشتعل حتى يخمد.

أهذا كل شيء؟ أهكذا يكون الأمر دائما وفي كل مكان؟ أم أن

الذنب كان يقع عليه: لعله يكون من النوع الذي، على الرغم من أن المرأة قد تهيم بجماله، فإنها لا ترغب في المكوث معه، أكثر من فترة وجيزة، بلا كلام، فوق كومة من القش أو على الطحالب؟ ألأنه يعشق كمشرد وهن، الآمنات في بيوتهن، ترعبهن فكرة عيش الحياة دون منزل؟ أم أن النساء يهرعن إليه كما إلى دمية، ويعانقنه بقوة، ثم يعدن أدراجهن إلى أزواجهن، حتى وإن كان السوط ينتظرهن؟ إنه لا يدري.

إلا أنه لم يملّ من تلقي الدروس من النساء. صحيح أنه كان ينجذب أكثر إلى العذارى الصغيرات، فهن أصغر سنا من أن يتزوجن، ولعله استغرق في اشتياقه إليهن، ولكن مثل هؤلاء العذارى هن في الأغلب بعيدات عن متناوله، لأنهن محميات، مدللات وخجلات. ولكن من النساء أيضا يمكنه أن يتعلم: فكل منهن تترك له شيئا منها، أسلوبا في التقبيل، إيماءة، الطريقة التي بها تدافع عن نفسها، أو تستسلم. وكان باستطاعة غولدموند أن يجاريهن في أي أسلوب يتّبعنه، بلهفة أي طفل ومرونته ، وعلى استعداد لأن يستجيب لكل غواية. ولم يكفّ جماله وحده قط لجذبهن إليه بسهولة كبيرة: بل كانت طريقتُه في جعل نفسه طفلهن، منفتح الذهن، فضوليا وبريئا في شدة اشتياقه، واستعدادُه التام للإذعان لكل ما تطلبه منه المرأة. كان يصبح، دون إدراك منه، وفي كل علاقة حب منفصلة، كما حلمت أن يكون عليه، تحقيقا أكيدا لكامل اشتياقها الدفين، رقيقا وصبورا مع واحدة، ومتلهفا يتلظى نارا مع أخرى، أحيانا يكون طلقا وبريئا كفتى في آخر فترة عذريته، وفي أحيان أخرى متفننا ومخططا. كان مستعدا للعبث أو للعراك، للتنهد أو للضحك، ليكون شديد الحياء، أو للوقاحة. لم يفعل أي شيء لا ترغب فيه المرأة، لا شيء مما لا تكون هي نفسها قد استدرجته إليه

أولا. وهذه الميزة هي التي كان يلاحظها العديد منهن، من سريعات الفهم، ويشعرن بها على الفور، وهكذا بات أثيرًا عندهنّ.

بهذه الطريقة تعلم الكثير. فهن لم يكتفين، خلال فترة قصيرة من الزمن، بتعريفه على أساليبهن المتنوعة، فنونهن في الحب، وجعله بارعا ذا تجربة واسعة، بل تعلم أيضا أن يعي تعددية النساء: اعتادت أذنه على أنواع الصوت الإنساني، وكانت رنة الصوت مع العديد منهن تكفي ليعرف بدقة حاجات الواحدة منهن وحدود عاطفتها. وكان في كل مرة يلاحظ ببهجة متزايدة وجود طرق لا حصر لها لبروز الرؤوس بين الأكتاف، وانتهاء جبين بكثة من خصلات الشعر، وتحرك رضفة الركبة من تحت الثوب. تعلم أن يتحسس في الظلام، بأصابع متلمسة، الأنواع الكثيرة لشعور النساء، أن يميز نوع بشرة من آخر. وحتى في ذلك الحين كان قد بدأ يدرك أن هذا التثقيف لأحاسيسه هو الهدف الحقيقي، الخفيّ، لكل تجولاته، وأنه فيها يتركز تفكيره الأعمق، وهي تجره من علاقة حب إلى أخرى، بحيث إن مقدرته على التمييز قد ازدادت رهافة وتضاعفت، وبات استخدامها أعمق. لعل هذا كان مرماه الأبعد، أي أن يتوصل إلى أن يبرع في فهم النساء وفي شؤون الحب بأنماطها واختلافاتها التي لا تعدّ، كما يبرع بعض الموسيقيين، في عزف ثلاث آلات موسيقية أو أربع، أو أكثر. ولكن ما الغرض وراء كل هذا، إلام يقوده؟ إنه لا يدري.

على الرغم من تحصيله قدرا كافيا من اللغة اللاتينية وعلم المنطق، إلا أنه لم يكن يتفوق في أي منهما: أما في الحب، وأسلوب ممارسته فكان موهوبا. هنا كان في استطاعته أن يتعلم دون أي مشقة، لا ينسى شيئا، وكل درس يتلقاه يستقر إلى الأبد في ذهنه.

وذات يوم، وكان قد مضى عليه على الطرقات عام أو عامان،

وصل غولدموند إلى قلعة تخص فارسا ثريا، لديه ابنتان شابتان. حدث ذلك في أواخر الخريف. وقد أوشك الصقيع أن يبدأ بالظهور، بعد غروب الشمس، وكان في الشتاء الأخير قد ذاق منه الأمرين. وكان مضطرب البال قليلا يفكر في أشهر الصقيع القادمة تلك، وهو يطلب الزاد والمأوى في القلعة، فالشتاء لا يرأف بالمتشردين. وقد وجد هنا حسن الاستقبال، وحين علم الفارس أن هذا المتشرد من المتعلمين، ويحسن قراءة اللاتينية واليونانية، أرسل في طلب إليه ورفعه عن مستوى مائدة الخدم، وعامله معاملة الند له. وجلست الابنتان مطرقتي العيون، الكبرى في الثامنة عشرة، وأختها بالكاد بلغت السادسة عشرة، وهما ليديا وجوليا.

في اليوم التالي أراد غولدموند أن يتمادى معهما، فلم يجد سبيلا إلى كسب حب أي من تينك العذراوين الرائعتين، الذهبيتي الشعر، وبدا له أنه لا وجود لامرأة أخرى في القلعة تدفعه إلى المكوث إكراما لها. لكنّ الفارس جاء إليه، بعد الإفطار وانفرد به جانبا، في غرفة أثثت لتلائم غرضا معينا. راح العجوز يكلم الشاب بتواضع عن حبه للعلم وللكتب، وعرض عليه صندوقا مملوءا بلفائف المخطوطات الرقّية التي كان قد جمعها هذا الفارس الوقور، وصنع طاولة خاصة للقراءة، مزوّدة بأقلام وصفائح من أجود أنواع الورق. كما اكتشف غولدموند لاحقا، كان مثقفا منذ شبابه، إلا أنه تناسى علمه والتفت إلى الحياة الدنيا، وإلى الاشتراك في الحروب، إلى أن أتاه ذات مرة وهو مريض أمر من الرب أن ينسى ماضيه المشين، وينطلق في رحلة حج. ووصل بعد سفر مضن إلى روما، بل وإلى القسطنطينية ولما عاد وجد أن والده قد توفي، والبيت وقد خلا من ساكنيه، فاستقر فيه واتخذ له زوجة فقدها منذ زمن، فأنجبت له ابنتيه، والآن في مستهل مرحلة

شيخوخته، انكب على تدوين سرد أمين لكل ما شاهده في ترحاله. ونجح فقط في وضع البدايات الأولى، إلا أن لغته اللاتينية، كما اعترف للمتشرّد، تعاني من ثغرات عديدة، وتعيق كل ما يجهد لسرده. وقدم لغولدموند ملابس جديدة واستضافه فترة طويلة، مقابل أن يصحح له ما كتبه. وكان عليه أن يعيد نسخ البداية من جديد، وأن يساعده فيما تبقى من الكتاب.

حدث ذلك في الخريف، وكان غولدموند يعلم ماذا يعني الشتاء بالنسبة إلى المتشرّد. ولا يمكنه أن يرفض ثوبا جديدا. أمّا ما أسعد شبابه أكثر من أي شيء آخر فهو التفكير في أنه سوف يسكن ولفترة طويلة مع الإبنتين الشابتين، فوافق دون طويل تدبر. وفي غضون بضعة أيام أمرت مدبرة المنزل بفتح خزانة ملابسها: كان يوجد فيها قماش رائع بني اللون طويل، ومنه صنع له ثوب وقلنسوة. وكان الفارس يرغب في أن يكون الرداء أسود اللون، وأن يفصل بشكل يليق بطالب علم، لكن الضيف لم يلتفت إلى هذا الكلام، وعرف كيف يجعله يغير رأيه: وهكذا حصل على ثوب رائع جديد ذي لون يتماشى مع لون بشرته، بدا فيه وسطا ما بين الوصيف والصياد.

ومع اللغة اللاتينية أيضا، سارت الأمور على أيسر ما يكون. قرآ معا ما كان كتب سابقا، ولم يكتف غولدموند بتصحيح كل الكلمات الخاطئة الكثيرة، والأخطاء التي ارتكبها سيده في تشكيل أواخر الكلمات، وإنما كان يكوّن، هنا وهناك، من فقرات الفارس القصيرة غير المتقنة، جملا متناسقة سلسة الإيقاع، متماسكة البناء، consecutio temporum[1] صافية، وغمرت البهجة الرجل العجوز، شعر بامتنان غير محدود. وكانا في كل يوم يقضيان على الأقل

(1) مترابطة الإيقاع.

ساعتين في العمل معا. في هذه القلعة (وكانت في واقع الأمر أقرب شبها بالمزرعة المدعمة ببعض التحصينات) ووجد غولدموند الكثير مما يقضي به وقته. كان يخرج مع الآخرين في كل رحلة صيد. وتعلم إطلاق القوس والنشاب من هاينريش، الصياد، وعقد صداقات مع كل كلاب المكان، وبات في مقدوره امتطاء صهوة الجواد كلما أراد. ونادرا ما كان يبقى وحيدا، فهو إما يتحدث إلى كلب أوفرس، أو مع هلينريش أو ليا، زوجة البواب، وهي سيدة عجوز بدينة، تتصف بصوت رجولي وحب للمزاح، أو مع الراعي ومربي الكلاب. كان في وسعه أن ينتهز فرصة مع زوجة الطحان التي تقطن خارج الأسوار، إلا أنه نأى بنفسها عنها، متظاهرا بالبراءة.

كان يبهجه مرأى الصبيتين، وكانت الصغرى هي الأجمل، والأكثر حياءً وصعوبة في الإرضاء حتى أنها بالكاد كانت تتبادل كلمة مع غولدموند. وكان هو مع الاثنتين شديد التهذيب والتحفظ، إلا أنهما كانتا تدركان قربه منهما. وبادرت الصغيرة بأخذ الخطوة الأولى نحوه، متحدية الحياء. وسلكت ليديا الكبرى سلوكا غريبا مع غولدموند، يتراوح ما بين الاحترام والتهكم، وكأنه مسخ علم مثير للعجب: كانت تطرح أسئلة فضولية كثيرة حول أسلوب حياتهم في الأديرة، ولكنها كانت دائما تمتزج بشيء من المزاح، وبنبرة تأنيب تصدر عن سيدة رفيعة الأصل واثقة من نفسها. وكان يرضخ لكل نزواتها، مبديا احترامه لليديا بوصفها مولاته، ولجوليا بوصفها راهبة صغيرة تقية، وكلما استمال هاتين الفتاتين، أثناء قص حكاياته وحديثه حول الدير، لإطالة فترة مكوثهما المعتادة بعد وجبة العشاء، أو حين تقول ليديا، أثناء قضاء نزهة في الفناء أو الحديقة، كلمة عابرة وتتهكم منه قليلا، شعر أنه قد أحرز بعض التقدم.

ظلت أوراق فصل الخريف عالقة حتى وقت متأخر من ذاك العام بأغصان شجرة الدردار السامقة النامية في الفناء. وظل الورد يُرى وقتا طويلا في الحديقة. ثم، ذات يوم، كانت زيارة، فقد جاءهم فارس جار ترافقه زوجته ومعهما تابع. وقد أغراهم اعتدال الفصل بالخروج في رحلة الاستجمام غير المعتادة هذه، إلى مكان بعيد جدا عن منزلهم، وها هم قد قصدوا القلعة، ملتمسين استضافتهم أثناء الليل. وقوبلوا بالترحاب، وعلى الفور نقل سرير غولدموند من غرفة الضيوف إلى الغرفة التي يقوم فيها بعمل الكتابة، وأعد سريره لينام عليه الوافدون الجدد. وذبح الدجاج وبعث برسول يطلب السمك من المطحنة. سر غولدموند لكل هذا اللغط والاحتفال، وللتو لاحظ نظرات السيدة الغريبة النهمة إليه. إلا أنه لم يكد يبدو على صوتها وتصرفاتها مبلغ ما أثاره فيها من سرور واشتياق، وعلى العكس لاحظ أيضا، بفرح متزايد تبدل سلوك ليديا بشكل كامل، وكيف أصبحت أشد هدوءا وتحفظا، وشرعت تراقبه مراقبة لصيقة وهو مع الضيفة، وحين أخذت قدم السيدة، على مائدة العشاء الفخيم، تتلمس طريقها من تحت الطاولة، إلى قدم غولدموند، لم يكن عبَثُها وحده ما أثار سعادته، بل فرح أكثر بالغضب المكبوت وضبط النفس اللذين تحكّما في ليديا وهي جالسة تراقبهما معا، بعينين فضوليتين تتطايران شررا. وأخيرا ترك سكّينه تقع منه تحت سطح الطاولة، وهكذا انحنى ليلتقطها، وداعب قدمي خليلته الجديدة وساقيها: ثم استقام من جديد، ورأى كم شحب لون ليديا، وكيف عضت على شفتيها أثناء روايته القصص عن الدير، على الرغم من شعوره أن السيدة الغريبة كانت أقل تحمسا لسماعها من سماع صوت الراوي ولكنته. وجلس الآخرون ينصتون: الفارس، مولاه، بكرم جم، والآخر

بوجه كأنما قدّ من خشب، على الرغم من أن حرارة كلمات الشاب وصلته. لم تكن ليديا قد سمعت مثيلا لتلك الفصاحة: كان يزهر، وارتعشت الرغبة وملأت الجو، وأشرقت عيناه، وكان صوته يفيض بهجة: لقد كان يستجدي الحب، هذا ما شعرت به النسوة الثلاث، كل على طريقتها: الصغرى جوليا باتخاذها موقف الدفاع المذعور عن النفس في وجهه، وزوجة الفارس بتوردها من السعادة وليديا بألم أصابها في قلبها، ألم سببه الشوق الدفين، وبجهدها الهش الذي بذلته للاحتماء منه، وبغيرة حادة ضيقت وجهها ثم اختنقت خلف عينيها. شعر غولدموند بكل هذه الانبثاقات، هذه الاستجابة السرّية إلى كفاحه. لقد تدفقت عائدة إليه، أفكار الحب اندفعت كعصافير محومة حول رأسه، عصافير حطت على يده ثم عادت ترفرف من جديد، تتقاتل مع بعضها بعضا وتتناقر. وبعد الانتهاء من تناول وجبة العشاء انسحبت جوليا (وكان قد مضى على الغسق وقت طويل) وهي تمسك شمعة الأسل على حامل من حديد، باردة وهادئة كمتدينة. وظل الآخرون جالسين ساعة أخرى، الفارسان يناقشان شؤون الامبراطور والأساقفة. بينما راحت ليديا تنصت، ووجنتاها ملتهبتان، إلى كل الحديث التافه المرح الذي يغزل بين غولدموند والسيدة، وهما يرسلان تحت الكلمات البراقة شلة من النظرات ونبرات الصوت المتشابكة، وإيماءات صغيرة يتبادلانها، مثقلة بدلائل الحب. استنشقت ليديا هذا الهواء بنهم، وأخذت ترتعش حين علمت، أو شعرت، كيف أن ركبة غولدموند تحف، من تحت الطاولة، ركبتي السيدة المحترمة. كانت كل لمسة يقوم بها تخترقها كنصل خنجر. فيما بعد جافاها النوم، وأمضت الردح الأكبر من الليل يقظة تنصت إلى قلبها يضرب بقوة، واثقة من أنها سمعتهما، في مخيّلتها، يكمّلان ما هو محرّم عليهما،

رأتهما مضطجعين متشابكين، وسمعت صدى قبلاتهما، وخافت، وإن تمنت لذلك أن يحدث، أن يداهمهما قريبا الفارس الغريب على حين غرة، ويسدد إلى صدر هذا الغولدموند الـcatiffطعنة نجلاء.

في اليوم التالي اكفهرت صفحة السماء، وهبت ريح رطبة، لكن الضيوف على الرغم من كل محاولات الإقناع، بدوا لا يطيقون صبرا للانطلاق من جديد. ووقفت ليديا تراقبهم وهم يركبون، شدت على أيديهم وتمنت لهم رحلة موفقة، وهي لا تكاد تدري أنها فعلت ذلك، بما أن كل إحساسها كان متركزا في عينيها، وهي ترى يد غولدموند موضوعة على قدم السيدة، ليساعدها في امتطاء جوادها الصغير: قبضت اليد على القدم، عريضة ومتينة، وأطبقت برهة على حذاء السيدة.

رحل الضيوف، وبات على غولدموند أن ينصرف إلى أداء واجبه الكتابي. وفي غضون نصف ساعة من الزمن عاد يسمع صوت ليديا المتعجرف، وهي تنادي على الساسة في الفناء، وقرقعة الحوافر وهم يخرجون جوادها الصغير من مربطه. تقدم سيده من النافذة، وأرسل بصره ثم ابتسم، وهزّ رأسه، ووقفا معا يراقبان ليديا وهي تمتطي مطيتها. في ذلك اليوم صدئت لغتهما اللاتينية، وكان تقدمهما فيها أقل من ذي قبل ووجد المثقف صعوبة في التركيز. فصرفه سيده، بكل ود، قبل الموعد المعتاد.

أخرج غولدموند جواده، بعيدا عن عيون أهل القلعة، إلى الفناء، وامتطاه وانطلق بين أنياب رياح الخريف، عبر أرض سبخة بنية اللون، لا يني يسرع. وشعر بجواده يزداد دفئا من تحته، وألهب دفؤه دمه. قطع أرضا بورا وسبخات، وأراضيَ محصورة ومراحة، نما عليها عشب قصير وبردي، في الصباح المنعش الغائم، مارا بأجمات من

«جار الماء»، مخترقا غابة أشجار الصنوبر المظلمة، وخرج منها من جديد إلى أرض سبخة خالية بنية اللون. ومن فوق جبين هضبة بعيدة، محددة بوضوح أمام السماء الشاحبة، الملبدة بالغيوم، رأى شكل ليديا الصغير، تعلو ظهر جوادها القصير البطيء الخبب. نخس حصانه ليتمكن من اللحاق بها، ولكن حالما أدركت أن ثمة من يتبعها، ساطت جوادها فخب مسرعا، وابتعدت عنه. كانت تختفي عن النظر على فترات ثم يعود فيراها من جديد، بشعرها المرفرف في وجه الريح. أسرع بالحصان يخب خلفها، كصياد، وخفق قلبه بقوة وهو يستحثه ببعض كلمات التشجيع الصغيرة الرقيقة، مستمتعا بمشهد الريف أثناء انطلاقه، بنبات «جار الماء»، والحقول المنحدرة، وأجمات القبقب، وحواف البرك الطينية دون أن تغيب طريدته عن ناظريه.

حين علمت ليديا أنه أدركها كفّتْ عن الهروب، وتركت جوادها يعود إلى السير. ولم تلتفت إلى ملاحقها. وواصلت سيرها، بكبرياء، وكأنما هي لوحدها، وكأنها لا تشعر بوجوده، وكأن شيئا لم يحدث. اقترب بجواده حتى جاورها، وسار الحيوانان بهدوء على قدم المساواة، على الرغم من أنهما كانا مع راكبيهما متقدين بفعل المطاردة.

قال لها برِقّة: «ليديا».

لم تجب.

«ليديا».

ولم تنبس ببنت شفة.

«ما أجمل رؤيتك وأنت تركبين عن بعد. كأن شعرك أشبه ببرق ذهبي من خلفك. آه، كم كان منظرك جميلا. فكرة رائعة أن تركضي أمامي: لقد بيّن لي هذا لأول مرة أنك يمكن أن تحبيني قليلا. لم أكن أعرف هذا، وحتى مساء أمس كنت ما أزال أشك في الأمر. الآن فقط،

وأنت تحاولين الهرب مني، بدأت فجأة أفهم. يا حبيبتي، يا جميلتي، لا بد أنك مرهقة ! ألا نرتاح؟».

قفز مترجلا وأمسك بلجامها، حتى لا تهرب منه مجددا: كان وجهها شاحبا شحوب الثلج وهي تنظر إليه، وحين حملها لينزلها طفقت تبكي. وجلست، وهي تغالب نشيجها، بشجاعة، إلى أن تغلبت عليه.

وبادرت بالقول: «آه، لم أنت شرير؟»، كان صعبا عليها أن تخرج كلماتها.

«أأنا شرير؟».

«أنت فاسق يا غولدموند. دعني أنس الكلمات التي قلتها لتوك: إنها كلمات مشينة، ولا يليق بك أن تقول لي مثل هذه الأشياء. كيف دار بخلدك أنني يمكن أن أحبك ؟ فلننسها، ولكن هل سأنسى ما رأيته مساء أمس؟».

«مساء أمس؟ ماذا رأيت عندئذ؟».

«أوه، كفاك ادعاءً وكذبا عليّ ! إنّ كل ما فعلته مساء أمس مشين وفظ، ووقع أمام عينيّ، مع تلك المرأة. غولدموند، ألا تعرف العيب؟ إنك حتى داعبت ساقها تحت الطاولة – طاولة والدي – أمام عيني ! والآن وبعد أن رحلت أتيت تلاحقني. إنك دون شك لا تعرف ما هو العيب».

كان غولدموند قد ندم لتوه لأنه تكلم قبل أن يساعدها على الترجل عن جوادها. ما أحمقه إذ لم يمسك لسانه، في الحب لا لزوم للكلمات.

لم يزد، بل ركع إلى جوارها، ولما كانت جميلة جدا وحزينة، سرعان ما ألفى نفسه يشاركها كربها. حتى هو شعر بأنه يدعو إلى الرثاء. ولكن على الرغم من كل ما قالته ضده، استطاع أن يلمح الحب باديا

في عينيها. حتى الحزن المرتسم على شفتيها المرتعشتين كان حبا، كان يصدق عينيها أكثر من كلماتها. لكنها كانت بانتظار جوابه. والآن، ولما لم يدل بأي جواب، تدلت شفة ليديا أكثر من ذي قبل، والتمعت عيناها بالدموع، وحدقت إليه، ثم كررت سؤاله:

«إذن فأنت لا تعرف العيب؟».

أجابها بتذلل: «سامحيني، هذه مسائل لا يتكلم عنها أحد. اللوم كله يقع علي، فسامحيني. لقد سألتني إن كنت لا أعرف العيب، نعم، لا شكّ في أني أعرف العيب: لكني أحبك، أحبك، ولا عيب في الحب، لا تغضبي».

وكأنها لم تسمع شيئا مما قاله. جلست، بوجهها الحزين، ترنو إلى البعيد وكأنها لوحدها. إنه لم يمرّ بمثل هذا من قبل: كل ذلك نتج عن التفوه ببضع كلمات.

أسند وجهه برفق على ركبتها، وعلى الفور استسلمت لمستها له. لكنه ظل قلقا وحزينا، وهي أيضا بدت أشد حزنا من أي وقت آخر، تجلس بسكون، تلزم الصمت، وتحدق إلى البعد، بعيدا عنه. كم أصبح الجو ثقيلا الآن! وأي غم! لكن ركبتها تآلفت مع خده، ولم تكن بها رغبة في إبعاده عنها. ووجهه المغمض العينين مرتاح عليها. وبحركة بطيئة، أخذ يقرّب جسدها الممشوق الرائع منه، ويعجب باستمتاع مرتعش بمدى الكفاءة التي تكمل بها هذه الركبة الرقيقة الغضة تقوس أظافر أصابعها الجميل، المتين، وتبرزه. واستكان إليها مطبقا عليها، تاركا خده وشفتيه يتحدثان بلغتهما الخاصة: أخيرا أحس بلمسة يدها: كعصفور صغير، حي، حط على شعره. أحس «بيدها المتعة». ما أشد خوف مداعبتها له، وكأنها طفلة! لطالما تفحص يديها من قبل، وأعجب بهما، حتى بات يحفظهما كيديه، بأصابعهما

الطويلة، التي تستدق باتجاه الأسفل نحو أظافرهما الوردية. والآن، هذه الأصابع المستدقة راحت تتحدث بحياء، وهمس مع شعره، وكانت كلماتها ناعمة، نهمة، كلمات أطفال، وكانت كلمات في العشق. استكان رأسه بامتنان، وراح يحك يدها بخده وعنقه، وأخيرا تكلمت:

«يجب أن نذهب، حان الوقت».

رفع رأسه ونظر عاليا إليها، وقبّل برِقّة الأصابع النحيلة.

قالت: «انهض، أرجوك، الآن، يجب أن نعود إلى المنزل»، وأطاعها على الفور: نهضا معا، وامتطيا حصانيهما وانطلقا.

كان قلب غولدموند مترعا بالسعادة. ما أجمل ليديا، وما أنقاها وأرقها، كطفلة. لم يصل به الأمر إلى حد تقبيل وجنتيها، ومع ذلك شعر بسكينة عارمة وارتياح. انطلقا بسرعة، ولم تلتفت إليه، فجأة، إلا بعد أن وصلا إلى الفناء، أمام بوّابة القلعة، لتقول له «ما كان يجب أن نعود معا. يا لجنوننا».

وفي آخر لحظة، قبيل مجيء صبية الاسطبل راكضين، همست بسرعة بكلمات ملتهبة «قل لي، هل ضاجعت تلك المرأة في الليلة الفائتة؟».

هز رأسه نافيا عدة مرات، ومال ليربت على الحصان. وبعد ظهيرة ذاك النهار، وبعد خروج والدها للتنزه بالحصان، اجتمع العاشقان في غرفة العمل.

وعلى الفور سألته: «أحقا هو ذاك؟». ودون أن تزيد فهم عما كانت تسأله.

«إذن لمَ لعبت تلك اللعبة الفظيعة لتستميلها إليك؟».

قال: «فعلت هذا من أجلك. صدقيني كنت أتمنى عشرة آلاف مرة أن أداعب قدمك بدل قدمها. إن قدمك لم تأت إليّ قط من تحت

الطاولة لتسألني أن أحبها».

«أتحبني يا غولدموند؟».

«أوه، نعم».

«ولكن كيف سينتهي؟».

«كيف لي أن أعرف يا ليديا؟ ما همّنا، أستطيع فقط أن أسعد بحبك، أما ما سيؤول إليه الأمر فلا يهمني. إن قلبي يطفر حين أراك على صهوة الجواد، أو أسمع صوتك، أو أحس بأصابعك تتغلغل في شعري. وسوف يملؤني الفرح حين أتمكن من تقبيلك».

«غولدموند، لا يحق للرجل أن يقبّل غير عروسه، إذن، لم يخطر هذا ببالك من قبل؟».

«لا، لم أفكّر في هذا قط. ولماذا أفكّر فيه؟ أنت تعلمين قدر ما أعلم أنك لا يمكن أن تكوني عروسي».

«هكذا إذن، وبما أنك لا يمكن أن تكون زوجي، وتبقى إلى الأبد إلى جانبي، فمنتهى الشر منك أن تحدثني عن الحب. هل خطر ببالك حقا أن في وسعك أن تغويني؟».

«إنني أفكر في أي شيء يا ليديا إلا فيك. إنني أفكر أقل بكثير مما تظنين. وأنا لا أطلب الكثير. فيما عدا أن تمنحيني ذات يوم قبلة. لقد أكثرنا من الكلام، وعلى العشاق ألا يتكلموا قط. أعتقد أنك لا تحبينني يا ليديا».

«هذا الصباح قلت عكس هذا».

«أنت تصرفت تصرفا معاكسا حينئذ».

«أنا؟ ماذا تعني؟».

«أولا انطلقت مبتعدة حين رأيتني أقترب، فاعتقدت أنك أحببتني،

وعندما بدأت تجهشين بالبكاء حسبت أنك تبكين حبا. وارتاح رأسي على ركبتك، وداعبته، فظننت أن ذلك حب. أما الآن فلا أرى منك أية رقة».

«إنني لست من النوع اللعوب التي تداعب قدمها من تحت المائدة. ويبدو أنك لا تعرف إلا ذلك النوع من النساء».

«لا، ما شاء الله، أنت أجمل بكثير، وأرقى».

«ليس هذا ما عنيت».

«لا، ولكن هذا صحيح. ألا تدركين كم أنت جميلة؟».

«لديّ مرآتي».

«ألم تنظري قط فيها لتري جبينك يا ليديا؟ وكتفيك وأظافر أصابعك الصغيرة، ومن ثم ركبتيك؟ وهل رأيت كيف أن كل هذه الأشياء متناسقة مع بعضها البعض، كيف أن لها كلها الشكل الطويل الجميل نفسه؟ هل رأيت ذلك؟».

«ما أجمل كلامك يا غولدموند! لا، لم أره من قبل، ولكن الآن بعد أن أخبرتني، صرت أراه. اسمع، أنت رجل فاسق، وقد جئت لتجعل مني إمرأة تافهة».

«كنت أتمنى لو أجعل منك امرأة تافهة جدا، ولكن ما الذي يدفعني إلى أن أجعلك تافهة؟ أنت جميلة، وأريدك أن تري جمالك. أنت تلزمينني بأن أفعل ذلك بالكلام، ولكن في استطاعتي أن أقول بألف طريقة أفضل. بالكلام لا أعطيك أي شيء، بالكلام لا أتعلم منك شيئا، ولا أنت تتعلمين منّي».

«ما الذي يمكن أن أتعلمه منك إذن؟».

«بل أنا أتعلم منك، يا ليديا، وأنت تتعلمين مني. لكنك ترفضين،

ولا ترغبين إلا في حب رجل واحد، الرجل الذي سيغدو زوجا لك. فيفرح لمرآك ولا يتعلم شيئا، ولا حتى كيف يقبّلك».

«إذن، أيها الأستاذ المثقف، سوف تعطيني دروسا في التقبيل؟».

ابتسم، على الرغم من أن هذه الكلمات لم تسرّه، ولكنه شعر أن خلف هالة الوقاحة الزائفة التي تحيط بها ثمة اشتياق مفاجئ وسط بتولتها وصراعها للتخلص من شهوتها.

ولم يرغب في الرد عليها. ابتسم، وعانقت عيناه عيناها المضطربتين، وبينما هي مستسلمة للافتتان الكامن داخلها، مع أنها أبدت مقاومة، مال بوجهه ببطء إلى أسفل، إلى أن تلاقت شفاههما. ثم ضغط على فمها برقة متناهية، فأجابته بقبلة من بتول صغيرة، وتباعدا، وكأنما بدهشة متعذبة، حين رفضت شفتاه أن تتركاها. وتابع شفتيها وهما تتراجعان وتغويانه برقة، إلى أن تلاقتا من جديد، بتردد. وعلّمَ المفتونة، دون إكراه، أن تمنح القبلات وتتبادلها، وأخيرا مالت برأسها على كتفه ، وقد نالها التعب. تركه يرتاح هناك وهو سعيد، يستنشق عبير الشعر الذهبي الطويل، ويهمس بكلمات صغيرة لمواساتها، متذكرا كيف تعلم ذات يوم حين كان ذاك الطالب البريء، على يد ليزا الغجرية. كم كان شعر ليزا فاحما، وكم كانت بشرتها سمراء، كم أحرقتها أشعة الشمس، بينما عشبة يوحنا الذابلة تنشر عبيرها ! أما الآن، فما أبعد الصورة المعروضة أمامه ! كل شيء ذبل سريعا، كسرعة إزهاره: انتصبت ليديا ببطء من جديد واقفة، وقد تبدلت تعابير وجهها واتسعت عيناها، عينا عاشقة جادة.

قالت: «دعني أذهب يا غولدموند، آه، يا حبيبي، لقد أطلت المكوث معك».

كانا في كل يوم يجدان ساعة سريعة يقضيانها معا، ووهب

غولدموند نفسه كلها لحبه الجديد. إن حب هذه الفتاة يرقص في قلبه ويهدئ من غلوائه. وكثيرا ما كانت تدور في ذهنها فكرة واحدة، أن تبقي يديه بين يديها على مدى ساعة، تنظر في عينيه، ثم تغادره بعد أن تمنحه قبلة طفل. وفي أوقات أخرى كانا يتبادلان قبلات كثيرة، وحتى في تلك الأثناء لم يكن يلمس جسدها. وذات يوم، رغبة منها في أن تمنحه متعة عظيمة، كشفت له، وهي تصارع نفسها، والخجل يصبغها بحمرة شديدة، عن صدرها: حلت صدرها في حياء، لتريه الثمرتين البيضاوين الصغيرتين المستترتين خلفه: وحين ركع وقبّلها عادت فأخفتهما بعناية، وما تزال وجنتاها، وكامل عنقها، تصبغها حمرة قرمزية. كانا يتحادثان، ولكن وفق نمط الحديث، وليس كما فعلا في لقائهما الأول، حين أخذا يخترعان أسماء عديدة ويتخاطبان بها. حكت له عن طفولتها، وأحلامها وألعابها. وغالبا ما كانت تقول أيضا إن حبها كان شريرا، لأنها وغولدموند لا يمكن أن يتزوجا. كانت تذكر هذا بصوت خفيض، مذعن، وتزين حبها بهذا الكرب السري. وكأنه حلية مبهرجة، أو كأنها كانت تضع خمارا أسود.

ولأول مرة يدرك غولدموند أن امرأة تحبه، وليست فقط تشتهيه.

ومرة قالت له ليديا:

«أنت شجاع جدا، ومرح جدا. ولكن عميقا في عينيك لا أرى أثرا للفرح. لا أرى غير الحزن، وكأن عينيك تفهمان ألاّ وجود للسعادة، وأنه لا يبقى بين ظهرانينا طويلا أي محبوب أو أي شيء جميل. عيناك أجمل عينين يمكن أن يملكهما رجل، وأكثرهما حزنا. أعتقد أن السبب يعود إلى أنه لا بيت لديك. لقد أتيت إليّ من الغابة، وذات يوم سوف تعود إليها من جديد، لتنام على الطحالب، وتجوب الطرقات. أين بيتك الحقيقي إذن؟ بعد أن تذهب يبقى لديّ أب وأخت، وسآوي إلى

غرفتي البرجية التي لها نافذة، أجلس فيها وأتذكرك: ولكن بعد الآن لن يكون لي بيت».

تركها تتكلم، وكان يبتسم لها في أغلب الوقت. على الرغم من أن كلماتها كانت أحيانا تحزنه. ولم يعد يلجأ إلى الكلام ليواسيها. وبات يكتفي بالملاطفات الصغيرة الرقيقة، ويضم يديها إلى قلبه، ويهمهم بسحر ناعم في أذنيها، كما تهدهد الحاضنات الأطفال الرضع عندما يبكون. ومرة قالت له ليديا: «أود كثيرا أن أعرف ماذا سيحل بك يا غولدموند، وهذا التساؤل لا يكاد يفارقني. لن تكون حياتك سهلة، ولن تشبه حياة سائر الناس. آه، كم أتمنى لك السعادة! كثيرا ما يخطر ببالي أنه يجب أن تكون شاعرا، رأسه مملوء بالأحلام والحكايات، ويحسن التعبير عنها بالكلام الجميل. وإلا فإنك ستجوب العالم، وستقع كل إمرأة تقابلها في غرامك، لكنك ستظل طوال الوقت وحيدا. الأفضل لك أن تعود إلى ديرك، إلى الصديق الذي حكيت لي عنه كثيرا. سوف أصلي لأجلك، لكي لا تموت وحيدا في الغابة».

كان في وسعها أن تتفوه بمثل هذه الأشياء برصانة أعمق، بعينين كأنهما لا تريان العالم من حولهما. كان غولدموند وليديا مرحين في أغلب الأحيان ، يقطعان الأراضي الخريفية البنية اللون على صهوة جواد، تخبره أحاجي لتضحكه، أو ترشقه بالعصي وبثمار البلوط.

ذات ليلة استلقى ينتظر مجيء النوم، وقلبه مثقل بهم جاد جديد: يخفق مترعا ثقيلا، مملوءا بالحب، ينوء بالحدة والحزن. كان يسمع رياح تشرين الثاني تصر في الفيافي، وكان قد اعتاد منذ فترة طويلة على الاستلقاء بعض الوقت قبل أن ينام، أما الآن فالنوم يأبى أن يواتيه. راح يهمس، كعادته ليلا، بأغنية لمريم العذراء:

أنت الجمال الكامل يا مريم،

يا من لا تشوبك شائبة،

أنت إسرائيل الخصبة،

أنت نصيرة الخاطئين[1]

غاصت هذه الأغنية داخل عقله مثل موسيقى عذبة: إلا أنه ظل يسمع في الخارج هدير الرياح، تحكي حكايات عن القلق والترحال، عن غابات شتائية، عن كل مغامرات المتشردين القاسية، وفكر في ليديا، ثم في نرسيس وفي أمه: لقد كان القلب المضطرب يفيض حزنا.

ثم نهض واقفا مجفلا، وراح يحدق غير مصدق؟ لقد فتح الباب، ومن قلب الظلمة، برزت ليديا بقميص أبيض طويل، تتقدم دون ضجيج على الحجارة اللوجية، حافية القدمين، لتصل إلى سريره. كانت قد أغلقت الباب بهدوء تام، وها هي تقترب لتجلس إلى جانبه.

همس قائلا «ليديا، يا زهرتي البيضاء، يا ظبيتي الصغيرة. ليديا كيف أتيت إليّ؟».

قالت «لن أمكث أكثر من دقيقة. أردت فقط أن أطمئن على نوم حبيبي غولدموند، حبيبي ذي القلب الذهبي».

تمددت إلى جواره، ومكثا في سكون، وقلباهما يخفقان بقوة. سمحت ليديه الساحرتين أن تتسللا إلى حيث تشاءان حولها، إلا أنها فوق ذلك كله ظلت ترفضه. وبعد برهة من الزمن أبعدت يديه عنها، وتسللت عائدة. صرّ الباب، وقرقعت الرياح السقف، وبدا كل شيء مسحورا يلفه الغموض، والسرية، والحزن، والوعد والوعيد. لم يدر غولدموند بماذا يفكر، أو ماذا عليه أن يفعل. وبعد أن نام فترة قصيرة من النوم المضطرب، عاد فأفاق ليجد وسادته مبللة بالدموع.

---

(1) الأصل باللاتينية.

بعد بضعة أيام عاد الشبح الرقيق إلى الظهور له، ليستلقي إلى جانبه مدة وجيزة، كما فعل من قبل. همست له، وهو يضمها بين ذراعيه، وكان لديها الكثير لتقوله، لتتأسى عليه، وأنصت إليها برقة، وهي مستلقية وذراعه اليسرى تطوقها، بينما باليمنى راح يداعب ركبتها.

قالت، وهي تضغط وجنتها على وجنته، بصوت خفيض: «صغيري غولدموند، يحزنني أني لا أستطيع أن أمنحك نفسي. وسرّنا الصغير هذا، سعادتنا الصغيرة، لن تدوم. لقد بدأ الشك يساور جوليا، وسرعان ما ستحملني على أن أبوح لها بالأمر، وإلا فإنها ستخبر به والدي. وإن يجدني معك هنا على سريرك، فآه يا صغيري غولدموند، ستسوء أموري. وسيكون على حبيبتك ليديا أن تقف وتبكي، أن ترفع ناظريها إلى الأشجار، وتراقب صغيرها ذا القلب الذهبي مشنوقا، وسرعان ما ستتأوه الريح وهي تمر خلاله. آه، اهرب، يا حبيبي – اهرب فورا: من الأفضل ألا تدع والدي يقبض عليك، فيربطك ويوثقك إلى شجرة. لقد سبق أن شاهدت للتو أحدهم وقد شنق، كان لصا. لا أتصور أن أراك مشنوقا يا صغيري غولدموند، فاهرب بعيدا الآن، وانسني. آه، لا ينبغي أن تموت، يا حبيبي غولدموند، لا يمكن أن تأكل الطيور عينيك الزرقاوين، آه، لا، يا عزيزي، يجب أن ترحل، ويا ويلي بعد رحيلك!».

«تعالي معي يا ليديا».

ابتسمت وقالت: «ما أجمل هذه الفكرة، آه، أي فكرة جميلة مرحة أن أهرب معك لنجوب العالم. ولكن لا أستطيع. لا يمكنني أن أتحمل النوم في الغابة والاستلقاء في الحقول ليعلق القش في شعري. لا يمكنني أن أفعل ذلك، لا يمكنني أن أجلب العار لأبي. لا، لا تقل شيئا،

ما هذه إلا أحلام. لا أستطيع أن أفعل هذا. لا أستطيع أن أفعلها إلا قدر ما أستطيع أن آكل من صحن قذر، أو أن أنام مرتدية أسمالا، أو أن أزحف كالقمل. آه، لا، نحن الاثنان ولدنا للحزن، وكل ما هو رائع وجميل محرّم علينا. غولدموند يا حبيبي الصغير المسكين، سينتهي بي الأمر ألى أن أراك مشنوقا. بعد ذلك سأسجن وأرسل إلى أحد الأديرة. يجب أن تهرب يا حبيبي، و تعود لمضاجعة الغجريات وزوجات الفلاحين. آه، ارحل ! ارحل قبل أن يقبضوا عليك ويشدوا وثاقك. لن نكون سعداء أبدا أبدا».

داعب ركبتها برهافة متناهية، ولمس برفق بكارتها.

«يمكننا أن نبلغ السعادة يا زهرتي الصغيرة».

قالت «لا، لا، لن تفعل ! هذا محرّم عليّ ! لعلك أيها الغجري الصغير، لن تفهم أبدا. إلا أني أعتبر بنتا شريرة، وقد ارتكبت خطيئة. لقد جلبت العار على المنزل بأكمله، ولكن مع أني ارتكبت ذلك، إلا أنه في مكان ما من روحي ما أزال أحتفظ بكبريائي كما كنت، كبرياء لم تصب بأي كسر. يجب أن تتركها لي، وإلا فلن آتي ولن أستلقي بجوارك».

لم يكن يرفض أن ينفذ أي أمر، أو رغبة، أو أي تلميح برغبة منها. وكان هو نفسه مبهورا بتأثيرها الكبير فيه. إلا أنه كان يتألم، فأحاسيسه لم تشبع، وكثيرا ما كان قلبه يصارع عبوديته. أحيانا كان يجاهد كي ينفضها عنه، ثم يسعى باللجوء إلى الكثير من الكلمات المعسولة للتودد إلى جوليا الصغيرة، وإن كان قد بات الآن، على كل حال، من دواعي الضرورة القصوى إبقاؤها في الظل قدر الإمكان.

إلا أن جوهر قوة هذه الفتنة التي أسرت بها كلا الأختين أحاسيسه جعله، وهو مذهول، على بيّنة من الفرق بين الحب والرغبة. في أول

الأمر كان يشتهيهما معا بشكل متعادل، كان يشتاق إليهما معا، إلا أنه وجد أن جوليا هي الأعذب، وأنها ستكون الأكثر إمتاعا في السرير، كان يغازلهما معا دون تمييز، ودائما يفكر فيهما معا.

والآن تمكّنت ليديا منه، فأحبها إلى درجة أنه بات يستنكر حتى فكرة أن يمتلكها امتلاكا تاما. أصبحت روحها أليفة لديه وحبيبة، وكان يجد فيها، بما تتسم به من رقة وحزن طفوليين توأما لروحه. وكان غالبا ما يصاب بالدهشة وبالفرح الغامر عندما يرى كيف يعبر جسدها عن جوهرها، كانت تتكلم وتتصرف على طريقتها الخاصة، تطلق حكما أو رغبة، فإذا بكلماتها التي لها شكل روحها، تبدو مصاغة بالصورة نفسها التي تتمثل في أصابعها وعينيها. هذه اللحظات، الشبيهة بإلهام القوانين والأشكال الأساسية الذي تكوّن بها جوهرها، روحا وجسدا، كانت غالبا ما تثير لهفة غولدموند للإمساك ببعض من جمال هذا التكوين، واحتجازه. وجاهد، على صفحات كثيرة من الورق، كان فيما بعد يخفيها بحرص، كي يستعيد بالقلم ذكرى الشكل العام لرأسها، وركبتيها، ويديها، وانحناءة حاجبيها.

أصبحت جوليا مصدر خطر. وعلى الرغم من معرفتها التامة في أعماق قلبها بأنفاس الحب التي تتردد في صدر أختها، مع أن أحاسيسها كلها كانت تجرها إلى هذا الفردوس، إلا أن عقلها العنيد رفض أن يدعهما وشأنهما. كانت تعامل غولدموند بعدائية متوترة وببرود، إلا أن عينيها، في لحظات من الفضول المنفلتة من الحذر، كانتا تهيمان وتحومان حول جسده. وغالبا ما كانت رقيقة جدا مع ليديا: وأحيانا كانت تتسلل إلى السرير معها، وتلمّح لها بكلام عن الحب والمعرفة الدنيوية يملؤها الجشع والفضول الصامت، تحدق بإمعان شديد نزوي إلى هذا الشيء السرّي، المحرم والمرتقب. ومن ثم

تلمّح بسلاطة تقريبا إلى أنها اطلعت على سرّ ليديا وأنها تشمئز منها لذلك. هذه الطفلة النزوية المحبوبة، التي هي بهجة وعائق، انقضّت على فرح الحبيبين القصير الأمد، وراحت تتجسس عليهما بخيال جامح نهم، مدعية أحيانا أنها لا تعلم أي شيء، وفي أحيان أخرى تجعلهما يدركان أنها مصدر خطر. وكانت قد كفت عن التصرف كطفلة، وأصبحت مصدر قوة. وعانت ليديا منها أكثر مما عانى غولدموند، الذي لم يكن يرى جوليا إلا على مائدة الطعام. ولم يغب عن علم ليديا أن غولدموند كان واعيا بجمال جوليا، بما أنها غالبا ما ترى عينيه تقيّمانها. ولم تكن تقوى على الكلام، فذلك أمر صعب جدا، وعلى جانب كبير من الخطر. يجب ألا تستفز جوليا وألا يثار غضبها. وا أسفاه، إن أي يوم أو ساعة يكتشف فيها حبهما، قد تشهد النهاية المخيفة لهذه السعادة التي انتزعت بصعوبة، وربما ستكون نهاية مفجعة.

كان غولدموند كثيرا ما يتساءل لماذا لم يحاول على مدى تلك الفترة الطويلة أن يهرب من جديد. كان صعبا عليه أن يعيش كما يعيش الآن. بحب مكافأ وإن كان بلا أمل، سواء في سعادة دائمة مباركة أو في تحقق قصير الأمد لم يكن قط، حتى ذلك الحين، ممنوعا على رغباته: وكان طوال الوقت مهددا بخطر مميت. آه، لم عليه أن يبقى ليتحمل كل هذا الاشتياق المكظوم والكبت الأعمى. أليست هذه المشاعر النبيلة وهذه الحيرة تناسب الرجال الأثرياء التقليديين، الآمنين، رجالا يعيشون كامنين في بيوتهم الدافئة؟ أليس للمتشردين الحق في أن ينأوا بأنفسهم عن مثل كل هذه المجاملات وأن يضحكوا منها؟ لقد كان هذا من حقه، وكان حمقا منه أن يبحث عن نوع من الإحساس بالأمان المنزلي في هذا القصر، وأن يدفع ثمن ذلك ألما مبرحا وهمّا.

مع ذلك تريث وتحمّل الألم عن طيب خاطر، واجدا في ألمه نوعا من السعادة. وكان صعبا وبلا معنى أن يحب بهذا الشكل، المحفوف بالأخطار والمملوء بالعوائق، إلا أنه كان رائعا. إنّ في جمال هذا الحب الحزين القاتم، وفي جنونه ويأسه، عظمة: لكل ليلة أرق ثقيلة مشحونة بالاشتياق المضطرب جمالها: أيامه كانت كلها مفعمة بالبهجة النادرة حين يستشعر ارتعاشات الرغبة على فم ليديا، والاستسلام التائه في نبرة صوتها، وهي تحدثه عن حبها ومخاوفها. وفي غضون بضعة أسابيع كان الحزن قد تسرب إلى وجهها، الذي كان يسره أيّما سرور أن يتابع خطوطه بقلمه. وكان يشعر أن هذا الأمر وحده، وهو يفعله، هو الشيء الأهم، وأنه خلال تلك الأسابيع القليلة طرأ عليه تغيير وكبر سنين عديدة، واكتسب خبرة وإن كانت أقل براعة إلا أنها أكثر عمقا، وأنه ليس أسعد حالا، لكنه أغنى كثيرا في الروح. وأنه لم يعد فتى غرا بأي حال.

قالت له ليديا بصوتها الرقيق التائه:

«يجب ألا تحزن إكراما لي، يا غولدموند لا أود إلا أن أكون مصدر سعادة لك وفرح. سامحني لأني لطخت قلبك بحزني. إنني في كل ليلة يراودني أغرب حلم. يتراءى لي دائما أنني أهيم في برية غارقة في الظلمة وهائلة ويتعذر علي أن أصفها لك، وأراني أمشي فيها وأمشي، أبحث عنك. ولا أجدك أبدا. وأعرف أنني فقدتك. لذا فيجب أن أواصل المسير إلى الأبد بحثا عنك. ثم عندما أفيق أقول لنفسي: آه، ما أسعدني إذ أعلم أنه ما زال موجودا معي، وأنه ما زال في وسعي أن أراه بضعة أسابيع أخرى أو أياما، وسيان لدي ما دام معي».

وذات صباح، بعيد بزوغ الفجر، استيقظ غولدموند وظل مستلقيا يفكر برهة، تحاصره صور حلم ولكن دون أن يربط بينها منطق أو

معنى. كان قد حلم بنرسيس وبأمه، وكان لا يزال يرى طيفهما بوضوح أمامه. وبعد أن نفض عنه هذه البقايا من الأوهام لاحظ نورا جديدا غريبا في الغرفة، يتلألأ بنوع آخر من الصفاء، من خلال النافذة الصغيرة المستديرة المحفورة عميقا في جدارها. قفز ناهضا من سريره وهرع ليطل منها: رأى زخرفة النافذة البارزة، والفناء، وأسقف الاسطبل، ومن ثم كامل امتداد الريف بعد ذلك، يومظ بنور أبيض مزرقّ أمام ناظريه، إنها بوادر ثلوج العام وقد غطتها كلها. هذا التناقض مع ما عكسه قلبه من اضطراب حار للعالم الهاجع الساكن، أقلقه. بأي هدوء مؤثر وخشوع كان المستنقع والغابة، والتل والأرض المحروثة، تستسلم للشمس أو للريح، والمطر، والثلج، والقحط. بأي ألم رقيق جميل انحنت أشجار الدردار تحت عبء شتائها الأبيض. ألا يستطيع البشر أن يرقوا إلى هذا المستوى من الصبر، ألا يتعلمون سر السكينة. خرج يتجول في الفناء، شارد الذهن، يخوض في الثلوج، يملأ يديه منها، ثم انتقل إلى الحديقة وراح ينعم النظر من خلال سياج النبات.

على مائدة الإفطار تناولوا حساء الجريش، وكان الجميع يتسامرون حول أول سقوط للثلج. وكان الجميع، وحتى الخادمات، قد خرجوا إليه. هذا العام تأخر سقوطه، واقترب عيد الميلاد. وحكى الفارس عن أراض في الجنوب لا يسقط فيها الثلج.

ولكن ما جعل هذا اليوم الأول من الشتاء يوما لا ينسى في حياة غولدموند لم يقع إلا في وقت متأخر من تلك الليلة. كانت ليديا وجوليا قد تشاجرتا، إلا أن غولدموند لم يسمع بذلك. وبعد أن ساد السكون والظلام المنزل، تسللت ليديا كالمعتاد إلى سريره، وتمددت إلى جانبه بصمت والتصقت به، لتشعر بوجيب قلبه. كانت حزينة، تفيض بالدمع

جراء خيانة جوليا، لكنها لم تصل إلى حد مصارعة حبيبها، وتعكير صفوه بحزنها. واستلقت ساكنة، بالقرب من قلبه، وكان من وقت إلى آخر يهمس لها ويداعبها، ويمرر أصابعه خلال شعرها. وفجأة - لم يكن قد مضى وقت طويل عليهما - أخذ جسدها يرتعش من رأسها حتى قدمها، فاعتدلت في جلستها مستقيمة كالسهم، مفتوحة العينين. ثم أخذ الخوف يظهر على غولدموند نفسه وهو يراقب باب غرفة النوم يفتح ببطء، ويرى شخصا يتسلل متقدما من سريره ، ويخيم عليهما، وقلبه يخفق بقوة. لم يتعرف عليه في أول الأمر من شدة الرعب، ولم يتمكن، إلا بعد أن أصبح بجوار سريره من أن يرى جوليا. تركت العباءة التي كانت تتلفّع بها حول قميص نومها، تنزلق إلى الأرض. غاصت ليديا إلى الخلف، وكأن ثمة من سدد إليها طعنة، وهي تطلق أنة، وتتشبث بغولدموند. وتكلمت جوليا تخاطبهما، باستمتاع وخبث، وإن كانت كلماتها ترتعش، وهي تهجس:

«لقد قررت ألا أظل نائمة وحدي، فإما أن تضماني إلى سريركما لنغدو ثلاثة وإما أذهب الآن وأوقظ أبي.».

أجابها غولدموند وهو يزيح الغطاء: «حسنا، تعالي إذن، وإلا تجمدت قدماك حتى التحجر»

وولجت زحفا، وكان صعبا عليه أن يفسح لها مكانا، بما أن ليديا كانت متمددة كالميتة، ورأسها على الوسادة. ثم استلقى الثلاثة جنبا إلى جنب، غولدموند في الوسط وحسناء على يمينه وأخرى على يساره ، و لم يتمكن للوهلة الأولى من أن يطرد التفكير في أن هذا كان، وليس منذ وقت طويل، أقصى ما يرغب فيه قلبه. وشعر، بوقار وخوف، وإن باستمتاع سرّي، بكفل جوليا يلامس جنبه.

عادت تقول: «كان يجب أن أرى بنفسي مدى وثارة هذا السرير

ونعومته ، والذي تتلهف أختي للتسلل إليه خلسة «.

أخذ غولدموند يحف وجنته برفق على شعرها، ليهدئها، ومرر يده البارعة على طول كفلها وركبتيها، كما يداعب الرجال القطط، وشعر بسحرها يتسرب إلى أحاسيسه، ولم يعد توقيره لها يطيق أية مقاومة. إلا أنه ظل طوال الوقت يجتهد كي يطمئن ليديا، فيهمس لها في أذنها بهمسات حب صغيرة، إلى أن أوصلها أخيرا وببطء إلى الحالة التي رفعت عندها رأسها، والتفتت إليه. فقبّلها دون أي صوت على عينيها وفمها، على الرغم من أن يده، وهو يفعل ذلك، كانت تخفف من روع أختها، وعلت نبرة الخطر الغريب لهذه اللحظات في عقله إلى ذروة لا تحتمل. لقد أطلعته يده اليسرى على الحقيقة وهي تتعرف على فتنة جسد جوليا، المتوقعة الهادئة، بحيث إنه بات في وسعه الآن أن يتحسس وللمرة الأولى ليس فقط كل بهجة هذا الحب المرّة ويأسه الذي شده إلى ليديا، وإنما أيضا مدى حمقه. وبدأ يفكر في أن عليه، وهو يمنح شفتيه لواحدة، ويده للأخرى، إما أن يجبر نفسه على التخلي عن ليديا، أو أن يتخلى عنهما معا، ويرحل بعيدا. لقد كان حبه لها بأسلوبه ذاك، ومن ثم تخليه عنها، جائرا وبلا معنى.

تأوه في أذن ليديا: «حبيبة قلبي، إننا نتألم دون داع. في وسعنا نحن الثلاثة أن نسعد. فلنفعل ما ينادي به دمنا».

ارتجفت لدى سماعها كلامه هذا وابتعدت عنه، فوثبت رغبته لتلاقي الأخرى، وبدأت يده تمتّعها أيّما متعة حتى أنها استجابت للمداعبة بأنات طويلة مرتعشة. وعندما سمعت ليديا هذا انقبض قلبها، وكأن سُمّا قُطِّر فيه. نهضت، وأزاحت الغطاء، ووقفت على قدميها، وصرخت عاليا:

«هيا بنا يا جوليا»

ارتجفت جوليا: فحدّة هذه الصرخة المفاجئة، العالية إلى درجة كافية لجلب الوبال عليهم جميعا، قد نبهتها إلى الخطر المحدق بهم، فنهضت بهدوء. إلا أن غولدموند، المخدوع والمجروح في كل أحاسيسه، أسرع بالتمسك بها بينما هي تنهض، وراح يقبل ثدييها، ويهمس لها بكلمات تغلي بالرغبة:

«غدا، يا جوليا، غدا».

وقفت ليديا بثوب نومها حافية القدمين، يقرص أصابعها القر على بلاط الأرض العارية. أمسكت بعباءة جوليا وتلفعت بها: فعلت ذلك بحركة ملؤها إحساس بالضعة والألم، شعرت به أختها، حتى وهما في الظلام، مما أثر في قلبها، وأعادهما صديقتين من جديد. وتسللتا معا عائدتين على أطراف أصابع أقدامهما. واستلقى غولدموند، يتميز غضبا، ولم يجرؤ على التنفس إلا بعد أن ساد المنزل صمت القبور.

هكذا ارتدّ أولئك الثلاثة عن إقامة تلك العلاقة الشاذة الغريبة ليغوصوا في التأمل والوحدة. فحتى الفتاتان، وهما مستلقيتان لم تجدا كلاما تتبادلانه، وظل الأرق ملازما لهما، يلفهما التحدي والصمت. وبدا كأن روح الصراع وسوء الحظ، وشيطان العزلة، والفوضى، واضطراب الأرواح الرهيب، قد أطلقت في هذا المنزل. و لم يكحل النوم أجفان غولدموند إلا بعد منتصف الليل بوقت طويل، وكذا كان حال جوليا حتى انبلاج الفجر. وظلت ليديا مستلقية لا تعرف النوم، يملؤها الأسى، إلى أن بزغ نور النهار الشاحب زاحفا على الثلج. نهضت على الفور، وارتدت رداءها، وركعت طويلا أمام صليبها الخشبي الصغير، وصلّت حتى سمعت وقع خطى والدها على المدرج. فخرجت إليه وناشدته أن ينصت إليها. فقد عزمت، دون أن تبذل أي جهد لفصل انفعالين في خلدها، هما الغيرة، وحرصها على بكارة

جوليا، عزمت على أن تضع حدا لكل هذا. كان غولدموند و جوليا ما يزالان نائمين حين سمع الفارس من ليديا كل ما رأت أنه يجب أن يعرفه. و لم تذكر الجزء الذي يخص جوليا.

عندما التحق غولدموند، في الساعة المعينة، بغرفة عمل سيده، ألفى الفارس وهو يرتدي كالمعتاد الثوب الصوفي الغليظ وينتعل خفه، ومنهمك في إعداد ما سيكتبانه سحابة النهار، وكان يرتدي جراب سيفه، وسترة جلدية طويلة بلا كمين، وأدرك غولدموند على الفور ما يعنيه ذلك بالنسبة إليه.

قال الفارس بلهجة آمرة: «اعتمر قبعتك، سنتمشى قليلا معا».

تناول غولدموند قبعته من على المسمار، وتبع سيده هبوطا على الدرج، وخروجا إلى الفناء، ثم نحو البوابة. سحقت أقدامهما الثلج المتجمد قليلا. كان نور الصباح المائل إلى الأحمر، ما يزال شاحبا في السماء. واصل الفارس سيره صامتا، والشاب في أعقابه يلتفت بين الفينة والأخرى ليرفع بصره نحو القلعة، إلى نافذة غرفته الصغيرة، والأسقف والقباب المائلة المغطاة بالثلج، إلى أن اختفى كل شيء في البعيد. إنه لن يرى بعد الآن تلك النافذة أو تلك الأسقف، لن يرى بعد الآن ورشة عمله أو مكان نومه، لن يرى ابنتيّ الفارس ثانيةً. لقد كان ومنذ زمن طويل قد وطن نفسه على أن يفكر في هذا الفراق المفاجئ، لكنّ قلبه الآن كان مترعا بالأسى، وبدا الفراق حزنا ممضّا.

ظلا يسيران هكذا ساعة، والفارس في المقدمة، وكلاهما صامت، وبدأ غولدموند يفكر في مصيره. لقد كان الفارس مسلحا، ولعله سيسدد إليه الضربة القاضية. ومع ذلك فلم الخوف؟. إن الخطر المحدق ليس فادحا: كل ما يحتاج إليه هو أن يطلق ساقيه للريح، وسيخلف وراءه رجلا عجوزا، يمتشق سيفه، لا حول له ولا قوة. لا خطر

على حياته.

لكنّ هذا المسير الصامت خلف الرجل العجوز المهيب، وهذا الاستسلام الأخرس من جانبه لقيادته، كان يزداد إيلاما مع كل خطوة، وأخيرا توقف الفارس.

وهدر قائلا:»والآن سوف ترحل وحدك، وستواصل السير في هذا الاتجاه، وتعيش حياة التشرد كما عشتها في السابق. وإذا رأيتك بالقرب من منزلي مرة أخرى فسوف أرميك بسهم قاتل. لا أريد متشرّدا· كان يجب أن أكون أكثر حكمة من أن أدع شابا في عنفوان الشباب يجاور ابنتيّ. و لكن إذا ما جرؤت على العودة، فستكون تلك نهايتك. و الآن اذهب وليغفر لك الرب خطاياك «.

بدا وجهه، بلحيته الشائبة، في وسط ضياع الثلج الخافق الحي، ميتا مطفأ. ظل واقفا هناك ينتظر كشبح، و لم يتحرك قيد أنملة من موقعه حتى غاب غولدموند عن ناظريه خلف الرابية.

كان الوهج الأحمر قد اختفى من صفحة السماء، و لم تظهر الشمس، و انهمرت من حوله رقاقات ثلج تدوم متباطئة.

الفصل التاسع

كان غولدموند يعرف هذا البلد من خلال عدة زيارات له. فبعد تلك البحيرة المتجمدة ثمة حظيرة يملكها الفارس، وأبعد منها أرض يستأجرها فلاحون، لدى غولدموند أصدقاء بينهم. وقد يضطر إلى اللجوء إلى بعضهم طلبا لإيواء ومنامة، أما أي شيء آخر فيمكن أن ينتظر إلى الغد. وشيئا فشيئا عاد إليه تقديره القديم للحرية والانطلاق في مغامرة جديدة، وقد كاد لفترة من الوقت أن ينساه. صحيح أنه في هذا اليوم الشتائي حقا، كانت فكرة الانطلاق في مغامرات تُشيع فيه إحساسا مُصقِعا وغيرَ مُحمِّس، وصحيح أنها ستكون مغامرات موجعة وصعبة، يرافقها الجوع، إلا أن ضرورتها القاسية وغير المقيدة كانت بمثابة عنصر مسكّن، وكادت تكون بلسما لأحاسيسه المتلبدة ولكل ما في قلبه من تشوّش.

ظل يركض إلى أن نال الإرهاق منه. وقال لنفسه، لا ركوب خيل بعد الآن. آه، ما أرحب العالم! كان الثلج قد توقف تقريبا عن النزول. وعن بعد، بدت قطعان خيول بريّة غير منتظمة وكأنها تتداخل والسحب الرمادية فوقها، والسكون يمتد متراميا أكثر فأكثر، حتى يبلغ نهاية العالم. ما هو مصير ليديا الخائفة المسكينة الآن؟ كان من أعماق قلبه يرثي لحالها، وكان يفكر فيها بحنان وهو مستلق ليرتاح بجانب جدول متجمد، تحت شجرة دردار جرداء منعزلة.

كان البرد يخزه، فنهض واقفا، وقد تيبست أوصاله، وشيئا فشيئا انتقل من المشي إلى الركض تقريبا، وقد بدا الضوء الكليل الباهت وكأنه قد خبا.

لم يكن يفكر في شيء، وهو يقطع حقولا خالية. ما الذي يمكن أن يجنيه من الأفكار أو المشاعر، مهما كانت جميلة ورقيقة؟ يجب أن يبقى دافئا، وأن يجد ملجأ في مكان ما يمضي فيه الليل وأن يظل نشطا، كثعلب أو دلق، وسط زمهرير هذا العالم المصقع، فإن لم يكن في مقدوره أن يستسلم للموت في حقول مثلجة: فلا شيء آخر غير هذا يستحق التفكير.

التفت مندهشا لدى سماعه وقع حوافر حصان عن بعد، وراح ينظر فيما حوله. أيكونون قد أرسلوا من يقتنصه؟ استل خنجره الصغير المخصص للصيد من جرابه ليحرر نصله من غمده الخشبي. ثم لمح راكبا عن بعد، وتعرف على حصان من اسطبل الفارس، وكان يخب بعناد ليلحق به: إن أية محاولة منه للهرب لا جدوى منها، فوقف ينتظر دون خوف حقيقي، لكنه كان مشدود الأعصاب ترقبا وفضولا، وكان قلبه يخفق أسرع فأسرع، وقفز إلى رأسه خاطر «إن نجحت في قتل الراكب! فعليّ أن أحصل على الحصان، وبعدها سأملك العالم كله». ولكن عندما رأى الراكب هانز، فتى الاسطبل، بعينيه الزرقاوين الرقراقتين الوضاءتين، ووجهه المستدير الأبله، ضحك من نفسه. يجب أن يكون قد قدّ من حجر لكي يذبح مثل هذا الساذج الطيب اللطيف. رحب بصديقه هانز، وربت برقة على حصانه «هانيبعل»، فتعرف عليه على الفور من مداعبته لعنقه المتعرّق الدافئ.

سأل الفتى: إلى أين يا هانز؟».

ابتسم هانز ابتسامة عريضة كاشفا عن أسنان براقة وقال:

«إليك. أراك قد قطعت سريعاً مسافة لا بأس بها. ؟ والآن بعد أن عثرت عليك لا يمكنني أن أمكث. ليس أمامي إلا أن أنقل إليك السلام وأسلمك هذه».

«وممن السلام؟».

«من السيدة ليديا. آه، لقد عكرت علينا صفو يومنا يا سيد غولدموند. لقد أسعدني أن أتمكن من الابتعاد قليلا. لا يجب أن يعرف السيد أنني خرجت حاملا رسالة، وإلا شنقني حالما يقع بصره عليّ. فخذها.»

ومد غولدموند يده لأخذ اللفافة.

«قل لي يا هانز، هل تحمل أي خبز في حقيبتك؟».

«خبز؟ أعتقد أن هناك كسرة». ثم نقب عنها وأخرج قطعة كبيرة من خبز الجودار. ثم استعد بالحصان للرحيل.

سأل غولدموند «كيف حال السيدة ليديا؟ ألم تحمّلك أية رسالة؟».

«لا، لم أتكلم معها إلا قليلا. إن الجو مكفهر جدا في المنزل. أؤكد لك. السيد يذرع المكان جيئة وذهابا مثل الملك شاؤول. ليس لدي إلا هذه أعطيك إياها، لا أكثر، يا سيد غولدموند، والآن يجب أن أسرع في العودة».

«نعم، ولكن تريث دقيقة فقط هانز، هل يمكنك أن تتخلى لي عن خنجر الصيد خاصتك؟ ليس لديّ إلا واحد صغير. حتى إذا خرجت علي الذئاب كان بحوزتي خنجر جيد».

لكن هانز لم يقبل بهذا على أي حال. قال إنه سيتألم كثيرا إذا ما حل بالمعلم غولدموند أي مكروه. ولكنّه لا يستطيع أن يتخلى عن مديته الكبيرة، لا يمكن أن يتخلى عنها، لا، ولا مقابل الذهب، ولا حتى مقابل

واحدة أفضل. آه، لا، لا يمكن أن يفرّط فيها، حتى لو طلبت منه ذلك القديسة الطيبة جنفييف. والآن يجب أن يستحث حصانه. تمنى له رحلة موفقة، وأبدى له أسفه.

تصافحا. وعاد الفتى ينطلق خببا، بينما وقف غولدموند يتابعه بنظره، وفي قلبه حزن غريب. ثم حل اللفافة، وأعجبته الأربطة الجلدية الأنيقة الثخينة الجيدة التي تلفها. كانت تحوي قميصا منسوجا من الصوف الرمادي المتين، وبدا أنه صنع يد ليديا، وكان على مقاسه. وداخل الرداء الصوفي كان ثمة شيء قاس – ضلع لحم خنزير – وداخل اللحم ثمة شق مستطيل، وداخل هذا الشق أقحمت قطعة نقد من الذهب الصافي. وكل هذا جاء دون رسالة.

وقف وسط الثلج يحمل هبة ليديا، وتردد: ثم تجرد من سترته الطويلة، وارتدى الرداء الصوفي، فأشاع فيه الدفء ، ودثّر جسمه البارد. وعجل بارتداء السترة الطويلة فوقه، وأخفى قطعة النقد الذهبية عميقا في الجراب، وشد أحزمة الجلد حوله، وواصل طريقه في حقول الثلج. لقد حان الوقت للعثور على مكان للنوم، بعد أن أخذ الإرهاق ينال منه. لن يلجأ إلى أي من أكواخ الفلاحين، على الرغم من أنه كان يمكن أن يجد بينها مأوى دافئا، وطاسا من الحليب يجدد قواه، لم تكن به رغبة في الثرثرة ولا في الإجابة عن الأسئلة.

نام على الثلج، ونهض عند بزوغ الفجر، وراح يمشي بخطى مجهدة على الجليد في مواجهة رياح صرصر، يستحثه البرد للوصول إلى محطات اضطرارية. وظل ليالي طويلة يحلم بالرجل العجوز المتشق سيفه، وظل أياما عديدة تعتصر قلبه الوحشة والحزن.

بعد ذلك ببضعة أيام، وجد عند هبوط الظلام مأوى في قرية لا يوجد لدى الفلاحين الفقراء فيها شيء وإنما فقط حساء دقيق ليقدموه

له. هنا كانت مغامرات جديدة في انتظاره. فقد ولدت المرأة التي استضافته طفلا أثناء الليل، وحضر غولدموند الولادة. وقد أيقظوه من نومه على القش ليمد لهم يد العون، على الرغم من أنهم في آخر المطاف لم يحتاجوا إليه، فيما عدا حمله لشمعة الأسل أثناء قيام القابلة بعملها. وكانت تلك أول عملية توليد يشهدها في حياته، وفجأة، وقد شعر أنه اكتسب تجربة جديدة، راح يحدق بعينين لامعتين مشدوهتين في وجه هذه المرأة التي تعاني المخاض. لقد بدا له أن ما شاهده في وجه المرأة يستحق التأمل على الأقل ، وأنّ ثمة شيئا تكشّف له هناك في ضوء المصباح ما كان ليتجشّم من قبل مشقّة الالتفات إليه. فبينما كانت هذه الأم المتألّمة تصرخ معبّرة عن آلامها بدت تقاطيع وجهها الملتوية مختلفةً قليلا عن تقاطيع وجه تلك المرأة التي رآها في لحظة نشوة المضاجعة ومختلفة عن تقاطيع وجوه النساء اللائي اقتنصهن. صحيح أن نظرة التألّم في هذا الوجه كانت بارزة بقوة، وبالتالي كانت أوضح من أقسى المتع، ولكن ما يكمن تحتها كان الشيء نفسه: لمحة في تقاسيم الوجه تشبه التكشيرة ، والتوهج نفسه، والانطفاء نفسه. وتعجّب مطولا من الفكرة التي خطرت له فجأة: يمكن للمتعة والألم أن يكونا متشابهين كأختين.

ومر بتجربة أخرى في هذه القرية. فإكراما لزوجة أحد الجيران، التي وقع نظره عليها في الصبيحة التي تلت ليلة الولادة، والتي سرعان ما أنصتت إلى توسله، تريث ليلة ثانية في القرية، وأحسن إمتاعها، لأن تلك كانت أول عملية إشباع لشهوته، بعد أسابيع عديدة من الخداع والشوق. وبعد هذا التأخير كانت هذه المغامرة. وبسببها، وفي اليوم الثاني لمقامه في هذا المكان، التقى مصادفة برجل طويل أصلع، يدعى فيكتور، وبدا له أنه نصف رجل دين ونصف متشرد، حيّاه باللاتينية،

وأعلن نفسه طالبا جوالا، على الرغم من أنه قد تجاوز سن الالتحاق بالجامعات. هذا الرجل، بذقنه المدببة غير الحليقة، قابل غولدموند بشيء من روح الرفقة وحس الفكاهة عند المتشرد، والتي سرعان ما أكسبته رفيقا شابا. وإجابة على سؤال غولدموند له : أين تلقى دراسته، وإلى أين تقوده رحلته؟ تبجح الأخ الغريب بما يلي: «وحق روحي الضائعة المسكينة لقد تدرجت في كثير من المناصب العلمية. زرت باريس وكولونيه، ونادرا ما ترددت كلمة أحفل بالمعاني حول الميتافيزيقيا الحقيقية لنقانق الخيل على غير لساني، في أطروحتي في ليدن. ومنذ ذلك الحين، يا amice، وأنا أجول في طول الأراضي الألمانية وعرضها، طالبا فقيرا، وروحي الغضة تتوجع وتتعذب بجوع للمعرفة لا يشبع. أطلق عليّ اسم فزاعة عاهرات الريف، وكان سري هو تعليم العاهرات الصغيرات اللغة اللاتينية، وطرد النقانق من رفوف المواقد إلى بطني، إن ملك بوهيميا هو أخي، والأب الكلي يغذينا نحن الإثنين، وإن كنت أنا الذي تحمل العبء الأكبر جراء ذلك. وبعد يومين عمد إلى إساءة معاملتي، وهو الأقسى قلبا بين الآباء الكليين، بإنقاذ حياة ذئب جائع بجثتي المسكينة. ولو لم أصرع ذلك الذئب يا سيدي الزميل، لما حظيت الآن بشرف معرفة شخصي الموقر. In saecula, saecularum, amen.[1]

شعر غولدموند الذي لم يكن بعد قد تضلّع في هذا النوع من فكاهة المشانق، بأنه منجذب إلى شيء ما في المتشرد الصلب، مع أنه كره الضحك الفظ الذي كان يقابل به الرجل نكاته، ثم إن الوجه الطويل غير الحليق كان يخيفه قليلا. ومع ذلك اقتنع بسهولة باتخاذه منذ ذلك الحين رفيقا له على الطرقات، بغض النظر عن كون حكايته عن

(1) وإلى أبد الآبدين، آمين.

الذئب المذبوح هي للتفاخر، فإن إثنين هما دائما أقوى وأكثر أمانا من واحد، لكن فيكتور رفض أن ينطلق من جديد إلا كما قال، بعد أن يُعلِّم الفلاحين شيئا من اللغة اللاتينية ، وهكذا، أقام في القرية ليلة أخرى. ولم تكن طريقته في التوجه إلى عمله تشبه، حتى ذلك الحين، طريقة غولدموند خلال كل جولاته، وذلك عندما طلب له مأوى في القرية. فقد أخذ فيكتور ينسل خلسة من كوخ إلى آخر، يثرثر مع النسوة عند كل باب، مقحما أنفه الطويل في الاسطبلات والمطابخ، كارها أن يواصل طريقه قبل أن ينال تقدمة من كل منزل. كان يحفظ حكايا عن الحروب في إيطاليا لكل ربة بيت، يجلس القرفصاء بجوار موقدها، ويجأر بأغنية عن القتال في بافيا، ولديه علاج خاص لأسنان الجدة الساقطة، ولالتهاب المفاصل، ويحشو سترته الطويلة حتى الحزام بالجوز، وبقشور الإجاص، وبقطع الخبز. وقد ذهب على ما يبدو إلى كل مكان ، وكان لديه طرف من كل علم. جلس غولدموند يتأمله فاغرا فاه، وهو يخوض حربه التي لا تنتهي لجمع مؤونته، يداهن البعض ويخيف البعض الآخر، متفاخرا ليثير ذهولهن، يتبجح بالمقتطفات اللاتينية ويمثل دور المثقف، يشوّش عقولهن بمختلف ألوان الخدع، وعيناه الحادتان تتنقلان طوال الوقت، من وجه إلى وجه، يرصد كل خزانة مواربة، كل رغيف خبز، هو من يحل كل مشكلة. ولاحظ غولدموند الشاب أن هذا متشرد متمرس، يتحمل الحر والقر، رجل عاش في مناخات عدة، برد وجاع سنين كثيرة، حتى بات وقحا ماكرا، يخوض حربا مريرة في حياة متقلبة ومحفوفة بالمخاطر. تلك هي نهاية أولئك الذين يطيلون البقاء على الطرقات العامة. فهل يا ترى سيغدو مثله ذات يوم؟.

في صباح اليوم التالي انطلقا معا يسيران، ولأول مرة كان لغولدموند

رفيق. وبعد مرور اليوم الثالث كان قد تعلم أشياء كثيرة. وإشباعا للحاجات الثلاث للجوالين، الأمان من الخطر المهلك، وملجأ من البرد، وبطن مملوءة، قل لديه الفكر بصحبة فيكتور، ونمت الغريزة. لقد علمته سنين طويلة على الطرقات الشيء الكثير، بالإضافة إلى أنه كان ضليعا في فنون عدة، ويمكنه أن يستشف من دلالات غامضة اقتراب أي مسكن إنساني، حتى في الظلام، أو في الثلوج العميقة، ويعرف بدقة أي مكان في الغابة أو الحقل هو الأفضل للنوم فيه أو الجلوس لأخذ قسط من الراحة، ويستطيع أن يقدّر بدقة، لحظة يلج غرفة، مدى ثراء صاحبها أو فقره، ومدى طيبة قلبه، أو فضوله، أو خرفه. وراح رفيقه الشاب ينصت بشغف، ولكن عندما استجاب غولدموند ذات مرة لنصيحته بإخباره أنه ارتكب خطأ باقترابه من نماذج بشرية على قدر كبير من النفاق، وأنه، على الرغم من جهله بهذه الأساليب الملتوية، نادرا ما أنكر عليه كرم الضيافة حين طلبها بكلمات ودية، ضحك فيكتور النحيل والطويل، وأجاب بروح فكهة:

«لا شك، يا صغيري غولدموند في أنك محظوظ. أنت شاب صغير، وتظهر عليك سيماء الشجاعة الكبيرة، وتبدو كأحد الملائكة الحارسة، وسيما وبريئا، ومنظرك يغري بالاحتفاظ بك آناء الليل. أنت تسعد النساء، ويقول الرجال: «لا ضرر منه. إنه لا يقوى على إيذاء ذبابة» ولكن، اسمع يا صديقي الشاب، إن الشباب يولي، والوجه الملائكي ستظهر عليه التقاطيع، ثم تأتي التجاعيد، والجورب سيحتاج إلى ترقيع وقبل أن يدري الإنسان أين هو يتحول إلى ضيف سقيم، بشع المنظر، لا يحمل في عينيه غير نظرة نهمة حلت محل كل البراءة الجميلة العذبة: عندئذ يتوجب عليه أن يتعرف على العالم، وإلا وجد نفسه سريعا مرميا فوق كومة من الروث، ليأتي كل كلب خسيس في

القرية ليتبول عليه. ولكن لا أعتقد أنك ستهيم على وجهك على الطرق طويلا، فيداك شديدتا الرقة، وشعرك أشقر جميل. وقريبا سوف تستقر حيث تجد حياة أفضل، وتنام على سرير زوجي دافئ، وكبير، أو تركن إلى حياة رخية في أحد الأديرة، أو إلى غرفة كاتب عمومي دافئة مستكينة. ولم العجب، إنك بهذا الرداء الجيد الملقى على كتفيك لجدير بأن تكون أحد الأرستقراطيين».

أخذ يمرر يديه وهو يضحك على سترة غولدموند الضيقة الطويلة، فشعر هذا الأخير بأصابعه تتلمس وتفتش كل جيب منه. ابتعد غولدموند، متذكرا قطعته النقدية الذهبية. ثم حكى له عن قصر الفارس، وكيف حصل على هذه الملابس الجيدة وعن لغته اللاتينية، حتى أن فيكتور لم يفهم كيف ترك مثل ذاك العش المستكين في منتصف الشتاء، فأطلعه غولدموند، الذي لم يعتد الكذب على جانب من أخبار جوليا وليديا. وكان ذلك سببا في أول شجار قام بين الرفيقين. فقد كان غولدموند في عيني فيكتور أبله بدون صاحبه، بفراره هكذا دون إثارة أي ضجة، تاركا القصر والفتاتين في حراسة أبيهم الطيب، الذي في السماء. يجب إيجاد حل لهذا، وقريبا سيضع خطة لتنفيذه، فسينطلق الإثنان إلى القصر، وعلى الرغم من أن غولدموند يجب ألا يظهر في الصورة، إلا أن صديقه فيكتور سيهتم بكل شيء. يجب أن يوجه رسالة حب صغيرة إلى ليديا: سوف يتم استقبال صديقه بوصفه مفوضه، والعون من الله! ولن يغادر الحصن إلا بعد أن ينال هذا الشيء أو ذاك من الذهب أو المتاع مكافأة. وظل يثرثر هكذا، إلى أن استشاط غولدموند غضبا ، رافضا العرض، ورافضا أن يزيد كلمة واحدة أخرى حول الموضوع، أو أن يفشي لفيكتور اسم الفارس، أو أن يحدد موقع القلعة.

حين رأى فيكتور مبلغ انزعاجه عاد يضحك من جديد، وتظاهر بأنه رفيق طيب. وقال مكشرا: «حسنا، يبدو أنه يسعدك أن تنفض يديك من الأمر كله. كل ما أريد أن أقوله لك، يا سيدي الشاب، هو أنك تضيّع على كلينا صيدا ثمينا، وليس هكذا يكون الزميل الطيب. ولكن يبدو أنك ترفض أن تنصت إليّ، أنت فارس ثري، وسوف تمتطي من جديد صهوة جوادك وتغير على القلعة، وتحمل الحسناء على ظهر حصانك. يا فتى، إن رأسك محشو بكل ما هو مسلّ وأحمق. الكل في واحد: سوف يسعدني أن أسير إلى جانبك وإلى أن يتجمّد حذاءانا وينخلعا من أقدامنا».

ظل غولدموند مقطب الجبين حتى المساء. ولكن بعد ذلك، عند الغروب، لم يعد لديهما ملجأ ولا عثرا على أي أثر لكائن بشري وقد كان سعيدا إلى درجة أنه ترك أمر انتقاء مكان للنوم لفيكتور، وساعده في إعداد مرقد من أغصان أشجار الصنوبر، وتهيئة مأوى على طرف الغابة، بين جذعي شجرتين، في وجه الرياح. ثم أكلا خبزا جيدا وجبنا، من جراب فيكتور العارم. والآن، بعد أن خجل غولدموند مما أبدى من غضب، أخذ يبدي مرونة ويقدم يد المساعدة، وأعطى رفيقه قميصه الصوفي ليرتديه أثناء الليل، وتكفل بالقيام بنوبة الحراسة الأولى، بعد أن اتفقا على التناوب على الحراسة، وإبعاد الذئاب. واستلقى الآخر على سرير الأغصان لينال قسطا من النوم. اتكأ غولدموند فترة وجيزة على جذع شجرة الصنوبر، بهدوء تام، لكي لا يزعج نوم زميله. ولكن حين بدأ يصقع، أخذ يتمشى في الغابة. وأخذت دائرة خطواته تزداد اتساعا، ورفع بصره إلى رؤوس أشجار الصنوبر المدببة، كنصال الرماح، مسددّة إلى السماء الرصاصية، وفي قلبه شيء من الحزن والخوف من الليل، المصعق، الساكن، العميق، الذي

يشمله، وكأن قلبه الحي، الدافئ يخفق وحيدا، في عالم من الصمت المطبق. ثم تسلل راجعا لينصت إلى أنفاس رفيقه النائم. وشعر كما لم يشعر من قبل بعمق معاناة المتشردين، الذين لا يحول بينهم وبين الخوف الأعظم سور قلعة، ولا جدار منزل، أو دير، السائرين عراة في عالم من الغرباء والأعداء، وحيدين تحت النجوم المثلجة الساخرة ، ووحوشٌ تعوي بين الأشجار الصبورة الصامدة.

قال في نفسه، لا، لن أصبح أبدا مثل فيكتور، إن كان هذا يعني أن يمضي حياته كلها يجوب الطرقات. إنه لم يتمكن قط من أن يلبس لبوس الجواب المدافع عن نفسه ضد الخوف، أو أن يمارس خدعة اللصوصية الماكرة، لاقتناص لقمة عيشه أو أن ينتحل حماقته المتبجحة الوقحة، وفكاهة المشانق المتشدقة التي يتصف بها برامارباس[1]: ولعل هذا المحتال كان على حق، وغولدموند لا يمكنه أبدا أن يجاريه، لن يكون أبدا الجواب المثالي، وسيضطر ذات يوم إلى الانسحاب عائدا ليحتمي خلف جدران الأمان. ولكن على أية حال سوف يظل يشعر دائما أنه بلا مأوى، وأنه لا وجود لمكان آمن حقا ومحمي تماما: سيظل العالم يمثل لغزا حتى النهاية، لغزا مبهما، جميلا، رهيبا. وينبغي أن ينصت إلى صمته حتى النهاية ، وينبض قلبه في وسطه بعنف شديد، ويبدو كيانا هشا عابرا. ولمعت بضع نجمات عاليا فوق رأسه: لا رياح، ومع ذلك بدا أن سحبا بعيدة تنجرف.

ظل فيكتور نائما ساعات طويلة لأن غولدموند لم يجازف بإيقاظه وأخيرا صرخ فيه:

«هيا، يجب أن تأخذ قسطا من الراحة، وإلا فلن تكون في الغد صالحا لعمل أي شيء».

---

(1) Bramarba.

أطاع غولدموند، وتمدد على الأغصان، وأغمض عينيه. كان منهكا ومع ذلك لم يؤاتيه النوم. لقد أبعدت أفكاره النوم عن جفونه، ومعها إحساس جديد لم يتمكن من تفسيره، وكأنه كان قلقا على صاحبه. ولم يفهم كيف أفشى قصته مع ليديا لهذا المتوحش، بضحكته الحادة، وأسلوبه الماجن الوقح في الاستجداء. كان حانقا من فيكتور ومن نفسه، وراح يفكر وهو مثقل القلب بأفضل السبل لفض الشركة. ولكن يبدو أنه قد غفا، فقد وعى فجأة مجفلا، أن يديّ فيكتور تتحسسان جسمه، تجسّانه هنا وهناك بحذر سريع، وتندسّان داخل جيوب سترته. كان في أحدها سكينه وفي آخر قطعة النقد الذهبية. وفيكتور سيستولي عليهما معا إذا عثر عليهما. وظل يتظاهر أنه نائم، وحرك ذراعه وكأنه غارق في سباته. تراجع فيكتور. وصمم غولدموند، وفي قلبه ثورة عارمة، على أن يغادره في اليوم التالي.

ولكن حين مال فيكتور عليه للمرة الثانية، ربما بعد ذلك بساعة، وبدأ ينقب في جيبه ازداد غولدموند برودة من شدة الغضب، ولزم الهدوء التام، إلا أنه فتح عينيه، وقال له مؤنبا:

«ابتعد الآن! لن تجد شيئا تسرقه».

قبض اللص، من شدة فزعه، على حنجرة غولدموند بكلتا يديه، فأخذ يكافح، ويصارع ليبعده. لكن الآخر كان يضغط بقوة مضطردة، واضعا ركبته على صدره، وبدأت أنفاس غولدموند تختنق، فتلوى وجاهد بكامل جسده، الذي أضحى فجأة يقظا نشيطا، بعد ما عجز عن الإفلات منه، وبقوة الخوف الآني من الموت الذي استولى على وعيه. وأخيرا نجح في مد يده إلى جيبه، مع شدة انطباق القبضة على حنجرته، ورفع مدية الصيد الصغيرة إلى أبعد مدى، ثم انهال بها نحو الأسفل، بسرعة وبلا وعي، مرات عديدة، على فيكتور الراكع.

وبعد برهة تراخت قبضة فيكتور، وعاد الهواء من جديد. واستنشق غولدموند نفسا عميقا متلهفا من البهجة، جذلا بإنقاذ حياته.

ثم جاهد كي ينهض، لكن رفيقه النحيل الطويل كان قد تكوم بلا حراك فوقه، منهارا، وهو يئن محشرجا ودمه يسيل على وجهه. عندئذ فقط استطاع أن يدفعه جانبا وينهض واقفا وهناك، في الضياء الباهت، جلس الجسد النحيل الطويل محدودبا، لزجا بما يغطيه من دماء. وقبض غولدموند عليه. فرفع رأسه، ثم عاد فسقط مثل كيس ثقيل رخو. كان الدم ما يزال ينز من مؤخر عنقه ومن ظهره، في حين كانت الحياة تنسحب من فمه على شكل تأوه عنيف، سرعان ما تلاشى.

قال غولدموند في نفسه: «يبدو أني قتلت الرجل». وراح يفكر في هذا ويقلب التفكير وهو راكع ومهيمن على فيكتور المحتضر، يراقب الشحوب وهو يقسّي قسمات وجهه. «يا أم الرب المقدسة، لقد ارتكبت جريمة قتل». وسمع صوته وهو يقول هذا.

فجأة أصبح المكوث غير محتمل. فالتقط سكينه، ومسحها على القميص الصوفي الذي كان الآخر ما يزال يرتديه، والذي نسجته ليديا بيديها ليدفئ حبيبها، وأغمدها في جرابها الخشبي ثم أقحمها عميقا في جيبه، وقفز واقفا، وأطلق ساقيه للريح بكل ما أوتي من قوة.

خلّف فيه موت هذا الجوّال المرح حزنا ثقيلا. وبعد شروق الشمس نظف جسمه كله من آثار الدماء، وهو يرتجف، ، وظل على مدى نهار وليلة يسير على غير هدى. وأخيرا نخسه بهماز الجوع، ودفعه إلى إنهاء ندمه ورعبه.

وأخيرا، وجراء ضياعه في الصقيع الخاوي المغطى بالثلوج، دون مأوى أو طريق أو لقمة تسد رمقه، أصبح وحشي المزاج، يائسا، يعوي

معبرا عن حاجته كالوحش، ويضعف أكثر فأكثر، حتى الانهيار، لا يتوق إلا إلى النوم، والموت على الثلج. لكن الجوع لم يكن يدعه في سلام. راح يركض كالمجنون، نهما للحياة، يدفعه ويستحدثه منتهى إحساس بالجوع واليأس، بقوة مجردة من الروح، ورغبة بهيمية، قوة صارمة صرف للحياة المجردة داخله. كان ينزع بأصابعه الزرقاء المتيبسة حبات العليق المتغضنة من شجيرات العرعر، المثقل بالثلج، ويمضغ الثمار المرة، المملوءة بالأشواك الصنوبرية، التي كان مذاقها الحريف يثير جنونه، ويلتهم وراءها حُفنات من الثلج ليطفئ ظمأه. وينفخ في يديه المتجمدتين، ثم يخر ليرتاح على أكمة، وهو يمسح بنظره الأرض بلهفة، فلا يرى على مرمى البصر غير أرض بور، وأرض الغابة، ولا أثر في أي مكان لكائن بشري. طار فوقه غرابان، فراح يتابعهما بنظرة حاقدة. لا، لن يكون طعاما لهما ما دام في ساقيه قدر ولو قليل من القوة، ويشيع في دمه قبس من الدفء الإنساني. نهض واقفا ليواصل من جديد صراعه مع الموت الجبار، وأخذ يركض ويركض، ومن خلال الإرهاق المحموم لهذا الجسد الأخير تملك عقله حشد من أغرب الأفكار، وراح يلقي على نفسه مجموعة من أشد النكات إثارة للضحك، نصفها داخل عقله والنصف الآخر بالكلمات. وراح يصرخ مناديا على فيكتور، الذي كان قد طعنه، ويسخر منه ويوبخه بقسوة لأنه مات: «كيف حالك، أيها الأخ الماكر؟ هل ما زال القمر يسطع بصفاء من خلال أضلاعك؟ هل هناك ذئبان يتشممان حول أذنيك يا صاح؟. لقد قلت لي مرة إنك قتلت ذئبا. فهل عضضته في عنقه أم انتزعت ذيله؟ إذن فقد كنت تريد قطعتي الذهبية. أيها السكير العجوز! ولكن كما ترى لقد كان الصغير غولدموند كفؤا لك — نعم، فيكتور، لقد نجح أخيرا في دغدغة أضلاعك! وطوال الوقت كنت

تحتفظ بحقيبة الجبن والسجق، أيها الخنزير، أيها الجشع». كان يتفوه بمثل هذا المزاح، يعوي ويلهث، ويسخر من الميت، ويشمت به، ويضحك من الأحمق ويوبخه لأنه تهاون حتى ذبح كأبله، الساذج المسكين، المتبجح الأحمق!.

ثم كف عن التفكير في فيكتور المسكين الهزيل منذ أن تراءت له جوليا وهي تركض أمامه، تماما كما فعلت عندما تركته في تلك الليلة، لقد هتف لها بكلمات عشق صغيرة، أغواها بصرخات مرحة، فاسقة، طالبا جسدها، جعلها تأتي إليه، تجرده من قميصه، ويذهبان معا إلى الجنة، قبيل أن يموتا بساعة واحدة، قبيل أن يتعفنا ويفسدا بلحظة. وراح يتوسل إليها، ويواصل غوايتها، يتغنى بثدييها الصغيرين الناتئين، وبساقيها، وبالشعر الخشن الذهبي تحت إبطيها. وأيضا، بينما هو يتابع دربه بخطى متعثرة، على الأرض السبخة المغطاة بطبقة من العشب مكسوة بالثلوج، بساقين متصلبتين، ثملا من الألم، منتشيا بنهمه الخفاق للحياة، عاد ليهمس من جديد لشخص آخر. هذه المرة تحدث إلى نرسيس، ألقى على مسمعه أفكارا جديدة، نكاتا جديدة، حكمة جديدة.

سأله: «ألا ينتابك الخوف يا نرسيس، ألم يسبق لدمك أن جرى باردا في شرايينك؟ ألم تره بأم عينيك؟ نعم، يا صديقي، الموت يملأ العالم، إلا أنه يقف على كل وشيع، ويتربص منتظرا عند كل جذع شجرة لذا لا يمكن لجدران البناء الحجري والمنامات، والكنائس وأماكن العبادة والتقشف أن تقدم أي عون. سوف يترصدك من خلال أي نافذة، يمكنه أن يبتسم، وهو يعرف كل واحد منكم معرفة تامة، وعند منتصف الليل في وسعك أن تسمعه يقهقه، ويكيل لك الشتائم من خارج المنزل. إنهم يرتلون على مسامعك المزامير ويشعلون

شموعك على مذابحك، ويسارعون إلى حضور صلواتك الصباحية والمسائية، ويجمعون لك الأعشاب في غرفة المؤونة، ويرتبون لك الكتب في مكاتبك. هل تصوم يا صديقي؟ هل تتهجّد؟ لا شيء من كل ذلك سيفيدك: سوف ينتزعها كلها منك صديقك «الهيكل العظمي» ، سوف يجردك من لحمك، ويتركك ترتعد من شدة البرد. اركض يا نرسيس، عجل. ثمة وليمة تقام في الحقول:

اركض – فقط احتفظ بعظامك متماسكة يا رجل، سوف تتفكك إذا لم تنتبه. لا يبقى الهيكل العظمي متماسكا عند أي إنسان! لهفي على هيكلنا العظمي! لهفي على بطننا! لهفي على عقلنا الصغير المسكين القابع تحت جمجمتنا! كل ذلك يذوب مثل الثلج. كله يذهب إلى الجحيم، بينما تنعب الغربان على أغصانها ، مثل الكهنة السود .

ظل الهائم على وجهه، طويلا لا يدري في أي مكان هو، أو إلى أين يذهب – إن كان يتكلم، أو يركض، أو ينبطح على وجهه. مشى برشاقة على العشب القصير، اصطدم وهو يركض بالأشجار، وتشبث وهو يسقط بنبات العليق، المثقل بالثلوج. لكنّ إرادته الهروب من الموت كانت الأقوى لديه، تطارده دائما ، وتحثه على التقدم، تلاحق الراكض الأعمى على أرضه.

عندما سقط في آخر المطاف وراح في إغماء طويل حدث ذلك في القرية نفسها التي كان قد قابل فيها، قبلها ببضعة أيام، المثقف الجوال، ورفع شمعة الأسل فوق امرأة تلد وتئن. وانطرح لا يأتي بحركة، وخرج الناس وتحلقوا حوله. وهم يثرثرون، لكنه لم يقو على تحملهم. وتعرفت المرأة التي كان قد طارحها الغرام على وجهه، وارتعشت لدى رؤياه، وأشفقت عليه، ودفعت بزوجها إلى أن يجر الجسد شبه الميت إلى زريبة أبقارها.

بعد مضي وقت طويل استعاد غولدموند عافيته، وبات مستعدا للانطلاق على الدروب من جديد. فقد ساهم نومه الطويل ودفء الاسطبل، وحليب الماعز الذي سقته المرأة إياه، في الإسراع من استرداد جسده لقوته. وكاد ينسى كل ما كان قد مر به، سيره المجهد إلى جانب فيكتور والليل الحزين المصقع تحت أشجار الصنوبر، ونهاية رفيقه الرهيبة، والأيام التي أمضاها في البراري. ولكن على الرغم من أنها تقريبا نُسِيت إلا أن شيئا منها بقي. ثمة خوف غامض رفض أن يفارقه، مع أنه رماه إلى الماضي: إنه رعب، لكنه شيء عزيز، غرق عميقا داخله، إلا أنه ظل يحتل جزءا من تفكيره، هو مذاق متخلف، فكرة متبقية، حلقة من حديد تطوق قلبه. لقد تعلم في أقل من سنتين كل ما يمكن أن يتعلمه عن حياة الجوالين: العزلة، الحرية، غريزة استكشاف أماكن الحيوانات والأشجار، تذوق الحب العابر، دون أي إيمان به، والحاجة، المرة كالموت. ظل أياما عديدة ضيفا على الحقول الصيفية، وأياما طويلة وأشهرا ضيفا على الغابات، وأياما في الثلوج، وأياما يتلبسه الخوف من الموت.

وفي كل الأحوال كان أقوى مشاعره وأحدّها هو أنه عليه أن يكافح الموت، هو أنه، على الرغم من إدراكه لضآلته ولوضعه البائس، ظل يشعر، بعد ذلك الصدام الأخير، بقوة الحياة الهائلة والرائعة داخله. كانت أصداء ذلك القتال ما تزال تتردد في أرجاء نفسه، وكان قلبه معتما بها إعتاما لا يزول، كانت معرفة عميقة كتلك الأخرى. التي لها إيماء الرغبة وسيماها، وتشبه كثيرا معرفة الأمهات الوالدات، المحتضرات.

ما أقرب الوقت الذي كانت فيه تلك الأم مستلقية، تئن، وتتلوى ألما، ما أقرب الوقت الذي انهار فيه فيكتور وانكمش يئن، وكم كان دمه يسيل بسرعة ونعومة !.

آه، وهو أيضا كم علمته أيام الجوع تلك أن يحترس من الموت، كم مزقت أحشاءه، وجمدته حتى كاد يغدو جليدا! وكم جاهد ضد كل ذلك، مسددا ضربته المباشرة إلى وجه الموت، وبكم من الخوف القاتل، وبكم من النشوة القاتمة، أخذ حذره! وشعر أنه لم يعد هناك في العالم ما يستحق أن يتعلمه. وربما سيتحدث في هذا الأمر مع نرسيس، فلا أحد غيره قادر على فهمه.

عندما عاد غولدموند، المستلقي على سرير القش في زريبة البقر، إلى وعيه للمرة الأولى، وجد أنه قد فقد القطعة الذهبية، التي أودعها جيبه. فهل أضاعها أثناء شبه غيبوبته الرهيبة؟ وراح يقلب التفكير في الأمر مطولا. لقد أحب قطعته الذهبية، وما كان ليرغب في فقدانها. قد لا تعني له النقود إلا القليل، لأنه نادرا ما عرف قيمتها، أما هذه العملة الذهبية فقد زادت قيمتها عنده لسببين: إنها الهدية الوحيدة المتبقية من ليديا، لأن القميص تيبس من الدماء. ثم إنه، قبل كل شيء، ما كان ليتخلى عن قطعة النقد الذهبية هذه بالذات، فمن أجلها تقاتل مع فيكتور، ومن أجلها قتله. فإذا كانت قطعة النقد الذهبية قد ضاعت فعلا فإن عمله الشنيع، بشكل ما، سوف يفقده معناه. وبعد طول تفكير قرر أن يصارح المرأة القروية بما يخامره.

همس لها: «كريستين، كان معي قطعة نقد ذهبية في جيبي، ولم أجدها هناك».

قالت وهي ترسم ابتسامة رقيقة غريبة، ولكنها ماكرة: «إذن فقد لاحظت ذلك»، وسر لها حتى أنه على الرغم من ضعفه أحاط خصرها بذراعه.

قالت برقة: «أنت شاب غريب، رائع جدا، وذكي، لكنك ساذج جدا. هل يمكن إلا لأحمق أن يجوب الطرقات وفي جيبه قطعة نقد

ذهبية سائبة؟ لقد عثرت على قطعتك الذهبية في سترتك الطويلة حالما مدّدتك على القش».

«حقا؟ إذن فأين هي الآن؟».

ضحكت وقالت: «إبحث عنها»، وتركته بالفعل يبحث عنها فترة طويلة، قبل أن تكشف له في السترة عن المكان الذي خاطت داخله قطعته الذهبية. ثم أضافت سلسلة طويلة من النصائح الحنون، الحكيمة الطيبة، التي نسيها حالما انتهت من إعطائها، وإن لم يكن لينسى قط خدمتها لمحبوبها، أو النظرة الماكرة الرقيقة التي تبدت في عينيها.

جاهد كي يعبر لها عن امتنانه. وحين بات، بعد فترة وجيزة، قادرا على مواصلة السير على الدروب، وشعر بتوق لمتابعة تجواله، تمسكت به، قائلة إن القمر سيتبدل قريبا، وعندئذ سيصبح الجو أكثر دفئا دون شك. وهكذا كان. وعندما انطلق غولدموند في طريقه كانت الثلوج تغطي الدروب، سقيمة رمادية، بشكل كثيف، وكان الهواء ثقيلا رطبا، والرياح الربيعية تئن في السماء.

الفصل العاشر

واصلت الثلوج تساقطها على الجدول، وبزغت أزهار البنفسج من خلال التربة، ليعبق الجو بعبيرها حيث كانت الأوراق العفنة، وواصل غولدموند سيره المجهد عبر الفصول المتنوعة الألوان، وحواسه تعبّ من الغابة، والجبل، والغيمة، وهو يهيم من قرية إلى قرية، ومن قلعة إلى قلعة، ومن حسناء إلى حسناء، يجلس ليرتاح في طراوة الأماسي، حزين القلب، تحت نوافذ مضاءة، حيث يخفق على البعد، على بريق ضوء الشموع، صافيا، نائيا ولا يمكن بلوغه، كل ما يمكن لليل أن يريه للجوالين من رخاء هذا العالم وسعادته وسلامه.

وكان كل شيء يعود ليتكرر – مرة، مرتين، ثلاث مرات – كل ما كان يظن أنه عرفه حق المعرفة. ومع ذلك فكل ما رآه يجد أنه قد تغير. السير المجهد الطويل في الحقل والسباخ، أو على الدروب الحجرية، والنوم الصيفي في الغابات، والتسكع في طرقات إحدى القرى، وتعقب حسناوات يسرن متشابكات الأذرع، في طريق عودتهن من جمع التبن أو قطف حشيشة الدينار، والشعور بالارتعاشة التي يسببها استهلال فصل الخريف، ولذعة الصقيع المبكر القارصة المشؤومة: كل هذا كان يمر ثم يعود كمرور شريط متعدد الألوان لا ينتهي أمام عينيه.

هطل الكثير من المطر والثلج على غولدموند وهو يتسلق ذات يوم جاهدا ذروة منحدر شاهق مغطى بغابة من أشجار الزان، يغمرها

الضياء، لكنها مملوءة باكرا ببراعم خضراء نضرة، ومن الأعالي من خلال أغصان عند قممها، راح يملي ناظريه من منطقة ريفية أخرى تمتد أمامه، فابتهج قلبه، وأترع بالشوق، والترقب. وظل طوال أيام يشعر بقربها منه، ويمعن النظر فيما يرى. والآن، أثناء هذا المسير النهاري ها هي تظهر ولم يكن يتوقعها مطلقا، لتبث البهجة في حناياه وتقوي اشتياقه. أطل من بين الجذوع الرمادية والأوراق التي ترفرف برفق على الوادي الملون بالبني والأخضر الممتد تحته، يخترقه من المنتصف نهر رقراق أزرق. الآن خلف وراءه دروب الحقول، والتجول هنا وهناك عبر الفيافي وداخل غموض الغابة والأرض البور، دون أن يقابل أي قلعة أو قرية فقيرة لتستقبله. هناك، خلال الوادي، يجري النهر، وعلى طول ضفتيه تمتد وتنتشر أجمل، وأوسع، وأشهر الطرق العامة في الإمبراطورية، وعلى الجانبين ينمو أغنى ريف وأخصبه، وتطفو على مياهه الأطواف والسفن الشراعية، بينما تؤدي الطريق إلى قرى جميلة، وقلاع، وأديرة، وإلى بلدان ثرية.

كل من شاء يمكنه أن يسير بمحاذاته على مدى أيام. دون أن يخامر قلبه أي خوف من أن يضيعه فجأة، وسط كثافة الغابة أو في المستنقع كما قد يضيع آثار الفلاحين الهزيلة في الحقول. أما هنا فشيء جديد يسعد قلبه.

ومع غروب الشمس كان قد وصل إلى قرية بهيجة، قائمة بين النهر وكروم عنب حمراء، أخشاب أبنيتها الجميلة وقبابها مخططة بخطوط قرمزية، ومنازل بها الكثير من الأبواب المقنطرة، ودرج عال. وكان هناك حداد يطلق وهجه عبر الشارع، مع رنين مطرقة صاف على السندان. وراح الجوال يبحث في كل ركن وزاوية وهو يتنشق عبقا قويا مبتذلا لنبيذ وبراميل خمر عند أبواب الحانات، والرائحة

الفاترة المزوجة بزنخ السمك المنبعثة من ضفة النهر، وزار بيت الرب والمقبرة، دون أن ينسى أن يبحث عن مخزن دافئ للمبيت فيه. ولكن أولا كان عليه أن يلتمس بعض الطعام، من منزل الكاهن. وهناك، وجد كاهنا سمينا متوردا سأله عن حياته، فأخبره غولدموند، مضيفا من عنده قليلا هنا وهناك، ومسقطا ما رأى أنه غير مناسب. وعلى الأثر استقبل بترحاب صادق، وبعد أن تناول وجبة دسمة وشرب نبيذا، كان لا بد أن يقضي الليل تحت سقف الكاهن المحترم، ويحكي له قصصا عن هذا الأمر وذاك. وفي اليوم التالي واصل سيره الوئيد على طول الشارع العام، وإلى جواره النهر بطوافاته وسفنه الشراعية مثقلة بالبضائع، فلوح لها بيد محيّيا، وبعضها أنساه تعب الطريق. وحثت أيام الربيع خطاها مارة به، غنية بالصور لقرى وبلدان صغيرة رحبت بمقدمه، ونساء يبتسمن له من خلال تعريشات الحديقة، أو وهنّ راكعات على التربة البنية ويزرعن النباتات: وفتيات يغنين عند المغيب في شوارع القرى.

فتنه جمال زوجة طحان شابة إلى حد أنه مكث في حيها يومين يغازلها: كانت مستعدة دائما للضحك وللتسامر معه، وتمنى لو أنه يعمل صبيا عند الطحان، ليعيش معها في المطحنة إلى الأبد. وجالس صيادي السمك، وساعد سائقي عربات النقل في إطعام دوابهم وفي تمشيطها، ونال خبزا ولحما، وتوصيلة، لقاء ما بذله. كان سعيدا لحياة الجوالين الودود هذه، وقد سره، بعد طول وحشة وتأمل عميق داخل الغابات، أن يتبادل الأحاديث مع أناس شبعين مهذارين، ويأكل كل يوم حتى الامتلاء، بعد أشهر عديدة من الحمية الصارمة. وأسلم قياده للسيل المرح الرخي ليحمله معه، وكلما اقترب من مدينة «الأسقف» ظهرت أكثر أمارات الثراء والمرح على الطريق العام.

وذات مرة، مع هبوط الليل، توقف برهة في شارع إحدى القرى القائمة على حافة النهر، تحت مجموعة من الأشجار الجميلة، الغزيرة الأوراق. وكان النهر يتدفق بهدوء وقوة، يتنهد، ويلعق الضفة المجاورة لجذورها: وفوق رابية ارتفع القمر، ملقيا بلمعانه على الجدول، ومادا ظلال الأشجار، هناك وجد فتاة جلست تبكي. كانت قد تشاجرت مع حبيبها، وقد تركها الآن ورحل. جلس غولدموند إلى جوارها، يسمع شكواها، ويمسد على يديها، يحكي لها عن غزالة الغابة، ولم تمانع بقبلة. ثم عاد حبيبها بحثا عنها، وكان غضبه قد هدأ، ليبدي أسفه لشجارهما، فوجد غولدموند جالسا مع محبوبته فاندفع نحوه على الفور وراح يكيل له اللكمات بكلتا قبضتيه بعنف. ووجد غولدموند بعض الصعوبة في الرد عليه، لكنه نجح في النهاية في التغلب عليه، وهرب الفتى إلى قلب القرية وهو يطلق اللعنات . وكانت الفتاة قد فرت قبلها بوقت طويل.

لم يعد غولدموند يثق بهذه السكينة، فتخلى عن أية نية لديه في إيجاد مكان لمبيته، وواصل السير حتى منتصف الليل على هدى ضوء القمر، وسط العالم الفضي الهادئ، ممتلئا بالرضى، مبتهجا لما يشعر به من قوة في ساقيه، إلى أن غسل الندى الغبار عن حذائه، وفجأة شعر بالإرهاق فتمدد تحت أول شجرة صادفها وأخلد إلى النوم.

كانت الشمس قد سطعت منذ وقت طويل حين شعر بشيء يدغدغ وجنته ويوقظه، فأبعده بيد ناعسة، وتقلب على جنبه وعاد إلى الرقاد. ولكن سرعان ما أيقظته الدغدغة ذاتها. وإذ به يرى فتاة واقفة تنظر إليه وتدغدغ وجهه بطرف قضيب صفصاف السلالين. ونهض واقفا وهو يتعثر، ووقفا وجها لوجه يتبادلان الضحكات، ثم قادته إلى مخزن حبوب لينام فيه في ظروف أفضل، إن شاء، وتمددا لبعض الوقت،

ثم ذهبت مسرعة، وعادت مع طاس من الحليب لأجله، لا يزال دافئا من ضرع بقرتها. وأعطاها شريطة زرقاء لتزين بها شعرها، كان قد التقطها من الطريق قبل وقت قصير. وتبادلا القبل وتضاجعا من جديد، قبل أن يتابع طريقه. كان اسمها فرانشيسكا، وآلمه فراقها.

في تلك الليلة التمس ملجأ في أحد الأديرة، وهناك في صبيحة اليوم التالي، سمع قداس الصباح. فاستيقظت في داخله ألف ذكرى، ولّدها الهواء البارد الرطب الآتي من القناطر، وقرقعة الصنادل على طول الأجنحة. وتذكر بشكل غريب جدا مسكنه في ماريابرون. وبعد انتهاء القداس وعودة السكون يخيم على كنيسة الدير من جديد، ظل غولدموند راكعا على ركبتيه، وقلبه في حالة هياج عارم. وكان في الليلة السابقة قد رأى في منامه أحلاما كثيرة، والآن بات يشعر بحاجته إلى الاعتراف، ليتخلص من ماضيه إن استطاع ذلك، وأن يغير بشكل ما أسلوبه في الحياة، إلا أنه لم يستطع إلا أن يقول لنفسه: «لعل هذا فقط من تأثير جو الدير»، الذي أعاد إليه ذكريات شبابه المتقد في ماريابرون، التي بدورها عكرت قليلا صفو روحه. اشتاق إلى الانعتاق والتوبة، بالاعتراف بآثامه الصغيرة العديدة، ولكن، وقبل أي شيء بالكشف عن موت فيكتور، الذي كانت صورته ما تزال جاثمة ثقيلة في ذهنه. فراح يبحث حتى عثر على أحد الآباء واعترف له بكل شيء، وخاصة بما سدد من ضربات قاسية إلى مؤخر عنق فيكتور وظهره. آه، كم مر من وقت طويل منذ أن اعترف آخر مرة. إن عدد آثامه ووطأتها تنوء بثقلها على كاهله، حتى لقد كان يسره أن يتقبل أي عقاب عليها ! لكن يبدو أن كاهن الاعتراف هذا كان يعرف طبيعة حياة الجوالين، فلم تبد عليه أي علائم للرعب أو المفاجأة، وظل ينصت إليه حتى النهاية، ويحذره وينصحه بكل رصانة ولطف، دون

أن يشير ولو لمرة واحدة إلى أنه سيلعن. نهض غولدموند واقفا وقد تخفف قلبه من عبئه، وصلى، وأعلن توبته، كما أرشده الأب من فوق منبر المذبح العالي، وهمّ بالانطلاق خارجا من الكنيسة. فإذا بشعاع من الشمس ينصبّ من النافذة إلى مصلى جانبي، ورأى تمثالا، وبدا كأنه يكلم قلبه ويدعوه للاقتراب منه، حتى انه التفت وكأنما ليرحب بمحبوب، ووقف مصعوق القلب يملؤه الخشوع. إنها أم الرب المباركة، من الخشب واقفة بكل سكينة وهدوء، ورداؤها الأزرق متدل من على كتفيها الصغيرين، ويدها العذراء الرقيقة ممدودة إليه، وبريق عينيها ساطع، فوق فم يملؤه الأسى، وجبينها الناصع البياض مقوس بشكل مفعم بالحياة، يفيض بجمال عميق وشبه أرضي، حتى أنه شعر أنه لم ير مثيلا لذلك من قبل، ولم يكن من قبل لينظر بهذا الإمعان إلى ذلك الفم، إلى انعطافة العنق الرقيقة.

أدرك أن ثمة شيئا فيه قد بعث إلى الحياة، شيئا شبه مجهول، لكنه كثيرا ما يرى في الأحلام، شيئا تاق إليه طوال حياته. حاول مرارا أن يبتعد عن التمثال، لكنه كان دائما يجذبه إليه من جديد. وعندما نجح أخيرا في الانعتاق منه واستدار، ألفى كاهن الاعتراف واقفا خلفه.

سأله الكاهن «أترى أنها جميلة؟»

قال غولدموند «جمال مبهر».

«كثيرون يقولون هذا. ويقول آخرون إنها ليست أم الرب الحقيقية، وإنهم يجدونها مغالية في عصريّتها وفي دنيويتها. وإن كل ما يحيط بها زائف ومصطنع. وسمعنا الكثير من الجدال حول هذه المسألة. أرى أنها تسرك، وهذا يسعدني. إنها موجودة في الكنيسة فقط منذ عام، هبة من أحد المحسنين للبيت. صنعها المعلم نيقولاس».

«المعلم نيقولاس: من يكون؟ آه، هل تعرفه يا أبت؟ أوه، أتوسل إليك، أخبرني بما تعرفه! لا بد أنه رجل عظيم فائق الموهبة، حتى يصنع شيئا كهذا».

«إنني لا أعرف عنه إلا القليل. إنه يحفر على الخشب، ويعيش في مدينة مطراننا، التي تبعد مسيرة يوم، ويتمتع بشهرة واسعة في حرفته. ومثل أولئك الفنانين ليسوا بقديسين عادة، ولا هو أيضا، كما أعتقد، إلا أنه دون شك رجل موهوب رائع. وكثيرا ما رأيته...».

«أرأيته؟ كيف هو شكله؟».

«يا بني، يبدو أنك مفتون به، حسنا إذن انطلق وابحث عنه بنفسك، وانقل له تحيات الأب بونيفازيوس».

صب غولدموند سيلا من عبارات الشكر، وغادره الأب مبتسما، إلا أنه ظل واقفا فترة أخرى، مشدودا إلى الصورة الغامضة التي بدا نهداها وكأنهما يتنفسان، ووجهها بما فيه من ألم وعذوبة متجاورين يتعلق بهما قلبه. وخرج من الكنيسة شخصا آخر، إلى عالم متغير تماما. ومنذ أن وقع بصر غولدموند على أم الرب المباركة العذبة أصبح لديه شيء آخر لم يعرفه من قبل، شيء لطالما ابتسم لذكره، أو أثار حسده عند الآخرين: هدف. نعم، لقد بات لديه هدف، وسوف يحققه، وهكذا فقد يصبح لكامل وجوده المشوش معنى جديدا وتناسقا. إن المعرفة جلبت معها الفرح والخوف معا. ولم يعد الطريق الجميل كسابق عهده ملعبا، أو مكانا للاستمتاع والتسكع: الآن لم يعد غير طريق يؤدي إلى المدينة، إلى المعلم! وحث خطاه، ومع حلول الغروب لاحت المدينة له من بعيد، بأبراجها اللامعة من فوق الأسوار. رأى دروعا مرسومة وشعارات نبالة محفورة على البوابات، فراح يركض تحتها بقلب يطفر فرحا، لا يكاد ينتبه إلى صخب الشوارع، والفرسان الراكبين، وعربات

النقل والمحفات. فلا الفرسان ولا المحفات، لا المدينة ولا المطران كانت لها أية قيمة بالنسبة إليه. وسأل أول مواطن قابله عند البوابة أن يدله على منزل المعلم نيقولاس، وحزن حزنا مريرا لأنه لم يكن يعرف عنه أي شيء. ثم وصل إلى ساحة تحيط بها منازل فخمة، بعضها مطلي بالذهب، وبعضها مزين بالرسوم والزخارف، وعند أحد الأبواب وضع تمثال طويل رائع لأحد جنود المشاة، دهن بألوان متألقة قوية. لم يكن على مستوى جمال صورة دير الكنيسة نفسه، لكنه كان يقف وقفة مهيبة، يبرز ربلة ساقه، ويدفع بذقنه الملتحية نحو العالم، حتى أن غولدموند أدرك عن يقين أن أمامه عملا من إنجاز المعلم نيقولاس ذاته.

هرع يدخل المنزل، هبط درجا، دق على أبواب، إلى أن قابل سيدا، يلبس رداء من المخمل، ذا حواف من الفرو، سأله عن بغيته. فسأل عن منزل المعلم نيقولاس. لأي غرض يريده؟ هكذا سأله السيد، وبذل غولدموند جهدا جبارا للتحكم في نفسه، واكتفى بالقول إن لديه رسالة له. فذكر له السيد اسم الشارع الذي يقطن فيه المعلم، ولكن في الوقت الذي استدل فيه غولدموند على المكان كان الليل قد حل. وقف أمام منزل المعلم، يفيض فرحا، وإن كان ما يزال مضطربا، وود لو أنه يلجه مباشرة. ثم تذكر أن الوقت متأخر، وأن الأوساخ والعرق تسربله جراء الرحلة، فأكره نفسه على الانتظار فترة أخرى، على الرغم من أنه ظل لبعض الوقت لا يقوى على الابتعاد عن الباب.

رأى نورا يشع من النافذة، وما إن هم بالرحيل حتى مال شخص مطلا منها، فتاة جميلة جدا، ذهبية الشعر، تسلل من خلاله ضوء الشموع المقادة خلفها في الغرفة.

في اليوم التالي، بعدما استيقظت البلدة وعادت إليها الضجة غسل

غولدموند وجهه في الدير الذي آوى إليه، ونفض الغبار العالق بثيابه وحذائه، وشق طريقه إلى ذاك الشارع نفسه. دق على باب المنزل، فجاءت الخادم، التي أبدت ترددا في قيادته إلى معلمها مباشرة، لكنه نجح في تليين قلبها العجوز، وأخيرا قادته إلى داخل المنزل. كان المعلم نيقولاس واقفا في ورشته الصغيرة، رجلا طويل القامة ملتحيا يرتدي مئزرا جلديا، وبدا لغولدموند أنه في الأربعين من العمر أو ينيف على الخمسين. حدق إلى الغريب بعينين حادتين ذاتي زرقة فاتحة ، وسأله باقتضاب عما يريده، فنقل له غولدموند تحيات من الأب بونيفاريوس.

«أهذا كل شيء؟».

قال غولدموند، سقيم القلب: «يا معلم، لقد رأيت إنجازك لأم الرب هناك في الدير. آه، أتوسل إليك ألا تقابلني بكل هذا الجفاء، فلم يحدني إلى المجيء إليك إلا حبي الخالص واحترامي لك. لا تخف مني لقد عشت أمدا طويلا جدا على الطرقات في الصقيع والثلوج، وعرفت لذلك الكثير من الجوع. ولا يوجد رجل واحد في العالم كله يمكنه أن يدخل الخوف في قلبي. ومع ذلك فأنا أخاف منك يا معلم... آه، ليس لدي غير رغبة واحدة، وقلبي مترع بها حتى الإيلام».

«وما هي تلك الرغبة؟».

«أن أكون صبيك، وأتعلم منك».

«لست وحدك من يرغب في هذا أيها الشاب. لكني لا أريد أي مبتدئين في بيتي. ثم إن معي اثنين من العمال يساعدانني. من أين أتيت إذن، ومن هما والداك؟».

«ليس لدي أحد، وأتيت من لا مكان. كنت طالبا في دير، حيث تعلمت اللاتينية واليونانية، ثم هربت، ومنذ ذلك الحين عشت على الطرقات».

«وما الذي يدفعك إلى الاعتقاد بأنك ستغدو حفار خشب؟ هل جربت العمل في أي مجال مشابه؟ هل معك رسومات لتريني إياها؟».

«لقد رسمت رسومات كثيرة وأضعتها كلها. ولكن يمكنني أن أخبرك عن سبب رغبتي في تعلم حرفتك. لقد راقبت العديد من الوجوه والأشكال وبعد ذلك رحت أفكر فيها. بعض تلك الأفكار كانت لا تني تغير عليّ، لكنها لم تمنحني السكينة. لاحظت كيف أنه دائما، في كل صورة ثمة شكل معين، خط معين، يتكرر، كيف أن جوهر هذا كله ينطبق تماما وكيان الإنسان ومزاجه، الذي وحده يمكن أن يكون له مثل تلك الركبة، أو الكتف، أو الجبين. وهذا أيضا، لاحظت وجوده، وكنت قد شاهدت ذات ليلة، وأنا أساعد امرأة تلد طفلها: ومفاده أن أشد الآلام وأمتع اللمسات يُعبّر عنهما تقريبا بطريقة واحدة».

رمق المعلم غولدموند بحدة.

«أتدرك معنى ما تقول؟».

«نعم، يا معلم، وهو صحيح. وهذا بالذات ما وجدت تعبيرا له، وكم ابتهجت لذلك واضطربت، في إنجازك لأم الرب المقدسة، ولهذا تراني أتيت إليك الآن. آه، ما أشد الحزن الذي في وجهها الطاهر ذاك، ومع ذلك فإن كل ألمها يبدو وكأنه يتحول إلى ابتسامات وفرح. وحين رأيت هذا شعرت به يجري في كياني. ووجدت أن كل الأفكار والأحلام التي راودتني طول سنين قد تعززت. فجأة لم تعد أحلامي تافهة، وتجلى لي على الفور عملي الواجب، ووجهتي. أيها المعلم الطيب نيقولاس، أتوسل إليك من أعماق قلبي، ألا تحولني عنك».

كان نيقولاس ثابتا تماما، إلا أنه أصغى بانتباه شديد، ثم قال:

«أيها الشاب، أنت متكلم ممتاز عن خلق الصور، وأنت في هذه السن المبكرة، ويدهشني أن يكون لديك الكثير لتقوله عن الألم واللذة،

ويسعدني كثيرا أن أقضي أمسية معك، مع كأس من النبيذ، لنناقش كل هذا ولكن اسمع يا هذا: أن يدور حديث ممتع بيننا أمر، وأن نعيش ونعمل معا على مدى سنين أمر آخر. هذه ورشتي، وهنا أعمل، ولا أثرثر. هنا لا يهم بم يفكر المرء، أو مدى براعته في التعبير عن فكرة، وإنما فقط ما يستطيع أن ينجزه بيديه الاثنتين. وتبدو لي جادا فيما تقول، لذا فلن أصرفك في الوقت الحاضر. فلنر ماذا لديك. هل حاولت مرة أن تعمل بالشمع أو بالغضار؟».

وعلى الفور استعاد غولدموند ذكرى حلم معين، حلم به قبل وقت طويل، وكان قد صنع تماثيل صغيرة من الغضار لرجال ونساء، تراءى له أنهم نموا وتملقوا، لكنه لم يتحدث عنه، واكتفى بالقول بتواضع أنه لم يحاول قط مثل ذلك العمل.

«جيد، حسنا إذن، عليك أن ترسم لي شيئا. هناك طاولة كما ترى، وورق وقطع فحم. اجلس هناك وارسم. وخذ وقتك في ذلك. وإن شئت يمكنك أن تمكث حتى الظهيرة، أو المساء. والآن كفانا كلاما. يجب أن أقوم بعملي، اذهب وقم بعملك».

على المقعد الذي أشار إليه المعلم نيقولاس جلس غولدموند إلى طاولة الرسم. لم يتمكن من مباشرة العمل فورا، وإنما مكث، كطالب هادئ متلهف، يرمق بإجلال هياب معلمه الذي سرعان ما التفت عنه ونسي وجوده، واقفا، منكبا على العمل على تمثال صغير من الغضار.

لم يكن كما تصوره غولدموند: كان أكثر تجهما، وأكبر عمرا، وأشد حزما، وأقل مرحا وابتهاجا بكثير، وليس سعيدا بأي حال.

كانت عيناه الصارمتان الحادتان مركزتين على عمله، بحيث بات بمقدور غولدموند، الذي تحرر من قلقه، أن يرصد شكل المعلم بعناية. وقال في نفسه، إن هذا الرجل كان بوسعه أن يكون مثقفا لو أراد، منقبا

صارما عن الحقائق، أن يكرس نفسه لعمل كان العديد من الأسلاف قد بدؤوه، والذي سيكون عليه ذات يوم أن يورثه لمن سيأتون بعده، وهو عمل شاق، لا ينتهي، صبت أجيال كثيرة فيه جهدها وتفانيها.

وهكذا أخذ يقرأ وجه هذا المعلم: الكثير من الصبر والعلم المحصل بمشقة، وفرط التفكير فيما هو معروف مسبقا، والتواضع والشك المطلق في قيمة سعي الانسانية كله، ولكن على الرغم من كل ذلك فثمة إيمان بما أنجزه، كان بالإمكان مشاهدة كل هذا ضمن إطار رأسه.

ومع ذلك فشكل يديه كان يناقض هذه القراءة: فثمة تناقض بينهما وبين الوجه. هاتان اليدان تلمسان الغضار الذي تشكلانه ولكنهما مفرطتا الرقة، تداعبانه كما يداعب عاشق معشوقته، بفيض من الرغبة، بقسر رقيق أنيق، نهمتان، ولكنهما لا تميزان مطلقا بين ما تأخذانه وما تعطيانه، وهما في وقت واحد شبقتان وقورتان، واثقتان من حركتهما بارعتان فيها، وكأنهما نتيجة لخبرة عميقة، سحيقة في القدم. جلس غولدموند، وهو مملوء بالبهجة المبهورة، يراقب تينك اليدين الملهمتين، الحسنتي التناسق. فشعر برغبة في رسم صورة للمعلم نيقولاس، لكنه لم يفعل، لأن ذلك التناقض بين وجهه ويديه أوهن عزيمته.

بعد مضي قرابة الساعة على مراقبته لنيقولاس وهو يعمل، مجتهدا كي يميط اللثام عن سر الرجل، وقد امتلأ رأسه بالأفكار المنقبة، تشكلت لديه ببطء صورة أخرى، وأخذت تتجسم أمام روحه: صورة الرجل الذي يعرفه أكثر من غيره، وأحبه وبجله أكثر من أي إنسان عرفه في حياته. هذه الصورة كانت كلا كاملا، لا تشوبها شائبة أو تقسيم، على الرغم من أنها أيضا متعددة الوجوه، وتحمل قسماتها

ندوب صراع عميق. كانت صورة صديقه نرسيس.

أخذ شكلها يتحدد تدريجيا أوضح فأوضح، طابعة خطوطها على تفكيره، كاشفة له عن القانون الخفي الذي ينفخ الحياة في هذا الكيان الحبيب: الرأس الوسيم، المحفور بالذكاء، والشفتان الجميلتان الحازمتان، اللتان خلقتا متماسكتين واضحتي الخطوط لتخدما الروح، وثمة ظلال من الحزن تحيط بالعينين، والكتفان المنحنيان، اللذان هزلا من طول صراعهما مع اللحم، والعنق الطويل، واليدان الرقيقتان، اللطيفتان. ولم يكن غولدموند، منذ أن فر من الدير، قد رأى صديقه بمثل ذاك الوضوح، أو تعرف على روحه بمثل ذاك الكمال.

وبدأ يرسم بعناية وكأنما في الحلم، لكنه كان مشحونا بالتحفز والبصيرة، بأصابع طويلة تجر القلم لترسم به الحدود الخارجية للرأس، كما يتمثل في قلبه، ناسيا المعلم، ونفسه، ومكان جلوسه. ولم يلاحظ كيف تغيرت الإضاءة في الورشة ببطء، ولا كيف رمقه نيقولاس عدة مرات من موقعه. وأنهى رسمه، وكأنه مهمة فرضها حبه، ليرفع من قلبه صورة صديقه الساكنة فيه، ويخلدها عبر الزمن.

واقترب نيقولاس من طاولة الرسم.

«لقد انتصف النهر وأنا ذاهب الآن لتناول الطعام. تعال معي إن شئت. أرى أنك أنجزت شيئا: دعني أر».

ومال فوق غولدموند، ألقى نظرة، وأزاحه جانبا وتناول صفيحة الورق، بعناية بيدين خبيرتين، وأفاق غولدموند من استغراقه الحالم، وأخذ يحدق إلى المعلم في خوف، بينما نيقولاس واقف يتفحص رسمه بتمعن ثاقب، بعينين زرقاوين زرقة خفيفة.

وبعد برهة سأله: «من هذا الذي رسمته؟».

«إنه صديقي، طالب، راهب شاب».

«جيد. والآن اغسل يديك. النافورة هناك في الفناء. ثم سنذهب لتناول الطعام. العمال لن يأكلوا معنا اليوم، لديهم عمل يؤدونه في المدينة.».

هرع غولدموند طائعا، ووصل إلى الفناء، وعثر على النافورة، فاغتسل. وكان مستعدا لدفع الكثير مقابل أن يعرف ما يدور في رأس المعلم. وحين عاد كان نيقولاس قد غادر الورشة، مع أنه سمعه يتنقل في الغرفة المجاورة. وعندما عاد كان بدوره قد اغتسل. والآن، وبدل مئزره الجلدي، كان يلبس سترة ضيقة رائعة، وبدا وسيما جدا ومهيبا. وتقدم الطريق صاعدا الدرج، كانت عمدان الدرابزين تحمل رؤوس ملائكة محفورة من خشب الجوز، ووصلا إلى مصطبة درج تعلّق عندها صور خشبية قديمة وجديدة، وبعد ذلك انتقلا إلى غرفة مريحة، جدرانها الأربعة وسقفها من الخشب الصلب، ومن ثم جلسا إلى مائدة ممدودة، موضوعة عند النافذة. وجاءت فتاة صبية راكضة إلى الغرفة. وعرف غولدموند على الفور أنها الحسناء الصهباء الشعر التي رآها في الليلة الماضية.

قال المعلم: «ليسبت، احضري لنا صحنا آخر. لدينا ضيف. اسمه – الآن تذكرت إنه لم يخبرني قط عن اسمه».

وأعلن غولدموند عن اسمه.

«حسنا إذن يا غولدموند. هل الغداء جاهز؟».

«حالا يا معلم».

أحضرت الطبق الكبير، وهرعت خارجة من جديد، ولكنها سرعان ما عادت مع خادم عجوز أحضرت لهم وجبتهم من اللحم: لحم خنزير، وعدس، وخبز أبيض شهي. وبينما الأب يتناول طعامه أخذ يناقش هذا الشأن وذاك مع ابنته، لكن غولدموند لزم الصمت،

وهو يأكل قليلا، ويشعر بالخجل والارتباك. نزلت الفتاة من نفسه منزلا حسنا، كانت فتاة رائعة، راقية التربية، تكاد تتساوى مع والدها في الطول، لكنها جلست بتواضع وتحفظ، وكأنها تجلس خلف حاجز من الزجاج، لا تلقي أية نظرة، أو توجهها إلى الغريب.

بعد انتهائهم من الأكل قال المعلم:

«الآن سأخلد إلى الراحة لمدة نصف ساعة. عد أنت إلى الورشة أو تجول في الشارع إن أردت، ومن ثم سوف نتحدث في هذه المسألة».

غادر غولدموند، مع انحناءة احترام. لقد مرت ساعة أو أكثر من الزمن على مشاهدة المعلم لرسمه، لكنه لم يفه بكلمة. وما يزال عليه أن ينتظر نصف ساعة أخرى ! لن يعود إلى الورشة، لأنه لا يريد أن يعيد النظر في رسمه، ولكنه خرج إلى الفناء الصغير، وهناك جلس على حافة النافورة، يحدق إلى خيط الماء الرفيع، المنبثق براقا منتثرا من فمها، متساقطا إلى الحوض الحجري العميق. متغضنا، أثناء سقوطه، على شكل أمواج جميلة، ساحبا قليلا من الهواء معه إلى الأعماق، وطوال الوقت، يشق طريقه عائدا، متصاعدا على شكل فقاعات لؤلؤية إلى السطح. وقال غولدموند لنفسه، لعل الخوف من الموت هو أس كل عملنا في خلق الصور، ولعله أيضا أس كل نشاط عقلي. إننا ننفر من الموت، ونرتجف لعجزنا الهش، نراقب بحزن الأزهار تذبل مرارا وتكرارا، ونحن نعرف في قراراتنا أننا سرعان ما سنذبل مثلها. لذا، فحين نحفر، نحن الصناع، الصور، أو نبحث عن القوانين لنضع بها أفكارنا، فإننا لا نفعل ذلك إلا لننقذ القليل مما يمكن إنقاذه من رقصة الموت المترابطة، الأبدية.

لعل المرأة التي استوحى هذا المعلم منها صورة العذراء قد ذبل شبابها، أو ربما ماتت: هو أيضا سيموت عاجلا أم آجلا، وسيبقى

آخرون أحياء في منزله يتناولون الطعام على هذه الطاولة. لكن تحفته ستصمد حتى بعد مائة سنة من الآن، أو ربما أكثر، يخفق نورها وسط الظلمة الساكنة لكنيسة الدير، تبتسم بالفم الجميل نفسه، رائعة الجمال، شابة وتفيض ألما.

سمع وقع خطى المعلم على الدرج، فأسرع عائدا إلى الورشة. وأخذ المعلم نيقولاس يزرع المكان جيئة وذهابا، وبين الحين والآخر يلقي نظرة على رسم غولدموند. وأخيرا توقف عند النافذة لا يبدي حراكا، ثم قال بأسلوبه المتذمر:

«إن العرف في نقابتنا هو ما يلي: أن على كل صانع مبتدئ أن يخدم مدة لا تقل عن أربع سنوات، وعلى والده أن يدفع أجرا لأجله».

عندما سكت هنا ظن غولدموند أن نيقولاس يخشى أن لا يكون معه أجر صانع مبتدئ ليدفع له. وفي سرعة البرق استل سكينه وقطع الخيوط التي تحيط بالقطعة الذهبية المخبأة، وأخرجها. تابع نيقولاس كل هذا مدهوشا، وعندما قدم له قطعته الذهبية، أخذ يضحك عليه.

قال وهو يقهقه: «أو هو! أهذا هو شعورك؟ لا، أيها السيد الصغير، بإمكانك الاحتفاظ بقطعتك الذهبية. لقد أخبرتك كيف تعامل نقاباتنا مبتدئيها. لكني لست معلما عاديا، ولا بإمكانك أنت أن تكون تلميذا عاديا، لأن أمثالهم يجب أن يدخلوا الورشة وهم في الثالثة عشرة، أو الرابعة عشرة، أو الخامسة عشرة من عمرهم على الأقل، وعلى المبتدئ أن يمضي نصف وقته كادا لإرضاء معلمه، وأن يؤدي كل عمل يوكل إليه. لكنك رجل بالغ، وكان يجب وأنت في سنك هذه أن تكون، ومنذ وقت طويل عاملا بارعا أو حتى معلما. إننا لم نر قط مبتدئا بلحية في نقابتنا. ثم، كما قلت من قبل، لا أرغب في وجود مبتدئين في منزلي، ولا أنت تبدو لي من النوع الذي يتلقّى الأوامر».

وصل غولدموند إلى ذروة نفاد الصبر، وكانت كل كلمة متأنية يسمعها مصدر ألم مبرح له، كان جرسها مملا ومتحذلقا بشكل لا يطاق، فتنهد بحدة «لِمَ تقول لي كل هذا، ما دمت لا تنوي أن تقبلني مبتدئا عندك؟».

ظل المعلم غير متأثر، ومتمهلا كما كان.

«لقد قلّبت التفكير في طلبك لساعة من الزمن والآن حان دورك لتنصت إليّ بانتباه. فكرت في رسمتك. فيها أخطاء، لكنها جميلة، ولو لم تكن كذلك لأعطيتك نصف غيلدر[1]، وأمرتك بحزم متاعك، ونسيت أمرك. إنني أريد أن أساعدك كي تصبح نحاتا، ولكن وكما قلت، لا يمكنك أن تكون مبتدئا في كنفي. ومن لم يمر بفترة تدربه الابتدائي لا يمكنه مطلقا أن يكون عاملا بارعا في نقابتنا، وتاليا لا يمكنه أن يصبح معلما. هذا ما يجب أن أقوله لك على الفور. ولكن إن كان في وسعك أن تعيش في الخارج، في المدينة فسوف تدرب يديك وتتعلم مني قدر ما تستطيع. وكل هذا يجب أن يحدث دون عقد رسمي بيننا، لكي يكون كل منا حرا من جانبه. إكسر بضع سكاكين، إذا شئت، واعطب عدة رواسم خشبية، فإذا وجدت أنك لن تغدو نحاتا فعليك أن تنتقل إلى مهنة أخرى. موافق؟».

أنصت غولدموند يغمره الفرح والإحساس بالخجل.

هتف قائلا «أشكرك من كل قلبي. لا بيت لدي، ويمكنني أن أعيش هنا بين المنازل كما كنت أفعل في الغابة. ورأى أنه لا داعي لأن تجيب بالنيابة عني. وأعتبر أنه من حسن حظي الكبير أن تكون معلمي، وأشكرك من أعماق روحي لأنك أنعمت علي بهذا».

---

(1) وحدة نقد هولندية.

الفصل الحادي عشر

هنا في المدينة أحاطت بغولدموند مشاهد جديدة، وامتدت أمامه حياة أخرى. وكما جذبه الريف، المبهج بنهره وقراه، بمغرياته أكثر فأكثر، كذلك كانت المدينة تعد بالكثير. وعلى الرغم من أن الحزن والحكمة ظلا كما هما في قرارة روحه، لم يمسا، فإن الحياة بكل ألوانها دغدغت حواسه، وأسرت سطح عقله. من حوله امتدت مدينة الأسقف، بكل بدعها، وارفة بمائة وسيلة للتسلية، ونساء للعشق، بينما كان حذقه المتزايد باضطراد يشحذ حواسه. وعثر بمساعدة معلمه على مثوى في سوق السمك، في منزل «الغيلدر» ومنه تعلم، كما تعلم من نيقولاس مهنة أعمال الخشب والجص والألوان، والصقل، ورقاقة الذهب.

غولدموند لم يكن أحد الصناع العاثري الحظ الذين لا يجدون المهنة المناسبة التي يعبّرون عن أنفسهم من خلالها، على الرغم من أنهم يحملون داخلهم أرقى المواهب. فهناك الكثيرون من الذين على الرغم من رؤيتهم لكل جمال الأرض، إلا أنهم لا يجدون وسيلة لإعادة خلقه، ولمشاركة الآخرين فيما شاهدوه. وكان من السهل بالنسبة إليه حتى درجة التسلية أن يستخدم يديه، وأن يحقق أكمل رهافة مهنته، سهلا كالإنصات في أمسية أحد الاحتفالات إلى عزف أحد العمال، أو كالرقص أيام الآحاد على مروج القرى. وكان أمامه صعاب وخيبات

أمل عليه أن يتجاوزها، واضطر لإفساد بضعة رواسم خشبية، وجرح مرات عديدة أصابعه جروحا وصلت حتى العظم. لكن هذه المراحل المبكرة سرعان ما مرت، واكتسب المهارة، حتى وإن ازداد ضيق صدر المعلم، وكان يعنفه بشكل ما، على الشكل التالي:

«من حسن الحظ يا غولدموند أنك لست تلميذي وعاملي – يسعدنا أن نعلم أنك قدمت إلينا من البراري، وأنك دون شك ستعود ذات يوم إليها. إن كل من لا يعرف هذا عنك أي أنك لست حرفيا ومواطنا شريفا، بل مجرد غجري جوال بعيد عن الطريق العام، قد يرغب في أن يوكل إليك مثل هذه المهام كما يطلب أي معلم آخر من رجاله. إنك عامل ماهر جدا عندما ترغب في ذلك: ولكنك في الأسبوع الفائت تكاسلت طوال ثلاثة أيام، وبالأمس، في ورشة القلعة، حيث أرسلتك لتصقل تمثالين للملاكين، أمضيت نصف نهار وأنت نائم وتشخر».

تلك التعنيفات كانت عادلة، وكان غولدموند دائما ينصت إليه وهو صامت، دون أن يعطي عذرا واحدا لصالحه. كان يعلم جيدا أنه ليس بالعامل النشط الذي يعول عليه. فما دام العمل الذي يشغل تفكيره، تكتنفه مصاعب يجب تجاوزها مما يمنحه إحساسا مبهجا بمهارته الخاصة يكون خبيرا في حرفته ومتحمسا لها. لكنه كان دائما يمقت الإلحاح الشديد على الكد، وتلك المهام العديدة التي تؤدي إلى تكوين الحرفي، وإن لم تكن بحد ذاتها ثقيلة الوطأة ومن النوع الذي يتطلب جهودا مضنية وجدا مرهقا. هذا النوع كان عبئا لا يحتمل. كثيرا ما تساءل: أما كانت بضع سنين من السير على الدروب كافية لتجعل منه شخصا متوانيا؟. أما كانت الطبيعة، التي ورثها عن أمه قد بدأت تستولي عليه؟ وإلا فماذا ينقصه؟ راح يفكر في سنواته الأولى في الدير، عندما كان طالبا متحمسا دؤوبا. لماذا كان يتصف بكل ذاك

الصبر في تلك الأيام، وبالرغبة العارمة في أن يولي كل اهتمامه لفقه اللغة اللاتينية وأن يضلع في كل تلك السلاسل الطويلة في تصريف الأفعال في اللغة اليونانية، التي لم يكن، في قرارته، يأبه لها؟ وكثيرا ما كان يتفكر في هذا اللغز، وكان جوابه أن الحب هو الذي قوى إرادته، ووهب اجتهاده أجنحة. وما كان كدّه ليكتسب أية قيمة لولا توقه العميق لإرضاء نرسيس الذي، كما اعتقد، ما كان بالإمكان كسب احترامه إلا بالمثابرة المشكورة فكان يكد على مدى أيام طويلة وساعات متواصلة ليحظى بابتسامة تقدير، وعندما يفوز بها تكون بمثابة مكافأة سخية. لقد كان نرسيس صديقا له: ولكن الغريب في الأمر أن هذا النرسيس المثقف هو الذي بيّن له عدم ملاءمته للتعلم، وبعث في مخيلته صورة أمه الحبيبة. بحيث أنه بدل التعلم، والفضيلة والرهبانية، تمكن منه الدافع البدائي الأقوى في طبيعته — الحب الجسدي الفاسق، والتوق إلى ألا يعتمد على أي إنسان، وإلى أن يسيح. ثم جاءت صورة العذراء المحزونة للمعلم نيقولاس، لتكشف له عن فنان كامن فيه، مع أسلوب جديد في الحياة، وأغلال أخرى. كيف أضحت أحواله الآن؟ إلى أين ستحمله الحياة في آخر المطاف؟ من أين أتت هذه العقبات التي يتخيلها في ذهنه؟ في أول الأمر لم يتوصل إلى فهم نفسه، كل ما فهمه هو أنه بقدر ما كان معجبا بمهارة المعلم نيقولاس، إلا أنه لم يكن له أي قدر من الحب الذي حمله لنرسيس — وأنه كان حقا يسعده أحيانا أن يزعجه ويثير حفيظته. إن الصور التي كانت تخرج من بين يدي نيقولاس، أو أفضلها، كانت بالنسبة إلى غولدموند ذروة كل إنجاز، إلا أنه لم يكن يحترم نيقولاس لشخصه.

إلى جانب هذا الفنان الذي نحت تمثال أم الرب المباركة الرائع، التي يختصر في وجهها كل تألم الأرض وجمالها — في قلب هذا المتنبئ

والحكيم، الذي ترجمت يداه أعمق إدراك وتجربة إلى شكل مرئي، كان هناك معلم نيقولاس ثان، الأب العائل، الصارم والرصين، الأرمل، والأستاذ في نقابته المهنية، الذي يعيش حياة ضيقة منعزلة، مع ابنته وخادمته القبيحة، رجل دائم الحذر من دافع غولدموند الأعمق، وحرفي متمكن، وذو أفكار مواطن مزدهر الأحوال رخي العيش.

بقدر ما كان يبجل هذا الأستاذ، دون إطلاق أي حكم، ولا أن يسمح لنفسه باستجواب أي شخص غريب، إلا أن عاما في خدمته كان كافيا ليكشف لغولدموند كل ما كان عليه أن يعرفه عنه، وحتى أدق التفاصيل. وهذا يعني الكثير: إنه يحبه، ويكرهه في وقت واحد. لا يدعه يغيب عن تفكيره، يشق طريقه باندفاع وارتياب، يقظا عطشا إلى المعرفة، متغلغلا إلى أماكن سرية في حياته. لاحظ كيف أن نيقولاس لا يحتفظ في منزله بأي مبتدئ أو عامل ماهر، على الرغم من وجود متسع لكليهما، ولاحظ ندرة خروجه من منزله، وندرة زيارته لأي من ضيوفه. لاحظ ولعه الغيور بابنته، وكيف كان يسعى جاهدا لإخفائها عن عيون بقية الرجال – وميّز اللهفة النابضة والرغبة، الكامنين خلف قسمات هذا الأرمل الظاهرية، وصرامته، وشيخوخته المبكرة، ورأى أنه عندما تضطره مهمة إلى السفر يظهر عليه، وخلال مدة أيام الرحلة القليلة، تبدل رائع ومتجدد في الشكل. وذات مرة، في بلدة مجاورة ذهبا إليها لنصب تمثال منحوت، رأى كيف يتسلل نيقولاس خلسة ذات ليلة خارجا لزيارة عاهرة، وبعد ذلك يظل عدة أيام قلقا نكدا.

مع هذه الظواهر الطارئة إلى جانب توقه لتعلم النحت، كان هناك حدس آخر جعل غولدموند يراقب معلمه عن كثب، وشغل أفكاره. إن ليسبت، الإبنة الجميلة، هي التي استحوذت على تفكيره. إن نظره كان بالكاد يقع عليها بما أنها لم تكن تظهر داخل الورشة. ولا هو استطاع

أن يقرر إن كان إجفالها المحتشم من الرجال هو صفة زرعها فيها والدها، أم أنها بالفعل جزء من طبيعتها. ولا يمكن التعالي عن إحجام المعلم نيقولاس التام عن دعوة غولدموند إلى مشاركته أية وجبة طعام. لقد كان يبذل أقصى جهده ليحيط ابنته بالموانع. إن ليسبت فتاة أنيقة مصانة، ولا أمل في إقامة علاقة حب معها خارج رباط الزواج، وزيادة على ذلك، إن من يريدها عروسا له يجب أن يكون والداه ثريين، وأن يكون عضوا في إحدى النقابات الحرفية الراقية، وأن يملك إذا أمكن أموالا منقولة ومنزلا.

لقد شد جمال ليسبت، الشديد الاختلاف عن جمال النسوة المشردات وزوجات الفلاحين، شد عيني غولدموند في اليوم الأول لوصوله. كان فيها شيء لم يتمكن قط من سبره، تناء ولغز شداه بقوة إليها، وأيضا أثارا فيه كل ريبته. كان يحيط بها هدوء وعذرية شديدا الاعتدال، ونقاء، ولكنه ليس طفوليا، مع لمسة من التحفظ والكبرياء الباردين، تكمن تحت كل ما تتصف به من تواضع وتربية حسنة، بحيث إن براءتها لم تقم بأي تحرك لاسترضائه، بل بالأحرى تحدت حواسه وأزعجتها. وحالما بدأ قالبها يتخذ شكله النهائي أخذ يشعر برغبة ملحة في أن يصنع لها تمثالا، ليس كما هي، بل كما يمكن أن تكون، بجسد متفتح، ووجه مفعم بالرغبة والألم، ليس عذراء صغيرة بل مجدلية. كان غالبا ما يتوق إلى مشاهدة سماتها الخالية من الشغف، الهادئة، الملساء، وقد أضحت ملتوية، وتضج بالحياة، إلى أن تفشي، من خلال الألم أو المتعة، أسرارها.

ولكن في قلبه كان يتشكل وجه آخر، وإن لم يكن بشكل عام وجهه هو، وجه تتوق روحه برمتها إلى أسره، إلى تثبيته في الخشب، إلا أنه كان ما يزال يتملص منه ويستتر.

هذا الوجه كان وجه أم، وإن كان على مر السنين قد فقد كل شبه بالرؤيا التي تصاعدت من أعماقه، عند نهاية حديثه مع نرسيس. وكان هذا الوجه الأمومي، خلال ليال من الفرح وأيام من التجوال، وأوقات طويلة من العزلة والقلق، وإحساس بالخطر واقتراب من حافة الموت، كان يتبدل ببطء ويتجدد، ويغدو أكثر ثراء وترسخا في مخيلته، وتعددا في أوجهه. لم يعد ما يراه هو وجه أمه المتوفاة، بما أن ألوانه وقسماته قد ضاعت، تدريجيا، في صورة أم مجردة، رؤيا حواء البشرية جمعاء. وكما كان نيقولاس قد أبرز في تمثال العذراء المقدسة أم الرب، المثيرة للشفقة، الحزينة، بحرفية واثقة ومثالية شعر تلميذه أنه لن يتمكن قط من بلوغها، كذلك تمنى غولدموند، بعدما اكتسب ثراء حرفته وضمانها، أن يصور حواء، أم العالم، من مسكنها في أعماق ملاذها في قلبه. هذا الوجه الكامن داخله كان أكثر من مجرد ذكرى أمه، بما أن ذاك الحب كان يتطور باضطراد ويتحول. الآن بات في سيمائها شيء من الغجرية ليزا، وشيء من ليديا ابنة الفارس، وشيء من نساء أخريات عديدات، تناغمت كلها في شكل أولي واحد. وكل هذه الوجوه، التي هي لنساء نلن كفايتهن من الحب، لن تؤلف فقط مكوناته، وإنما كل غصة، ومغامرة، وتجربة جديدة، تكلمه أيضا، وتركت فيه آثارا منها. هذا الشكل، إذا ما استطاع تجسيده، يجب أن لا يشبه أيا من المخلوقات التي عرفها، وإنما يمثل الحياة ذاتها، أم كل شيء. لكنه لم يكن يعرف بعد كيف سيكون وجهها والتعبير الذي يحمله، غير أنه رغب في أن تنم تقاطيع جسمها عن الشهوة العارمة، والاستمتاع بالحياة، وصلتهما السرية بالموت والألم.

تعلم غولدموند الكثير في غضون عام من الزمن، أحرز ثقة كبرى في التصميم، وكان نيقولاس، بين الحين والآخر، يسمح له بالعمل في

الغضار، بالإضافة إلى عمله في الحفر على الخشب. وأول عمل ناجح له كان تمثالا صغيرا من الغضار، بارتفاع ثلاثة أشبار، هو شكل عذب مغر لأخت ليديا الصغرى جوليا. وعلى الرغم من أن المعلم قرظ هذا العمل، إلا أنه رفض طلب غولدموند في عمل صبة معدن له. إنه بمعايير المعلم نيقولاس مغرق في قلة العفة والدنيوية، ولم يرغب في أن يكون عرابه! ثم أعد غولدموند رسما لنرسيس استعدادا لحفره على الخشب، على صورة يوحنا التلميذ الحبيب، بما أن نيقولاس كان يرغب، إذا ما نجح العمل، في أن يجعله واحدا من مجموعة تمثل الصلب، كُلّف بصنعها منذ زمن طويل، وكان صناعه المهرة يجتهدون لتنفيذها بلا توقف، تاركين اللمسات الأخيرة لمعلمهم.

راح غولدموند يعمل على إنجاز تمثال نرسيس هذا، وقد اكتشف، من جديد من خلال عمله هذا ذاته، وروحه ومهارته في أفضل حالاتها، كلما أفلت من ارتباطه من الورشة. وكان هذا يحدث كثيرا. وكانت ممارسة الحب، والرقص، والشرب، والتصارع مع بقية العمال، ولعب النرد، والتشاجر أحيانا، كل هذا كان يحرره من قيود حياته، ثم يتهرب من حرفته لعدة أيام متواصلة، أو يمضي يومه كله متكاسلا حالما.

لكن تمثال القديس يوحنا التلميذ هذا، الذي كان وجهه الحبيب المتألم يبرز أمامه من الخشب أوضح فأوضح. كان يكتفي بإضفاء قليل من اللمسات عليه عندما يكون لديه استعداد لذلك، وهو في حالة نسيان للذات واستغراق تامين. ثم يجتاحه مزاج لا هو بالمرح ولا هو بالكئيب لا يفكر في الغسق ولا في الماضي. إن ذاك الحب الأول الهادئ، السعيد الرقيق، الذي جعله، في غمرة ابتهاجه بانضباطه، يمنح كيانه كله لنرسيس، استعاده من جديد، مع صورة نرسيس. لم يكن هو الذي

وقف أمام الروسم الخشبي، يحفر صورة بقوة إرادته، بل ذاك الآخر البعيد، نرسيس، هو الذي كان يستخدم المهارة التي في يديه ليمتد من الزمن الهش العابر إلى حياة جوهره الصافية الباقية.

قال غولدموند في نفسه، هكذا فقط، وأحيانا برعب، يمكن لأي عمل حقيقي أن يولد. هكذا ولدت «عذراء» نيقولاس الخالدة، والتي كان في كثير من أيام الآحاد منذ مشاهدته لها أول مرة، يمشي بخطى مجهدة إلى دير الكنيسة ليقوم بزيارتها. هكذا، بهذه الصورة الخفية القديسة نحتت أفضل الشخصيات القديمة التي خزنها نيقولاس على منبسط درجه. وهكذا أيضا، سوف ينحت عمله الثاني، الشكل الكامل الوحيد الكامن في قلبه، الأجلّ، والأقدس من هذه، حواؤه الخاصة، أم الحياة كلها. آه، ما أروع أن لا تخرج من بين الأيادي الإنسانية إلا مثل هذه الأشكال، أعمال ضرورية، مقدسة، لا يشوبها أي زهو أو معاناة! لكن الحال ليس هكذا، لطالما عرف هذا. إن بإمكان البشر أن يبدعوا أعمالا فنية مختلفة تماما – أشكالا جميلة صيغت بمهارة معقدة، هي فخر مالكيها، تزخرف الكنيسة ومقر المجلس – هي دمى جميلة، نعم، لكنها خالية من القدسية، لا تمثل قط أشكال الروح الأصيلة! وهو ليس فقط شاهد الكثير منها، صنع بأيدي نيقولاس ومعلمي النقابة – وهي دمى. رغم كل الجمال الذي تمثله والجهد الحاذق وراء تصميمها – بل عرف وتحسس بيديه الماكرتين، وكله إحساس بالندم والخجل، كيف يخرج النحاتون مثل تلك التوافه، بإيعاز من استمتاعهم الكسول بمكرهم، وتفاهتهم وطموحهم الضيق.

حين هبط هذا الإدراك على غولدموند جلب معه للوهلة الأولى حزن الموت. ما فائدة النحات، وما يصنعه من ملائكة صقيلين وما شابه من النفايات، مهما كانت فائقة الجودة في مصنعيتها؟ ربما

وجد آخرون فيها متعة للنظر، كالشغيلة، والمواطنين الناجحين، النظيفين، البدينين، وذوي الأرواح الحقيرة، السهلة الإمتاع – وهو ليس منهم. إن الفن كله والفنيّة[1] لا قيمة لهما إلا إذا أشرقا كنور الشمس، وكانا ينطويان على طاقة العواصف – إذا لم يجلبا إلا المتعة، والسعادة الضيقة. ولم يكن هذا ما يسعى إليه، ليس طلي تاج معقد مثل تخريم إبري، لأحد تماثيل العذراء البهيمية، بوريقات الذهب، ليس هذا العمل هو ما يصبو إلى القيام به، حتى وإن كان مجزيا ماديا. ما الذي دعا نيقولاس إلى تلبية كل تلك الطلبات؟ لماذا يقف ساعات طويلة وهو مفعم باللهفة ومسطرته في يده لكي يلبي رغبات رؤساء الكنائس وأعضاء المجلس الأفظاظ، يأتون ليوصوا على مدخل باب أو صليب على ستارة –؟ لقد كان يفعل هذا لسببين هزيلين – كان يعقد أملا كبيرا على كونه حرفيا شهيرا ويتلقى طلبات أكثر مما يستطيع تلبيته، ولأنه أراد أن يكدس المال، من أجل إقامة الولائم والمشاريع العظيمة، بل مال من أجل ليسبت الجميلة، التي كانت قد أضحت منذ وقت طويل فتاة ثرية، مال لتكاليفها، لأثوابها المطرزة والمخرمة، مال لسرير زواجها من خشب الجوز بأغطيته الناصعة البياض وبياضاتها الرائعة. وكأن الفتاة المترفة الرخية لا يمكنها أن تتعلم الحب أيضا بين عيدان القش!.

أحيانا عندما كانت تخطر على بال غولدموند مثل هذه الأفكار تنهض صورة أمه في أعماقه، بكل ما يحمله المشرد من كبرياء وازدراء لأصحاب الأملاك، والعيش الرغيد. في مثل تلك الأوقات كان يشعر بالاشمئزاز من المعلم وحرفته اليدوية وكأنه مذاق الثريد البارد، وكثيرا ما رغب في الفرار.

---

(1) الفنية: هي ذوق الفنان وبراعته في العمل.

نيقولاس أيضا، كان يبدي ندما غاضبا على الثقة التي أولاها لعامله الكسول، الذي كثيرا ما أخضع صبره إلى أقسى الاختبارات. ولم يرضه بأي حال ما سمعه عن حياة غولدموند، وأساليبه المبذرة، ومشاجراته، ونسائه العديدات. لقد أدخل إلى ورشته غجريا، مبتدئا كسولا، ولم يكن غافلا عن النظرات التي كان يرمق بها ابنته. فإذا كان، على الرغم من كل هذا، قد أبدى من الصبر أكثر مما يطيق، فليس ذلك نتيجة لاحساسه بالواجب أو بالاهتمام بذاك المتبطل، وإنما فقط بسبب تمثال القديس يوحنا التلميذ الذي صنعه ورأى منه التصميم الأولي.

شيء ما شبه غامض، نوع من الحب والقرابة الروحية، ثبت يد نيقولاس وهو يراقب هذا العابث يشكل بالخشب، بعيدا عن الأساليب السهلة، تمثاله من ذاك الرسم، الذي هو في وقت واحد فظ جدا وجميل جدا، وشديد الحساسية ضمن أسلوبه الغريب الخاص، ومن أجله اتخذ الشاب تلميذا له – هو نقش ينجز على دفعات ونوبات، ببطء ومزاجية، ولكن بإصرار. ولم يكن نيقولاس يشك قط في أنه على الرغم من كل هذه النزوات والعوائق سوف ينتهي العمل فيه ذات يوم، وسيكون عملا رائعا من النوع الذي لا يخرج بمثله أعظم المعلمين إلا مرة واحدة أو مرتين في العمر. وعلى الرغم من كل ما أثار غضبه في تلميذه، وفي ثورته وتعنيفه، ومن مقته لأساليب هذا الغجري – فإنه لم يذكر كلمة واحدة عن منحوتته للقديس يوحنا.

خلال السنوات الأخيرة أخذت نضرة شباب غولدموند البهيج، وذاك الحسن الفتي الذي أكسبه وهو على الطرقات الكثير من الحظوة، أخذا يذويان ويتلاشيان إلى الأبد. لقد كان رجلا وسيما قويا، اشتهته كل امرأة قابلها، وأبغضه بقية الرجال. وقد نضج

أيضا أسلوبه في التفكير وموقفه الداخلي منذ السنوات التي أيقظه خلالها نرسيس من البراءة الغافية داخل الدير. وشكل التشرد والعالم روحه. وكان غولدموند آخر قد حل منذ زمن طويل محل الفتى الرقيق المحبوب، فقد أيقظه نرسيس إلى الحياة، ومنحته النساء حكمتهن. وأزال التشرد عنه تورده. لم يكن لديه أصدقاء، ووهب قلبه كله لعشيقاته، وكان من السهل عليهن الفوز به، وكانت تكفي لذلك نظرة شوق واحدة. ولم يكن يقوى على المقاومة، وكان يستجيب لأقل ميل. وهو، الذي طالما أحب الجمال الرقيق، وكان أكثر ما يشتاق إلى أولائك اللواتي يأتين إليه، وهن في بواكير نسغ ربيعهن. ما تزال النسوة الأقل جمالا، اللواتي غادرهن الجمال والشباب الأول يجذبنه ويثرنه. كان أحيانا يلازم عانسا عجوزا خائفة، وسط خضرة القرية، لا رغبة لها في أي شيء، كسبت قلبه برقتها، وليس فقط بالرقة، وإنما أيضا بالفضول المتجدد باستمرار. وعندما كان يستسلم إلى امرأة – على الرغم من أن حبه لها قد لا يستمر أكثر من أيام أو فقط ساعات – تصبح جميلة في عينيه، ويسلم لها قنبه كله. وسرعان ما علمته التجربة أن كل امرأة جميلة «تستحق الحب». إن أولائك الأقل تباهيا بأنفسهن ومحط اشمئزاز الرجال، يمتلكن من الحرارة الملتهبة ونكران الذات ما لا يحلم به المرء، أولائك العذارى الذابلات يحملن داخلهن حنانا عظيما كحنان أي أم، ورقة عذبة تجذب الثقة، خاصة بهن. هكذا فلكل امرأة في العالم سحرها، وسرها، وفك طلسمه يسعد الرجل.

كل النساء متشابهات في هذا. كل غياب للشباب أو للجمال يجد له تعويضا في إيماءة ما أو في نغمة الصوت.

ولكن ليس كلهن كن يجتذبنه طويلا. لم يكن يمنح أصغرهن سنا وأنضرهن من الحب والامتنان ولا بمقدار ذرة أكثر مما يمنح

الدميمات منهن. وعلى الرغم من أنه ما كان ليعشق أنصاف نساء إلا أنه كان بينهن من لا يكشفن عن سرهن إلا بعد مرور ثلاث ليال أو عشر وهن بين ذراعيه، بعضهن كان يعرف كل شيء عنهن بعد ليلة واحدة، وبمثلها ينساهن. كانت الرغبة والحب يبدوان له الإشباعين الوحيدين اللذين يدفئان الحياة، أو يمنحانها قيمة ما، ولم يكن يعرف شيئا عن الطموح، والشحاذ والكاردينال عنده سواء. كان ينفر من كل أشكال الملكية، ولم يكن ليقدم أقل التضحيات مقابل هذه الأشياء، وبعد أن أصبح يكسب من المال قدر ما يستطيع أخذ يرمي به بكلتا يديه. وكانت النساء ولعبة الأحاسيس هما أفضل متاع على الأرض، بينما كان جوهر أيام تأملاته الحزينة، وكل اشمئزاز وقلق عقلي، هو إدراكه لزوال الشهوة.

وجد أن شعلة الشغف البهيجة السريعة، واتقادها القصير الأمد المدمر، وانطفاءها المفاجئ – وجد أن هذه تشكل جوهر المعرفة كلها. كانت بالنسبة إليه نموذج القيمة، وتمثل كل متعة في الحياة الإنسانية. كان بإمكانه أن يدع ما تسببه من حزن يجتاح عقله، مع رعدة أهدافها الأبدية، ويستسلم لهذا استسلاما تاما كما لو للحب، بما أنه أيضا حب، وهو أيضا رغبة. وكما تعرف الخلاعة، وهو في ذروة مجده، هدفه الخاص وسرعة نسيانه، وتعرف أنه سوف يتلاشى مع خفقة النفس التالية، كذلك فإن الحزن الدفين لهذه العزلة الغارقة واثق من انبعاثه في الرغبة، في اليقظة المتجددة للأحاسيس في شبق العين، وفي كبرياء الحياة. وبالنسبة إلى غولدموند فالشبق والموت متشابهان. وأم الحياة يمكن أن تسمّى «شبق» أو «حب» مع أن أسماءها الأخرى كانت «موت»، «دمار»، إنها حواء معين الموت والمتعة، التي تحبل وتندثر إلى الأبد. القسوة والحب عندها سيان، وشكلها، الذي كلما طال أمد كنزه

له في قلبه، كانت مجازاته ورموزه أشد قداسة.

لقد عرف ليس بالأفكار أو بالكلمات بل بمعرفة الدم الواثقة العميقة، أن كل طرقه سوف تقوده إلى الأم، إلى الشهوة والموت، أما الجانب الآخر، جانب الأب، من الحياة، العقل والإرادة، فليس ملاذه. إنه ملاذ نرسيس، وقد بات غولدموند الآن، ولأول مرة، يلم بشكل تام بأقوال صديقه، وبات يدرك، في قرارة قلبه، أنه نقيضه. وبهذا الإدراك الجديد أخذ ينقش تمثاله القديس يوحنا التلميذ: وكانت تشتد وطأة شوقه حتى يبكي إشفاقا على نرسيس، ويحلم به أروع أحلامه، بأنه لن يصل إليه قط، ولن يكون مثله.

وبنوع من الحدس اطلع أيضا على سر مصنعيّته، على توقه الدفين للنحت، وكراهيته، بين حين وآخر، لكل ما صنعه: بعيدا عن الأفكار كان بإمكانه أن يلتمس العديد من أوجه المقارنة. فقد كان الفن اندماج عالمين، عالم الروح وعالم الدم، عالم الأب وعالم الأم. وبما أنه كان متجذرا في أشد الأحاسيس بدائية كان بإمكانه أن ينمو ليغدو أصفى الأفكار التجريدية، أو يستوطن أندر عوالم الفكر الرزحية، لينتهي به الأمر إلى صلب لحم ودم، وكل الأعمال التي تخدم بصدق هدفه – على سبيل المثال، عذراء المعلم نيقولاس المحزونة – كل هذه الأعمال الفنية التقليدية الأصيلة، التي لم ينتجها محتالون بل محترفون أصلاء – تبرز هذه الابتسامة الخطرة، ذات الوجهين، هذه السمة الرجالية والنسائية معا، تعايش وتمازج الرغبة والعقل الصافي والمجرد من الانفعال. ولكن حواءه يجب أن تبرز أكثر من أي عمل ابتكر حتى الآن، حياة مزدوجة، هذا إذا نجح أولا في نحتها.

في حرفة النحات كان ينتظر غولدموند ضمان المصالحة ما بين تناقضاته الأعمق. لكن الفن لا يأتي كهبة مجانية، وهو حتما لا يتوفر

لكل من يطلبه. إنه يكلف الكثير ويتطلب الكثير من التقدمات. لقد ظل على مدى ثلاث سنوات طويلة يسرقه من متعه الأثيرة لديه، وينتزع منه حتى نسمة حياته، وكان يتشبث بكل هذا بشكل يفوق الرغبة، بحرية فضول المتشرد، بعزلته، باستقلاله عن أي إنسان. ضحى بكل شيء من أجل تجسيد الصور. فليتهمه الآخرون بالاكفهرار، فلينعتوه بالمتجهم، العقيم، العاق، كلما ثار غضبه، ورفض أن يلتحق بالورشة في ذاك اليوم: إن هذه الحياة بالنسبة إليه عبودية مريرة، تهلكه وتسمم قلبه. ليس لأن لديه معلما عليه طاعته، أو لأنه أسير عبودية بلا مستقبل – وإنما لأن الفن ذاته يكدره وينغصه: الفن، ذاك الإله الظاهري للعقل، الذي يقوم باغتصابات عديدة صغيرة. فيجب أن يتوفر له سقف يظلله، ويحتاج إلى أدوات النحت، وإلى الغضار، والرواسم خشبية، ورقاقات الذهب، والألوان، وينتزع المجد والصبر. لقد منحه حرية الخشب الوحشية، وكل فرح الأرض الفسيحة الذي لا حدود له، نكهة الخطر الحادة، وكبرياء العوز. وعليه أن يمنحها مرارا وتكرارا، وهو يدمدم ويصر على أسنانه، كتقدمة.

أحيانا هذه محرقات كانت تعاد إليه. كان يجد بعض التعويض الهزيل عن النظام والانضباط المهينين اللذين تتصف بهما أيامه، في مغامرات معينة تتماشى والحب، في المنافسة وما تؤدي إليه من شجارات. فأن يهاجم فجأة من الخلف. في زقاق ضيق في طريقه لملاقاة فتاة، أو عائدا من حفلة رقص، أو يشعر ببضع ضربات نبوت على كتفيه، أو يلتفت بشرعة البرق ليقوم بالهجوم، وليس ليدافع عن نفسه، ويطبق فكيه، ويقبض على عدوه اللاهث، ويضرب بكل ما أوتي من قوة تحت الذقن، ويشد أصابعه على الشعر، ويحكم قبضته على النحر – كل هذا كان جيدا، ويشفيه من تجهمه لبعض الوقت. والنساء

أيضا كن يستمتعن به.

ملأ السرور لياليه وفاض، وأضفى على حياته نكهة مميزة، طوال دوام عمله في تمثال القديس يوحنا التلميذ. واستطال أمد العمل في القطعة الفنية، إلى أن وضع آخر اللمسات، واحدة إثر أخرى، بمراسم طويلة الأناة، على الوجه واليدين. كان قد حفره على سقيفة خشبية صغيرة بنيت خلف ورشة العمال. ثم أصبح جاهزا ذات صباح. وأحضر غولدموند مكنسة، وكنس الأرض حتى أضحت نظيفة تماما، وأزال نهائيًا آخر آثار نشارة الخشب عن الشعر المنحوت لتمثاله يوحنا، ووقف أمامه مدة ساعة أو أكثر.

أفاق في قلبه فرح عميق، بهجة نادرة لتجربة جديدة غالبة، شيء لا يمكن أن يتكرر إلا مرة واحدة في حياته، أو قد لا يعرفه قط بعد الآن. وبوسع رجل في يوم تنصيبه فارسا، أن يشعر بهذا: وهو يشبه شعور امرأة وضعت طفلها الأول. إنه تفان رفيع، وقار مهيب، مع رعب سري مسبق من الحالي عندما ينتهي هذا الكمال الغريب للسعادة، يعاش كله، ويسقط في مكانه، في الروتين اليومي المنظم. هناك، أمام عينيه، وقف نرسيس الصديق الذي هداه للخروج من صبيانيته، يرفل بأروابه ويتخذ هيئة التلميذ الحسن المظهر، وتبدو على قسمات وجهه المنتبه، النظيف، نظرة إشفاق واستسلام شديدة السكينة، أشبه ببرعم ابتسامة. هذا الوجه المتورد، الجميل، الذي صاغته الروح، والجسد النحيل، الذي يكاد يترنح من تحته، واليدان الطويلتان الوسيمتان، المفتوحتان في وضع الصلاة، عرفت الألم والموت، على الرغم من أنها تتفجر بالشباب والموسيقى الداخلية. غير أنها لم تعرف اليأس، أو الفوضى، أو التمرد، على الإطلاق. إن الروح الكامنة وراء هذه التقاطيع الرقيقة المتوردة قد تكون حزينة أو مرحة، إنها تناغم، إنها

لا تعاني من أي تصدع أو تنافر. وقف غولدموند تائها في عمله. في أول الأمر كانت أفكاره مكرسة بخشوع لهذا التمثال الذي وهبه لشبابه، وانتهت إلى سحابة من الانقباض والهم. وها هو عمله: هذا اليوحنا الجميل سوف يخلّد، إن حسنه الرقيق باق على مر الزمن. أما هو، الصانع، فقد ضاع. غدا لن يكون ملكه، لن ينمو ويزدهر تحت لمساته. بل إنه منذ الآن لم يعد يحتاج إلى عشق يديه، لم يعد ملجأ له ومصدر راحة، وإطار أيامه وهدفها. إنه فارغ هناك.

شعر أن من الأفضل له أن يغادر من فوره — القديس يوحنا وأيضا المعلم نيقولاس، وهذه المدينة، ومهنة النحت. لم يعد له من مبرر لبقائه هنا، لم يعد في مخيلته أي نماذج ناضجة، وصورة حواء، أم كل شيء، كانت ما تزال بعيدة المنال، وستبقى هكذا لسنين عديدة. فهل يبقى هنا، يصقل رؤوس الملائكة؟.

غادر نرسيس على مضض وانتقل إلى ورشة المعلم، دخل ووقف عند الباب صامتا. إلى أن لاحظ نيقولاس وجوده، فهتف:

«ما الأمر يا غولدموند؟».

«تمثالي للقديس يوحنا جاهز. يمكنك أن تأتي بنفسك وتلقي عليه نظرة، قبل أن تتوجه لتناول طعام العشاء».

«بكل سرور. سآتي في الحال».

ذهبا معا، تاركين الباب مشرعا، ليصلهما المزيد من الضوء. ولم يكن نيقولاس قد رأى القديس يوحنا منذ وقت طويل، فاسحا المجال لغولدموند أن يعمل فيه دون إزعاج. والآن اكتفى بتفحصه بعناية، دون أن يدلي بأي شيء. وأضاء وجهه الكتوم الصارم، ورأى غولدموند الإشراق في العينين العميقتي الزرقة.

قال المعلم نيقولاس: «إنه جيد، جيد جدا. هذه القطعة يا غولدموند

هي بطاقة قبولك كمحترف بارع. لقد أصبحت ضليعا في حرفتك. سوف أعرض هذه المنحوتة على النقابة المهنية، وأطلب منهم أن يمنحوك امتياز التفوق من أجله. وسوف تكون قد نلته عن استحقاق».

لم يكن غولدموند يولي أي اهتمام بالنقابة، بيد أنه ابتهج، لإدراكه مدى التقدير الذي تنطوي عليه كلمات المعلم نيقولاس هذه. وبعد أن قلب المعلم النظر في عمله من كل زواياه، وهو يتمشى حوله، تنهد قائلا:

«إن هذه الصورة مفعمة بالسلام والسكينة، وعلى الرغم من حزنها، فإنها تبدو مرحة. حتى لأكاد أقول إن قلب الإنسان الذي صنعها كان عامرا بالسعادة والابتهاج».

ابتسم غولدموند:

«أنت تعلم أنني لم أجعل من هذا العمل صورة مني، بل من صديقي الحميم يا معلم. إنه هو الذي أضفى عليه السلام والنور، لا أنا. لست أنا حقا الذي كون هذا الشكل، بل هو الذي جلبه إلى روحي».

قال نيقولاس: «لعلك على حق، إن طريقة صنع مثل هذه الأشكال سر من الأسرار. إنني نادرا ما أتواضع، لكني سأقول لك ما يلي: لقد قمت بصنع العديد من الأعمال في شبابي لا ترقى إلى تمثالك هذا القديس يوحنا، ليس بما تتسم به من عناية ومهارة، وإنما بحقيقتها. حسنا، أنت نفسك تعرف أن مثل هذا العمل لا يتكرر. إنه سر مغلق».

قال غولدموند: «نعم، بعد أن أنهيت حفر هذا العمل رحت أتأمله وقلت لنفسي: «لن تنجز أبدا عملا آخر مثله»، وعلى هذا، يا معلم، أعتقد أنني سأعود قريبا إلى الطرقات».

رماه نيقولاس بنظرة مرتبكة حاسدة، وعادت عيناه صارمتين من جديد.

«يمكننا أن نتحدث عن هذا فيما بعد. لقد حان الوقت لك للبدء بالعمل الجاد، وليس للهرب. أما اليوم فيمكنك أن تأخذ إجازة، وسوف تكون ضيفي على مائدة العشاء».

وصل غولدموند إلى مائدة العشاء، مغتسلا ومسرّح الشعر، بملابس يوم الأحد. هذه المرة عرف مدى التشريف في دعوته إلى مائدة العشاء، مع المعلم نيقولاس. ولكن بينما هو يرتقي الدرج ويعبر المنبسط المزدحم بالتماثيل الخشبية، لم يكن يشعر بالفرح وبالخوف القلق الذي انتابه آخر مرة عندما دخل، وقلبه يخفق بشدة، إلى هذه الحجرات التي تسودها السكينة، وتشيع البهجة في النفس.

ليسبت أيضا كانت تتزين بأبهى حللها، وتطوق جيدها بسلسلة من الأحجار الكريمة، وعلى مائدة العشاء، وإلى جانب سمك الشبوط والنبيذ، نفحه المعلم بهدية أخرى: كيس نقود جلدي، مع قطعتين ذهبيتين، أجره على صنع القديس يوحنا التلميذ. واليوم هو لا يجلس صامتا، منصتا إلى حديث الأب والإبنة. فلدى كليهما الكثير ليقولاه، وكلهم يتبادلون الأنخاب: كانت عيناه مشغولتين بالنظر إلى الفتاة، وانتهز فرصته حتى آخرها ليملي بصره من النظر إلى وجهها الجميل، بما يتصف به من جمال مترفع، سلس، عريق. وقد كانت مفرطة في كرمها، بيد أنه ودّ لو أنها تتورد خجلا وتذوب قليلا، وتاق أكثر من أي وقت مضى إلى إجبار هذا الوجه الساكن الرقيق على الاستجابة له. واستأذن في المغادرة بعد العشاء مباشرة، وتوقف برهة يتفحص التماثيل المقامة على منبسط المدرج، ولما لم يكن يدري ما يفعل راح يتسكع في شوارع المدينة. لقد أسبغ عليه المعلم نيقولاس تشريفا يتجاوز كل أمل. فلم لا يبتهج؟ ما الذي يجعل هذه المكافأة حقيرة جدا؟.

وفجأة استسلم لنزوة معينة، فاستأجر حصانا وانطلق به إلى الدير الذي سمع فيه لأول مرة باسم المعلم. لقد مرت سنتان منذ ذلك الحين واليوم تبدوان وكأنهما دهر! وقف في كنيسة الدير أمام العذراء الحزينة، ومن جديد أسره جمالها. إنها عمل يبرز تمثاله للقديس يوحنا، ويعادله في السحر والعمق، وينم عن ثقة أكبر في المعرفة، وفي المهارة.

الآن لاحظ تفاصيل في الحرفة لا يدركها إلا نحات، خطوطا تتماوج بنعومة على العباءة، وجرأة في تكوين اليدين والأصابع النحيلة الطويلة والاستخدام المرهف للمصادفات في تجزع ألياف الخشب، ومع ذلك فكل هذه الجماليات لم تكن لتساوي شيئا بالمقارنة مع جمال كامل بساطة المشهد الملهمة، التي لا يمكن أن تتوفر إلا لمعلم عظيم ضالع في حرفته. إن إبداع مثل هذه التماثيل يتطلب رجلا تتصف روحه بأكثر من الخيال: يجب أن تكون له عين ويد من الطراز الأول. لذا لعل الأمر يستأهل أن يسخر المرء حياته لخدمة الفن على حساب الحرية، وكل المباهج، إذا كانت الغاية هي جمال كهذا ليس فقط يُرى ويعاش ويدرك بالفرح، بل ويُحفر بأقصى مصنعيّة وأرسخها. إنها مسألة عويصة. وتأخر غولدموند في العودة إلى المدينة في تلك الليلة على ظهر الحصان. كانت الأنوار ما تزال تنبعث من الحانة، فتوجه إليها وتناول الخبز، وشرب بعض النبيذ، ثم صعد إلى غرفته الكائنة في سوق السمك، وهو في حالة من الصراع، والاكتئاب والقلق.

الفصل الثاني عشر

في اليوم التالي لم يتمكن غولدموند من التركيز في عمله. وانطلق يتجول في الشوارع التي أمضى فيها أياما كثيرة بغيضة، وراقب الخادمات والسيدات يتوجهن إلى السوق، وتوقف طويلا عند غدير سوق السمك، حيث يقف البائعون وزوجاتهم النهمات إلى جانبهم، ينادون على بضائعهم ويعلنون عن أسعارها، ويقبضون على السمك الساكن ويخرجونه من الأحواض، ويأخذون بعرضه بتباه على كل عابر سبيل.

كان السمك المرتعش بخياشيم مفتوحة وعيون ذات غشاوة ذهبية، يستسلم للموت، أو يصارع وينزلق متألما يبغي الهروب، وكما يحدث غالبا، امتلأ قلبه بالشفقة على تلك الأسماك وبمقت حزين للبشر. لم هؤلاء الناس بهذه الوحشية، والقسوة، ولم هم أغبياء بشكل لا يصدق؟ أليس لأحد عيون، لا الرجال ولا بائعات السمك، ولا الممثلون في البرلمان الذين يرخصون السعر من حولهم؟ لم لا يرون أبدا هذه الخياشيم المتألمة من سكرة الموت ، وهذه العيون الزجاجية ، وزعانف الذيل هذه التي تضرب الهواء بجنون - أو لا يستشعرون الرعب المرير، اليائس للأسماك الغامضة الجميلة، بينما الرعشة تهز أجسادها المحتضرة، فتتمدد مرهقة مضناة، لتغدو وجبات هزيلة تقدم على مائدة عضو برلماني شره؟ كل هؤلاء الناس عميان لا شيء

يؤثر فيهم أو يحركهم. قد ينفق حيوان جميل مسكين أمامهم، أو يموت معلم، يكون قد كشف، على وجه قديس ما، كل الآلام، والأفكار والآمال النبيلة، والخوف القاتم المتشبث بالحياة الإنسانية، جاعلا منه رعشة مرئية – فلا يعني كل هذا لهم شيئا ولا يرونه.

إنهم جميعا مستغرقون في العمل، أو التسلية، في الشجار والركض، في الصياح والثرثرة، والتجشؤ الواحد منهم في وجه الآخر، في القعقعة بالدلاء والفرقعة بالنكات، والتشاجر على رؤوس قليلة: إنهم شديدو التأنق يتلبسون كبرياء مدنيا، مسرورون بحياتهم الحسنة التنظيم، راضون عن أنفسهم وعن العالم أجمع. يا لهم من خنازير! بل هم أسوأ بكثير من الخنازيروأشد سفالة. على الرغم من أن حياته هنا كانت رخية، إلا أنه كان قد مكث بينهم وبين أمثالهم مدة كافية، وضاجع زوجاتهم وبناتهم، وطبخ معهم العديد من الوجبات اللذيذة من السمك الجيد المشوي. وفي كل مرة وبفجاءة كالسحر، كانت سكينته تتلاشى وطمأنينته. لقد دُحرت الأوهام السطحية، والغرور الهادئ وانتفاخ الروح. وظل فيه شيء يستحثه للجوء إلى العزلة للتأمل الطويل والتشرد، لمرأى الأسى والألم والموت، والنتيجة العقيمة لكل كفاح البشر، شيء ما جعله يتوق إلى التحديق في قلب الهوة السحيقة.

كان في أحلك لحظات توحده لدى رؤيته لهذه التفاهة ولهذا الرعب، يزهر في قلبه فرح مفاجئ، رغبة عارمة في ممارسة الحب، في الرسم، في الغناء، أو يعاوده من جديد قبوله الطفولي للحياة ، عندما يشم عبير زهرة أو يلعب مع قطة. وهذه المرة سوف يعاوده، إن لم يكن اليوم فغدا أو بعد غد، وسوف يصبح العالم طيبا كما كان قبلا، نعم، وإلى أن تعود الظلمة من جديد، التأمل الموحش الثقيل، حبه اليائس المخنوق للسمك المحتضر أو للأزهار الذابلة، وكراهيته

للبلادة الخنزيرية، وتثاؤب البشر المتكاسل البشع! كان دائما في مثل تلك الأوقات، يجبر بفضول مرعب، على تذكر فيكتور المنقب الرحالة، الذي غرز بين أضلاعه مطواته الكبيرة، وتركه مطروحا على ورق الأشجار ينزف دما. وعندئذ يعود للتفكير في الأمر من جديد، متسائلا كيف أصبح شكله الآن. ترى هل التهمته الثعالب؟ أيمكن أن تكون قد تبقت منه آثار؟ نعم، سيكون هناك شيء منثور – العظام، وربما أيضا حفنة من الشعر، ولكن العظام؟ ماذا حدث للعظام؟ كم تستغرق من الوقت، سنين أم عقودا، كي تفقد العظام شكلها وتستحيل ترابا؟

آه، ها قد دفع إلى التفكير في فيكتور الآن، وهو كليم القلب. يراقب هذه الأسماك، ويشعر بالكراهية نحو مرتادي السوق، وزوجاتهم. كان كره العالم يملؤه، الكراهية والألم. لعلهم عثروا على فيكتور ودفنوه. إذا كان هذا ما حدث، فهل يكون اللحم قد زال عنه أم ما يزال على جمجمته شعر؟ أما زال هناك حاجبان فوق عينيه؟ وحياة فيكتور، الزاخرة بالأحداث والمغامرات والحيل المذهلة والنكات والفسق – كم بقي منها الآن؟ هل بقي أي شيء آخر غير حفنة من الأفكار الرثة التي ما تزال تستحوذ على عقل قاتله؟ ولكن مع مرور الوقت تبين أن هذه الحياة لم تكن حياة عادية. أما زال هناك أي أثر لفيكتور في أحلام النساء؟ لا، لقد مضى وانتهى، وهذا حتما ما سيؤول إليه مصير كل إنسان، إننا نزهر بسرعة ومن ثم نذوي، ويغطينا الثلج. كم بدا كيانه كله يزهر، قبل سنتين، حين كان به توق قلق لتعلم حرفة، فانطلق على الطرق العامة حتى وصل إلى هذه البلدة، ليضع قلبه تحت قدمي المعلم نيقولاس. هل ما زال فيه أي شيء من هذه الحياة؟ لا شيء، لم يعد هناك حياة أكثر من تلك الجثة الهزيلة، الطويلة لذاك السكير المسكين. ولو أن شخصا كان قد تنبأ له بيوم يعامله فيه المعلم نيقولاس

باعتباره ندا له، ويطالب نقابة الحرفيين بإعطائه شهادة امتياز، لشعر أن كل الفرح الذي في العالم رهن يديه. والآن هاهو يشعر أن كل شيء تفه ومغم كزهور ذابلة.

وفجأة وفي غمرة كل هذه الأفكار، تراءى لغولدموند وجه، تبدّى في لمح البصر، ثم اختفى، ومضى بصفاء مفاجئ، مرتعش، وتلاشى، كان وجه أول الأمهات جميعا، يميل فوق ظلمة الحياة المدومة ، يرنو إلى الأسفل، ترتسم عليه ابتسامة ثابتة حزينة، وفي العينين تتمثل القسوة، وكل الجمال، يبتسم للمواليد وللميتات، للزهور البازغة وأوراق الخريف المخشخشة، يبتسم للفن، وللانحطاط. إن كل الأشياء متشابهة بالنسبة إلى هذه الأم العظيمة، وابتسامتها المحومة، الرهيبة، معلقة فوقها جميعا، كقمر. لقد كان التأمل المتجهم للمدعو غولدموند عزيزا عليها مثل سمكة شبوط تحتضر، وتنزلق على حجارة أرض سوق السمك، عزيزا عليها مثل ابنة المعلم الهادئة، المتعالية، وعزيزا مثل عظام فيكتور، المنثورة في الغابة والذي كان يطمع كثيرا في سرقة قطعة نقد ذهبية.

وكان الوهج الحي قد خبا، ووجه الأم السرية قد تلاشى من جديد. لكن أثره الباهت كان ما يزال يخفق في أعماق كيان غولدموند، كدفقة من الألم والحياة، وتوق خانق، اجتاحت قلبه، تحطم وتسوط. لا، لم تعد له فائدة للمتعة المتخمة لهؤلاء المواطنين، بائعي السمك، المشترين، الملاك المشغولين. فليأخذهم الشيطان ! آه، يا للّمعان الأبيض لابتسامة الصيف المحتضر. تلك ذات الشفاه الممتلئة التي تبعث حول عينيه بريق الموت الثقيل، الغامض، كأشعة الخريف أو رياحه.

توجه غولدموند إلى منزل المعلم نيقولاس. وكان النهار قد انتصف، أو كاد، وانتظر حتى سمع أن المعلم قد أنهى عمله وذهب قبل

أن يتناول طعام الغداء. ثم دخل عليه:

«يا معلم، لدي ما أقوله لك. بوسعك أن تنصت إليّ وأنت تغتسل وتبدل سترتك. إنني ظمآن لجرعة من الحقيقة، والآن لدي أمور أفضي بها إليك وقد لا أتمكن من قولها إلا مرة واحدة ووحيدة. هذا هو حالي، يا معلم. يجب أن أفضي بما يجول في فكري إلى شخص ما، ولعلك الوحيد في البلد، الذي بمقدوره أن يفهم ما أعني. إنني لا أخاطب صاحب أشهر ورشة، ذاك الذي يتلقى العديد من المهام المشرفة من كل مدينة وكنيسة في الوطن، بل أخاطب المعلم الذي نحت تمثال أم الرب المقدسة هناك في الدير، وهي أجمل صورة للعذراء عرفتها. هذا هو الرجل الذي أحبه وأجله، ويبدو لي بلوغ مستواه هو الخير الأسمى. لقد أنهيت لتوي عملا، منحوتتي للقديس يوحنا، ولم أقترب من الكمال فيه بقدر ما فعلت أنت في تمثال الأم المباركة في تلك الكنيسة. ولكن لندع عملي كما هو. لم يعد هناك ما يحملني على الانتظار. ليس في ذهني ما يناديني، ما يجبرني على تكوينه بيديّ. أو بالأحرى، لا، بل هناك صورة أخرى، لكنها بعيدة جدا ومقدسة، سوف تجبرني ذات يوم على إعطائها شكلا، أما اليوم فلا أستطيع أن أنجزها. فلكي أستجمع الطاقة من أجل إنجازها، يجب أن أعرف وأعايش قدرا أكبر من الحياة. قد أكون مستعدا في غضون ثلاث سنين أو أربع، أو في عشر سنين، أو حتى أكثر، أو ربما لا أكون أبدا! ولكن يا معلم، وحتى يأتي ذلك الوقت، لا أستطيع أن أقضي أيامي في العمل اليدوي، ألمع الملائكة، وأقص ستائر الصلبان، أعيش كعامل عادي في هذه الورشة، أكسب المال وأزدهر مثل بقية العمال، لا، لن أفعل... أريد أن أعيش، أن أعود إلى التطويف في الطرقات، وأريد أن أتذوق ألمه حتى الثمالة. يجب أن أعاني الجوع والعطش، وأن أنسى، وأحرر عقلي من

كل ما تعلمته هنا. وذات يوم سوف أصنع تمثالا يحرق مشاعر الناس من الأعماق، ويكون معادلا في جماله لتمثالك لأم الرب المقدسة. أما أن أكون مثلك، وأن أحيا نمط حياتك... فلن أفعل ذلك».

كان نيقولاس قد غسل يديه وجففهما. والآن التفت ورمق غولدموند بنظرة حادة، ولكنها خالية من الخبث.

قال: «أنت تكلمت، وأنا أنصت إليك. فليكن لك ما أردت! إنني لا أتوقع بقاءك في الورشة، على الرغم من وجود الكثير من العمل هناك. ولا أعتبرك عاملا تابعا لي. أنت بحاجة إلى حريتك. أود أن أناقش كل هذا، وأشياء أخرى كثيرة، يا صديقي غولدموند. ليس الآن، بعد بضعة أيام من الآن – وحتى ذلك الحين، إفعل ما يحلو لك. إسمع إنني أكبر سنا منك بكثير، وشاهدت أماكن كثيرة من العالم. إن أسلوبي في التفكير مختلف، بيد أني أفهم ما ترمي إليه. بعد بضعة أيام سوف أستدعيك، وعندئذ سوف نناقش أمر مستقبلك، وقد وضعت العديد من الخطط. فاصبر حتى ذلك الحين! أنا أعرف جيدا كيف يشعر المرء بعد أن ينهي أحد الأعمال القريبة إلى قلبه، أعرف هذا الإحساس بالخواء، سوف يمر، صدقني».

استأذن غولدموند في المغادرة وهو غير راض. إن نية المعلم نحوه حسنة، ولكن هل يهتم؟ كان يعرف مكانا معينا على ضفة النهر مياهه ضحلة، تتدفق عنده بقوة، فوق قاع مملوء بالنفايات، وفضلات الذبائح، لأن أكواخ حي الصيادين تصب فيه، بعيدا عن الأبواب، مخلّفة أصناف المخلفات والحطام. هناك راح يتمشى الآن، ثم جلس مفرشخا ساقيه على جدار ضفة النهر، وأخذ يتأمل في الجدول. كان يحب الماء، وأي صفحة من المياه تجذب نظره، فمن هنا حين ينظر المرء خلال خيوط البلور الجارية المتداخلة والمتدفقة نحو قلب القاع

المظلم، وغير المحدد، يرى، هنا وهناك، وميضا له بريق ذهبي، غامض وخاطف، شيء شبه مرئي – لعله كسارة من صحن. شفرة منجل مكسورة ومرمية، أو حصاة لامعة، أو آجرة صقيلة: لعله أحيانا يكون حنكليز الطين، أو سمكة lote سمينة أو سمكة روش تتلوى في القاع ويسقط شعاع من الشمس برهة على الزعانف أو الحراشف أو على بطن براق، ولم يتأكد تماما من الشيء اللامع، وكان كلما لمح هذا البريق الأخرس للذهب المكنون عميقا في الغور الغامض، المظلم الرطب، ألفاه مترعا بالسحر وبالبهجة.

وقال في نفسه، إن كل سر حقيقي، وكل تصورات العقل الأصيلة، هي مثل السر المائي الصغير، فليس لها قوام، ليس لها شكل ثابت واضح، ولا تسمح بإدراكها، إلا بوصفها احتمالا محببا نائيا: إنها مستترة. متعددة المعاني. وكما كان ذاك الشيء الغامض الذهبي أو الغض يصدر ومضاته الصغيرة من غسق النهر الأخضر للحظة من الزمن ومن ثم يخبو ثانية، كذا أيضا أضحى إطار وجهه، نصف مرئي من الخلف، نذير نعمة سرمدية أو حزن سرمدي: أو كأن مصباحا يتأرجح تحت عربة محملة تسير ليلا، وظلال أشعة الدواليب العملاقة تنتشر ويمتد تراقصها على جدار، وهي في حركاتها قد تكون زاخرة بصور وحكايا جديرة بفرجيل. من مثل هذه القماشة المهلهلة السحرية نفسها تنسج أحلامنا ليلا – إنها هباء، تضم فيها كل صور العالم، هي ماء تعيش في صفائه أشكال لكل الأشياء، لملائكة، وشياطين، ورجال وحيوانات، بوصفها احتمالا سرمديا.

عادت أفكاره إلى الماء. رأى، شارد الذهن، من خلال تدفق النهر وخريره، خفقات مشوشة في القاع قد شكلت تيجان ملوك، وأكتافا عارية لنساء. وتذكر أنه كان قد حلم، وهو في دير ماريابرون بمثل

هذا الشكل السحري المتغير أبدا ليتخذ هيئة حرف إغريقي أو لاتيني.
ألم يتحدث في هذا مع نرسيس! لو أراه الآن، أتحدث معه لساعة من الزمن، أمسك بيده وأنصت إلى صوته الهادئ، الثابت، لوهبت عن طيب خاطر قطعتين ذهبيتين. ما الذي جعل كل هذه الأشياء ذات جمال أخّاذ، هذه الألغاز المتلألئة والأشباح، كل هذه الأشياء المسحورة، الوهمية – ما الذي جعلها ذات حسن لا يصدق. ما دامت بحد ذاتها، نقيضا لأي جمال يصنعه الحرفي؟ فإذا كان لم يفتنه في جمال هذه الأشياء المبهمة إلا غموضه، فإن الأمر هو عكس ذلك بالنسبة إلى أعمال الحرفيين. فهذه كلها محض شكل، تتحدث بلغة صفاء الكمال. لا شيء يتصف بصفاء أشد صرامة من الخطوط التي تحدد رأسا جيد الرسم، أو فما منحوتا. وكان بإمكانه أن يعيد تشكيل العينين أو الشفة السفلى لتمثال العذراء لنيقولاس ، تماما كما رآه، وبدقة متناهية. هناك، هناك لا شيء غامض ولا مخادع ولا زائل.

على الرغم من أن غولدموند أطال التفكير في الموضوع، فإنه في النهاية ظل لا يجد تفسيرا جيدا لتأثير هذه الأشكال الأشد صفاء وتحديدا في أرواحنا بنمط تأثير تلك الأشكال نفسه الأشد غموضا والأقل تحديدا. ولكن ثمة شيء واحدا كان جليا عنده، لقد بات في استطاعته الآن أن يفهم لماذا كدرته تماما أعمال كثيرة جدا لا غبار عليها، أنجزها المعلمون في حرفتهم، ولم أثاروا فيه ضجرا بالغا، على الرغم مما في تصميمهم من جمال معين، حتى كاد يكرههم. لقد كانت الورشات، والكنائس، والقصور ملأى بأعمال فنية قاتلة، وقد ساعد هو نفسه في تنفيذ عدد منها. إن خداعهم الأمرّ يكمن في أنهم أثاروا توق الناس إلى الجمال وتركوه دون إشباع، لأنهم كانوا يفتقدون جوهره – السر. إن الأحلام والأعمال العظيمة لكل منها غموضه.

وقال غولدموند في نفسه: «إن ما أحبه وأتوق إليه شيء غامض. إنني أسير في إثره. رأيته عدة مرات في ومضات، وحين يتاح لي، أنوي، بوصفي نحاتا ، أن أصوغه لأزيل غموضه. وسيكون شكله هو شكل أمّ كل الأشياء، جمالها. وخلافا لجمال التماثيل الأخرى، لن يتميز تمثالها بأي شيء، لا استدارة خاصة، و لا نحافة ولا بساطة ولا شكلا مزخرفا، لا فتنة ولا قوة، وإنما سوف تتصالح في عملي المتناقضات المتباعدة، وتتعايش معا: الميلاد والموت، المتعة والألم، الحياة والفناء، وكل هذه الأشياء لا يمكن، خارجها، أن تدع العالم بسلام. ولو أني استنبطت شكلها في خيالي، لما كانت أكثر من نزوة حرفي، ولكانت خيلائي على هذا لا قيمة لها: بإمكاني أن أرى عيوبها، وأنساها في خيالي. لقد رأيتها ! إنها تعيش داخلي. قابلت شكلها مرارا وتكرارا. رأيتها أول مرة في تلك القرية في ليلة شتائية، وأنا أحمل مصباحي فوق سرير امرأة قروية في حالة وضع، ومنذ ذلك اليوم فصاعدا أضحت جزءا مني. كثيرا ما أضيعها، حتى لأكاد أنساها، إلى أن تعود صورتها فجأة إلى الوميض من جديد، كما عادت اليوم. لقد تحول شكل أعز أفكاري قاطبة، وتفكيري في أمي. منحت حياة لهذا الشكل الجديد، وهي تكونه كالنواة من ثمرة الكر».

الآن بات يشعر بأقصى وضوح كيف تجري أموره. وأخذ قلبه يخفق، كما لم يخفق عند أي نقطة تحول في حياته. واليوم، لديه توق، لا يقل عما أحس به ليلة ودّع نرسيس والدير، للانطلاق في طريق جديدة. وقد نادت هذه الأم: لعله ذات يوم سوف يحولها إلى عمل فني ليراه الجميع. لم يكن يبوح بهذا، إلا أنه كان مؤكدا – كان يسعده أن يتبعها، أن ينطلق في اتجاهها دون توقف ، يسترشد بندائها الذي يحثه على مواصلة السير. تلك هي حياته. ولعله لن يبذل أي مجهود

لنيل ما رآه، سوف يظل مجرد رؤيا حتى النهاية، شركا، ومضة كنز سري، خفي. وكيفما كان ذاك الشيء فعليه أن يتبعه، لقد وهب لها نفسه، وكانت هي عزاءه.

وهكذا كان القرار حاضرا لديه، وكل شيء معدا في ذهنه. لا شك في أن الفن شيء رائع جدا. لكن الفن ليس إلاهه، ليس هدفا نهائيا، ليس مقدرا له أن يتبع الفن بل صوت أمه. ما الفائدة من وراء تطوير مهارة أصابعه باضطراد؟ لقد بين له المعلم نيقولاس إلى أين يؤدي هذا، إنه يؤدي إلى شهرة الحرفي، إلى المال والحياة المتكاملة المستكينة، إلى ذبول ذلك الجوهر وتقزمه والذي بواسطته وحده ينكشف السر. يؤدي إلى نحت دمى حقيرة غالية الثمن لكل مجمع كنسي فاره ولكل مذبح، ولكنائس القديس سيباستيان، وإلى نحت ملائكة مصقولة بأناقة، ومذهّبة مقابل أربعة ليرات للقطعة. وكان البريق الذهبي المنبعث من عيني سمك شبوط، والوميض الفضي الجميل، المحيط بحواف جناح فراشة، أجمل وأكثر حيوية وثراءً على الدوام من ملء غرف من تلك الأعمال.

اقترب فتى وهو يغني على طول ضفة النهر، ويقطع أغنيته من وقت إلى آخر، أثناء قضمه رغيفَ خبز أبيض. فهتف له غولدموند محييا، وطلب منه قطعة من رغيفه. ثم انتزع اللب بإبهامه، وسبابته، وراح يشكل منه كريات بيضاء صغيرة من الخبز. وأخذ يطيح بكرياته، وهو يميل فوق الجدار، واحدة إثر أخرى، بعيدا إلى عمق الجدول المظلم المتسارع، واحتشد السمك السريع الحركة حولها، ثم اختفت في أفواهه. رآها تختفي كرية إثر أخرى، ومع كل واحدة كان يشعر بالارتياح العميق نفسه، ثم أحس بالجوع، وذهب يفتش عن إحدى عشيقاته، الخادمة التي تعمل في بيت اللحام والتي كان يسميها «فتاة

لحم الخنزير والسجق». كان يناديها بصفيره المعتاد، ويخبرها حين تأتي إلى نافذة المطبخ، أنه لا يهمه أي نوع من اللحم تقدمه له. وكان يضع ما تعطيه في جيبه ليأكله في كروم العنب، في الطرف الآخر من النهر، الذي كانت تربته حمراء من ثمار العنب، وحيث كانت تنمو، في فصل الربيع، زهور المكحلية الزرقاء ذات الرائحة الذكية.

ولكن يبدو أن هذا اليوم كان يوم الإدراكات الجديدة. فعندما أطلت كاترين من النافذة مبتسمة ابتسامتها التي تميز وجهها البدين، رفع يده للتو ليلوح بإشارتهما المتفق عليها. تذكر فجأة كل ابتساماتها الأخرى، كل المرات التي وقف فيها في هذا المكان بالذات، ينتظر عند هذه النافذة، تماما كما يفعل اليوم. ثم، وبجلاء مضجر رأى كل شيء يحدث أمامه، رآها ترد على إشارته وتغادر النافذة، وفي الحال ظهرت قادمة نحوه من الباب الخلفي، حاملة بيدها لفافة اللحم المدخن، ورأى نفسه يتناولها، ويداعبها لأنها تكبدت المشقة، وضمها إليه، كما كانت تتوقع منه، وفجأة بدا له كل شيء يتصف بحماقة لا متناهية، هذه السلسلة الكاملة، الميكانيكية من الأمور المتكررة. لم يستعيدها ويقوم بدوره فيها، يشكرها على السجق، ويقبلها على شفتيها، ويتحسس ثدييها النافرين الملتصقين به، ويضغط عليها قليلا ويجّذبها إليه بالمقابل؟ وفي وجهها السمح الممتلئ رأى نظرة تعكس العادة وانعدام الحياة، وسمع في ضحكها الودي شيئا مجردا من الوقار، شيئا سمعه كثيرا جدا. صوتا رتيبا، خاليا من أي غموض. وتجمدت ابتسامته، وأنزل يده، فهل ما زال يكن لها أي اهتمام؟ هل كان يشتهي حقا قبلاتها؟ لا، لقد أفرط في المجيء إلى هنا، ورأى الابتسامة نفسها أكثر مما ينبغي ودون رغبة. وما كان في إمكانه القيام به بالأمس دون تفكير، أصبح فجأة اليوم مستحيلا.

كانت الفتاة ما تزال واقفة في مكانها ترمقه عندما استدار للتو وانطلق في طريقه، عازما على ألا يلج هذا الشارع مرة أخرى، فليترك المجال لمبتدئ كي يداعب ثدييها. فليأت شخص آخر ويأكل سجقها الطيب! أوه، كيف يبدد أولئك المواطنون حياتهم! ما أكسل هؤلاء المواطنين الكبار الأنيقين الذين تذبح لأجلهم، يوما بعد يوم، أعداد كبيرة من الخنازير والعجول، وتنتشل مقادير كبيرة من الأسماك البراقة من النهر. وهو نفسه، كم أصبح يشبه الحمقى الصقيليين! كم أصبح كسولا وشرها! إنه قطعة قذارة صغيرة في المستنقعات. ثمرة برقوق جافة، مذاقها أطيب من وليمة كاملة لنقابة الحرفيين في هذه البلدة. آه، يا لحرية المستنقعات المظلمة تحت ضوء القمر، وآثار الحيوانات، تقتفى بحذر على العشب الرمادي الرطب عند انبلاج الفجر! إن حياة أولئك الناس تافهة ووضيعة ، حتى مفهومهم عن الحب. لقد طفح كيله! إنها حياة، أشبه بعظمة، خالية من نقيها. في وقت من الأوقات كانت أفضل، كانت تنطوي على شيء من المعنى، أيام كان المعلم ما يزال قدوته، وكانت ليسبت أميرة في نظره. وحتى بعد ذلك كانت حياة محتملة، عندما كان هناك القديس يوحنا ليحتوي أفكاره. والآن انتهى كل هذا، غادرته نضارته، والزهرة الصغيرة ذبلت وتغضنت. أوغمره إحساس بلا دوام الأشياء كاجتياح موجة.

إن كل شيء يذبل، كل متعة تنتهي مع خفقة نفس، ولا تترك وراءها غير غبار وعظام. نعم، لا يبقى إلا شيء واحد: الأم الخالدة. حواء الشابة أبدا، وأيضا العجوز أبدا ، بابتسامة رغبتها القاسية، والحزينة. تراءت له ثانية برهة من الزمن: ماردة ترصع النجوم شعرها، تربض حالمة عند حافة العالم. تقتلع بحركة متكاسلة زهرة بعد زهرة، وحياة بعد حياة، وتلقي بها في الفضاء.

بينما كان غولدموند في تلك الأيام يراقب، وهو يتذكر بحزن لحظات الفراق، جزءا من حياته يختفي ويتلاشى، أثناء تسكعه خلال شوارع المدينة المهلكة، كان المعلم نيقولاس يبذل جهدا مضنيا ليضمن استقرار المتشرد إلى الأبد. وقد وضع خططا عديدة من أجل الإعداد لمستقبل غولدموند، وأقنع النقابة بعد إلحاح من أجل منحه امتياز معلمه وفكر في مشروع للإسراع في الاحتفاظ به، ليس بوصفه عامله البارع بل بوصفه ندا له، شخصا يستشيره في كل المسائل الكبيرة. فيضعان معا التصاميم، ويحصل غولدموند على حصة من الربح. وهذا الإجراء ينطوي على بعض المخاطر، بالنسبة إلى «ليسبت» أكثر منه بالنسبة إلى والدها، لأن الشاب طبعا يحب أن يصبح زوج ابنته. لكن أفضل العاملين المهرة الذين استخدمهم حتى ذلك الحين لم يتمكن قط من إنجاز رؤية جديدة لتمثال القدّيس يوحنا، وكان هو، المعلم، يتقدم في العمر، وأصبح أفقر في المخيلة مما كان، وبات يخشى أن يرى ورشته الشهيرة، تنحدر إلى مستوى أكشاك النحاتين العادية. إن الأمر لن يكون سهلا مع غولدموند هذا، ولكن مع ذلك يجب أن يقوم بالمحاولة.

هذا ما ارتآه المعلم، بحزن وتدبر. سوف يعمد إلى تجديد بناء الورشة الداخلية، وإلى توسيعها لتأوي مساعده الجديد، وسوف يعطيه عليّة المنزل، وسترة جديدة، وبنطالا ضيقا ليحضر بهما عملية انتخابه للانتساب إلى النقابة. وبرقة استطلع رأي السيدة ليسبت التي كانت، منذ ظهيرة ذاك اليوم وهم جالسون يتناولون طعام الغداء، قد توقعت مثل ذاك العرض من والدها. ويا للمفاجأة، إن ليسبت لا اعتراض لديها ! إذا أصبح الفتى عضوا نقابيا ومواطنا لن تمانع في أن يكون زوجا لها. هنا، أيضا، لا يبدو أن ثمة عائقا. فإذا لم ينجح المعلم

نيقولاس وحرفته تماما في ترويض هذا الغجري، فإن ليسبت قريبا سوف تقص له أجنحته.

هكذا رسم كل شيء، وأحسن وضع الطعم للعصفور. وهكذا، ذات يوم استدعيا غولدموند، الذي لم يكن قد أخبرهما بأي شيء عن نفسه، وفي هذه المرة أيضا طلبا منه مشاركتهما طعام العشاء، وجاء كما في السابق، مسرّح الشعر ويرتدي ملابس يوم الأحد، ومن جديد جلس في الغرفة الجميلة، ذات الطابع الرسمي، مع المعلم وابنة المعلم، إلى أن استأذنت بعد الانتهاء من تناول الطعام في المغادرة، وقدم له نيقولاس عرضه الكبير.

وأضاف في نهاية خطته المفاجئة: «أنت تفهم، ولست بحاجة إلى أن أقول إنه لم يسبق لأي شاب آخر، لا يحمل أي خبرة مهنية سابقة، أن أصبح معلما كما فعلت، واستقر في مثل هذا العش الدافئ. لقد تحققت أمنيتك يا غولدموند !».

جلس غولدموند يحدق إلى المعلم نيقولاس، مشدوها، وفي غاية الإرباك. ودفع بالكأس نصف الملآن معيدا إياه أمامه على المائدة. إنه لم يكن يتوقع أي شيء من المعلم عدا بعض عبارات الشكوى من كسله في بعض الأيام، وعرضا منه ليجعله عامله البارع إلى الأبد. الآن ها هو يقدم له هذا العرض ! وأحزنه، وملأه بالإرباك جلوسه هكذا في مواجهة الرجل دون أن ينطق بكلمة. بيد أنه لم يتمكن من إعطائه جوابا فورا.

كان نيقولاس قد بدأ يغضب قليلا لأن كرمه لم يقابل على الفور، بعبارات شكر بسيطة، فنهض واقفا وأردف قائلا:

«يبدو أن كلامي قد أدهشك. لعلك تحتاج إلى بعض الوقت للتفكير. وهذا يضايقني قليلا. كنت آمل أن يمنحك بهجة عظمى.

ولكن سيان عندي. خذ وقتك».

قال غولدموند، وهو يبحث عن الكلمات المناسبة» يا معلم، لا تسئ بي الظن. إني شاكر لك من كل قلبي لطفك، بل وأيضا الصبر الذي أبديته معي أنا، تلميذك. لن أنسى مدى الدهر ما أدين به لك. وأنا لا أحتاج إلى التفكير. لقد اتخذت قراري منذ زمن طويل».

«وما هو؟».

«لقد اتخذته قبل أن ترسل في طلبي بوقت طويل – قبل أن تتكون لدي أية فكرة حول عرضك النبيل الذي قدمته إليّ. إنني لا أستطيع أن أبقى هنا. يجب أن أعود إلى التجوال من جديد».

علا الشحوب وجه نيقولاس، ولمعت عيناه.

قال غولدموند: «صدقني يا معلم عندما أقول إني لا أريد أن أسبب لك الحزن. يجب أن أغادر كل هذا. يجب أن أتجول و أستعيد حريتي. أشكرك مرة أخرى من كل قلبي، ولنفترق ونحن أصحاب». مد يده والدموع تكاد تطفر من عينيه، فلم يقبلها نيقولاس. كان وجهه شاحبا. وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا، بخطى سريعة، أخذت تتسارع باضطراد. لكن، بدا أن الحنق يتصاعد إلى كل جسمه. ولم يكن غولدموند قد رآه على تلك الحال من قبل.

«ارحل إذن ! ولكن افعل حالا. ولا ترني وجهك بعد الآن. لا تجعلني أقول أو أفعل ما قد أندم عليه ذات يوم. ارحل».

مرة أخرى مدّ غولدموند يده، فقام نيقولاس بحركة وكأنه يهم بالبصق عليها. عندئذ استدار غولدموند، وقد غدا شاحب اللون كالآخر، وانسل خارجا من الغرفة، واعتمر قلنسوته وهو على المصطبة، وزحف هابطا الدرج، وكان أثناء هبوطه يداعب الملائكة المحفورة من خشب الجوز، ومن ثم خرج إلى السقيفة الخشبية الصغيرة، ليلقي

نظرة وداع على تمثاله للقديس يوحنا. وهناك توقف برهة، وبعدئذ غادر المنزل، وقلبه عامر بالحزن لم يكن قد شعر بمثله في ذلك النهار، وهو وسط الثلوج، عندما غادر القلعة، وليديا المسكينة. أما هذا الوضع فعلى الأقل انتهى بسرعة. على الأقل لم يبدد الكثير من الكلام. وهذه الفكرة كانت تعزيته الوحيدة، وهو يعبر العتبة، ويرى الأشياء المألوفة في الشوارع وهي تتخذ مظهرا جديدا، بينما قلوبنا تهم بالرحيل عنها. ومرة أخرى ألقى نظرة خلفه إلى باب المنزل... باب منزل رجل غريب، وقد أوصد في وجهه إلى الأبد.

حين عاد غولدموند إلى غرفته أخذ يعد العدة للخروج إلى الدروب. ولم يكن هناك الكثير مما يعيقه، وبالكاد كان ثمة ما يفعله غير أن ينطلق في الرحيل. كانت هناك لوحة كان قد رسمها بنفسه، للمادونا الرقيقة، معلقة على الجدار، وأشياء تافهة كثيرة منثورة في أرجاء الغرفة. كان هناك زوج من حذاء الرقص، ولفافة من الرسومات، وقيثارة صغيرة، وصف من التماثيل الغضارية كان قد شكّلها، وبعض هدايا الحسناوات، وباقة من الزهور الاصطناعية، وكأس للشرب، ذو لون قرمزي مبقّع، وفاكهة مكسّرة ومجففة، بائتة وقديمة، مشكلة على شكل قلب، والمزيد من مثل سقط المتاع ذاك على الرغم من أن لكل قطعة منها قصة. وقد كان لكل منها ذات يوم معنى خاص، أما الآن فأضحت عنصرا معيقا يبعث على الضجر. ولكن على الأقل يمكنه أن يذهب إلى صاحب الملك، ويبادل الكأس بسكين صيد قوية ثم يشحذها على حجر الرحى الكائن في فناء الدار، ويمكنه أن يفتت قلب كعكة الزنجبيل، ويطعمها للدجاج في ساحة دار الجيران، وأن يعطي لوحة المادونا لربة البيت، ويحصل منها على هدية نافعة، على محفظة جلدية قديمة مملوءة طعاما.

إلى هذا أضاف قميصين له نظيفين ، واثنين من أصغر رسومه حجما. ولفهما حول قطعة من عصا مكنسة. أما باقي الأوراق المهلهلة فخلفها وراءه.

كان في المدينة الكثير من النسوة اللواتي كان يمكن أن يودّعهن: في الليلة الفائتة فقط كان قد ضاجع إحداهن، دون أن يفوه بكلمة واحدة عن خططه. فلم يكن الأمر يستحق أن يحمل على الكثير من محمل الجد، لذا فلم يودّع إلا صاحب الملك، واستأذنه في الرحيل خلال الليل، لكي ينطلق في الصباح الباكر من اليوم التالي.

مع ذلك، وعلى الرغم من هذه الحيطة، فثمة شخص آخر استيقظ قبله، لكي يدعوه إلى المطبخ لتناول حساء الحليب، وذلك حين أوشك أن يتسلل خارجا من المنزل. كانت طفلة صغيرة في الخامسة عشرة من عمرها، هي ابنة رب المنزل، فتاة سقيمة، هادئة، ذات عينين جميلتين، لكنها مصابة بتشوه عند مفصل الورك، وكانت تعرج. كان اسمها ماري. وقد أعدت لأجله في المطبخ حليبا دافئا، وأحضرت خبزا ليتناسب معه، أقبلت بوجهها الشاحب من قلة النوم، ولكنها صففت شعرها بعناية وسرحته لتقابله، وبدا عليها الحزن الشديد لأنه سيغادرها. فشكرها مع قبلة وداع، وأشفق عليها. فتلقت قبلته وعيناها نصف مغمضتين.

الفصل الثالث عشر

خلال الأيام الأولى من هذه النزه الجديدة، الجيشان النهم الأول للحرية المكتسبة حديثا، كان على غولدموند أن يتعلم منذ البداية كيف يعيش حياة الدروب بلا سقف يأويه ولا مواقيت. والذين لا سقف لديهم يأويهم يعيشون حياة الأطفال الشجعان، لا يأتمرون بأوامر أحد، سيدهم الوحيد هو السماء المتغيرة، ولا هدف أمامهم، ولا سقف يظللهم ولا يملكون شيئا، ومستعدون لأية مصادفة. حياة تسول وشجاعة. إنهم أولاد آدم، المطرود، وإخوة الحيوانات البريئة. يتقبلون من يد الله، ساعة بعد ساعة، كل ما يهبهم، شمسا، مطرا، ضبابا، ثلجا، حرّا، أو بردا جوعا أو شبعا، ولا يلاحظون أبدا كيف يمر الوقت، ولا يحسبون حسابا للمستقبل، أو لتاريخ الإنسان. بالنسبة إليهم لا وجود لكفاح مرير، ولا معرفة لديهم بذاك المعبود الغريب المسمى رفاهة والتي يتشبث بها أصحاب الملك بقوة محمومة. إن الجوال قد يكون همجيا أو رقيقا، متمرسا في حياته أو بليدا في مسايرتها، مقداما أو جبانا، لكنه طفل. يعيش أبدا في الجنة السابقة لمجيء الحروب والموت، تقود خطاه إلى الأبد حاجات بسيطة قليلة ورغبات. وسواء أكان حاذقا أم بطيء الفهم، يشعر من أعماقه بمدى هشاشة الحياة كلها وقصر أجلها، وبكم من الضعف والخوف تحمل الكائنات الحية قبس دفئها وتعبر به الكون المثلج، أم كان شخصا

ساذجا شرها مسكينا يتبع خطى بطنه التي تتآكله – فإن كليهما هو العدو العميق والمنافس اللدود للمواطنين الآمنين. فهم يخافونه كما يخافون أن يتذكروا هروب كل ما هو موجود، الاضمحلال الأبدي للدفء والاستمتاع، نحو الموت البارد المحتوم، الذي يسري في الجو ويلتهم الناس كلهم.

انصرم الصيف ومن بعده الخريف. ومن جديد أخذ غولدموند يشق طريقه بعناء وسط الثلوج، متجولا، يملؤه الفرح كلما يشم عبير الربيع الذكي، وشاهد الفصول يطأ أحدهما الآخر، والصيف الذهبي وهو يغوص سريعا في الأرض. وهكذا ظل يتابع طريقه عاما بعد عام، إلى أن بدا أخيرا أنه نسي كل الأشياء الأرضية ما عدا العطش، والجوع، والحب، وانزلاق السنين الهادئ الغريب. بدا وكأنه قد غاص بشكل كامل عائدا إلى الأم، ضائعا في عالمها المكون من الجوع والشبع، على الرغم من أنه خلال كل حلم أو استراحة تأمل، وبينما كان يمتد أمامه مشهد لوديان مزدهرة أو ذاوية، كانت عيناه مفتوحة وإذا به يعود من جديد حرفيًا، يتوق إلى أن يصوغ هذه الحياة الواضحة والمستعجلة في شكل، وإلى أن يطهرها وينفخ فيها شيئا من روحه.

كان منذ مقتل فيكتور وهو يتجول وحده. ولكن ذات يوم وجد أن لديه رفيقا، أخذ يلازمه تدريجيا، حتى دون أن يلاحظ ذلك قط، وظل فترة طويلة غير قادر على التخلص منه. لكن هذا المتشرد الجديد لم يكن يشبه فيكتور، كان حاجا رومانيا وما يزال يافعا، يرتدي رداء الحاج وقبعة واسعة، وكان اسمه روبرت، وبيته على ضفاف بحيرة كونستانس. هذا الحاج، وكان ابن حرفي، التحق فترة من الوقت بالمدرسة مع رهبان القديس غالوس، وكان ما يزال فتى صغيرا، عندما ازدحم رأسه بأحلام عن حجة رومانية، إلى أن لم يبق في ذهنه فكرة

غيرها، وتشبث بأول فرصة سنحت له لتحويلها إلى واقع. وقد وفرت له وفاة والده، الذي كان عليه أن يعمل نجارا في ورشته، وفرت له الحرية التي كان يتوق إليها. وحالما دفن الرجل العجوز بسلام أعلن روبرت لأمه وأخته أنه لم يعد هناك ما يشده إلى البقاء، وأنه سيذهب إلى روما تلبية لنداء روحه، ليصلي هناك تكفيرا عن خطايا أبيه الكثيرة. وعبثا بكت المرأتان وأنبتاه، وانطلق يروم روما، عنيدا كعهده دائما، محروما من أي تبريك من أمه، ووسط وابل من التعنيف السليط من أخته. كان توقه إلى التجوال أقوى لديه من أي ولاء للأسرة، وإن كان ممزوجا بما يشبه التقوى الضحلة، حب للتكاسل في جوار المشاهد الكهنوتية والكاتدرائيات. وكانت متعته أن ينصت إلى الشعائر الدينية الطويلة، وأن يراقب عمليات التعميد، ودفن الموتى، والقداديس التي تقام على أرواح الموتى، وأن يشم عبق البخور، ويتدفأ على ومض الشموع. وقد نجح في الإلمام ببعض أطراف اللغة اللاتينية وإن ليس بما يكفي لجعله مثقفا، وإنما لتهدئة تخيلات روحه الصبيانية التي تمثلت في تحليقات طويلة من أحلام يقظة ورعة عند جوانب المذابح، في ظل صحون الكنائس. ولم يوله غولدموند الكثير من الانتباه، مع أنه أحبه كثيرا، وشعر أنه وإلى حد ما يشبهه في حافزه إلى التجوال ومشاهدة بلاد جديدة. وهكذا انطلق المدعو روبرت، بل إنه نجح في الوصول حتى روما، وقد نزل في تلك الأثناء بعدد كبير من الأديرة ومنازل الكهنة، وشاهد الجبال، والأراضي الجنوبية فيما وراءها، وشعر بسعادة غامرة وهو يتنقل بين الكنائس الرومانية، ومؤسسات المدينة الدينية. وهناك استمع إلى مئة قداس، وركع وحلم عند أشهر المقامات المقدسة، وتلقى القرابين المقدسة واستنشق من البخور أكثر مما كان يحتاج ليطهر به كل فعل إثم ارتكبه في شبابه، أو بحق تلك

الآثام التي ارتكبها والده في حياته كلها.

هام علي وجهه فترة عام أو أكثر، ولكن حين عاد أخيرا إلى منزل والده لم يلق ترحيبا من أحد بوصفه مسرفا، بما أنه وجد أن أخته قد جعلت من نفسها في غيابه سيدة دار، واستولت على كل الحقوق والواجبات التي كان يجب أن تكون له. فقد تزوجت نجارا بارعا ومثابرا، وسيطرت على الأمور بالحديد والنار، حتى أن روبرت بعد أن مكث فترة وجيزة وجد أنّه فرد زائد في بيته، ولم يحاول أحد أن يلح عليه كي يبقى عندما تحدث عن عزمه على الانطلاق في رحلات جديدة وفي الحج. ولم يزعجه ذلك كثيرا. واستجدى أمه بعض النقود الفائضة لديها، ومن جديد اعتمر قبعته ووضع عليه رداءه ثم انطلق في رحلة مقدسة أخرى. وفي هذه المرة لم يضع أمامه أي هدف، وإنما أخذ ينتقل هنا وهناك عبر أراضي الإمبراطورية، نصف راهب، ونصف متشرد، وأوسمة من نحاس تقرقع حول عنقه، جمعها من كل موقع شهير، ومعها مسابح غفرانية.

على هذه الصورة قابل غولدموند ذات يوم وهو يسير إلى جانبه بخطى مجهدة، وتبادل معه العديد من حكايا المتشردين، وفي بلدة السوق الصغيرة التالية اختفى، وكان يلتقي به من جديد هنا وهناك، وفي النهاية لازمه بشكل دائم، راغبا في أن يكون رفيقا يعتمد عليه. وقد أثار غولدموند إعجابه كثيرا، أعجبته جرأته، وذكاؤه، واطلاعه، وأحبه لما كان يتحلى به من صحة وقوة، وإخلاص. واجتهد كي يكسب عطفه بأدائه خدمات صغيرة، وأصبحا صديقين وفيين، بما أن غولدموند كان رفيقا يمكن اكتسابه بسهولة شديدة. شيء واحد فقط لم يحتمله. فحين كانت تنتابه نوبة التفكير والتأمل، كان يتابع سيره المجهد في صمت عنيد، وينظر إلى روبرت وكأنه غير موجود، وعندئذ

يجب ألا تطرح أية أسئلة، ولا يدور أي حديث مسل، أو ثرثرة في محاولة للتسلية، ويجب أن يترك وشأنه داخل مزاجه الشخصي. هذا ما اكتشفه روبرت وحده. ومنذ أن علم أن غولدموند يحفظ سلسلة من الأشعار والأغاني باللغة اللاتينية، ومنذ أن سمعه ذات يوم، عند بوابة إحدى الكاتدريات، وهو يشرح بنية الصور الحجرية، وراقبه مرة، بينما كانا واقفين يستريحان عند جدار، يرسم عليه ببضع ضربات سريعة مشوشة، أشخاصا بالحجم الطبيعي، وبدأ ينظر إلى صديقه على أنه أحد أخيار الله، بل وأقرب ما يكون إلى الساحر.

وما أزعج روبرت أكثر كون النساء أيضا يفضلن غولدموند، إلى درجة أنه بنظرة منه وابتسامة كان قادرا على إقناعهن بمنحه ما يرغب، إلا أنه كان لا بد أن يبدي إعجابه بهذا.

قوطعت رحلتهما معا بطريقة لم يتوقعها أي منهما. فذات يوم وصلا إلى مشارف إحدى القرى: فوجدا أن حفنة من القرويين بانتظارهما، يحملون نبابيت، ومدارس[1]، وأعمدة، وقائدهم من مكان أبعد يصرخ بهما أن عودا من حيث أتيتما، واذهبا إلى الشيطان ولا تعودا إلى هنا بعد الآن، تابع غولدموند سيره دون أن يوليهم انتباها، وهو تواق إلى معرفة ما يجري، وسرعان ما تلقى حجرا ارتطم بقوة بصدره. وكان روبرت، الذي كان يتلفت فيما حوله بحثا عنه، قد أطلق ساقيه للريح كأنما هربًا من شياطين. وأخذ القرويون يقتربون شيئا فشيئا، ويطلقون تهديداتهم، بحيث لم يبق أمامه إلا أن يلحق به، وإن ليس بسرعة كبيرة. انتظره روبرت وهو يرتجف، وقد توقف تحت صليب تتدلى منه صورة للمسيح، ومغروز في وسط حقل.

ضحك غولدموند وقال: «لقد ركضت كبطل، ولكن لماذا يضعون

---

(1) مدارس: جمع مِدْرس، لدرس الحنطة.

كتل الطين تلك على رؤوسهم؟ أهناك حرب؟ أهم حراس مسلحون يقفون أمام أكواخهم ولا يسمحون لأحد بالمرور من الطريق؟ أتعجّب ماذا يكمن وراء كل هذا؟».

كلاهما لم يكن لديه جواب. ولم ينجل السر، شيئا فشيئا، إلا في صبيحة اليوم التالي حين كانت بعض المغامرات بانتظارهما. وكانت المزرعة القائمة وسط بستان مخضوضر، وقد نما فيها عشب باسق وكثير من أشجار الفاكهة، وتتألف من كوخ، ومربط للماشية، ومخزن للحبوب، كان يشملها سكون غريب، وكأنها تغط في سبات. ووسط البستان وقفت بقرة تخور في العشب: وكان واضحا أنه حان وقت حلبها. توجها إلى باب المنزل وقرعاه. ولما لم يحصلا على جواب انتقلا إلى مربط البقرة، وكان مفتوحا وخاويا، فتوجها إلى مخزن الحبوب، الذي كانت الطحالب الخضراء الفاتحة اللون التي تنمو على سطحه المصنوع من القش تلمع تحت ضوء شمس الصباح الباكر، هناك أيضا لم يعثرا على أي مخلوق حي.

عادا إلى المنزل وهما مرتبكان ومكتئبان لما قابلاه من خلاء هذا المسكن، وما حوله، ومرة أخرى قرعا باب المنزل بكلا قبضتيهما، ولم يسمعا من يجيبهما من الداخل. ولما أراد غولدموند أن يدفع الباب بشدة لينفتح، إذا به يكتشف، وهو مدهوش، أنه غير موصد، فدخل إلى الغرفة المظلمة الواطئة السقف.

صاح بصوت عال: «سلام الله عليكم، أما من أحد هنا؟».

لكن لم يكن هناك غير الصمت.

تلكأ روبرت في الخارج. ودخل غولدموند، يدفعه شوق لمشاهدة. كان داخل الكوخ يفوح برائحة كريهة جدا، رائحة نتانة مقززة غريبة. كان موقد المدفأة مملوءا بالرماد، فنفخ عليه، بما أن بضع جمرات

كانت ما تزال عالقة بأزناد الخشب الرمادية. ثم، وعلى ضوء الغسق المنبعث من زاوية المدخنة، رفع بصره فلاحظ وجود شخص جالس. كان هناك على مقعد خشبي طويل شخص نائم، جالسا، ورأى من خلال العتمة أنها امرأة عجوز. وكان من العبث أن يلجأ إلى المناداة، بما أن المنزل كان كأنه مسحور، لذا وكز الجالسة برفق ووضع يده على كتفها. حتى عندئذ لم تأت بحركة، ثم لاحظ أنها جالسة وسط شبكة من خيوط العنكبوت، وقد غزل جزء من شعرها وجزء آخر كان يعلق بركبتيها. ارتعش قليلا وقال في نفسه «إنها ميتة». ولكي يتأكد من ذلك راح يبذل قصارى جهده ليقدح نارا، فأخذ يحركها وينفخها إلى أن استعر لهب واستطاع أن يشعل منه عودا طويلا. وحمل هذا المشعل وقربه من وجه الجالسة. فرأى تحت الشعر الأبيض القسمات الزرقاء الرمادية لجثة، وإحدى العينين ما تزال مفتوحة، ذات غشاوة زجاجية كما الرصاص. لقد ماتت هناك جالسة في ركنها بجوار المدخنة. ولم يكن ثمة ما يمكن عمله من أجلها.

جاس غولدموند ومعه المشعل الملتهب، هنا وهناك في المكان. فوجد عند مدخل باب الغرفة النائية جثة أخرى ممددة على طولها. كان صبيا في نحو التاسعة أو العاشرة، متغضنا ومنتفخا، ميتا وهو في قميصه التحتي. كان منطرحا على بطنه عبر العتبة، ويداه تشدان بغضب على قبضتيهما. قال غولدموند في نفسه «هذه هي الثانية» وواصل ولوجه، وكأنه يخوض في حلم شنيع، إلى غرفة خلفية، حيث كانت مصاريع النافذة قد فتحت واسعا، وسطعت شمس النهار البراقة على كل شيء. فأخمد شعلته بعناية وداس على الشرارات التي تخلفت على الأرض.

هذه الغرفة الخلفية كانت تحتوي على ثلاثة أسرة، واحد خال،

بأطراف يبرز منها القش، من تحت ملاءة الكتان الخشنة. وعلى السرير الآخر جثة أخرى، كان رجلا ملتحيا متيبسا وهو متمدد على ظهره، ورأسه مندفع إلى أعلى، وذقنه ولحيته ناتئان. لا بد أنه سيد المنزل. وكان وجهه الغائر يتلألأ بتلألؤ باهت، وقد ارتسمت عليه تدرجات ألوان الموت البراقة، وتدلت إحدى ذراعيه حتى لامست الأرضية الترابية، حيث كان إبريق فارغ منطرحا على جنبه، والوشل الرطب الطويل لم يمتص بعد، وقد جرى بعض منه في تجويف صغير كانت ما تزال بركة صغيرة موحلة متشكلة فيه. وفي السرير الثاني كانت امرأة مربوعة قوية، مدفونة وملفعة بالملاءات وبغطاء السرير، مستلقية ومحنية إلى أعلى، وجهها مضغوط إلى أسفل في تضاعيف السرير، وشعرها الخشن الأشقر بلون التبن يلتمع في ضوء الشمس القوي. وإلى جانبها، وكأنما غاصت معها، تمددت خادمة لم تبلغ الحلم بعد، شقراء بلون التبن، وقد غطت وجهها الميت لُطَخٌ زرقاء إلى رمادية، وقد علقت واختنقت وسط أربطة مضطربة من الكتان.

تفحص غولدموند كل هذه الوجوه، فرأى على وجه الخادمة الصغيرة على الرغم من أنه قد انتفخ وتورم، نظرة نكوص عاجز من وجه الموت. ومؤخر عنق هذه الأم وشعرها، والتي كانت قد غاصت عميقا وبعنف، كانا ينمان عن حنق ورعب، وعن تحليق مشبوب. إن هذا الشعر الشعث يرفض أن يتصالح مع الموت. ووجه الرجل كان متحديا، وينم عن ألم: وكأنه كان ينفق ببطء، وكانت لحيته تندفع بزاوية حادة في الهواء، كمحارب منطرح في ساحة الوغى. وكان تجهمه المتحدي الصارم جميلا. ولا يمكن لمن يواجه موته هكذا أن يكون مجرد إنسان ضعيف عادي. أما الجثة الأشد إيلاما فكانت جثة الصبي، المنبطح على بطنه، عبر العتبة. لم يكن وجهه يعبر عن أي شيء، لكن قبضتي

الصبي، المضمومتين بشدة، كانتا تعبران عن الكثير، وأيضا المكان الذي كان ملقى عليه فوق العتبة – الأسى والقلق، واحتمائه اليائس من ألم يفوق الوصف. وبالقرب من رأسه حفر وجار قطة في الإسكفة.

تفحص غولدموند كل التفاصيل. لا شك أن هذا الكوخ كان في حالة مزرية، وقد امتلأ بنتانة الموت الهمجية. ومع ذلك، وعلى الرغم من كل شيء، فقد كانت جاذبيته قوية تماما. كان حقيقيا وواقعيا، مترعا بالروعة وبالمصير المحتوم، حتى أن شيئا في رعبه فاز بحبه، شاقا طريقه إلى روحه.

في تلك الأثناء كان روبرت في الخارج ينادي عليه متبرما. وكان غولدموند كلفا بروبرت بلا شك، غير أن هذا الصوت أثار تعجبا في ذهنه: ما أشد خسة البشر وحمقهم، بما ينتابهم من رعب لا ينتهي وفضول، وكم تتضاءل مساعي حياتهم، عندما تواجه الموتى الساكنين المهيبين. لم يجب على الفور وإنما استسلم إلى مشهد تلك الجثث، بمزيج غريب من الشفقة العميقة، والمراقبة الباردة، التي يمارسها الفنانون، وهم يدققون النظر في تماثيلهم المتيبّسة، ثمّ عاد إلى الجالسة في زاوية المدخنة ليُمعن النظر في رأسها، وعينيها وفي يديها. وفي الوضع الذي تجمدت وهي عليه. ما أشد سكون هذا الكوخ المسحور. ما أغرب نتانة هذا الموت، وأشنعه. ما أنأى هذا المسكن الصغير بالنسبة إلى بشر أحياء وكم يثير القشعريرة، وهو مسكون بهذه الجثث – على الرغم من بضع شرارات شاحبة ما تزال عالقة بأزناد الخشب المتصلبة، وسوف تخرج الجرذان مسرعة لتنهش الأصابع. إن ما تفعله الجثث الأخرى وسط أناقة التوابيت، وهي ممددة على الخشب، آمنة تحت الأرض، مكفنة ومغطاة بعد القيام بآخر العمليات المفجعة قاطبة، يجب أن تنجزه هذه الخمس فوق الأرض، تهترئ وتتعفن في

مسكنها تحت الضوء المبهرج، ومن حولها أبواب تقرقع وترتطم، لا يعكر صفوها شيء، لا تعرف الخجل وغير محمية.

كان غولدموند قد رأى أمواتا كثرا، لكنه لم يقابل قط في حياته مثل تلك الصورة لعمل الموت الأبدي، الذي لم يواجه مقاومة وترك كل شيء يغوص في ذهنه.

أخيرا قاطع روبرت هذه الأفكار بصرخاته، فخرج وراح رفيقه يستجديه يملؤه الخوف.

سأل بصوت منخفض: «ما الأمر؟ هل من أحد هناك؟ أوه، ما أغرب ما يرتسم على وجهك – حسنا، قل شيئا».

رمقه غولدموند ببرود.

«ادخل وانظر بنفسك. إنه منزل في حالة مريبة. وبعد ذلك سوف نحلب بقرة القروي الجميلة. هيا ادخل».

أذعن روبرت بتردد، وهو يتلمس طريقه خلال الغسق إلى زاوية المدخنة، فعثر على عجوز بجوار الموقد وألفاها ميتة، فأطلق صرخة مفاجئة ليوقظها. ثم هرع عائدا وعيناه جاحظتان.

«إكراما لله يا غولدموند! هناك عجوز ميتة جالسة بجوار حجر الموقد، ما الأمر؟ لماذا لا يوجد أحد معها؟ لم لا يستطيعون أن يدفنوها؟ آه، يا إلهي ما أفظع نتانة المكان!».

ابتسم غولدموند:

أنت بطل يا روبرت! ولكن ما الذي جعلك تخرج عائدا بهذه السرعة. إن مشهد إمرأة عجوز ميتة جالسة على كرسيها مشهد لا يستحق الذكر، بالنسبة لأي رجل. ولو أنك تخطو بضع خطوات أخر فسوف تشاهد بعد ذلك ما هو أفضل. هناك خمسة منهم يا روبرت.

ثلاثة في أسرتهم، والفتى الميت على عتبة الباب، إلى جانب العجوز. العائلة كلها ممددة هناك تتعفن، والمنزل نفسه قد بدأ تقريبا يتعفن. لهذا ترانا وجدنا البقرة غير محلوبة».

لم يكن في عيني روبرت غير الخوف. وفجأة صرخ بصوت حاد: «أوه، فهمت الآن ما الذي كان أولئك القرويون ينوون عمله بالأمس عندما أبعدونا عن قريتهم! — الآن فهمت كل شيء — إنه الوباء! وحق روحي البائسة هو الوباء! غولدموند! وأنت في الداخل كل ذلك الوقت تلمس الجثث وكأنها ليست موبوءة. ابتعد عني. لا تقترب مني. أنت حتما مسموم! أنا آسف يا غولدموند، ولكن يجب أن أغادرك لم يعد بمقدوري الآن أن أرافقك».

قبل أن ينجح في الركض مسافة ياردة كان غولدموند قد قبض على الحاج من ردائه، وأمسك به وهو يتلوى بكل قوته.

قال، وهو يسخر منه برقة: «سيدي الشاب، أنت أحذق ممّا كنت أظنك. وعلى الأغلب إن ما قلته هو الحقيقة. حسنا، سوف نكتشف الأمر لاحقا، في المزرعة أو القرية التالية. أغلب الظن أن الوباء كان في تلك الأنحاء، وسوف نعرف إن كنا قد نجونا منه ومن ثم ننطلق من جديد. أما أن أتركك تهرب هكذا أيها الفتى روبرت، أوه، كلا! أنا رجل رقيق القلب، لا أقوى على تصورك مصابا بالحمى، وهذا هو حالك في الغالب، بما أنك كنت مع المرض في تلك الغرفة، ومن ثم تهرع هاربا وحدك، لتستلقي في مكان ما بين الحقول، وتموت وحيدا، ولا أحد إلى جانبك، ليغمض لك عينك، ولا أحد ليحضر لك قبرا، أو يرُدّ التراب عليك، أوه، كلا، يا صديقي، هذه الفكرة محزنة جدا! فانتبه إليّ جيدا، لأن ما سأقوله لن أكرره: نحن الإثنان نركب المخاطرة نفسها، ويمكن أن تصيبك أو تصيبني. لذا سنبقى معا ونموت معا،

أو نعبر هذه الأرض الموبوءة الملعونة. فإذا مرضت ومت سأكون هنا لأدفنك، وأعدك بهذا. وإذا مت أنا، إفعل ما تشاء، ادفني أو اهرب واتركني، سيان لدي. ولكن حتى ذلك الحين يا عزيزي روبرت، لا تهرب مني تذكر هذا ! سوف يحتاج كل منا إلى الآخر. والآن كف عن إثارة ضجيجك، لا أريد أن أسمع أي شيء ! وهيا بنا لنذهب إلى ذاك المربط لنبحث عن دلو للحليب، حتى نتمكن أخيرا من حلب البقرة».

وتم الأمر، ومنذ تلك اللحظة أصبح غولدموند هو الذي يصدر الأوامر، وروبرت يطيع، وهذا جعل الأمور بينهما أسهل. ولم يحاول روبرت أن يهرب ثانية. وأجابه بصوت خنوع خفيض:

«لقد أخفتني قليلا يا غولدموند. بدوت غريبا جدا عندما خرجت من تلك الغرفة الملأى بالجثث، وحسبت أنك أصبت بالوباء. وحتى إن لم تكن قد أصبت، فإن وجهك اختلفت تعابيره ! أكان المشهد بهذا السوء — ماذا رأيت هناك؟».

تردد غولدموند قبل أن يقول: «لا، ليس سيئا جدا. لم أر هناك إلا ما ينتظرني وينتظرك، وكل رجل وامرأة على الأرض، حتى بدون وباء ليضربنا».

تقدما في سيرهما وسرعان ما أصبح الموت الأسود يكتنفهما من كل جانب، وعلى طرف الطريق، كانت له اليد الطولى. ورفضت كثير من القرى أن يقتربا منها، وفي أخرى استطاعا أن يجوبا كل طرقها. كانت المزارع خاوية، وثمة جثث كثيرة تتعفن في الحقول، أو سقطت دون حراك في غرفها. ومكثت أبقار غير محلوبة أو جائعة تخور في مرابضها، وانتشرت قطعان الغنم في كل أرجاء الريف. وحلبا وعلفا أعدادا كبيرة من الماعز، وذبحا وشويا عند حافة الغابة، العديد من الجداء الصغيرة والخنازير الرضع، وشربا النبيذ وعصير الفاكهة

في أقبية عديدة دون أن يواجها أي عائق من أي سيد. عاشا حياة طيبة، غير أنهما لم يكونا يستمتعان بهذه الأطايب إلا نصف استمتاع. وكان روبرت في حالة فزع متواصل من الوباء، وكانت بطنه تمور كلما صادف جثة، وغالبا ما كان يصل إلى حافة الجنون، ويعلن مرارا وتكرارا أن المرض قد نال منه، ويقف فترة طويلة ورأسه ويداه في دخان من نار المخيم (ويمر الأمر بسلام)، بل إنه حتى وهو نائم كان يتحسس نفسه في كل مكان ليتأكد من أن ذراعيه وساقيه وتحت إبطيه لم تصب بالبثور. وكان غولدموند أحيانا يوبخه. وكثيرا ما كان يسخر منه. لم يكن يشارك روبرت في نوبات رعبه، وريبته المرضية من رؤية جثة. كان يتهادى قاطعا أرض الموت هذه، التي يحددها بشكل مرعب مشهد المذبحة العظمى، مع ذهول حزين يغمر عقله، وروحه مترعة بخريف شاسع، وقلبه مدوزن على أنغام أغنية منجل الحصاد. وكثيرا ما كانت تعاوده صورة أمه، عملاقة تحمل وجه الميدوزا الشاحب يرسم ابتسامة الموت والأسى الثقيلة.

ذات يوم وصلا إلى بلدة صغيرة، وكان المكان محصنا بكثافة، فبدءا ببوابات البلدة طوّقت محيطها بأكمله، وبعلو قمم المنازل، أسوار واقية، ومع ذلك لم يريا حارسا واحدا يعتليها، ولا أحد يقف تحت القوس المفتوح لبوابة الدخول. وخاف روبرت أن يدخل البلدة المسورة، وتوسل إلى رفيقه أن لا يغامر. في تلك الأثناء تناهى إليهما قرع ناقوس الموت، وشاهدا كاهنا يحمل عاليا صليبا، ومن خلفه ثلاث عربات محملة، اثنتان يجرهما حصان، وواحدة يجرها ثور، وكل منهما معبأ حتى آخره بموتاه. وريفيان برداءين غريبا الشكل، ووجهاهما مدفونان داخل قلنسوتين مدببتين، يهرعان على جانب الطريق ينخسان الحيوانات.

كانت ركبتا روبرت ترتجفان من تحته، وتلون وجهه بلون مصل اللبن. ولحق غولدموند بعربات الموت، محافظا على مسافة قصيرة في أعقابها. لكنها لم تتوجه إلى مقبرة، وإنما إلى الأرض الخلاء حيث حفرت حفرة عمقها لا يزيد عن مقدار يدين، بيد أنها واسعة كقاعة العرش في قصر ملكي. وقف غولدموند وأخذ يراقب القرويين وهما ينتزعان الموتى وينزلاهم عن العربات بأعمدة طويلة معقوفة، ويكوماهم داخل الأرض، بينما الكاهن يتمتم ويهز صليبه، ثم ذهبا، وتركاهم هناك، ليضرما نيرانا حول القبور، ثم هرعوا عائدين إلى داخل البلدة. واقترب من الحافة وألقى نظرة إلى الأسفل. كانا قد ألفيا هناك ما يقارب الخمسين من الجثث أو أكثر ، والكثير منها عاريا. وكنت ترى هنا وهناك ذراعا أو ساقا متيبسة في وضع تأنيبي، وطرف قميص يرفرف في الهواء.

عندما عاد أدراجه خر روبرت على ركبتيه، وتوسل إليه أن يسرعا بالابتعاد عن المكان. وكان لديه سبب وجيه لمثل هذا التوسل، فقد كشفت له النظرة الشاردة في عيني غولدموند، تلك التحديقة البعيدة، التي أضحت مألوفة جدا لديه، كشفت له عن توق رفيقه إلى رؤية المزيد والمزيد من الموت. إنه عاجز عن السيطرة على رفيقه، لكنه لم يتبعه، وسيدعه يعبر البوابات.

لدى مرور غولدموند من هذه البوابة غير المحروسة، وسمع وقع خطواته ثانية يتردد صداها على بلاط الطريق، تذكر مدنا صغيرة كثيرة كان قد تسكع فيها في ترحاله. كم كانت تعج بالضجيج، بأصوات الأطفال، بصيحات الصبية أثناء لعبهم، بمشاجرات النسوة، وبالحدادين وهم يصدرون بمطارقهم موسيقى من سنادينهم والعديد من مثل تلك الأصوات المرهفة المفعمة بالحيوية في استقباله،

وكان نسيجها المتشابك يملأ أذنيه بكل أنماط العمل، والمتع، والإنجاز والصحبة الإنسانية المتشعبة الجوانب. أما هنا، عند ممر هذه البوابة التي تضج بفضائها، وهذه الشوارع الخالية، فلا ضجيج، كلها موات وجامدة وبالية، وموسيقى الجدول المثرثر تصدح عالية ضاجة، بل ومضطربة. وخلف حاجز مشبّك رأى خبازا، وسط أرغفته الأربعية وأرغفته الصغيرة. فأشار غولدموند إلى رغيف، فدفعه الخباز نحوه بحذر شديد، وقد وضعه على طرف جاروف الخبز الطويل، وانتظر نقود غولدموند لتوضع عليه. ولما لم يضع الغريب أي نقود على الجاروف، بل تابع طريقه وهو يقضم الرغيف، سحب الخباز حاجزه المشبّك واكتفى برميه بنظرة حاقدة.

على طول إفريز نافذة منزل جميل بابية، وقف صف من المزهريات الخزفية، تفتحت فيها الزهور وقد تدلت فوقها أوراق ذابلة. ومن نافذة أخرى وصله نشيج وصراخ عاوٍ من طفل. ولكن في الشارع التالي، وفي نافذة عالية، رأى غولدموند فتاة أنيقة، تسرح شعرها وهي تشرف من نافذة بابية. تلاقت عيونهما، فتضرجت وجنتاها بحمرة الخجل، لكنها لم تشح ببصرها عنه، وعندما ابتسم زحفت ابتسامة واهنة شاحبة إلى وجهها إلى جانب حمرته.

ناداها مخاطبا: «أبهذه السرعة انتهيت من تسريح شعرك؟».

مالت عبر إفريز نافذتها.

سألها: «ألم تمرضي بعد؟». فهزت رأسها نفيا «حسنا تعالي معي، إذن، واتركي بؤرة الموت هذه! هيا بنا إلى الغابة لنعيش حياة طيبة هناك».

بدأت عيناها تستجوب عينيه.

ألح غولدموند قائلا: «أنا جاد! ولكن لا تطيلي التفكير في الأمر.

هل لديك أب أو أم، أم أنك تعيشين هنا مع أناس غرباء كخادمة لهم؟ إذن فهم غرباء، هه؟ تعالي إذن، يا حلوة، ودعي العجائز ينتهون من موتهم! نحن أقوياء وشبان ونريد حياة طيبة ما دام بإمكاننا الحصول عليها. تعالي، يا صغيرة يا ذات الشعر البني – هذا هو عربوني».

قبلت تدبيره وهي مترددة ومندهشة. وراح هو يتسكع في أحد الشوارع الخالية، ثم في شارع ثان، ومن ثم عاد بخطى متمهلة فوجد الخادمة واقفة في مكانها، مائلة عبر حافة نافذتها وابتهجت لأنه لم يغادرها. وأومأت إليه، فتابع طريقه مارا بها، وفي الحال هرعت لتنضم إليه وتسير إلى جانبه، وقبل حتى أن يصلا إلى البوابة كانت قد لحقت به، تحمل بيدها صرة صغيرة، وشعرها البني مربوط بمنديل أحمر.

سألها: «ماذا ينادونك؟».

«لنه». أنا آتية معك. أوه، إن الحال فظيعة هنا في البلدة – الكل يموت. فلنبتعد، بعيدا جدا !.».

في موقع غير بعيد عن البوابة جلس روبرت جاثما على الأرض نكدا، ولدى مرأى غولدموند قفز واقفا على قدميه، وراح يحدق عندما رأى الخادمة إلى جانبه. هذه المرة لم يكن من السهل عليه أن يهدّئ مخاوفه، فانتحب، وندب، واحتج. إن إخراج إمرأة من عرين الظلام ذاك، وإجبار المسكين روبرت على مصاحبتها – كانا أسوأ من الجنون. كان بمثابة إغواء الله، وصمم على ألا يخطو خطوة واحدة معهما، يجب أن يغادرهما الآن، لقد نفد صبره.

تركه غولدموند يلعن ويصب عليه جام غضبه.

قال: «ها قد أفضيت بكل ما لديك. والآن ستأتي معنا، وستكون ممتنا لأن معنا هذه الصحبة الحلوة. إسمع يا روبرت، لدي نبأ سار لك. الآن سنعيش في هدوء، وصحة تامة، وسنفعل كل ما بإمكاننا

لنتجنب هذا الوباء. سوف نفتش عن مكان في الغابة، عن كوخ خال، أو سنبني واحدا، وهناك سنعيش أنا ولنه كزوج وزوجة، وأنت يا صديقي، ستقطن معنا. فلنحافظ على الهدوء والسكينة معا. ما رأيك؟».

أوه، نعم، وافق روبرت من أعماق قلبه. ليته فقط لا يكون مضطرا إلى أن يصافح يد «لنه» أو أن يلمس ثوبها.

قال غولدموند «أنت لست مضطرا إلى هذا. والحقيقة هي أني أمنعك وبشدة من أن تضع إصبعا على «لنه». فاطمئن».

مضى الثلاثة معا، صامتين في أول الأمر، إلى أن بادرت لنه أخيرا بالكلام. ما أشد فرحها برؤية المروج من جديد، والأشجار والسماء اللامتناهية، لقد كان الوضع رهيبا جدا في البلدة الموبوءة، حتى ليصعب عليها أن تعبر عن مبلغ فظاعته. غير أنها باشرت بقص كل شيء عليهما، لتريح بالها من كل ما يتذكره من رعب. كانت لديها حكايا كثيرة عن مشاهد مرعبة، وقصص مشؤومة، حولت البلدة الصغيرة إلى جحيم. وقد مات أحد الطبيبين، فأصبح الثاني لا يعود إلا الأثرياء، وكثر الموتى ونتنت جثثهم في بيوت كثيرة، ولم يكن هناك من يخرجها ويدفنها، وفي بيوت أخرى قام حاملوا التوابيت بالسرقة ونهبوا الأطعمة وفسقوا، وكثيرا ما كانوا يجرون مع الجثث أشخاصا مرضى من أسرتهم ويرمونهم إلى عربات الموتى. لقد كان لديها الكثير من أمثال هذه القصص المخيفة لتحكيها. ولم يعمد أي منهما إلى مقاطعتها. وكان روبرت ينصت باستمتاع مرتعد، وكان غولدموند صامتا ولا مباليا، تاركا لها المجال لتفضي بكل ما يقض مضجعها. ولم يدل بتعليق. فماذا يمكن لرجل أن يقوله حيال كل هذا؟ وأخيرا نال التعب من «لنه»، ونضب معين كلامها، ثم أبطأ غولدموند خطاه، وأخذ يصدح، بصوت منخفض، بأغنية – أغنية ذات أبيات كثيرة،

وفواصل لحنية، وكان صوته في كل بيت يزداد علوا. ابتسمت «لنه»، وألفت روبرت، سعيدا ومذهولا. فلم يكن قد سبق له أن سمع غولدموند يغني. لله در هذا الغولدموند، إنه قادر على فعل أي شيء! إنه ساحر. وكان غناء غولدموند صادقا وحسنا، على الرغم من أن صوته كان مخففا، وعلى الفور، ومع البيت الثاني، انضمت إليه «لنه»، وسرعان ما أصبحت معه في مستوى صوتي واحد. وكانت الشمس تغرب، وبعيدا على طول خط الأفق، فوق المرج، امتدت غابة سوداء، وخلفها جبال زرقاء نائية، تزداد رقة باضطراد، وكأن زرقتها تنبع من داخلها. ومضت أغنية غولدموند، مرحة أو حزينة، على إيقاع خطاهم.

قال روبرت: «تبدو سعيدا جدا اليوم».

«طبعا، أنا سعيد اليوم ما دام برفقتي حب رائع! آه، يا «لنه» ما أسعدني لأن تجار الموت وفروك لي! غدا سنبحث عن كوخ صغير، وهناك يمكننا أن نعيش حياة طيبة، ونفرح لأن لحمنا وعظامنا ما تزال متماسكة معا. هل رأيت يا «لنه» في الغابة أثناء فصل الخريف نبات الفطر البني الذي يحبه الحلزون حبا جما – والذي يؤكل؟».

ابتسمت: «آه، كثيرا ما شاهدته».

«لونه بني بلون شعرك، ورائحته ذكية كرائحتك. هل نغني مقطعا آخر، أم أنك جائعة؟ ما زال لدي بعض الأطايب في حقيبتي».

في اليوم التالي عثروا على بغيتهم. ففي غابة من أشجار البتولا كان هناك كوخ، مبني من جذوع خشنة من شجر الصنوبر، بناه قاطعو خشب أو صيادون. كان خاليا، وأمكن اقتحام الباب بسهولة، ورأى روبرت أنه كوخ جيد وشعر أن المكان خال من المرض. وفي طريقهم عثروا على بعض الماعز، شاردا على طول الطريق بدون رعاية، ومعه معزاته.

قال غولدموند: «قد لا تكون نجارا ماهرا يا روبرت، لكنك على

الأقل عملت في النجارة في شبابك. نريد أن نعيش ونجعل لنا هنا مستقرا ، وعليك أن تبني الجدار الفاصل لقلعتنا، لكي يصبح لنا غرفتين جيدتين، واحدة لحبيبتي «لنه» ولي، والأخرى لك ولمعزاتك. إن ما لدينا من طعام لا يكفينا، لذا علينا اليوم أن نقنع بحليب الماعز سواء كان غزيرا أم شحيحا. والآن يجب أن تبني لنا جدارا بينما نعد نحن الإثنان أسرّة لنا نحن الثلاثة. وغدا سأخرج سعيا وراء الطعام».

انكبوا على العمل من فورهم. فجمعت «لنه» وغولدموند السرخس، والطحالب، والأوراق الجافة وشحذ روبرت سكينه على حجر صوان من أجل قطع الأغصان وبناء جدار. غير أنه لم يتمكن من إنهائه في ذلك اليوم، لذا أثناء الليل ابتعد ليقضي ليلته داخل الغابة.

وجد غولدموند في «لنه» حبيبة عذبة، خجولا، وغضة ومترعة بالحب، واستلقيا هكذا يقظين طوال ساعات عديدة، وعندما استغرقت في النوم، بعد طول تهدئة وإرهاق، أخذ ينصت إلى وجيب قلبها. شم عبير شعرها البني واستكان عليه، وهو يفكر طوال الوقت في ذلك القبر الواسع القليل العمق الذي أفرغ فيه شياطين مرحون حمولات عرباتهم من الموتى. إن حياتنا حلوة، وقصيرة، رغم كل سعادتنا، وحلو وسريع الذبول، شبابنا.

عندما تم بناء الجدار كان جيدا، ولكن قبل أن يتم كان على الثلاثة أن يعملوا فيه. وعلى الرغم من أن روبرت كان متلهفا لإبراز مهارته، إلا أنه ظل ساعات طويلة يتفاخر بما كان يمكن أن ينجزه لو أن أدواته معه، ونضد السحج ومسطرته الحديدية ومساميره. ولما لم يكن لديه إلا يداه وسكين، فقد قنع بقطع بضع سويقات من شجر البتولا ووضعها بثبات على شكل صف متماسك، بعد أن زرعها بقوة في تربة الأرض. وأصر على أن تملأ الفجوات الفاصلة بينها بأماليد

البتولا المجدولة. وهذا تطلب وقتا، بيد أن العمل استمر بكل رضا، ومد له كل من الإثنين الآخرين يد المساعدة. وفي تلك الأثناء ذهبت «لنه» لتجني بعض التوت البري، وسهرت على توفيرعلف الماعز، بينما سرح غولدموند في الغابة يستكشف موقع الأرض بحثا عن الغذاء، ومن ثم عاد إلى المنزل مع غنيمته. ولم يكن في طول المكان وعرضه وجود لأي إنسان، مما أسعد روبرت أي سعادة، لأنه بذلك يزول خطر التلوث، أو مواجهة عدو ومقاتلته. أما سوءه فيكمن في أنهم لم يجدوا إلا القليل لسد رمقهم. وكان هناك مسكن قروي خال ليس بعيدا جدا، وهذه المرة لم يكن يحوي أي موتى، حتى أن غولدموند ألح على أن ينتقلوا، بدل المكوث في كوخ أزناد الخشب. لكن روبرت أخذته الرعشة وبدأ العبوس يرتسم على تعابير وجهه حتى اضطر غولدموند إلى التوجه وحده إلى المنزل الخالي، وأعاد معه كل الملابس، وكان يجب غسل كل قطعة أحضرها وتدخينها عند موقد النار قبل أن يوافق روبرت على لمسها.

طبعا لم يجد الشيء الكثير هناك، وجد عمودين متينين، وبلطة صغيرة ودلو حليب، وبضعة أوعية حديدية، وذات يوم أمسك بدجاجتين هاربتين من أحد الحقول. وكانت «لنه» محبوبة وسعيدة وكان الثلاثة يجمعهم الضحك، وهم يرتبون بيتهم الصغير، ويضيفون إليه شيئا جديدا في كل يوم. ولعلهم كانوا يفتقدون الخبز، غير أنهم عثروا بدلا منه على معزاة أخرى، واكتشفوا جذور شمندر في مكان قريب منهم على قطعة أرض صغيرة محروثة. وتوالت الأيام، وانتهى روبرت من إقامة جدار البتولا وكان متينا، وأصبحت أسرتهم أوثر من ذي قبل، وبنوا في الكوخ موقدا حجريا ذا مدخنة. وغير بعيد عنهم كان هناك جدول مياه صافية وعذبة، وكانوا في أغلب الأحيان يغنون وهم يعملون.

ذات مرة، وبينما هم يشربون الحليب معا، ويستحسنون حياتهم

المنزلية، إذا بـ «لنه» تقول فجأة، بصوت حالم:

«ولكن كيف سيكون عليه الحال يا ترى في فصل الشتاء؟».

لم يتمكن أي منهما من إجابتها. ضحك روبرت. وحدق غولدموند أمامه بقلق. وأدركت «لنه» فجأة، أن أيّا منهما لم يكن قد فكر كثيرا في هذا. إن أيّا منهما لم يكن ينوي ضمنا أن يمكث طويلا في هذا المكان، وهكذا فإن بيتهم لم يكن بيتا، وهي ليست أكثر من جوالة مع متشردين وأطرقت.

ثم طلع غولدموند بجواب، كمن يطلق نكتة ليفرح قلب طفلة: «أنت حقا ابنة فلاح، يا «لنه» ومثل هذه الهموم انصرمت أيامها. لا تخافي! فقريبا سوف تتمكنين من العودة إلى البيت، بعد أن ينتهي أجل الوباء وينسى أمره. عندئذ يمكنك أن تذهبي إلى بيتك، أو إلى أي مكان ينتظر عودتك، أو أن ترجعي إلى بلدتك كخادمة، وتضمني لقمة فلنبق هنا معا أقَصُرَ مكوثنا أم طال ما دام في ذلك سعادتنا».

صرخت لنه غاضبة: «وبعد ذلك؟ قريبا سيحل فصل الخريف. وعندئذ سوف تنطلق وحدك. وأنا؟».

أمسك غولدموند بجديلتيها وشدهما برفق.

قال: «يا لك من فتاة حمقاء، أنسيت حفاري القبور وعربات الموتى، والمنازل المتروكة خالية أو ملأى بالجثث، أو تلك الحفرة الكائنة بالقرب من البوابات، والنيران المضطرمة؟ احمدي ربك أنك لست مسجاة في إحدى الحفر، والمطر ينهمر على قميصك. يجب أن تقولي لنفسك «لقد نجوت من هذا، ولا تزال الحياة تجري في أضلعي. ويمكنني أن أغني وأضحك»».

ولم يسرّ هذا الكلام عنها.

تذمرت قائلة: «لكني لا أريد أن أعود، وأنت لن تتركني — كلا!

كيف يمكن أن أعيش سعيدة هنا، إذا كنت أعرف أن كل شيء سينتهي قريبا وينقضي؟».

مرة أخرى أجابها غولدموند برفق، ولكن هذه المرة كان يشوب صوته نبرة تهديد:

«حبيبتي «لنه»، إن ما قلته لتوك قد أقض مضجع كل إنسان حكيم في العالم، وكلهم أوجعوا رؤوسهم بالتفكير فيه. ولكن إذا كان ما لدينا الآن يعجبك، أو لم يكن مناسبا لمثلك، فسوف أضرم النار في الكوخ في هذه اللحظة بالذات، وننطلق كلنا معا. قري عينا يا «لنه»، إني أقول ما يجول في خاطري».

لم ترد، لكن ظلا كان قد امتد على حبهما.

الفصل الرابع عشر

قبل أن ينقضي فصل الصيف تماما كانت حياتهم في الأكواخ قد انتهى أمدها، بشكل غير متوقع. وذات يوم صنع غولدموند مقلاعا، وراح يتسكع به في أرجاء الفسحة، آملا في رمي طائر حجل، أو ما شابه من الصيد، بما أن مخزونهم من الطعام قد شارف على الانتهاء. وكانت «لنه» قد رافقته من أجل جمع التوت البري. وأحيانا كان يمر من طريقها فيرى رأسها مقحما بين الأغصان، يبرز من القميص التحتي الكتاني وياقته البنية . ويسمعها تغني. ومرة اقتربت منه، وأخذا معا يمضغان بعض التوت البري: ثم تابعت طريقها، وغابت عن عينيه. كان يفكر فيها أحيانا برقة وتارة بغضب. فقد كانت قد عادت إلى الحديث عن الخريف، والمستقبل، ومن ثم قالت إنها تعتقد أنها حامل، إنها لن تدعه يرحل عنها أبدا.

راح يفكر «يجب أن أنهي الأمر الآن، قريبا سيرهقني كل هذا، ثم عليّ أن أعود إلى الترحال وحدي، وأن أترك روبرت أيضا، وأعود إلى مدينة الأسقف قبل مجيء فصل الشتاء، إلى المعلم نيقولاس، وهناك سوف أمضي فصل الشتاء، وفي فصل الربيع التالي سوف أبتاع حذاء جيدا، وأواصل مسيري حتى أصل إلى ديرنا في ماريابرون، وأرحب بنرسيس. لا بد أن أراه ثانية، ولو ليوم واحد، أو يومين».

فجأة قطع صوت تسلل أفكاره، وأدرك على الفور مدى تحليق

تفكيره ورغباته بعيدا عن «لنه»، وكأنه قد رحل عنها لتوه. فأنصت برهافة حادة، ومرة أخرى أذهله الضجيج نفسه، وظن أنه يسمع صوت «لنه» تنادي بشكل يدل على حاجة مريرة. وعلى الفور اقترب من المكان، نعم، إنها «لنه». فأسرع خطاه، ولا يزال غاضبا، على الرغم من أن صراخها أثار رعبه وشفقته. وحين أصبح أخيرا على مرأى منها كانت راكعة، أو رابضة، وسط العشب، وثوبها شبه ممزق كاشفا عن جسدها، وهي تصرخ وتقاوم رجلا: فاندفع غولدموند نحوهما، وكل ما يعتمل في ذهنه من حزن، وغضب، واضطراب ينفس عن نفسه بحنق ضد المعتدي. انقض عليه، في الوقت الذي ثبتها على الأرض، وكان ثدياها ينضحان بالدم، والرجل يمسك بها ويتشبث بها بشبق. ارتمى غولدموند عليه، وسحق نحره بيدين نهمتين – غاضبتين، نحر نحيل مهزول، مغطى بالشعر. راح يخنقه بابتهاج، إلى أن تراخى الرجل إرهاقا. وظل قابضا على عدوه المستسلم، المتراخي، ويجره على الأرض إلى مكان حيث حواف رمادية لحجر ناتئ، حاد وعار، فوق الأرض. هنا رفعه عاليا، مرتين، ثلاث مرات، ومن ثم و رغم ثقل وزنه، هشم له رأسه عليه.

رمى بالجثة بعيدا بعنقها المكسور، ولم يكن غضبه قد خمد، فقد كان يود لو أنه عذبه أكثر.

راقبت «لنه» كل هذا بابتهاج. وكان ثدياها غارقين في الدم، ولا تزال ترتعش من رأسها إلى قدميها، وتلهث طلبا للهواء. ثم راحت تتعثر على ركبتيها، وتراقب بانتشاء حبيبها الجبار يجر المعتدي على الأرض، ويخنقه، ويكسر عنقه، ومن ثم يرميه جانبا. وتمدد كأفعى مذبوحة، منهوك القوى مفكك الأوصال، ووجهه الشاحب ذو اللحية الهمجية، والشعر المتلبد، يتدلى بشكل مثير للشفقة على صدره.

وتعثرت «لنه» على قدميها، وهي تهتف بانتصار، لكنها فجأة، وقد استحال لون وجهها شاحبا، والخوف ما يزال يهز أعضاءها، أصابها الإعياء، وسقطت فوق شجيرات عنب الأحراج مغشيا عليها. لكنها سرعان ما أفاقت وقادها غولدموند إلى الكوخ، وهناك غسلت الدماء عن ثدييها اللذين كانا ممتلئين بالخدوش، وعلى أحدهما آثار أسنان رجلّ. ذهل روبرت من تلك المغامرة وتلهف لسماع تفاصيل عن القتال.

«أتقول إن رقبته قد كسرت؟ رائع، يا غولدموند، إن كل الرجال يخافونك».

لم يكن لدى غولدموند رغبة في قول المزيد. فقد خمد غضبه، وحالما غادر الجثة الرابضة أخذ يفكر في فيكتور، السكير المسكين، الميت، وها هنا رجل ثان يموت على يديه. ولكي يتخلص من روبرت أجابه:

«والآن، جاء دورك لتقوم بعمل ما، هيا، ادفنه. وإذا صعب عليك أن تحفر له حفرة، جره حتى البركة وارمه بين عيدان القصب، أو غطه جيدا بالتراب والحجارة».

لم يقبل روبرت بالقيام بأي من هذا، ولن ينقل أية جثة. كيف يمكن التأكد من أن الجثة لن تعديه بالوباء؟.

كانت «لنه» قد استلقت في الكوخ، وكان موضع العض على ثديها لا يزال ينبض ويلتهب. ومع ذلك، فسرعان ما تحسن حالها. ونهضت ونفخت نارها، وسخنت حليب الماعز لتناول عشائهم. كانت مفعمة بالمرح، ومع ذلك أرسلاها لتأوي إلى النوم، فأطاعت كما الحمل، فقد كانت تكن إعجابا عميقا جدا بغولدموند.

غير أنه كان مكفهرا، ولم يقل شيئا. ولما كان روبرت يعرف تقلب مزاجه، تركه وشأنه. وعندما انضم غولدموند ، في وقت لاحق من

تلك الليلة، إلى «لنه» على فراش القش، مال عليها، وأخذ ينصت إلى تردد أنفاسها. كانت نائمة. وسكن ينهشه القلق، ويفكر في فيكتور، ويتملكه توق لينهض ويرحل بعيدا عن الإثنين الباقيين، شاعرا بأنه حانت نهاية العبث داخل المنازل.

بيد أن أمرا واحدا أطلق عنان أفكاره. لقد لاحظ في عيني «لنه» نظرة، وهي تراقبه أثناء رميه للفلاح المخنوق جانبا. كانت شيئا جديرا بالملاحظة، وأدرك أنه لن ينساها أبدا. ففي تينك العينين الواسعتين، الممسوستين بالرعب، والمبتهجتين، كان هناك ومضة كبرياء منتصرة، وهج فسق مشبوب وعميق، كما لم يره أو يتخيله على وجوه النساء. ولعله، بعد ذلك بسنين عديدة عندما جاهد كي يستعيد تلك النظرة بالذات، لم يتذكر وجه «لنه». كانت تلك النظرة الفريدة كافية كي تضفي على وجه مهاجمها القروي رعبا وجمالا. ولم تر عيناه على مدى شهور طويلة ما يثير الفكرة القائلة «يجب نحت هذا»، أما مع هذه، فقد عادت إلى ذهنه الرغبة في الرسم ، وبنوع من الرعب الشاحب..

بما أن النوم جافاه فقد نهض أخيرا وخرج. كان الجو باردا، والنسيم يهب عليلا على أشجار البتولا. وراح يتمشى في المكان وسط الظلام، واقترب ليرتاح على حجر، محتارا في أفكاره غارقا في حزنه. كان يتعذب من أجل فيكتور، ومن أجل الرجل الذي قتله في هذا اليوم، يتعذب لفقدانه براءته، جمال روحه الطفولي النقي. أمن أجل هذا تحرر من الدير، وترك نرسيس، وسبب ألما مبرحا للمعلم نيقولاس، بل إنه استنكف عن الزواج من الجميلة ليسبت – ألكي يعيش حياة الفجر في أرض بور، ويطارد الماشية الهاربة خلال الغابة، ويمحق حياة بائسة على الحجارة. أكان لكل هذا أي معنى أو قيمة؟ وارتد إلى الخلف، وراح

يحدق عاليا إلى سحب الليل الشاحبة، وأطال التحديق حتى غادرته أفكاره كلها. ولم يدر إن كان يراقب السحب أم كان ينعم النظر في قلب ظلمة عقله. ثم، وفي اللحظة التي غلبه النوم فيها، توهج أمامه، وسط السماء المتراكمة بالسحب، وكوميض البرق، الوجه الهائل الشاحب لحواء، ورموش عينيها الثقيلة، تتدلى عليه. وفجأة انفتحت تانك العينان واسعا، عينان عميقتان، مملوءتان باللهفة وبشبق القتل. ونام غولدموند، إلى أن بلله الندى.

في اليوم التالي مرضت «لنه». وجعلاها تستلقي، وكان أمامهما الكثير من العمل. وفي صباح ذلك اليوم الباكر شاهد روبرت خروفين في الغابة، فرّا حالما اقترب منهما، وعاد ليحضر غولدموند معه، وطاردا الخروفين حتى انتصف النهار، وأخيرا نجحا في الإيقاع بأحدهما. وعندما وصلا إلى كوخهما مع الحيوان، قرابة المساء، كانا مرهقين تماما.

كانت «لنه» تشعر بأنّ مرضها يقربها من الموت، فمال عليها غولدموند وتحسس جسدها، فعثر على بثور الوباء. واحتفظ بهذه المعلومة لنفسه، غير أن روبرت ارتاب في الأمر على الفور، وذلك عندما سمع أنّ «لنه» ما تزال مريضة، فرفض أن يلج إلى الداخل. وقال إن عليه أن يجد له مكانا في الغابة لينام فيه، وإنّه سيأخذ المعزاة معه بما أنّها يمكن أن تصاب هي الأخرى بالوباء.

صرخ غولدموند «اذهب إلى الشيطان، ولا ترني وجهك بعد الآن».

لكنه تمسك بالمعزاة، وقادها إلى داخل الكوخ، ووضعها خلف جدار أغصان البتولا. وابتعد روبرت بهدوء، بدون المعزاة، والرعب يملؤه، رعب من الوباء، ورعب من غولدموند، ورعب من العزلة ومن الليل. واستلقى لينام، في مكان قريب، داخل الغابة.

قال غولدموند لـ«لنه»:

«لا تخافي. أنا معك. سوف تتحسنين سريعا».

هزت رأسها.

«احذر يا حبيبي. لا تقترب مني كثيرا. ولا تتعب نفسك في مواساتي، يجب أن أموت، والأفضل أن أموت الآن على أن أرى مكانا خاليا إلى جانبي، وأنك رحلت عني إلى الأبد. إني في كل يوم أفكر في هذا وينتابني الخوف. لا، أفضل الموت».

بحلول الصباح كان حالهما قد ساء. وكان غولدموند يحضر لها ماء لتشرب، ومن ثم أخلد إلى النوم مدة ساعة أو ساعتين. وحالما تسلل نور الشمس إلى داخل الكوخ، كان الموت قد بات واضحا على وجهها، بدا شديد النعومة والذبول. فذهب إلى الخارج ليستنشق الهواء وليشاهد السماء. كان جذعا شجرتي التنوب الكثيرا العقد القائمان عند حافة الغابة قد بدءا يتلألآن في الشمس الشارقة، وبدا الصباح عذبا ورائقا، وكانت التلال النائية محجوبة بالضباب. وابتعد بضع خطوات أخر، ومط جسمه المتعب، وأخذ نفسا عميقا. لقد كان العالم جميلا في هذا الصباح الحزين. وقريبا سوف ينطلق من جديد في طريقه. لقد حان وقت الرحيل.

ناداه روبرت من قلب الغابة. هل تحسنت حالها؟ كان يمكن أن يمكث معه لولا الوباء. يجب أن لا يغضب غولدموند منه، لقد احتفظ بالخروفين معه طوال الليل.

صرخ غولدموند «إذهب إلى الجحيم، ومعك الخروفان. إن «لنه» تشارف على الموت، وأنا مصاب بالمرض»، وقد اخترع هذه الأخيرة ليتخلص منه. قد يكون روبرت هذا غير مؤذ على الإطلاق، لكن غولدموند لم يعد يرغب في صحبته. لقد كان شديد الجبن والخسة،

ولم ينسجم مع ساعة الموت والرعب هذه. ورحل روبرت ولم يعد قط. وعندما دخل الكوخ كانت «لنه» نائمة. وهو أيضا أغفى قليلا، وفي الحلم رأى فرسه «بليس»، وشجرة الجوز الجميلة في الدير. وفي هذا الحلم شعر أنه ينظر عبر صحراء لا حدود لها، إلى منزل لا يزال عزيزا على قلبه. وجرت الدموع على وجنتيه، وعلى لحيته الذهبية اللون عندما استيقظ.

سمع «لنه» تتكلم، بصوت ضعيف. كانت تنادي عليه، واعتدل في جلسته على القش، لكنها لم تكن تخاطب أحدا، كانت فقط تغمغم ببعض الكلمات لنفسها، كلمات حب وكلمات نزع، كانت تضحك مع نفسها وتتنهد بعمق، إلى أن أخذت أخيرا تتشنج، وشيئا فشيئا خمد صوتها. نهض غولدموند واقفا ثم مال فوق وجهها الموبوء، وراح يتمعن في كل قسماته بلهفة مريرة، ويتتبع تشكيلاته، الملتوية والمختلطة معا، من خلال أنفاس الغناء المرتعشة. وهتف قلبه: «لنه» الحلوة، يا حلوتي، أيتها الرقيقة، الجميلة - هل ستتركيني أنت أيضا؟ أأنت أيضا ضجرت مني بهذه السرعة؟».

كره أن يفر ويتركها. أن يرحل بعيدا، ويستنشق الهواء بعمق، ويرهق نفسه ويرى مشاهد جديدة، سوف يخفف من ألمه، بل ربما عمل أيضا على مواساة أساه. غير أنه لم يقو على مغادرة الفتاة وتركها لتموت وحيدة.

لم يعد بوسع «لنه» أن تشرب المزيد من حليب الماعز، فأخذ هو يشرب كفايته، بما أنه لم يعد لديهما أي طعام آخر. وفي مرات عديدة كان يقود المعزاة إلى جانب «لنه»، ويهمس لها بالعبارات الرقيقة، ويحدق عن قرب في وجهها، يراقبها وهي تحتضر، محزونا ولكن منتبها. كانت لا تزال واعية، أحيانا تنام، ولكن عندما تفيق بالكاد

تستطيع أن تفتح عينيها قليلا، فقد كان جفناها ثقيلين جدا ورخوين. وكأن هذه الفتاة الشابة تشيخ أكثر فأكثر ساعة بعد ساعة، وتتشكل التجاعيد حول عينيها ومنخريها. وأعلى جيدها الغض النضر برز الوجه الذي يذوي بسرعة وكأنه لجدّة. لم تكن تتكلم إلا نادرا، تقول فقط «غولدموند» أو «آه، يا حبيب..»، وتجاهد لترطب شفتيها المتورمتين الزرقاوين بلسانها. وعندئذ كان يقرب لها إبريق الماء من فمها.

ماتت أثناء الليل، دون أي شكوى، أطلقت شهقة، واحدة قصيرة، وبعدها لم يخرج من جسدها أي نفس. وسرت رعشة على امتداد بشرتها. هذا المشهد ملأ قلبه بالأسى، وهو يتذكر السمك المحتضر في السوق العامة، الذي طالما شهد موته وأشفق عليه. هكذا كان بدوره يموت: تشنج وحيد، ثم ارتعاشة خفيفة، سريعة، تسري على امتداد الأجساد من أقصاها إلى أدناها، مزيلا عنها بريقها، ومعه الحياة. ركع ولازمها بعض الوقت، ومن ثم هرع إلى الهواء الطلق، ليستلقي على ؤرلاس وتذكر المعزاة، وعاد ليحضرها. كانت قد تمشت قليلا ثم استلقت على العشب. فتمدد إلى جانبها، وتوسد خاصرتها، واستغرق في النوم حتى انبلاج الصباح. ثم ولج الكوخ للمرة الأخيرة، وهناك على الجانب القريب من سياج شجر السنط، ألقى نظرة أخيرة على وجه «لنه»، كان يكره أن يتخلى عن الميتة، فذهب مرة أخرى ليجمع ملء ذراع من السرخس والأوراق والأغصان اليابسة، ورمى بها إلى الكوخ، ثم أضرم نارا، وأحرقه كله. ولم يأخذ من الكوخ نفسه غير حجر القدح وقطعة الفولاذ. وعلى الفور تلظى سياج السنط والتهمته النيران.

في الخارج وقف يراقبه وهو يحترق، ووهج النيران يسفع وجهه، إلى أن أمسك اللهب أخيرا بالسقف، وانهارت الدعامة الأولى نحو

الداخل. راحت المعزاة تتقافز من حوله، وهي تثغو مسعورة. وكان من الأفضل ذبح الحيوان الصغير وشيه ليأكل قطعة من لحم المعزاة، ليدعم قواه من أجل مواصلة طَرْق الدروب، لكن قلبه لم يطاوعه. فقاد المعزاة إلى الأدغال، يتبعه الدخان المنبعث من محرقة «لنه»، وهو في طريقه خلال الغابة. ولم يكن قط قد انطلق في طريقه من قبل وهو يحمل كل ذاك الحزن في قلبه.

لكن ما كان ينتظر عينيه عندئذ كان أسوأ، أسوأ بكثير، مما تصور. وبدأ بأوائل المزارع والقرى، ولم يتوقف عن المسير، مهما ابتعد، وكان أشد فظاعة وغرابة حين توغل فيه. كان يخيم فوق هذه الأرض غمامة كثيفة من الدمار، غلالة من القسوة والرعب، وظلمة الروح. والأسوأ لم يكن المنازل الخالية، ولا كلاب فناء المزرعة النافقة جوعا أو تتعفن وهي موثوقة بسلاسلها، ولا الموتى الموزعين على أرجاء الأرض، والأطفال المتسولين، وحفر الموت عند بوابات المدينة. إن ما كان أسوأ حالا من الموتى بكثير هم الأحياء، الذين بدوا كأن أرواحهم قد انتزعت منهم بحمل هائل من الرعب والخوف المسعور من النهاية المرتقبة. كانت قصص شنيعة، غريبة تلقاه على كلا الجانبين، أهال فروا هاربين من أطفالهم، وأزواج من زوجاتهم العليلات، حالما أدركوا أنهن موبوءات. وكان ناقلو الموتى، وخدم المستشفى يصدرون الأحكام كما الجلادين، وينهبون بيوت الهالكين، وإذا شاؤوا يتركون الموتى أشلاءً، وينتزعون المحتضرين من أسرّتهم ويرمون بهم، ، في عربات الموت وهم أحياء. وهائمون على وجوههم، مجانين، يغمغمون، يجوبون الطرقات، يتجنبون كل اتصال مع بقية الناس. يطاردهم على الدوام التفكير في الموت. وآخرون، مصممون على العيش، يأتلفون، ما داموا قادرين على ذلك في فرق مرحة، يرقصون ويفسقون، والموت يعزف

لهم. ويتجمع مشردون ضائعون عند بوابات المقابر، أو يزحفون إلى منازل خالية، منهوبة. والأفدح من ذلك أن كل إنسان كان يفتش عن كبش محرقة، ليزيح عن كاهله هذا العبء الرهيب من الغم، وكلّ لديه حكاية عن مخلوق ملعون جلب ذنبه هذا البلاء على البلاد، واستحضر خبثه الوباء. كانوا يقولون لغولدموند إن قوما شياطين يكرهونهم قد نشروا الموت هنا وهناك، وعصروا السم من بثور الجثث ليلطخوا به الجدران وعتبات الأبواب والنوافذ، ويلوثوا منابع الآبار والمواشي. وكل من يتعرض لهذا يضيع، إلا إذا وجدوا من يحذرهم فيتمكنون من الفرار، بما أن العدالة والرعاع سرعان ما يجعلون منهم هدفا. وقال الفقراء: إن الأغنياء هم السبب، بينما قال الكثيرون إن السبب هم اليهود، والبعض قال إنهم الإيطاليون، أو الطفيليون. وفي مدينة واحدة، شاهد غولدموند، واشمئزاز عنيف يجيش في قلبه ، اليهود وهم يشوون بسبب يهوديتهم، ومنزلا يلتقط النيران من منزل آخر، بينما أخذ الرعاع يصخبون وقد شكلوا حلقة، إعادة الهاربين إلى ألسنة النار. وكان الأبرياء، في كل مكان من معمعة الحقد والأسى هذه، يُحرقون، ويُعذبون أو يُقضى عليهم. وشعر غولدموند أن العالم قد تسمّم بالفعل، بما أنه لم يتبق على الأرض لا براءة و لافرح، لا شرف ولا حب. وبما أن نعيب الموت كانت أصداؤه تتردد في كل مكان، فقد انضم غولدموند إلى أشد الراقصين مرحا: لقد تعلم أن يستمع إلى أنغامهم على مسافات شاسعة، وبات يستطيع أن يداعب أوتار القيثارة على إيقاع وثبهم، أو أن يرقص هو نفسه طوال الليل على ضوء مشاعل خشب صنوبر الرتينج.

لم يتملّكه الخوف. وقد كان ذاق ذات مرة أعمق رعب من الموت في ليلة شتائية وتحت ظلال أشجار التنوب، حين أطبقت أصابع فيكتور

على حنجرته. ومنذ ذلك الحين تعرف عليه، في المستنقعات، وسط الثلوج، وعند الجوع خلال أيام طويلة من التجوال. لكن ذاك كان موتا من النوع الذي يمكن للإنسان أن يصارعه، أن يتخذ الحيطة منه، وهكذا صارع الموت، بأعضاء منهكة، بأيد ترتجف وبطن تتآكل من الجوع. لا أحد يمكنه أن يكافح موت الوباء هذا، عليهم أن يدعوه ينفّس عن ثورة غضبه، وأن يستسلموا له، وكان غولدموند قد استسلم منذ زمن طويل. لم يكن خائفا، بما أنه قد بدا له أنه لم يتبق له أي شيء في الحياة، بعد أن أعطى ظهره لجسد «لنه» وتحول أياما كثيرة في مملكة العظام. غير أن توقا حادا غريبا أبقاه يقظا. لم يتعب قط من مراقبة حاصد الأرواح يقوم بعمله، أو من الإنصات إلى أغنية عبور الحياة. لم يعد هناك ما يرعب ناظريه، في كل مكان كان يستولي عليه الشغف الهادئ نفسه للمرور، منتبها بعينين يقظتين إلى كل خطوة يخطوها على طول الطريق التي تخترق الجحيم. كان يأكل خبزا ملوثا في منازل هالكة، ويغني ويشارك ساكنيها خمرهم مع مراهنين، ويقطف أزهار الشهوة السريعة الذبول، ويمعن النظر في عيون النسوة المحدقة،وفي عيون السكارى المزججة البكماء، وفي عيون المحتضرين، التي يتغشىها الموت بطيئا. ويحب أولئك الموسات المحمومات، اليائسات شبه الميتات، ومن أجل الحصول على صحن من الحساء يساعد في إخراج الجثث، ويجرف التربة مقابل قطعتي نقود صغيرتين. كان العالم قد أضحى همجيا ويعمه الظلام. وكان الموت يعوي بغنائه في أذني غولدموند المرهفتين، وتميّز أنغام لهفة لا تشبع.

كانت وجهته مدينة المعلم نيقولاس، يحدوه شوقه للعودة إلى العمل هناك، رغم أن الطريق كانت طويلة ومحفوفة بالخوف وتخترق عالما يذوي، انطفأ فيه النور. وتابع مسيره المجهد حزينا، تهدهده أغاني

الموت، لكنه ظل منتبها إلى أصوات الرجال النادبة، الحزينة، ولكن المتقدة بالرغبة، ولم يخفّ تلهفه لرؤية كل شيء.

في أحد الأديرة رأى لوحة جدارية حدية الرسم، وتوقف عندها مطولا قبل أن يبتعد عنها. كانت بمثابة رقصة الموت مرسومة على الجدار: عظام شاحبة ترقص رقصة شعبية فوق الأرض، لملك، وأسقف، ورئيس رهبان، وكونت، وفارس، وطفيلي، وفلاح، وقن، استوعبهم جميعا – وهياكل عظمية تقودهم، وهي تنفخ في مزامير عبارة عن عظام مجوفة. وتلقت عينا غولدموند الفضوليتان هذه اللوحة. ها هو أحد رفاقه المجهولين في المهنة قد استنبط الدرس مما شاهد من الموت القاتم، وصارخا بصوت حاد يحذر من أن الجميع يجب أن يموتوا، في آذان الناس. لقد كانت موعظة جيدة، جيدة جدا، هذه اللوحة الجدارية: لقد أحسن الرجل استيعاب ما رآه، ولوحته الهمجية تبدو كأنها تئن وتقرقع. ومع ذلك فإن غولدموند شعر بها بشكل مغاير. رأى أمامه ضرورة الموت مرسومة صارمة ولا مفر منها. كان غولدموند يود لو يرى لوحة أخرى. لقد كان لأغنية الموت الأعنف صدى مختلف داخله، صوت ينادي بالعودة إلى الأرض، إلى الأم، وأنغامها ليست خشنة شاحبة، بل عذبة مغرية. أما هنا، حيث الموت يمد يده إلى الحياة، فهو يأتي كمحارب مدجج بالحديد. ومع ذلك فصوته يحتوي على أنغام أخرى، على أصوات عميقة، محبة، رقيقة كفصل خريف مشبع حتى أن مصباح الحياة الخافت القريب منه بدا ساطعا بضياء دافئ مشرق. قد يكون الموت بالنسبة إلى الآخرين هو قائد عسكري، قاض، جلاد، كاهن صارم – أما بالنسبة إلى غولدموند فالموت كان أيضا أما وعشيقة، يدندن بمغريات الحياة، ويشيع فيه رعشة الرغبة.

بعد أن غادر رقصة الموت المرسومة، ومضى في طريقه، شعر باشتياق أكبر إلى العمل، وإلى المعلم نيقولاس. ومع ذلك فكل مكان مر به كان فيه ما يعيق تقدمه، فثمة مشاهد جديدة للموت، وتجربة جديدة، وكان يشتم روائحها القوية الكريهة بمنخرين متلهفين. ووجها بعد وجه كان يطلب ساعة شفقة أو فضول أو شهرا من هذا المراقب. وعلى مدى ثلاثة أيام ظل طفل قروي صغير ينشج يسير إلى جانبه، وحمله ساعات طوالا على ظهره، كان طفلا متشردا، يكاد يموت من الجوع في الخامسة أو السادسة من عمره، وجد من الصعب عليه أن يتخلص منه. وفي نهاية المطاف تركه في رعاية زوجة حارق فحم في إحدى الغابات، وكان زوجها قد توفي، وكانت ترغب بوجود دفء حي ليواسيها. وعلى مدى أميال عرج كلب ضال في أعقابه، وهو يأكل من يده، ويدفئ نومه، وذات صباح لدى استيقاظه، وجد أنه تابع طريقه وحده. فحزن لذلك، لأنه كان قد اعتاد على التحدث إلى الكلب. فكان يطرح أفكاره، طوال ساعات، حول خبث البشر، أمامه، وحول وجود الله، وعن مهنة النحات، وعن ثديي ابنة أحد الفرسان وشفتيها الغضتين. جوليا، التي كان يعرفها منذ زمن بعيد، أيام شبابه الأولى، وكالعديد من الجوالين الآخرين في خضم الموت أصاب غولدموند شيء من الجنون. لا أحد في هذه الأرض المبتلية بالوباء كان يمتلك كامل قواه العقلية، والكثير منهم كان فاقدا لعقله تماما. وربما كانت ريبيكا، اليهودية الشابة، الفتاة السمراء الجميلة، ذات العينين البراقتين، التي أمضى معها بعض الأيام على الطرقات، ربما كانت مجنونة.

كان قد عثر عليها في الحقول، بعيدا جدا عن بوابات إحدى البلدان الصغيرة، بالقرب من جمر كومة من أزناد الخشب المحترقة تتمايل وتنتحب، وتلطم وجهها، وتنتف شعرها الأسود الطويل. وكان

رك قلبه، فقد بدا فائق الجمال، فقبض على يديها
ساكهما، وهو يكلم الفتاة ولاحظ وهو يواسيها، أن
نا التكوين. كانت تتكلم بهذيان وحزن على والدها
ن البلدة حتى أضحى رمادا، بالإضافة إلى خمسة
يهود. وقد فرت، لكنها عادت بعد أن يئست. وها
ل من فرط أساها لأنها لم تدعهم يحرقونها معه.
ها بصبر، وهو يقول لها كلمات رقيقة، ويهمس لها
ماية، ويعرض عليها أن يقوم بكل ما في وسعه.
اعدتها في دفن والدها، وأخذا يجمعان كل العظام
، وحملاها سرا إلى الحقول، وهناك وضعاها في
باطن الأرض. ثم حل الليل، وراح غولدموند يفتش عن مكان للنوم، فكوم من أجل الفتاة مجموعة من أخشاب السنديان الصغيرة لتكون سريرا، ووعد بحراستها أثناء نومها، وأنصت إليها وهي مستلقية تنشج بالبكاء، وإلى أن أسكت النوم أخيرا بكاءها. وهو أيضا نام لبعض الوقت، وفي الصباح أخذ يلاطفها، ويقول لها إنها لا يمكن أن تبقى هناك وحدها، وإنهم سوف يعرفون أنها يهودية وسوف تضرب حتى الموت، أو قد ينقضّ عليها المتشردون ويغتصبونها، ثم، إن هناك ذئابا وغجرا في الغابة. أما هو، كما قال، فسوف يكون رفيقا لها، ويحميها من الحيوانات والبشر، لأنها بعثت الشفقة في قلبه، إن لديه عينين في رأسه ويرى مبلغ جمالها، وإنه لن يدع هذين الكتفين البيضاوين وهاتين العينين البراقتين طعاما للذئاب، أو تحرق حتى تغدو رمادا على المحرقة. وأنصتت إليه مقطبة الجبين حتى انتهى، ومن ثم قفزت واقفة على قدميها وهربت من أمامه. وكان عليه أن يلاحقها، وأمسك بها لكي يجبرها على سماعه.

قال: «أنتِ تدركين يا ريبيكا أني لا أنوي إيذاءك. أنتِ حزينة من أجل والدك، ولا ترغبين في سماع أي كلمة حب. ولكن غداً، أو بعد غد، أو بعده، سوف أعود إلى سؤالك، وحتى ذلك الحين سوف أحميك، وسأزودك بالطعام، ولن أمسك. احزني قدر ما تشائين! يمكنك أن تكوني حزينة أو مرحة معي، لكنك لن تفعلي دائما ما تريدين».

كل هذا الكلام ذهب أدراج الرياح. فقد قالت في نوبة حنق حرون إنها لن تفعل أي شيء من شأنه أن يعيد الفرح إليها. وسوف تفعل كل ما يمكن أن يجلب لها أسوأ ألم. وكلما أسرعت الذئاب بالقضاء عليها، كان ذلك مصدر رضا أكبر لها. فليذهب هو إلى شأنه، لن ينالها. لقد قال لتوه ما يكفي ويزيد.

أجاب: «ألا ترين يا حلوتي أن الموت مستشري في كل مكان – وأن الناس يموتون في كل المنازل في كل بلدة، وأن العالم كله لم يكن إلا تجسيدا لأساهم وحاجتهم. فكله نشأ في الألم الهائل نفسه. اسمعي – إن الموت سرعان ما سيأخذنا نحن أيضا، سوف نرتمي ونتعفن في الحقول، وسوف تتراهن الذئاب على الفوز بعظامنا. فلنعش الآن ما دام بإمكاننا، وليحب أحدنا الآخر. آه. يا حبيبتي، سيكون مصيرا موسفا لجيدك الناصع البياض، ولقدميك الصغيرتين. تعالي معي الآن يا حبيبتي، وسأظل أحرسك وأحميك».

توسل إليها مطولا، إلى أن تذكر فجأة أنه لا فائدة من اللجوء إلى الكلام فقط للإقناع، أو إلى الحجج والبراهين. فلزم الصمت، وراح يحدق إليها باكتئاب. كان وجهها الأسمر المتكبرينم عن الحقد.

أخيرا قالت بصوت يعبر عن الكراهية والسخرية: «هكذا أنتم جميعا، جميعكم سواء أيها المسيحيون. أولا تساعد ابنة على دفن والدهاالذي ذبحته أنت وأمثالك، والذي إصبعه الصغير كان أفضل

منكم جميعا - وحالما مات أصبح من المتوجب أن تضاجع ابنته، وأن ترافقك في ترحالك. هكذا أنتم جميعا. في أول الأمر ظننت أنك ربما تكون رجلا طيبا: ولكن كيف يمكن لأي منكم أن يكون طيبا؟ أوه، ما أنت إلا خنزير».

بينما كانت تقول كل هذا كان غولدموند يراقب عينيها، ورأى شيئا أعمق من الكراهية فيهما، شيئا هزه من الأعماق. رأى الموت مرة أخرى، هناك في عينيها. ليس الموت الذي لا مفر منه، بل حرية الموت، إرادته، التوق إليه، الرد الهادئ، الرقيق، الراضخ لنداء أمنا، الأرض.

قال لها برقة شديدة: «قد تكونين على حق يا ريبيكا، ربما أنا رجل خبيث، على الرغم من أني لم أرد إلا الخير لك. سامحيني. لم أفهم إلا للتو».

خلع قلنسوته وانحنى لها انحناءة منخفضة جدا، وكأنما لأميرة، ثم غادرها، بقلب موجوع. وظلت روحه لفترة طويلة مترعة بالألم، ولم يكن يتحمل أن يتكلم مع أي شخص. وعلى الرغم من التباين الذي كان قائما بينهما، فإن اليهودية المسكينة، ذكرته، بشكل غريب، بليديا، ابنة الفارس. إن ما يسبب الحزن للرجل أن يعشق مثل هاتين المرأتين، ومع ذلك، بدا لغولدموند، لوهلة، أن هاتين المرأتين هماالوحيدتين اللتين عشقهما، ليديا المسكينة، القلقة، وهذه الفتاة اليهودية بسخريتها المرة، وبنفورها.

ظل أياما طويلة وذكرى هذه الفتاة السمراء لا تفارقه، وظل على مدى ليال كثيرة بعدها يحلم بالجمال اللدن الناري لجسمها، الذي بدا أنه خلق ليتذوق كل المتع، إلا أنه وهب للموت. حرام أن تكون تلك الشفتين والعينين من نصيب «الخنزير». ومن ثم تُرمى لتتعفن في الحقول. أما من قوة في العالم، أما من سحر، ينقذ برعم الفرح

النفيس الرقيق هذا؟.

نعم، كان هناك مثل ذاك السحر. يجب إعادة تشكيل هذا الجمال في روحه، يجب أن تنفخ يداه الروح فيه، وتحفظه. ووعى بابتهاج وخوف كم ملأت هذه الرحلة الطويلة المرعبة بالصور والأشكال ذهنه وحفرتها على قلبه. واحتشدت الصيغ وتصادمت داخله، حتى أنه تاق إلى السكينة لكي يراها جميعا، ويحررها إلى بقاء حي. وتابع طريقه وهو أكثر توقا، أكثر نشاطا، وأكثر فضولا، وبعينين منقبتين، وأحاسيس مشبوبة، لكنه بات الآن شديد التوق إلى الغضار والخشب والورق، والفحم، وإلى ورشة العمل.

مضى الصيف. وأكد له كثيرون أنه مع مجيء فصل الصيف، وأوائل الشتاء، سيكون الوباء قد انتهى. وها قد حل الخريف، ولكن دون أن يحمل معه أي فرح. ووصل غولدموند إلى بلد خال، مهجور، لا يوجد فيه أحد ليجمع محاصيله، حتى أن الثمار كانت تسقط عن أشجارها، وتغطي العشب. وثمة أماكن عديدة كانت تُنهب من قبل عصابات همجية أتت من البلدة، تكاثرت لتسرق كل شيء. وشيئا فشيئا اقترب من هدفه، وغالبا ما كان ينتابه الخوف، خلال تلك الأيام الأخيرة، من أن يجد نفسه مصابا بالوباء، ويضطر إلى الموت داخل زريبة أبقار. الآن بات يخشى الموت، وينفر منه، يجب أن يعيش، أن يتذوق المتعة الفريدة في الوقوف مرة أخرى أمام الروسم الخشبي، وتكريس نفسه لمهنة النحات. الآن، ولأول مرة في حياته، أضحت الإمبراطورية مترامية الأطراف والعالم بالنسبة إليه بلا حدود: لم يعد بإمكان أي بلد جميل أن يلهيه، ولا أي حسناء جميلة أن تؤخره، أكثر من ليلة واحدة.

ذات يوم وصل إلى كنيسة ينتصب على واجهتها، داخل مشاك

عميقة، صفوف كثيرة من التماثيل التي تحملها أعمدة حفرت في الحجر، نحتت في زمن سحيق، تماثيل لرسل، وشهداء، كالتي كان يشاهدها من قبل، حيث كان في دير كنيسة ماريابرون. وفي طفولته كان يستمد من تأملها متعة خاصة ، وإن لم تكن تثيره بعمق. كانت تبدو له جميلة وقيّمة، ولكنها مغالية قليلا في وجودها ومهابتها، ورسميتها. وفيما بعد في نهاية أولى جولاته الكبرى، عندما تأثر حتى الفرح والتعجب من منحوتة المعلم نيقولاس الجميلة والحزينة «أم الرب» بات يجد تلك التماثيل العتيقة، الرصينة، فظة، وثقيلة الوقع، وشديدة الجمود والنأي عن الحياة، وينظر إليها بشيء من الازدراء، وأصبح يجد أسلوب المعلم نيقولاس الجديد هذا أكثر حيوية، وعمقا، وفنا فذا أكثر.

ولكن مع عودته الآن إليها، بعد مروره بتجربة طويلة، وقد ترك العالم ندوبه على روحه، التي أضحت مترعة بالحاجة الملحة إلى السكينة والتفكير، فإن أشكالها العتيقة، الصارمة، أصبحت فجأة تؤثر فيه، بقوة وطاقة لم يعهدهما من قبل. توقف بورع أمام جلالها، إذ لا يزال يخفق فيها قلب زمن مضى، ومخاوف العديد من الموتى ومباهجهم، الصامدين على امتداد القرون، بخطوط قوية تتحدى هشاشة الزمن. وتسلل إلى قلبه وهو يحدق فيها إحساس عميق نحوها بالرهبة والحب. ومسته الرعشة وهو يفكر في حياته المبددة، الضائعة. وفعل ما لم يفعله طوال تلك السنين الكثيرة: اتّهم نفسه، وتاق إلى التوبة، سعى إلى الاعتراف وفتش عن كاهن.

لكن، على الرغم من أنه كان هناك في الكنيسة العديد من مقاعد الاعتراف إلا أنه لم يكن هناك أي كاهن جالس على أي منها: لقد ماتوا، أو هم منطرحون في التكيات: لقد فروا بعيدا، خشية الإصابة

بالوباء. كان صحن الكنيسة خاليا، وكانت خطى غولدموند تضج بين العقود والقناطر. ركع على أحد المقاعد الخالية، وأغمض عينيه. ثم بدأ يهمس من خلال الشعرية:

«إلهي، انظر ما حدث لي. لقد عدت إليك، رجل شرير، لا نفع يرجى منه. بددت شبابي، كأي مبذر، ولم يتبق لي شيء يذكر. لقد قتلت، وسرقت، وفسقت. تكاسلت، وأكلت خبز الآخرين. لماذا خلقتنا هكذا يا رب؟ لماذا تقودنا إلى مثل هذه الدروب؟ ألسنا أبناءك؟ ألم يذهب ابنك إلى الموت فداء لنا؟ أليس هناك من قديسين وملائكة ليحرسونا؟ أم أن كل هذا مجرد حزمة من الحكايا اخترعت لإبقاء الأطفال هادئين، وليضحك عليها الكهّان فيما بينهم؟ إن أعمالك تحيرني، أيها الرب الآب. لقد جعلت العالم في حالة يرثى لها، وها أنت الآن تسيء إدارته. لقد رأيت شوارع ومنازل مملوءة بالجثث. رأيت الأغنياء يوصدون أبوابهم ويفرون، تاركين الفقراء، إخوتهم، ليتعفنوا دون دفن. رأيت كيف يخشى البشر بعضهم بعضا، كيف تضرب أعناق اليهود كما تذبح الماشية. رأيت الكثير من الأبرياء يتألمون ويموتون، والكثير من الأشرار يتمرغون في كسلهم. هل أشحت بوجهك عنا، وتخليت عنا تماما؟ أليس لمخلوقاتك أي قيمة عندك؟ أتريد للبشر أن يُبادوا من على وجه الأرض؟».

خرج من البوابات الضخمة وهو يتنهد: تعلوه صفوف خرساء من القديسين والملائكة، كل ينتصب عاليا في مساحته الضيقة، ثابتين في التضاعيف الجامدة الطويلة لأرديتهم، لا يتغيرون، لا يمكن بلوغهم، وأضخم من البشر. صارمين وخرسا، داخل مشاكيهم الضيقة، صمّا عن كل سؤال والتماس، ومع ذلك يبدون دائما مواسين، قهرة الموت المنتصرين، المنقذين الصارمين من اليأس، لقد شاهدوا

بجلالهم وجمالهم، أجيالا تنهار. آه، ليت المسكينة ريبيكا كانت مثلهم، والمسكينة «لنه»، المحروقة حتى الرماد في كوخها، والرقيقة المسكينة ليديا، والمعلم نيقولاس! هؤلاء أيضا سوف ينتصبون ذات يوم ويرسخون: قريبا سوف يثبت ذكراهم، التي لا تعني في الوقت الحاضر إلا الحب والأسى، وخوفا واشتياقا لتثبيت أشكالهم. هم أيضا سوف يواسون الأحياء، إحياء بلا إسم ولا تاريخ، وهم مجرد رموز خرساء لأيام إنسانية.

الفصل الخامس عشر

أخيرا وصل إلى نهاية رحلته، ومن خلال البوابة نفسها التي كانت قبل سنين عديدة، حث خطاه مارا من تحتها داخلا للمرة الأولى إلى المدينة بحثا عن معلم حرفي ليتعلم حرفة، عاد غولدموند ليلج موطن اشتياقه. وقد علم أنهم هنا أيضا عانوا من الوباء. ولعله كان لايزال يستوطن المكان. وقد نشأت ثورات ومشاغبات، فأرسل الإمبراطور رجال الأمن لقمعها، وإعادة سيادة القانون، لحماية حياة المواطنين الشرفاء وممتلكاتهم. وكان الأسقف قد غادر مدينته هربا حالما علم أن الوباء قد وصل إليها، وهو الآن يواصل حياته في الإمبراطورية، في إحدى قلاعه. أولى غولدموند انتباهه إلى كل هذه الأقاويل. فليذهب كل شيء، ليته فقط يعثر على مدينة، وعلى ورشة للعمل! ولكن حين وصل إلى البوابات لم يكن هناك أي أثر للوباء، وكان المواطنون يتوقعون عودة أسقفهم، ومعه حياتهم الهادئة، المستقرة، وابتهج لمشاهدة تلك الشوارع من جديد، وطفر قلبه فرحا، وكأنه عائد إلى وطنه الأم، لذا كان عليه أن يتمالك نفسه، وأن يرسم تقطيبة على وجهه.

كان كل شيء كما هو، كما تركه: البوابات، النوافذ الدقيقة، وبرج كنيسة الدير المنخفض والقصير، وبرج كنيسة القديسة مريم الطويل والمستدق، ونواقيس كنيسة القديس لورنس البراقة، النظيفة، وساحة السوق الواسعة الجميلة. آه، ما أحلى الإحساس بأن كل شيء

كان بانتظاره ! ألم يحلم، وهو هناك، أنه عاد ليجد كل شيء قد ذوى، نصف في الرماد، والنصف الآخر مملوء بمنازل غريبة. وكادت الدموع تطفر من عينيه لدى مروره في الشارع، وهو يميز البيوت بيتا إثر بيت. ربما عليه أن يحسد هؤلاء المواطنين على معرفتهم الهادئة، العميقة، وعلى أنهم في وطنهم، يعيشون في أمان وسلام، مستكينين داخل ورش أعمالهم وبيوتهم، مع زوجاتهم وأولادهم، وعمالهم المهرة وجيرانهم.

كان الوقت متأخرا من بعد الظهر، ونور الشمس يمتد ذهبيا على واجهات المنازل، بما تحمله من لافتات الحانات، ولافتات النقابات المهنية، وعلى أبوابها المحفورة، وصفوف أصص الزهور الموضوعة على الشرفات. كان كل شيء يبدو دافئا، لم يكن ثمة ما يذكره بأن الموت قد صب جام غضبه على هذه المنازل الجميلة، مشيعا أقصى حالات الرعب بين الناس. وجرى النهر، بلونه الأخضر الأزرق، هادئا صافيا، كمرور صفحة من الزجاج من تحت الأقواس التي تتردد بينها الأصداء. وجلس غولدموند ليرتاح على حاجز النهر: عميقا تحت طبقات من المياه الرقراقة المائلة في لونها إلى الخضرة، كان السمك المظلل لا يزال ينزلق، أوهامدا لا يأتي بحركة، وقد اتجهت أنوفه بعكس اتجاه التيار، وكان لا يزال ثمة شيء ذهبي باهت يتلألأ هنا وهناك وسط حمرة الأفق الشاحبة المحيطة بالمكان، واعدا بالكثير مانحا الأحلام.

على الرغم من أن المياه الأخرى كانت تشبه هذه، والمدن والجسور الأخرى جميلة جدا، إلا أنه بدا لغولدموند أنه منذ سنين عديدة لم يقابل ناظريه ما يعادل هذا المشهد، ولا شعر، إلا هنا، بشعور مماثل. ثم اقترب منه صبيًا لحام يضحكان يقودان بالقرب منهما بقرتهما عبر جسر، يتمازحان ويغمزان للحسناء التي كانت تظهر من خلال كوة في

الجدار فوقهما وقد باشرت غسيلها. ما أسرع ما تبدل كل شيء ! فقبل فترة وجيزة مضت كانت نيران الوباء تُضرم خارج حدود هذه المدينة، وكان ناقلو جثث الموتى المخيفون يفعلون بها ما يشاؤون. وها هي الحياة الآن تتدفق وتسرع الخطى كسابق عهدها. صار بإمكان الناس أن يضحكوا – وهو أيضا كان مثلهم، جالسا هناك، سعيدا لمشاهدته كل هذا، وكأنما لم يكن هناك ألم في العالم ولا موت ، ولا «لنه»، ولا حسناء يهودية. وشعر بسعادة غامرة حتى أنه أحب المواطنين. ونهض واقفا وهو يبتسم، وسار أكثر،و بدأ قلبه يخفق و ذهنه يتشوش بمجرد وصوله إلى الشارع الذي يقطن فيه المعلم نيقولاس، وكان قد سلك إليه أزقة كان يطرقها كل يوم في طريقه إلى العمل.

أسرع خطاه وكله اشتياق إلى التحدث إلى المعلم. لم يعد يتحمل تأخير ثانية واحدة أخرى، كان من المستحيل انتظار ليلة أخرى. وفي هذه الليلة عليه أن يتيقن: هل ما زال نيقولاس غاضبا؟ آه، لقد حدث ذلك منذ زمن بعيد جدا، ولم يعد له أي معنى. ولكن إذا ما ثار فإن غولدموند سوف يهدئه ويسترضيه. كل شيء يسير سيرا حسنا، فقط عسى المعلم لا يزال موجودا – هو وورشة عمله ! وأخذ يهرول وكأنه يمكن، حتى خلال هذه اللحظة الأخيرة، أن يصل متأخرا ويخسر فرصة متاحة. هرول إلى أن وصل إلى المنزل الذي يعرفه حق المعرفة، وقبض على سقاطة الباب، ثم أجفل قليلا حين وجد أن باب المنزل موصد دونه. أكان ذلك فألا مشؤوما؟ على أيامه لم يحدث قط أن هذا الباب قد أرتج قبل حلول الظلام. وضرب المدقة بقوة، وهو يرتجف، وانتظر. وتوقف وجيب قلبه.

ها هي الخادم العجوز تقترب منه ثانية، وكانت هي التي أدخلته إلى المنزل في المرة الأولى. لم تكن أقبح مما وجدها عليه آنئذ، لكنها

الآن أكثر تقدما في السن، وما زالت أساليبها غريبة الأطوار، ولم يظهر أنها عرفت من يكون. وسألها بصوت منخفض عن المعلم نيقولاس.

فرفعت إليه نظرة شزراء، مرتابة وبلهاء.

«المعلم؟ لا معلم هنا. اذهب في حال سبيلك يا رجل، لا يسمح لأحد بالدخول»، وحاولت أن تدفعه إلى الخلف بعيدا عن ممر الباب، لكنه أمسك بذراعها، وصرخ في أذنها:

«إكراما لله يا مرغريت، كفاك تذمرا ! أنا غولدموند. ألا تعرفين من أكون؟ يجب أن أدخل الآن لأقابل المعلم نيقولاس».

قالت متذمرة «لقد مات، أقول لك. وليس لدينا أي معلم نيقولاس هنا. فارحل الآن، لا وقت لدي أضيعه في الثرثرة».

دفع غولدموند العجوز جانبا، والثورة تضطرم في روحه، فأخذت تلك تعرج خلفه وهي تطلق سلسلة من الصرخات، ثم اندفع خلال ممر مظلم يوصل إلى الورشة. تلك أيضا كانت مرتجة الباب. فعاد أدراجه، وراح يرتقي الدرج مهرولا ، ومرغريت العاوية، المعنفة في أعقابه، وهناك في الضوء الدرج الخافت المنبسط ، كانت التماثيل التي جمعها المعلم نيقولاس منتصبة. فتوقف، وراح ينادي على السيدة ليسبت.

فتح الباب المؤدي إلى غرفة السنديان: وخرجت منه ليسبت، وحين تعرف عليها،بعد تدقيق النظر فيها، اخترق مرآها قلبه. فإذا كان كل ما في هذا المنزل قد بدا له من خلال إدراكه لتلك الدقيقة الأولى عندما وجد الباب الخارجي مرتجا في وجهه، بدا له مسحورا ويشيع قليلا من الرعب، وكأنه يعيش حلما مخيفا، فإن قشعريرة باردة قد سرت فيه الآن على طول عموده الفقري، حالما وقع بصره على ليسبت. لقد انكمشت ليسبت المتكبرة، الجميلة، لتغدو سيدة نبيلة، ذابلة خائفة، متشحة بالسواد، وذات وجه يعلوه شحوب المرض،

وعينين مرتابتين وسحنة قلقة ولم تعد تتزين بأي أحجار كريمة الآن.

قال لها: «اغفري لي، يا سيدتي، إن مارغريت لا تريد أن تدعني أدخل لأقابلك. ألا تعرفينني؟ لا بد أنكِ تعرفينني. أنا غولدموند — أحقا والدك قد توفي؟».

عيناها قالتا إنها تعرفت عليه بوضوح، وإن ذكراه هنا غير مرغوب فيها.

«إذن فأنت غولدموند؟ - ظل يسمع في نبرة صوتها شيئا من كبريائها — «لقد تكبدت المتاعب دون فائدة. إن والدي قد توفي».

كان يجب أن يسألها: «ولكن ماذا عن الورشة؟».

«الورشة؟ مغلقة. إن كنت تبغي عملا فاذهب إلى مكان آخر».

جاهد كي لا تلاحظ مبلغ أساه.

قال بصوت ودي: «سيدة ليسبت، أنا لم آت إليك طلبا لعمل. أردت أن أسلم عليكما، أنت، والمعلم. إنه لمّا يوجعني اضطراري إلى سماعك. وأرى أنك قد نلت الكثير من الحزن فإذا كان بوسع متمهّن والدك الشكور أن يقدم لك أي خدمة — سمّها فستكون تعويضا مني. آه، يا سيدة ليسبت، إن مما يحطم قلبي أن أراك... أراك شديدة الابتلاء».

خطت متراجعة إلى ظل الباب.

قالت مترددة: «شكرا لك، لم يعد في وسعك أن تقدم له أي خدمة. ولا حتى لي. سوف تصطحبك مارغريت إلى الخارج».

كان في صوتها نبرة شر، نصفها خوف، ونصفها خبث. لقد شعر بذلك، ولو أنها كانت تملك الشجاعة الكافية لأغلظت له في كلامها معه، ولطردته من المنزل.

صفقت العجوز مارغريت الباب خلفه، وشدت الرتاجات. والآن وقف في الشارع ولا يزال صدى الرتاجات في أذنه، أشبه بالصرير المضاعف لحركة إغلاق غطاء التابوت.

عاد بخطى بطيئة إلى حاجز النهر، وعاد يميل فوق حافة الماء. كانت الشمس قد غربت، وهبت من النهر نسمة مصعقة ، وكان الحجر الذي يلامسه باردا كالثلج. وأطبق الصمت على الشارع من خلفه، ودوّم تيار المياه حول دعامات الجسر، ولم يعد ينبعث بريق ذهبي من عمق المياه المظلمة.

قال في نفسه «ليتني أنزلق عن هذا الحاجز وأغوص». مرة أخرى بدا العالم مفعما بالموت. ومرت ساعة من الزمن، وتكثف الغسق حتى أضحى ظلاما. وأخيرا استطاع أن يبكي، وخضّلت حبات الدمع الدافئة يديه وركبتيه. بكى على المعلم نيقولاس، الميت، وعلى جمال ليسبت الذي تلاشى، وعلى «لنه»، وعلى الفتاة اليهودية، وعلى فيكتور، وعلى أيام حياته الناضبة، المبددة.

في وقت لاحق من تلك الليلة عثر على قبو خمر، كثيرا ما كان هو والصبية المتمهّنين يسكرون فيه ويلعبون النرد. وتعرفت عليه المضيفة من جديد: استجدى منها قطعة خبز، فأعطته، ومعها كأسا من الخمر تعبيرا عن الود. ولم يستطع تذوق الخبز ولا الخمر. ونام على أحد المقاعد في الحانة. وفي الصباح الباكر أيقظته، فشكرها وقال: «أتمنى لك التوفيق». وفي الطريق أتى على الخبز الذي أعطته.

أخذ يتسكع، حتى وصل إلى سوق السمك. ها هو المنزل الذي كان يقيم فيه. وكانت بائعتا سمك تقفان بالقرب من النافورة تناديان على بضاعتهما. وكان السمك الجميل، البراق يحتشد ويدور باستمرار في حوضهما. لقد رأى كل هذا في الحلم، وتذكر شفقته على السمك،

وغضبه من المشترين ومن الباعة، وفكر كيف أنه راح يتسكع، كما يفعل اليوم شاعرا بالشفقة على السمك، ويتعجب من جماله، لقد مر وقت طويل جدا منذ ذلك الحين، وتدفقت المياه من تحت الجسور. وما زال يذكر أنه كان عامرا بالحزن، لكنه جاهد عبثا لأسر الاحساس الذي جعل قلبه مثقلا متعبا، في العهد الماضي. قال في نفسه «هذا حال الدنيا، الحزن يتلاشى، وحتى يأسنا يذوب. والألم، مثل أفراحنا، يختفي ويغادرنا، ويفقد كل أعماقه وقيمته، إلى أن يأتي يوم أخيرا وننسى ما وخز قلوبنا لسنوات عديدة قبلها»، حتى الألم يتفتت ويفنى. فهل سيفقد هذا كل أعماقه ومعناه اليوم - هذا اليأس الذي سببه موت المعلم نيقولاس، وهو غاضب منه، الآن وليس هناك ورشة عمل تأويه، تعيد إليه متعته في نحت الأشكال، وتخلصه من عبء الصور التي يحملها. نعم، لا شك في ذلك، حتى هذا التوق المرير سوف يشيخ ويكلّ، حاجاته كلها سوف تنسى، ما دام لا شيء يبقى معنا طويلا، ولا حتى الأسى.

بينما هو واقف هناك يراقب السمك ويفكر في كل ذلك. سمع صوتا حييّا، وديّا خلفه.

قالت بنعومة شديدة: «غولدموند». فالتفت ليرى فتاة خائفة، سقيمة، ذات عينين واسعتين وجميلتين، هي التي تلفظت باسمه. لم يعرفها.

سألته بصوتها الرفيع، الحييّ: «ألس أنت غولدموند؟ متى عدت إلى المدينة إذن؟ ألا تعرفني يا غولدموند؟ أنا ماري».

بيد أنه لم يتذكرها. وكان عليها أن تشرح له أنها ابنة عضو النقابة الذي كان يسكن في بيته في سوق السمك، وكيف أنها ذات صباح باكر، وقبل أن يغادرهم، قامت من سريرها لتسخن الحليب له في المطبخ.

واحمرت خجلا وهي تخبره بكل هذا.

الآن تذكر، نعم، إنها ماري، الفتاة الصغيرة، السقيمة التي كانت تعرج، وبدت شديدة الهدوء، والخوف وهي تقوم على خدمته. تذكر كل شيء، لقد جاءته في صباح باكر بارد، وكانت تبدو متأسفة كثيرا لرحيله عنهم. وأحضرت له حليبا، وحين قبّلها مقابل ذلك تقبّلت قبلته بوقار وبهدوء، وكأنها خبز القربان المقدس. إنه لم يفكر فيها مرة واحدة منذ ذلك الحين.

في تلك الأيام كانت طفلة. أما الآن فقد أضحت إمرأة بالغة ذات عينين جميلتين، وإن كانت ما تزال تعرج، وبدت حزينة قليلا. أمسك بيدها. جميل أن يجد المرء في البلدة من لا زال يعرفه، ولا زال يكن له الحب.

قادته ماري، على رغم احتجاجه، إلى منزلهم. وفي غرفة الجلوس حيث كانت صورته ما تزال معلقة وكأسه ذات اللون الياقوتي موضوع فوق رف المدخنة، ودعاه أبواها إلى البقاء معهم حتى العشاء، وألحوا عليه للمكوث يومين آخرين. وبدت السعادة الغامرة على الجميع لرؤيته من جديد. هنا، أيضا، علم كيف آلت إليه أحوال المعلم نيقولاس. فالمعلم لم يمت من الوباء، كما قالوا، بل إن السيدة ليسبت هي التي مرضت متأثرة به، وقد شارفت على الموت، وأرهق والده نفسه بالحزن عليها، والعناية بها، ومات قبل أن تستعيد عافيتها تماما. وأنقذت حياتها وفقدت جمالها.

قال عضو النقابة: «والآن بقيت الورشة خالية. والنحات الماهر سوف يجد بانتظاره منزلا مريحا، وراتبا مجزيا. فكر في الأمر، يا غولدموند. إنها لن ترفض طلبك. لم يعد أمامها خيار الآن».

علم بهذا وبما حدث أثناء الوباء. وكيف عمد الغوغاء أولا إلى إضرام النار في التكية، ومن ثم أحرقوا بضعة بيوت للأثرياء بعد أن

نهبوها، حتى أنه مرت فترة لم يبق هنا أمان أو نظام داخل أسوار المدينة، بما أن الأسقف ورجاله قد فروا. لكن الإمبراطور، الذي تصادف أن مر بالقرب من المدينة، أرسل ضابط أمنه، الكونت هاينريش. ولا شك في أن هذا السيد كان ذا تصميم، وسرعان ما أخضع المدينة، بخيّالته، وفرقته من رماة السهام. ولكن بعد ذلك حان الوقت للتخلص منه. وطالبت المدينة باستعادة أسقفها. لقد كان الكونت قد فرض ضرائب على المواطنين، وأصبحوا يرتابون في أمره وأمر خليلته أغنتس. لقد كانت خليقة تامة للشيطان. ولكن قريبا سيرحلان، هو وهي، لقد ضاق بهما ذرعا آباء المدينة منذ زمن طويل ، وبجثوم رجل البلاط هذا والقائد على ظهورهم، أثير القيصر هذا، الذي كان يستقبل السفراء ورجال الكنيسة كأمير، محتلا بذلك مكان أسقفهم الطيب.

ثم طالبوا من الضيف أن يحكي لهم عن أسفاره. فقال مجيبا: «واحسرتاه، لا يمكن لأي إنسان أن يوفيها حقها من الوصف. لقد سرت كثيرا وطويلا، وأينما حللت كنت أجد الوباء، شاهدت جثثا تتعفن على جوانب الطرقات، وكان الناس في المدن يجنون، ويركبهم شيطان الخوف. وقد خرجت سليما، وآمل أن أنسى كل ذلك ذات يوم. والآن ها أنا هنا، وجدت معلمي وقد توفي. اسمحوا لي أن أمكث معكم طلبا للراحة لبضعة أيام، قبل أن أعود إلى متابعة طريقي».

لكن ما دفعه إلى إبداء هذا الطلب كان أكثر من الحاجة. لقد مكث لأن قلبه كان مكلوما، ومترددا، ولأن المدينة، بما يحمله عنها من ذكريات أيام أفضل، كانت عزيزة عليه، ولأن حب ماري المسكينة كان يهدهد قلبه. ولم يكن يستطيع أن يبادلها حبا بحب، لم يكن بمقدوره أن يمنحها إلا الصداقة والمعاملة الرقيقة، إلا أن شوقها المتواضع بدا أنه يُدلله.

زيادة على ذلك كانت رغبته العارمة في خلق الصور تشده إلى البقاء. حتى في غياب ورشة للعمل فيها. كان كعامل ماهر يتوق إلى البقاء في المدينة.

طوال يومين كاملين لم يقم غولدموند بشيء آخر غير الرسم. وكانت ماري قد حضرت له أقلاما وأوراقا، ومن ثم جلس في غرفته على مدى ساعات متواصلة، يملأ مواعين ورق واسعة بالأشكال المخربشة، وإن كان بعضها قد رسم بعناية وتركيز. رسم دراسات عديدة لرأس «لنه»، كما رآه بعد موت المتشرد، مبتسما ويعبر عن انتصار الحب، متهللا لمرأى الموت، ولرأس «لنه»، كما بدا في الليلة السابقة لموتها، تواقا إلى العودة إلى باطن الأرض، وقد بدا لتوه ينحدر نحو اللا شكل. ورسم صبيا صغيرا كان قد رآه ذات مرة ميتا، متمددا على العتبة بين غرفتين، وكان متوجها إلى والديه، وقبضتا يديه مشدودتان. ورسم عربة مملوءة بالجثث، تجرها ثلاثة أفراس نحيلة، مرهقة وقرويين يتراكضون بمحاذاتها ليحثوه على المضي، يحملون في أيديهم عصيا طويلة، وعيونهم ذات النظرات الشزراء، تلمع من خلال شقوق أقنعة الوباء السوداء. ومرارا وتكرارا رسم صورة ريبيكا، اليهودية النحيلة السمراء، ذات العينين اللتين تطلقان شررا، والفم الصغير المتكبر، والوجه المملوء بؤسا وتحديا، والجسم الغض البض الذي خلق، كما بدا للحب ولا شيء غيره. ورسم نفسه، كجوال، وعاشق، وهارب، وموت حاصد منطلق من أعقابه كراقص في ولائم المصابين بالوباء. ومال على الورق بتلهف، ليثبت بضربات طويلة، صارمة، قسمات وجه ليسبت الجميلة المشحونة بالازدراء، كما عرفها، والتكشيرات المتكسرة لوجه مرغريت العجوز، والتكوين المثير للإعجاب للمعلم نيقولاس. وفي أحيان كثيرة كان يقترح، بخطوط عامة، باهتة، غير

واثقة، وجها آخر، وجه امرأة – الأرض الأم، ويداها مضمومتان في حجرها، وشبح ابتسامة يتبدى من تحت جفنين مثقلين. وقد مثّلت هذه المعرفة بالطاقة الكامنة في يديه، وبما يملك من قدرة على رسم كل هذه الوجوه، عزاءً له أبلغ من كلّ الكلمات. وخلال يومين من الزمن كان قد غطى كل ورقة أحضرتها ماري إليه، أما الورقة الأخيرة فخصص فيها مساحة رسم عليها، ببضعة خطوط واضحة، وجه ماري – وجهها ذا العينين الجميلتين، والشفتين المتنسكتين. وهذه أعطاها إياها.

هذا العمل أشبعه. وطوال فترة مكوثه هناك وانغماسه في الرسم لم يكن يعرف أين يجلس، وإن كان يتألم. العالم بالنسبة إليه كان يتألف فقط من طاولة، وصفحة الورقة البيضاء، وشمعة الأسل عند الغسق. والآن أفاق وتذكر أن المعلم قد مات، وأن عليه أن ينطلق على الطرقات من جديد. وهكذا أخذ يتجول في أنحاء المدينة، يتملكه إحساس غريب مركب من الترحيب والوداع.

في إحدى تلك الجولات قابل سيدة، مرآها وحده أزال الاضطراب عن عقله. امرأة جميلة، تمتطي صهوة جواد، ذات شعر ذهبي خفيف، وعينين زرقاوين فضوليتين، تميلان إلى البرود، وتحملان تعبيرا قويا وجميلا، وبشرة صافية ونضرة، ووجها طافحا بشهوة الحياة، والنهم إلى المتعة والسيطرة، والاعتماد على الذات، والفضول الحسي. وكانت تمتطي صهوة جوادها بسيماء مسيطرة مزدرية، تنم عن عادة صاحبتها على إصدار الأوامر، ومع ذلك لم يكن يبدو على وجهها ومنخريها، من تحت ضياء عينيها البارد، اللتين بدتا توأمين متلهفين لاستقبال كل متعة يمكن للحياة أن تهبها، دون تحفظ ولا حذر، بينما بدت شفتاها الصارمتان الجميلتان، كأنهما تعدان بأنها

تعطي وتأخذ بلا حدود. وجعل مرآها غولدموند منتبها – وأصبح فجأة تواقا إلى مقارعة كبرياء هذه المرأة. وتصور أن الفوز والسيطرة عليها سيشكلان إنجازا مجيدا، واعتبر أن خسارة رأسه في المحاولة لن تكون ميتة سيئة. وعلى الفور بات يعتبر هذه المرأة الذهبية ندا له، الغنية بأحاسيسها وبقلبها، والخليقة بما تتمتع به من قوة أن تواجه أي عاصفة، والعنيفة في حبها بقدر ما هي رقيقة، تستشعر أقل حساسيات الهوى، وخفقاته من معرفة الدم القديمة الموروثة. ومرت وتجاوزته، وتابعها بنظره. وبين صدارها الأزرق الداكن وشعرها الذهبي ارتفع عنقها الأبيض، المكتنز، شامخا وقويا، إلا أنه كان مغلفا ببشرة رقيقة جديرة بطفل. وقال في نفسه إنها أجمل إمرأة رأتها عيناي، واشتهى أن يتحسس عنقها بيديه، وأن ينتزع السر الأزرق، البارد، من عينيها. ولم يكن يرغب في معرفة إسمها. لكنه سمع على الفور اسمها هو آغنس، عشيقة رئيس الأمن، التي كانت تعيش معه في قصر الأسقف. وهذا الخبر لم يجعله يغير بغيته، بما أنها يمكن أن تكون الإمبراطورة نفسها. توقف ليميل فوق إحدى النافورات، ويرى صورته منعكسة على صفحة الماء. كان الوجه الذي شاهده يباري وجهها، كأخ وأخته، غير أن وجهه كان أشد عنفا بكثير وغير مصقول. وفي غضون ساعة من الزمن كان قد عثر على حلاق، وأقنعه بتزيين شعره وتمشيطه، وبقص لحيته.

أمضى يومين في ملاحقتها. فبينما تكون آغنس خارجة من القصر ممتطية جوادها، ترى هذا الغريب الأشقر الشعر واقفا عند البوابات، ويحدق إليها بعينين نهمتين. وبينما هي تخب بحصانها حول الحصون، إذ بالغريب يقف منتظرا تحت أشجار الدردار. وتكون آغنس عند الحدّاد، ولدى خروجها من ورشته، تقابل الرجل الغريب.

وكانت عيناها الزرقاوان المتكبرتان تقيّمه بحدة، لكن منخريها كانا يرتعشان قليلا أثناء تحديقها. وفي اليوم التالي، وعند تنزهها المبكر، قابلته من جديد، وابتسمت ابتسامة متحدية أثناء مرورها. وشاهد بصحبتها الكونت، ضابط الأمن، وكان رجلا جسورا مهيبا، وعدوا خطيرا. لكن شعره كان يتخلله بعض الشيب، وثمة أخاديد الهم تحت العينين. وشعر غولدموند أنه ند له.

ملأه هذان اليومان بالبهجة، وطفر فرحا وكأنه اكتسب شبابا جديدا. كان من الممتع أيّما إمتاع أن يجتذب إليه هذه المرأة، ويتحداها. من الممتع أن يجازف بحريته للحصول على جمالها. أما أفضل شيء على الإطلاق وأجمله فكان إحساسه بأنه يقامر بحياته كلها دفعة واحدة.

في صبيحة اليوم الثالث، خرجت آغنس منطلقة على صهوة جوادها من فناء قلعتها متبوعة بسائس خيل على متن جواد. وعلى الفور راحت تبحث ببصرها، بشيء من اللهفة، عن الغريب، وكأنها تواقة إلى خوض معركة. وبعثت سائسها ليوصل رسالة، وراحت هي تسير مع جوادها بتمهل خلفه، مارة من البوابة، متجهة إلى الجسر، ومن ثم عبرته. مرة واحدة فقط نظرت خلفها لترى إن كان الغريب يسير في إثرها. وفي شارع القديس فيتوس، أمام كنيسة الحجاج التي تكون مقفرة عادة في مثل ذلك الوقت، شدت لجام حصانها وانتظرت اقترابه. وانتظرته ما يقارب النصف ساعة، لأنه كان يتبعها ببطء شديد، رافضا أن يقترب منها وهو يلهث. وتقدم منها، مبتسما ومتورد الوجه، وبين أسنانه باقة صغيرة من الورد البري الأحمر، والزعرور البري. وكانت هي قد ترجلت عن حصانها وشدته إلى وتد ومن ثم وقفت وقد أعطت ظهرها إلى اللبلاب الذي تسلق أعلى كنيسة

الحصن الشاهقة. وأخذت تبحث بعينيها عن مطاردها. وتوقف أمام تحديقها، ورفع لها قبعته.

وسألته: «لماذا تتعقبني؟ ماذا تريد مني؟».

أجاب: «أوه، أود بكل سرور أن أقدم لك هدية، وأحصل منك على أخرى. إني أضع نفسي تحت أمرك، أيتها الحسناء، وبعد ذلك افعلي بي ما يحلو لك».

«حسنا، سأرى بماذا يمكنني أن أستفيد منك ! ولكن إذا ظننت أن في إمكانك أن تخرج وتقطف الأزهار دون التعرض للخطر، فأنت مخطئ. إني لا أعشق إلا أولئك الذين يجازفون بحياتهم لأجلي إذا لزم الأمر».

«حياتي رهن إشارتك».

ببطء خلعت سلسلة ذهبية رقيقة من جيدها.

«ماذا يسمونك؟».

«غولدموند».

«غولدموند – عظيم، يجب أن أختبر طيب مذاق شفتيك. والآن أنصت جيدا. سوف تحضر هذه السلسلة عند الغسق إلى القصر وستقول إنك عثرت عليها. ويجب أن لا تسلمها لأي كان، يجب أن أستلمها منك شخصيا. يجب أن تأتي إليّ كما أنت، حتى وإن اعتبروك مجرد متسول. وإذا اقترب منك أي من غوغاء القصر، وأخذوا يبدون احتقارهم لك فاحتملهم. واعلم أن اثنين فقط من رعيتي جديران بحسن ثقتي، مرافقي الشخصي، ماكس، وبرثا، وصيفتي. ويجب أن تبحث عن أي من هذين الإثنين، وتجعله يقودك إليّ. وخذ حذرك من كل من عداهما، حتى من الكونت نفسه، إنهم جميعا أعداء. لقد حذرتك، وقد تدفع حياتك ثمنا».

مدت له يدها ليقبلها، فتناولها مبتسما، وداعب بها وجنته، ثم قبلها برقة. بعد ذلك خبأ السلسلة وغادرها متجها إلى المدينة ، منحدرا أسفل التل ، وكانت المدينة والنهر يمتدان تحته.

كانت كروم العنب قد تجردت من أوراقها، وكانت الأوراق الذهبية اللون تسقط عن الأشجار مرفرفة واحدة بعد أخرى. وابتسم مرة أخرى، وحيا برأسه هذه الشوارع، الممتدة باستكانة وود. وحتى قبل أيام قليلة مضت كان الألم يعتصره، وقلبه مكلوم بحيث إنه حتى الألم والأسى يتغاضيان عنه، دون أن يتركا أي أثر. لقد زالا الآن تماما، سقطا وهما يرفرفان مثل سقوط أوراق الشجر الذهبية اللون عن الأغصان، لكنه قال في نفسه: لم يحدث قط أن قدّم الحب وعودا تفوق ما وجده في عيني هذه المرأة، التي ذكّره جمال قامتها المشوقة وغناها النفيس بالحياة بصورة أمه، كما رآها قبل زمن بعيد وهو طفل في ماريا برون، عندما أدرك للمرة الأولى أنه يحملها في قلبه. وحتى قبل يومين فقط ما كان ليصدق أن العالم يمكن أن يبدو من جديد شابا ويمور بالحيوية، أو أن يرتفع نسغ الحياة بهذا القدر الجبار، مع كل ما يتصف به شبابه من استمتاع متلهف، مضرما نارا جديدة في شرايينه. ما أروع أن يعرف أنه ما زال حيا، أن يعرف أن الموت مر بجواره وتجاوزه، في كل ما مر به من رعب خلال تلك الأشهر.

في تلك الليلة تسلل إلى القصر. كان فناؤه المترامي يعج بالاضطراب والهياج، وقد جُرّدت الجياد الصغيرة، والمراسلون يهرعون جيئة وذهابا، بينما موكب صغير من الرهبان وأصحاب المقامات الرفيعة المخيفين يتبعون الخدم خلال الأبواب، وصعودا إلى الدرج. حاول غولدموند أن يدخل خلفهم، لكنه وجد أن ثمة بوابا يسد الطريق في وجهه.

أخرج سلسلته قائلا إنه مكلف بأن يسلمها فقط لليدي آغنس، أو لوصيفتها. فأرسلوا معه سائسا ليسير معه مسافة أبعد، وقد تركه في أحد الممرات الطويلة. ثم جاءت امرأة جميلة، رشيقة، همست له، وهي تتجاوزه على عجل «أنت غولدموند؟»، ثم أومأت له كي يتبعها عن بعد. وسرعان ما اختفت داخل باب جانبي، وعادت بعد فترة وجيزة، ونادت عليه. وجد نفسه في غرفة صغيرة، يفوح منها عبق الفرو وروائح العطور الزكية، وتمشى في المكان بين الأثواب والعباءات، وكانت قبعات نسائية مصفوفة على حوامل خشبية، بالإضافة إلى العديد من أزواج الأحذية من حوض مفتوح. هنا وقف ينتظر على مدى نصف ساعة، وهو يشم روائح الأثواب المعطرة المعلقة من حوله، يمسد على فروها، ويبتسم بفضول إلى كل الحلي الرخيصة الجميلة المدلاة.

أخيرا فتح الباب الداخلي وإذا بها تدخل، ليس الوصيفة بل آغنس، برداء أزرق سماوي، مع فرو أبيض يعانق جيدها. واقتربت ببطء من غولدموند المنتظر، خطوة فخطوة، وعيناها بزرقتهما العميقة تقيّمانه بجديّة.

قالت بصوت خفيض: «كان يجب أن تنتظر، لكني أعتقد أننا آمنان أخيرا. الكونت مجتمع مع هيئة ممثلة للمطارنة،وعليه أن يتداول معهم، وأمامهم إنجاز الكثير من العمل معا، ورجال الدين يطيلون جلساتهم. وهذه الساعة هي ملكي وملكك. أهلا بك يا غولدموند».

وقفت إلى جواره، وشفتاها النهمتان تقتربان منه، ودون أي كلمة أخرى تبادلا الترحيب بقبلة. وراحت أصابعه تداعب بنعومة مؤخرة عنقها. وقادته خارج غرفة الملابس إلى غرفة نومها، وكانت مترفة، مضاءة بالعديد من الشموع. وقد مد الطعام على إحدى الموائد. فجلسا، وراحت تدهن كعك القمح بالزبد لأجله، مع اللحم،

ونبيذ ذهبي في كأس عال، بلون أزرق باهت. وأكلا وشربا من الكأس اللازوردي نفسه، وأيديهما تتداعبان، على سبيل الاختبار.

سألته: «ما الذي دفعك إلى الطيران إلى عشي، يا عصفوري الجميل؟ هل أنت جندي عابث، أم أنت متشرد فقير يهيم على وجهه في الطرقات؟».

أجابها بهدوء: «أنا كل ما تريدين، أنا رهن إشارتك. أنا عابث إذا شئت، وأنت قيثارتي العذبة، بحيث إني عندما أداعب جيدك، بأصابعي،وأعزف عليك، نسمع أصواتا ملائكية. وما أحلى غناءها! تعالي يا قلبي - إني لم آت إلى هنا لآكل كعكك القمحي وأشرب نبيذك. أنا جئت فقط للحب».

برفق حلّ الفرو الأبيض عن جسدها. وعلى الرغم من أن حولهما ربما كان الكهنة ورجال الدين يعقدون جلساتهم، والخدم يتسلون رائحين غادين في الممرات، والقمر الهلال يلقي ضياءه بعيدا بين أغصان الأشجار في الفناء، فإن هذين الإثنين كانا غائبين عن الوعي، بكل هذا. فبالنسبة إليها كانت أشجار الجنة في أزهى أزهارها، وقد تضاما وتشابكا، وتاها في ليلها المضوّع، وشهدا أسرار أزهارها البيضاء الوامضة، وهما يقطفان ثمارها، النهمين إلى التهامها، بأيد رفيقة، ممتنة باضطراد. ولم يسبق لعابث أن نقر على مثل هذه القيثارة، أو عرفت قيثارة مثل تلك الأصابع في قوتها وبراعتها.

همست، وهي في ذروة النشوة: «غولدموند، أوه، أي ساحر أنت. أود لو أحمل طفلا منك، يا سمكتي الذهبية العذبة. والأفضل من هذا أن أموت تحت وطأة قبلاتك».

راح يهمهم لها من أعماق حنجرته بأغنية فرح، عندما رأى الصلابة تذوب داخل عينيها الزرقاوين، وشعر كيف يُضعف الحب

جسمها كله. كانت عيناها تجرعان حبه برعشة خفيفة، تشبه لذعة الموت، وتتشرّبانه إلى أعماقهما، وتغشتا بغشاوة ذهبية كالومض السحري في أعماق المياه، كما يحدث للمعان المرتجف على الحراشف البراقة لسمك محتضر. لقد بدا وكأن الفرح الإنساني كله قد تجمع في تلك الساعة من الزمن.

ثم ودون مقدمات، وكانت لا تزال مستلقية ترتعش وعيناها مغمضتان، تسلل من السرير وانزلق داخل ملابسه. ومال عليها وتنهد، ثم همس لها:

«يجب أن أتركك، يا درّتي. يجب ألا يأتي صاحبك الكونت ويقتلني. ولن أموت، قبل أن أوفر السعادة من جديد لنا نحن الإثنين مرة أخرى – بل مئة مرة أخرى».

ظلت مستلقية صامتة وهو يستعد للرحيل. ثم جذب الغطاء عليها وغطاها، وقبل عينيها.

تنهدت وقالت: «غولدموند، آه، أيجب أن تغادر؟ تعال غدا. إذا كان هناك خطر فسأرسل من يحذرك. تعال قريبا.».

جذبت حبل الجرس، فاقتربت وصيفتها من باب غرفة الملابس لتقوده، وعملت بسرعة على وصوله خارج القصر. كان يود لو يمنحها قطعة ذهبية، وشعر برهة بخجل من عوزه.

في وقت متأخر من تلك الليلة وقف في سوق السمك يرفع بصره إلى نوافذ مسكنه. سوف يكون الجميع نائمين، وشعر أن عليه أن يفترش الساحة. ولكن، وياللغرابة، وجد باب المنزل مفتوحا فتسلل منه، ثم أغلقه خلفه بهدوء. وكانت الطريق المؤدية إلى غرفته تمر من المطبخ. وكان مضاء، ووجد ماري جالسة ومصباحها الصغير موضوع

على الطاولة. وكانت قد أغفت قليلا وهي في انتظاره. وحالما دخل أجفلت وأفاقت.

قال: «أوه، ماري — أما زلت مستيقظة؟».

قالت له: «نعم، وإلا لوجدت المنزل موصدا في وجهك».

«أنا آسف لأنك انتظرتني يا ماري. لقد أصبح الوقت متأخرا جدا. لا تغضبي مني».

«إني لا أغضب منك أبدا يا غولدموند. كل ما في الأمر أني حزينة قليلا».

«أبعد الله عنك الحزن. ولم الحزن؟».

«آه، يا غولدموند، كم أتمنى لو أكون قوية وجميلة. عندئذ ما كنت احتجت أبدا إلى الخروج ليلا، لتضاجع نساء أخريات في منازل غريبة. كنت ستبقى معي، وربما كنت ستبدي لي بعض اللطف أحيانا».

كان صوتها الرقيق خاليا من أي أمل أو مرارة. كان فيه فقط حزن.

وقف مرتبكا. لقد ضايقته، ولم يعثر على كلمات يجيبها بها. وبيد رقيقة راح يمسد على شعرها، وظلت صامتة، ترتعش ارتعاشة خفيفة تشبه لمسته. وبكت قليلا، ثم جففت عينيها وقالت بحياء:

«اذهب إلى سريرك الآن يا غولدموند. إن ما أقوله ليس سوى حماقة. لقد نعست كثيرا. تصبح على خير».

الفصل السادس عشر

أمضى غولدموند نهارا من السعادة بين الهضاب. ولو كان يملك حصانا لامتطاه في ذلك اليوم، ولانطلق إلى الدير، إلى لوحة العذراء الحزينة، للمعلم نيقولاس. كان تواقا إلى مشاهدتها، يجب أن يعود إليها لاحقا. وحتى وإن قدّر لهذه السعادة أن تنقضي سريعا، حتى وإن اتضح في نهاية المطاف أن حبها خبيث – فإنها اليوم تجري في دمه، ولا يمكنه أن يفوت لحظة واحدة يقضيها معها. هذا الصباح لم يكن لديه رغبة في التحدث إلى أي إنسان، وإنما أراد أن يقضي هذا النهار الخريفي الدافئ مع الأشجار والسحب. وقد أخبر ماري أنه يريد أن يمضي يوما في الغابة، وإنه قد لا يعود حتى وقت متأخر من الليل. وطلب منها أن تعطيه رغيف خبز كبير ليأخذه معه. وألا تبقى مستيقظة هذه المرة بانتظار عودته. لم تفه بكلمة، واكتفت بملء جيوبه بالخبز وبالتفاح، ونفضت الغبار عن سترته الرثة، العتيقة التي كانت قد رقعتها في اليوم الأول لعودته إليهم، وتركته يذهب.

قطع النهر وارتقى كروم عنب خالية، بالصعود على درجها الترابي المنحدر، ومنها إلى التلال، وفي الأعلى، في الغابة، أطلق لنفسه العنان، ولم يتوقف حتى وصل عاليا إلى الذروة. وسطعت الشمس متغلغلة بين أغصان الأشجار، وانطلقت الشحارير لدى مروره، وسط أجماتها، تحدق منها مذعورة، بواسطة عيون سوداء مدورة، بينما في الأسفل

بعيدا، تدفق النهر بانعطافة زرقاء، طويلة، واستلقت المدينة، كدمية صغيرة، مركبة من أجزاء. هنا لا يصله منها أي صوت، ما عدا قرع النواقيس، تدعو المصلين إلى الصلاة.

هنا فوق الذروة تكومت ركامات نحت عليها طبقة من العشب، متخلفة من أيام الوثنية القديمة، السحيقة، لعلها حصون، أو أجداث. تمدد على أحدها تحت أشعة الشمس، حيث كان بإمكانه أن يستلقي على العشب الخريفي الجاف الذي يحدث حفيفا ويمد بصره عبر كامل الوادي المترامي، والتلال والجبال الشامخة المطلة على النهر، سلسلة تعلو سلسلة، إلى أن حوّمت الذرى والسماء في مزيج غامض قد أضبَّ. لقد قطعت قدماه سيرا كل البلاد الواسعة الممتدة إلى الأسفل منه، بل وأبعد منها: كل ذلك أضحى الآن ذكرى نائية، وذات يوم كانت قريبة،وحاضرة. كم من مئة مرة هجع في تلك الغابات البعيدة، وأكل التوت البري ، وجاع ، وكاد يتجمد من البرد، وكدح فوق حواف تلك الهضاب، فرحا كان أو مرحا، تعبا أو نشطا. في مكان ما بين تلك الفيافي البعيدة تستلقي جثة «لنه» المسكينة المتفسخة، وفي مكان ما هناك، لا بد أن رفيقه روبرت لا يزال يتجول، هذا إذا لم يكن الوباء قد أوقف حركة قدميه: وهناك، بعيدا عن الأنظار يستلقي فيكتور ميتا. وفي مكان ما، ينهض، مسحورا ونائيا الدير الذي قضى فيه فترة الصبا، وفي مكان آخر،تقوم قلعة الفارس الذي ضاجع ابنتيه الصبيتين: هناك، تركض ريبيكا المسكينة هاربة، ممزقة الثياب ومطاردة، أو لعلها ميتة. هذه الأماكن الكثيرة، التي تفصل بينها مسافات متباعدة، هذه المستنقعات والحصون والقرى والمدن، البلدان المسوّرة والأديرة – كل أولئك الناس الذين ماتوا أو مازالوا أحياء – هم حاضرون دائما داخله، وجمعهم ملتئم. إنهم يسكنون

معا في ذاكرته وفي حبه، واشتياقه، وندمه. فإذا مات غدا فسوف يتفرقون، سيضيعون من جديد، وسوف تتلاشى الصور من الكتاب، صور النساء، والحب، وليالي الشتاء، وصباحات الصيف. آه، لقد حان الوقت لإنجاز عمل ما، لأن يحفر بعض الأشكال يخلفها من بعده، عمل فيه من الحياة أكثر مما فيه هو. لم تنتج عن كل تلك الجولات، وعن تلك السنوات منذ أن هرب إلى العالم إلا القليل من الثمار. إنه لم يدخر إلا القليل النادر من الوقت، بضعة أشكال، حفرت وتركت في ورشة عمل، أفضلها جميعا هي لأثيره يوحنا – والآن كتاب الصور الوهمي هذا الموجود في رأسه، عالم صور ذكرياته الجميل والمفعم بالألم. هل سينجح قط في إنقاذ بعضها، في إخراجها، ليراها الجميع؟ أم ستظل حياته تسير على هذا المنوال حتى النهاية، دائما مع مدن جديدة، بلد جديد، نساء جديدات، تجربة جديدة،صور أخرى، مكدسة واحدة فوق الأخرى، لن يحصل منها أخيرا على أي شيء، غير الجمال المؤلم القلق الكامن في قلبه؟ إن الحياة تخدع دون أي وازع. وهي كافية لجعل الرجال يضحكون أو يبكون. إن الإنسان ليعيش، مطلقا العنان لأحاسيسه، راشفا الرحيق من ثديي حواء، أمه – ومن ثم، ومع أنه قد يعربد ويستمتع بحياته، إلا أنه لا يوجد ما يحمي ضد سرعة زوالها، وهكذا، وكفطر الغاريتون السام، تراه يومض اليوم بأزهى الألون وغدا يتعفن، ويغدو هباءً.

أو قد يتمكن من إقامة دفاعاته ضد الحياة، ويقفل على نفسه داخل ورشة عمل، وينكب على إقامة نصب يبز الزمن، عندئذ يجب إنكار الحياة نفسها، فالإنسان ليس غير أداة في يدها: وعلى الرغم من أنه يمكن أن يخدم الأبدية فإنه يذوي، ويفقد حريته، وغناه، وفرح أيامه. هكذا كان قدر المعلم نيقولاس.

مع ذلك، فأيامنا لا تكتسب معنى إلا إذا تم إنجاز هذين العنصرين الخيّرين، والحياة ذاتها لم يشقها التقسيم العقيم للبدائل. فهل يمكن أن نعمل دون أن ندفع حياتنا ثمنا للعمل: وهل يمكن أن نعيش دون أن نتخلى عن العمل الخلاق. أيمكن هذا؟.

ربما يستطيع البعض أن يحقق ذلك. ربما هناك أزواج وآباء عائلات شرفاء في العالم، لم تتبدل أحاسيسهم بإخلاصهم. ولعل هناك مواطنين كادحين لم تدجّن قلوبهم وتصبح عقيمة، من افتقارها إلى الخطر وما يوفره من حرية. ربما. إنه لم يقابل أيا منهم.

يبدو أن الوجود كله أقيم على أساس الأضداد، وعلى التقسيم. رجل أو امرأة، متشرد أو مواطن، عاشق أو مفكر — ولا يتم التنفس إلا بالشهيق والزفير، ولا أحد يمكن أن يكون زوجا وزوجة، منعتقا وأيضا ملتزما بنظام، واعيا لإلحاح الحياة ولمتعة الفكر. ثمة دائما طرف يدفع عن طرف آخر. وإن كان كل منهما عزيزا وأساسيا على قدم المساواة. ربما كان ذلك أسهل على النساء، لقد خلقتهم الطبيعة هكذا لكي يعطي شغفهن، بالنسبة إليهن ثماره، ولكي يولد طفل من سعادتهن. والرجال لا يتمتعون بمثل هذه الخصوبة البسيطة، ولكن بدل ذلك، لديهم توق دائم، لا يشبع. فهل كان الرب الذي صمم كل هذا خبيثا وشريرا — هل كان يسخر من الألم الموجود في خليقته؟ كلا، لا يمكن أن يكون إلها شريرا من أبدع إناث الأيائل وذكورها، في الغابة، والأسماك والطيور، والأشجار والأزهار، والربيع والخريف. ومع ذلك فهذا الشق كان يمر على طول عمله، سواء أكان أقل كمالا من بغيته، أو أنه، الرب، وضع هدفا خفيا في هذا النقص، هذا الجوع الذي لا يشبع أبدا الموجود في جميع أشباهه. لعلها بذرة، بذرها العدو، الخطيئة الأصلية. ولكن أليس كل جمال ورع نشأ في هذه الخطيئة،

ذاتها الموجودة في كل الكائنات البشرية، وكل ما شكله بيديه، ومن ثم أعاده إلى الرب؟.

أدار عينيه نحو المدينة، وقد أحزنته هذه الأفكار، وراح يبحث عن السوق العامة، سوق السمك، والجسور، والكنائس، ومجلس المدينة. ثم رأى قصر الأسقف المهيب، حيث يعقد الكونت هاينريش الآن اجتماعه بين تلك الأبراج. تحت تلك الأسقف المنحدرة الطويلة، تقيم آغنس، الأجمل من أي ملكة، والتي كانت تبدو فخورة بنفسها، فبلبلها الحب وأذلها. وتذكر ليلتهما الأخيرة بفرح ممتن. ولكي يشعر بروعة تلك الليلة الفريدة فإن كل علامة حب ماضية كانت ضرورية، وكل معرفته بالنساء كانت مسخّرة لهذه المرأة الوحيدة، وكل ما تعلمه في الفقر وأثناء التجوال، وكل ليلة اضطر خلالها إلى أن يخوض في الثلوج، وقرابته من الحيوانات والأزهار، والأشجار، والمياه،والفراشات، والأسماك. لقد احتاج إلى كل شبق الأحاسيس المذكى الذي زاده حدة الخطر والحب، إلى كل رغبات المتجول المتوحد الملحة، إلى صورة العالم، التي حفرتها السنون داخله، ليوفر متعة بالغة لهذه المرأة. فطالما بقيت أيامه حديقة ما زال بإمكان أزهار مثل آغنس أن تزدهر فيها، فلا مبرر لديه للشكوى.

ظل يتجول طوال النهار فوق الذرى الخريفية، يتمشى، يستريح، يأكل الخبز، يفكر في آغنس وفي الليل. ومع غياب الشمس عاد إلى المدينة، وتوقف أمام القلعة. كان الجو قد أضحى مصعقا، وراحت المنازل تحدق بعيون حمراء ثابتة من خلال الظلام. واقتربت ثلة من الصبية الصغار يغنون وهم يتجاوزونه، حاملين لفتا على عصي ، قُطّع حتى أصبح كالوجوه، وكانوا يلوّحون بها عاليا، وقد غرزت في الرؤوس مشاعل ملتهبة. وهذا الموكب الصغير من المتنكرين جلب معه الشتاء،

وتركه غولدموند يمر من أمامه مع ابتسامة. وظل يتسكع خارج القصر بعض الوقت. لقد كان وفد المطارنة ما يزال مجتمعا مع الكونت، وكان يرى هنا وهناك، في إحدى النوافذ العالية، رجل دين مخيف الشكل، واقفا، يطل على الخارج. وأخيرا نجح غولدموند في التسلل إلى الداخل. وفي الداخل وجد الوصيفة، برثا. ومرة أخرى خبأته في غرفة ملابسها، إلى أن جاءت آغنس، وقادته بهدوء إلى غرفة نومها. ورحب به جمالها بنعومة، غير أنها كانت حزينة، ورأسها مملوء بالهموم، وبذل مجهودا كبيرا لبث السرور في قلبها قليلا. وشيئا فشيئا، وتحت وابل قبلاته وكلمات الغزل، بدأت تنتعش، وتتصرف بارتياح.

قالت له بامتنان: «إنك تستطيع أن تكون لطيفا، وفي صوتك نغمات واثقة، عميقة، يا عصفوري، عندما تهذر وتسقسق، عميقا في حنجرتك. أحبك يا غولدموند. آه، ليتنا نكون بعيدين عن هنا ! أكره هذا المكان. وإن كان، على أية حال، كل شيء سينتهي قريبا. لقد استدعى الإمبراطور الكونت، وسوف يعود الأسقف الأحمق إلى هنا. أما اليوم فكان الكونت مكفهرا، لأن الكهنة قد أغضبوه. آه، يا غولدموند، إياك أن تدعه يراك ! فلن يدعك تعيش ساعة أخرى. إن أخشى ما أخشاه ما قد يحدث».

تذكر صوتا كاد ينساه – لقد سمع هذه الأغنية من قبل دون شك ! كانت ليديا قد أسمعته شيئا من هذا القبيل، يتسم بذاك الحزن المؤثر، المخيف، الرقيق نفسه. هكذا جاءت تتسلل إلى جواره على السرير، وهي منيعة بالحب ولكنها مضطربة بمخاوفها. وسرّته هذه الأغنية الرقيقة، القلقة. ما قيمة أي حب بدون سرّيته؟ وهل هناك أي حب بدون أخطار تحف بهذا الحب؟ وجذبها برفق قربه، وهو يلاطفها، ويمسك بيديها، ويغمغم بعبارات صغيرة مغرية في أذنيها، ويقبل

حاجبيها. وكان يؤثر فيه ويملؤه بالنشوة أن يلاحظ مبلغ اضطرابها وقلقها. كانت تتقبل مداعبته وتقابلها بأخرى، بامتنان، وتقريبا بمذلة، وتدفن نفسها فيه، ملؤها الحب، على الرغم من أنها لم تكن تجد إلى المرح أو السكينة سبيلا. وفجأة أجفلت بعنف: ففي مكان ما، غير بعيد، صفق باب، وسمعت وقع خطوات متجهة صوب غرفة النوم.

همست بيأس: «آه يا ربي، لقد جاء الكونت! أسرع - يمكنك أن تتسلل هربا من خلال غرفة الملابس. لا تفضحني».

سرعان ما أقحمته بين أثوابها، ووقف وحيدا، يتحسس طريقه وسط الظلام. ومن غرفة أبعد قليلا، تناهى إليه صوت الكونت العالي، يتحدث إلى آغنس. وراح يتلمس طريقه من ثوب إلى ثوب، بحذر شديد، ويضع قدما أمام قدم. ثم وصل إلى باب الممر، وحاول برفق أن يفتحه. عندئذ فقط، وعندما اكتشف أنه مرتج من الجانب الآخر، أجفل بدوره، وتوقف قلبه عن الخفقان، ومن ثم أخذ فجأة يخفق خفقا عنيفا مؤلما. لعل هذا الباب قد أرتج بفعل مصادفة مشؤومة بعد دخوله، ولم يتوصل إلى فكرة نهائية. لقد علق في فخ، وضاع. لا بد أن أحدهم كان يراقبه وهو يتسلل إلى هنا. سوف يدفع حياته ثمنًا لذلك. وتذكر كلماتها الأخيرة له، «لا تفضحني». كلا - لن يفعل... وأطبق على أسنانه وانتظر. كان قلبه ما يزال يضرب بقوة، لكن تصميما جديدا قوى عزيمته.

لم يستمر ذلك إلا بضع لحظات. ومن ثم إذا بالباب القريب يفتح بحركة سريعة، ومن غرفة نوم آغنس خرج الكونت، حاملا مشعلا وسيفا مسلولا. وفي اللحظة الأخيرة انتزع غولدموند بعض الأردية والأثواب عن المشاجب، وكومها معا على عجل على ذراعه. فليقبضوا عليه بتهمة السرقة، لعلها تكون وسيلة للهرب.

على النور لمحه الكونت. فاقترب منه ببطء.

«من تكون حضرتك. ماذا تفعل؟ أجبني، وإلا طعنتك».

تلعثم غولدموند وهو يقول: «أغفر لي، أنا رجل فقير، يا سيدي، وأنت فاحش الثراء، سوف أعيدها كلها. أنظر».

ثم وضع الأثواب على الأرض.

«إذن - فأنت لص. أليس كذلك؟ أنت أحمق إذ تجازف بحياتك من أجل بضعة أثواب قديمة. أأنت مواطن من هنا؟».

«كلا، يا سيدي – أنا بلا مأوى... رجل فقير... هل سترحمني؟».

«صمتا؟. ثمة أمر آخر يجب أن تخبرني به. أكنت من الوقاحة بحيث تتكلم مع السيدة الكريمة؟ ولكن بما أنك سوف تشنق في كل الأحوال، فلا داعي للمضي في كل هذا. سرقتك تكفي».

أخذ يدق على الباب المرتج في وجه المرور.

«أنتم هناك – افتحوا الباب».

فتح الباب من الخارج، فإذا بثلاثة من الأفظاظ بخناجر مسلولة واقفين في حالة تأهب.

عوى الكونت، بصوت أجش غضبا وازدراء: «قيّدوه أولا. إن هذا الوغد تسلل إلى هنا بقصد السرقة. احبسوه، وغدا عند الفجر علقوا هذا اللئيم في حبل المشنقة».

قُيّد غولدموند من رسغيه، دون أن يبدي أية مقاومة. ثم اقتيد على طول الممر، وهبطوا به درجا، عبر الفناء الداخلي، يتقدمهم صبي يحمل مشعلا. وتوقفوا عند باب قبو مقنطر، مدجج بكثافة بالمسامير، وبدؤوا يثرثرون إن هذا الباب لا مفتاح له. فتناول أحدهم المشعل وهرع الصبي عائدا ليحضر المفتاح. وظلوا واقفين هكذا، ينتظرون

خارج سجنه، الرجال المسلحون الثلاثة وسجينهم.

أخذ حامل المشعل يتفحص غولدموند بفضول، مقربا الضوء من وجهه. في تلك اللحظة اقترب كاهنان عبر الفناء، وكان هناك العديد منهم ضيوفا على القلعة. وكانا قد قدما من الكنيسة الصغيرة، وتوقفا أمام المجموعة وقد جذبهما الضوء، وهذا المشهد الليلي: الأفظاظ المسلحون الثلاثة، مع سجينهم المقيد، الواقف هناك بانتظار إحضار المفتاح.

لم يول غولدموند انتباهه للراهبين، أو يعطي أي جواب لسجانيه، لم يكن يرى غير اللهب في مهب الريح، قريبا من عينيه، يعمي بصره. ومن خلف هذا الضوء المتماوج وصلتهُ لُمَحٌ في ظلمة حالكة، تتلاشى في شيء ضخم ورهيب – شبح مخيف، لا شكل له، إنه الفجوة التي سيقع فيها، الهاوية، النهاية. أصبح أصم وأعمى عن كل شيء ما عداه، وكان أحد الكهان قد بدأ يستجوب أحد الأفظاظ، وعندما علم أن هذا الرجل لص ويجب أن يشنق عند الفجر، سأل إن كان الرجل قد وجد من يعترف له. أجابوه، كلا، فقد قبض عليه للتو متلبسا. قال الأب: «إذن سآتي غدا باكرا، قبل القداس الأول، ومع الأسرار المقدسة الأخيرة لأتقبل اعترافه. وأنتم مسؤولون عن إرجاء تنفيذ الحكم حتى أقابله وأفعل ذلك. سوف أكلم سيدي الكونت بهذا الشأن هذه الليلة. قد يكون هذا الرجل لصا، ولكن من حقه كأي مسيحي آخر أن يعترف، ويجد سكينته مع الله».

لم يجرؤ السجانون على معارضته. كانوا يعلمون أن هذا الكاهن هو أحد أفراد هيئة السفراء، وقد شاهدوه يتناول الطعام مع الكونت على المائدة العالية. ثم، لم لا يحصل هذا الوغد المسكين على كاهنه وغفرانه؟».

واصل الآباء طريقهم، ولم يول غولدموند اهتمامه بأي كلمة قيلت. وأخيرا عاد الخادم، وفتح الباب. وقادوا السجين إلى الغرفة

المقنطرة السفلية، وراح يتعثر في سيره وهم يدفعونه أثناء هبوطه الدرج. وكان هناك طاولة مستديرة وضعت حولها بضعة مقاعد بلا ظهر وثلاثية الأرجل، بما أنها كانت سردابا لتخزين الخمور. وأشاروا إلى أحد المقاعد وطلبوا منه أن يجلس. قال أحدهم: «سيأتيك كاهن في الصباح ليتلقى اعترافك». ثم غادروا، وأرتجوا الباب بعناية.

توسل غولدموند قائلا: «اتركوا لنا ضوءا، يا أخ».

«كلا، أيها الأخ الصغير، قد تؤذي نفسك به. ستكون بخير. كن حكيما، واعتد. وكم تظن أن الشمعة ستدوم؟ سوف تنطفئ بعد ساعة من الوقت. سعدت مساء».

بعد ذلك جلس وحده في الظلام، وأراح رأسه على الطاولة. كان الجلوس هكذا عسيرا، مؤلما، والقيد المكبل لرسغيه يلفح ويحرق. غير أنه لم يعرف هذا، إلا لاحقا. في أول الأمر جلس ووضع جبينه على الطاولة وكأنما على وضع قاطع الرؤوس، يجاهد ليجعل من جسمه وحواسه مدركة لكل ما كان عندئذ مفروضا على تفكيره. يجب أن يحني إرادته، ويرضخ للقدر – ويعترف بأن موته قد بات وشيكا.

ظل جالسا هكذا فترة طويلة، يمضّه ألم يبعث على اليأس، ويكافح بكل ما أوتي من قوة لاستيعاب هذا الرعب، وفهمه، يتنفسه، يدعه يملأه من رأسه إلى أخمص قدميه. الليل يكتنفه من كل جانب، ونهاية هذا الليل سوف تجلب معها مزيدا من الظلام. يجب أن يجاهد كي يحفظ أنه في الغد لن يكون له وجود. سوف يشنق، يغدو شيئا، مجثما للطيور، تنقره حتى تشبع منه، وسوف يكون مآله كمآل المعلم نيقولاس، و«لنه»، المستلقية وسط رمادها، وككل أولئك المئات العديدين الذين كثيرا ما حدق إليهم وهم في منازل خاوية، ضربها الوباء، أو هم مكومون، واحدا فوق آخر، على عربات الموت. كان صعبا عليه أن يجبر نفسه

على التعمق في هذا الشعور، أن يجعله جزءا من كيانه. بل لقد كان من المستحيل التفكير في ذلك. وثمة أشياء كثيرة لم ينجح في تحرير قلبه منها، أو ينعتق. إن ساعات الليل هذه قد منحت له لهذا الغرض.

أولا سوف يرحل إلى الأبد عن آغنس. لن يرى قامتها المشوقة الجميلة ثانية، ولا شعرها الأصفر بلون الشمس المشرقة، ولا عينيها الزرقاوين الباردتين، ولن يراقب الكبرياء المرتعشة وهي تخمد فيها وتنطفئ، أو يتعرف على البريق الباهت الجميل لجسدها المعطر. كان يأمل أن يستزيد من تقبيلها. آه حتى هذا اليوم عندما كان فوق التلال، تحت شمس الخريف المشرقة الدافئة، كم فكر فيها، كم اشتاق إليها واحتاج إليها. والتلال، والشمس، والسماء الزرقاء ذات السحب البيضاء – هي أيضا سوف يرحل عنها. لا أشجار ولا غابات، لا تجوال، ولا نهار ولا ليل، ولا فصول بعد الآن. لعل ماري ستظل تقوم الليل بانتظاره، مسكينة ماري، بعرجها وعينيها الرقيقتين، تنعس وتستيقظ في المطبخ، ولا يظهر لغولدموند أثر.

آه، وتلك الأوراق بكل ما عليها من رسومات، وآماله بالأشكال التي يود نحتها. ذهبت ! وأمله الآخر في رؤية نرسيس، القديس يوحنا الحبيب – يجب أن ينساه.

ثم يجب أن يرحل عن يديه، وعينيه، وعطشه وجوعه، والشرب، والحب وعزف القيثارة، والنوم واليقظة: عن كل شيء. غدا سوف ينساب عصفور يشق الهواء برشاقة، ولن تكون لغولدموند عينان ليراه بهما، وسوف تقف فتاة في النافذة تغني، ولن تكون له أذنان ليسمع بهما أغنيتها ، وسوف يتدفق النهر ويتدفق، ويسبح السمك المبهم، الأخرس معه، وتهب ريح، وتجرّد الأشجار من الأوراق الصفراء وترميها على الأرض، ويطلع قمر، وتتلألأ نجوم، ويخرج

شبان ليرقصوا في احتفالات عيد الميلاد، وتبيّض تباشير الثلوج التلال البعيدة – وكل هذه الأشياء ستبقى إلى الأبد، ستظل كل شجرة تنشر ظلها، وسيظل هناك رجال فرحون أو مرحون، بعيون تشع بالحيوية، وكلهم بدونه، لن ينال هو من كل هذا أي شيء! سيكونون قد انتزعوا جسده بعيدا عنه.

شعر كأنه يتذوق الأنسام الصباحية الهابة على المستنقعات، والنبيذ الجديد الحلو، وثمار الجوز القاسية، الحديثة النمو، بينما تسرب إلى قلبه الوجل، كالذكرى، الإدراك المفاجئ لكل مباهج العالم، واجتاح حواسه موكب يتلاشى من الوداعات يشبه جمال الأرض الهمجي. واندفع إلى الخلف معتدلا وأخذ يجهش بالبكاء، وأحس بالدموع تسفع وجنتيه وتجري عليهما، وأرسل العنان لهذه الموجة من البكاء المتأسي حتى غمرته، وهو يئن وقد ربض، واستسلم لكرب لا ينتهي. لهفي عليك أيتها الوديان وأنت أيتها التلال المكسوة بالغابات، وأنت أيتها الغدران المتسارعة حول جار من الماء، وأنتن يا حسناوات الليل، على الجسور التي يضيئها القمر، ويا عالم الأحياء المتلألئ، الجميل. كيف سأرحل عنك؟.

استلقى غولدموند وأخذ يبكي، انحنى أطول ما استطاع على الطاولة، وهتف طفل يرفض أن يواسى، من فرط حزنه، بتنهيدة نابعة من أعمق حاجة «أماه! أماه!».

أجابت على ندائه بهذا الاسم السحري صورة، تحمل شكلها، منبعثة من سر قلبه. وهي ليست صورة الأم التي كان قد تاق إلى حفرها على الخشب، حواء أفكاره وأحلامه كحرفي، بل هي الأم ذاتها التي تذكرها بشكل أوضح وأكثر حياة من رؤيته الفعلية لها منذ أن حلم بها وهو في ماريابرون. إليها اشتكى، وأجهش بالبكاء وهذه

الفكرة التي لا تطاق تردُّه، مستسلما لحمايتها، ووضع الشمس المشرقة والغابات، وعينيه ويديه، وحياته، تحت رعايتها من جديد.

استغرق في النوم، وهو يبكي، وضمه الارهاق كأنما بذراعيه، هدهده، وأنقذه من حزنه، ونام نوما عميقا لساعة أو ساعتين من الزمن.

ثم استيقظ من ألم حاد يمضّه. كان رسغاه ما يزالان يحرقانه كما النار. بينما سرى على ظهره وبين كتفيه ألم مبرح سريع. اعتدل في جلسته متيبسا، وأدرك الحقيقة المحيطة به. كان غارقا وسط ظلمة شاملة، ولم يعرف كم دام نومه، ولا عدد ساعات الحياة التي ربما تبقت له. قد يأتون في أية لحظة الآن! وتذكر الكاهن الذي وعدوه بإحضاره.

هذا لا يعني أن أسراره المقدسة كانت تعني له الكثير، ولا استطاع أن يعرف إن كان حتى أكمل غفران يمكن أن يدخل روحه إلى جنة ما. لم يكن يهمه إن كانت هناك أي جنة، أورب وأحكامه الإلهية، أو أي أبدية. منذ زمن طويل وكل هذا كان غامضا بالنسبة إليه.

انه لم يكن يأبه بأي جنة، لم يكن يريد الا أن يعبر حياة أرضية غير مأمونة- الا أن يتنفس، أن يكون متألفا مع نفسه. كان فقط يريد أن يعيش.

نهض واقفا و قد مسه جنون من رعب مفاجئ، و راح يتلمس طريقه خلال الظلمة يبغي الجدار، واتكأ على الحجارة، و بدأ يفكر. لا شك في أن هناك أملا. قد يأتيه هذا الكاهن بارجاء لحكم الاعدام. و لعله كان واثقا جدا من براءة السجين فقال كلمة لصالحه، و سوف تعمل على تأخير تنفيذ الحكم، و تسهل افلاته. و انكب يقلب هذه الفكرة الوحيدة في رأسه، ويعيد تقليبها مرارا و تكرارا. و حتى لو أنها لم

تسفر عن أي شيء، فإنّ لعبته هذه لن تضيع، وسوف يظل متمسكا بالأمل. لذا، عليه أولا أن يكسب هذا الكاهن الى جانبه، أن يبذل كل عصب لأسره، و تقريظه، و اقناعه. و كل ما عدا ذلك كان حلما و احتمالا. ان الكاهن هو الورقة الجيدة الوحيدة المتبقية بين يديه، و ان كانت ما تزال هناك، مع ذلك، مصادفات و فرص. فقد يصاب الجلاد بالمغص، و قد تنكسر المشنقة، قد يقع حادث طارئ لم يتوقعه أحد يتيح له فرصة للافلات. لن يدعهم أبدا يشنقونه. و كان قد جاهد عبثا لقبول هذا المصير، أما الان فسوف يستبعده حتى النهاية. سوف يوقع سجانه أرضا، سوف يصرع الجلاد، و يكافح حتى اخر نقطة من دمه. اه، ليته فقط يستطيع أن يستدرج الكاهن الى فك وثاقه.

كم سيكسب من وراء ذلك. وفي تلك الأثناء كان يجاهد، غير عابىء بأي ألم، كي يقطع الحبل بأسنانه.

بعد وقت طويل قاس، و بعد بذل جهودا مسعورة، نجح في ارخائه قليلا. فنهض واقفا وهو يلهث وسط الظلام، و ذراعاه متورمان و يداه تنيضان، و بعد أن استعاد أنفاسه راح يزحف أكثر فأكثر على طول الجدار، متلمسا الحجر الرطب،انشا بعد انش، لكي يتأكد من أنه لا يحتوي على حواف ناتئة. ثم تذكر الدرج الهابط الذي دفعوه نزولا عليه، بحث عنه ووجده، وجثم رابضا تحته، وحاول أن يقطع الأربطة على حافة إحدى الدرجات. كانت عملية صعبة، بما أن عظام رسغه كانت تحتك بالحجر. وسفع لحمه، وشعر بيديه تتربطان.

ظل يثابر، وعندما بدأ شعاع رفيع رمادي من الضوء يلمع من تحت عقب الباب، كانت الحبال قد اهترأت وأضحت رقيقة حتى بات بإمكانه أن يقطعها. وفعل. وتحررت يداه !.

بيد أنه بالكاد استطاع أن يحرك أي أصبع. بما أن ذراعيه كانتا

خدرتين، ومتورمتين حتى الكتفين. وحاول أن يجبر الدم على العودة إلى الجريان فيهما.

الآن باتت لديه خطة بدت له جيدة. فإذا رفض الكاهن أن يساعده على الهرب، وتركوا الرجل وحده، حتى لمجرد أن يعترف له، فسوف يضربه - سيفي أحد المقاعد في إتمام ذلك، لأن يديه كانتا ما تزالان أوهن من أن تخنقا - ويكسر جمجمته بالمقعد، ثم يجرده من ردائه ويلبسه ويهرب به. وبعد ذلك - يركض ويركض. وسوف تأويه ماري وتخبئه. الأمر يستحق المحاولة. أنه ممكن التحقيق.

لم يكن غولدموند في أي وقت من حياته قد انتظر بزوغ الفجر بمثل نفاذ الصبر ذاك، وتاق إليه، وترقبه، ومع ذلك خشيه. ترقب، بعين صياد، خيط النور الرمادي الرفيع من تحت عقب الباب وهو يزداد سطوعا ببطء، ببطء شديد. ومن ثم عاد إلى الطاولة، وراح يتدرب على كيفية الجلوس، محدودب الظهر على المقعد، بطريقة يتعذر عليهم من خلالها أن يروا على الفور أن رسغيه قد تحررا من جديد.

الآن بعد أن أصبح مالكا لحرية يديه أصبح الموت بالنسبة إليه وهما. سوف يخرج حيا، حتى ولو اضطر إلى تهشيم العالم في سبيل ذلك. وأخذ جسمه يرتعش اشتياقا للتحرر. من يدري - قد تأتي المساعدة من الخارج. إن آغنس كانت مجرد امرأة، وليست قوية جدا. قد ينتابها الخوف وتدعه يموت إكراما لها. ولكن مع ذلك، لقد أحبته، وقد تقوم بمحاولة ما. لعل وصيفتها، برثا، تتسلل إلى الباب، ثم ألم تقل إن ثمة مرافقا وفيا لها؟ حتى وإن لم يأته أحد برسالة فإن لديه خطته الخاصة، جاهزة للتنفيذ. فإذا أخفقت فسوف يصرع سجانيه بمقعد، أكانا إثنين، أم ثلاثة أو قدر ما يرسلون إليه. وهو يتميز بشيء - أن عينيه اعتادتا على الظلام. والآن وعلى ضوء الفجر يمكنه أن

يرى شكل وحجم كل شيء من حوله، في حين أن الآخرين سوف يكونون شبه عميان.

ربض خلف الطاولة وهو يراقب بتلهف الازدياد الطفيف في الضوء تحت عقب الباب، فارضا على نفسه التخطيط المسبق لكل كلمة سوف يقولها للكاهن، بما أن هذا على الأقل ما يجب أن يحاوله. واللحظة التي كان قبل ساعة من الوقت يخشاها أصبح يتوق إليها، حتى لم يعد الآن يطيق صبرا على انتظار حلولها. وهذا الانتباه المتوتر كان قد أضحى غير محتمل. إن قوته، وسرعته، وتصميمه سوف تفقد حدتها تدريجيا إذا طال انتظاره. لا شك في أن هذا الكاهن مع السجان سوف يصلان قبل أن تنحسر رغبته في العيش.

على الأقل فإن العالم الخارجي قد بدأ ينهض، والعدو متربص به. ثمة وقع خطّى يقرقع على أرض الفناء، وها هو مفتاح يقحم في القفل: أدير فيه، وكل صوت من هذه الأصوات بدا، بعد طول هدوء وظلام، أشبه بقصف الرعد.

أخذ الباب الثقيل يفتح ببطء، على مفاصل صارّة. ودخل الكاهن إليه وحده لا يصحبه أي سجان أو خادم، وحاملا مصباحا مزدوج اللهب. وهذا شيء لم يتوقعه السجين.

أما الغريب في الأمر والمؤثر أن هذا الكاهن الذي أغلقت يده غير المرئية الباب خلفه، كان يرتدي رداء دير ماريابرون الشهير، الرداء المميز لموطنه، الدير، الرداء الذي يلبسه الأب الرئيس دانييل والأب آنسليم، والأب مارتن. أشاع مرآه فيه الاضطراب فأشاح بعينيه عنه. لعل هذا وعد بالهرب. وأيضا قد لا يكون هناك مفر من قتله. وعقد عزمه على ذلك. سيكون صعبا عليه أن يصرع هذا الكاهن.

الفصل السابع عشر

قال الأب: «المجد ليسوع المسيح»، وحط مصباحه على الطاولة. أطرق غولدموند رأسه، وتلفظ بجواب.

لم يقل الكاهن أي شيء. وقف مترقبا، دون الإدلاء بكلمة واحدة، إلى أن انتاب غولدموند القلق وتعاظم، فرفع إليه عينين متعجبتين.

ازداد اضطراب السجين عندما وجد أن هذا الكاهن لم يكن فقط يرتدي رداء ماريابرون المميز، بل ويضع صليب رئيس الدير، وخاتمه أيضا. ثم دقق النظر في وجه هذا الرئيس، وجه نحيل، صارم التقاطيع وواضح القسمات، مع شفتين من أرقها، وجه كان يعرفه. وحدق غولدموند كالمسحور، إلى هذا الوجه الذي بدا كتلة من الإرادة والذكاء. مد يده إلى المصباح بحركة غير واثقة، ثم رفع الضوء، وقربه من عيني الغريب. رآه، وكان اللهب يرتعش وهو يعيده إلى الطاولة.

همس بصوت غير مسموع: «نرسيس». وكان كل شيء يدوم أمام عينيه.

«نعم، يا غولدموند، كان اسمي نرسيس ذات يوم، أمّا الآن فلم يعد كذلك بما أني قد طرحت هذا الاسم. أنسيت أنّي اتّخذت اسم يوحنا عندما رسمت كاهنا؟».

اهتز قلب غولدموند من الأعماق. لقد تبدل وجه العالم بالنسبة إليه. وتراخى فجأة توتر الساعات الأخيرة: اهتز كيانه كله، وحوّل

الدوار رأسه إلى كيس فارغ، وجاش بطنه، وكَمُنَت في عينيه دموع حرّة حارقة، وهدد النشيج بهز جسمه كله. كان كل شيء في كيانه يتوق إلى أن يخر على ركبتيه ليجهش بالبكاء.

لكن من أعماقه التي فتحها له مرأى نرسيس، هاجت ذكرى مخدرة لفترة فتوته: فذات مرة، وكان فتى، أجهش بالبكاء، وترك الانفعال العاطفي يغرقه، أمام هذا الوجه الرصين، الجميل، وهاتين العينين الكلّيتي المعرفة. ويجب أن لا يفعل ذلك ثانية. وها هو ذا نرسيس قد حضر، مثل شبح، وفي الساعة الأشد حرجا في حياته كلها، ويبدو أنه أحضر له إرجاء مؤقتا لموته. فهل يقف ثانية يبكي أمام صديقه، يخر على قدميه في حالة خدار؟ كلا ! كلا ! يجب أن يتمالك نفسه، ويسيطر على زمام قلبه، وأن يجبر شجاعته على طاعته، ويزيل الدوار الذي يلف رأسه. لا ضعف الآن ! ونجح في أن يجيب بصوت ملجوم ببراعة:

«يجب أن تدعني أناديك نرسيس مع ذلك».

«ناديني بما تشاء، يا amice. ولكن لم لا تمد إليّ يدك؟».

مرة أخرى ضغط غولدموند على روحه لتجيب بنبرة سخرية تلميذ مدرسة، كما طالما فعل في الأيام الخوالي:

قال بشيء من البرود والضجر: «سامحني يا نرسيس. أرى أنهم حولوك إلى رئيس دير. أما أنا فلست أكثر من متشرد. وبقدر ما أرغب في الدخول معك في حوار طويل، أخشى أننا لن نتمكن من الانخراط فيه. في الحقيقة يا نرسيس، سوف أشنق في غضون نصف ساعة ! أقول لك هذا فقط للتوضيح».

لم تتبدل قسمات وجه نرسيس. إن مسحة التبجح وشجاعة الفتيان التي ما زال صديقه يتصف بهما أثرتا فيه، ومع ذلك سرتاه كثيرا. صحيح أنه كان يتخيل لقاء مختلفا، لكن هذه الملهاة الصغيرة،

أسرت قلبه. وما كان لأي شيء مما يمكن لغولدموند أن يقوله أن يكون سبيلا أوثق للعودة إلى حبه.

قال بلهجة تعادل لهجة غولدموند في لامبالاتها: «بالنسبة إلى المشنقة، أرح بالك، لقد حصلت على عفو، وأنا مفوّض لأخبرك بهذا، وأعود بك. يجب ألا تمكث في المدينة. وهكذا ترى أن لدينا الوقت الكافي ليقول كل منا كل ما يريد. والآن، هلا أعطيتني يدك؟».

تشابكت أيديهما، وظلا واقفين هكذا طويلا، وقلباهما يتسارع وجيبهما بعمق من هذا التلامس. مع أن كلماتهما ظلت، ولفترة أطول قليلا، مفعمة بالعنصر الملهاوي، وبالادعاء.

«حسنا إذن، يا نرسيس - فلنغادر هذه البؤرة الحقيرة. وعليّ أن أرافقك كتابع. هل أنت عائد إلى ماريابرون؟ جيد... ولكن كيف؟ أعلى متن الحصان؟ هذا أفضل. ولكن في هذه الحالة سأحتاج إلى حصان لكي أرافقك».

«سوف تحصل على حصانك يا صديقي، وفي غضون ساعتين يجب أن ننطلق. آه ولكنّ يديك. باسم يسوع - إن جروحهما بليغة وداميتان. آه يا لغولدموند، ماذا فعلوا بك؟».

«لا عليك يا نرسيس. أنا الذي جرحت يدي. كنت موثقا، وأردت أن أتحرر، ولم يكن الأمر سهلا، أؤكد لك. أتعلم أن منتهى البسالة منك أن تدخل لتتلقى اعترافي بدون مرافق!».

«بسالة؟ لماذا؟ ليس هناك من خطر».

«أوه، كلا لا خطر على الإطلاق - فيما عدا أني قد أهشم جمجمتك. هذا ما كنت قد خططت لأفعله، في الحقيقة. لقد قالوا لي إني يجب أن أقابل كاهنا، ففكرت في صرعه وارتداء ردائه ومن ثم الفرار. كانت خطة جيدة».

«إذن كانت لديك رغبة في الحياة؟».

«طبعا. وإن كنت لم أفكر مطلقا في أنهم قد يرسلون إلي نرسيس ليتلقى اعتراف روحي».

تردد نرسيس في القول: «في كل الأحوال، لقد كانت خطة شنيعة. هل حقا كنت ستصرع الكاهن الذي سيدخل ليتلقى اعترافك استعدادا للموت؟».

«ليس أنت يانرسيس – ما كنت طبعا لأصرعك. ولا أيا من رهبانك أيضا. أي لا كاهن آخر – آه، نعم، صدقني !».

فجأة أصبحت نبرة صوته حزينة.

«لم تكن لتكون المرة الأولى التي أقتل فيها رجلا».

ران الصمت عليهما. وجمع بينهما اضطراب النفس.

قال نرسيس بصوت هادئ: «أما بالنسبة إلى كل هذا، فسوف يتاح لنا الوقت للتحدث بشأنه. وإذا أردت فسأسمع اعترافك. أو حدثني عن حياتك، إذا كنت تفضل. سوف يسعدني أن أنصت. هيا بنا».

«دقيقة واحدة أولا يا نرسيس. لقد تذكرت شيئا. كنت ذات مرة قد سميتك «يوحنا»».

«لا أفهم. كلا، كيف يمكنك أن تفهم؟ لقد مرت سنون عديدة منذ أن أطلقت عليك الاسم اسم القديس يوحنا. والآن بات عليك أن تحمله إلى الأبد. لقد كنت، في الحقيقة، ذات يوم نحاتا ومثالا، وهذا ما آمل أن أصبحه ثانية. وأفضل تمثال صنعته في تلك الأيام كان تمثالا من الخشب لقديس شاب، جعلته على صورتك، على الرغم من أني أطلقت عليه اسم القديس يوحنا، وليس نرسيس. إنه يوحنا الحواري تحت الصليب وعليه المسيح مصلوبا».

نهض واقفا، وذهب إلى الباب.

سأله نرسيس برقة: «إذن فقد فكرت بي؟».

أجابه غولدموند بالصوت الخفيض نفسه:

«آه، نعم يا نرسيس – مرارا وتكرارا».

دفع الباب الثقيل بقوة، فأضاءهما معا نور المصباح الشاحب. لم يزيدا أي كلمة أخرى. وقاده نرسيس إلى غرفة الضيوف الخاصة به. وهناك كان راهب فتى منشغلا في إعداد العربات. وقدمت وجبة لغودموند، وعُصِبَ رسغاه مؤقتا. وسرعان ما أخرجت الأحصنة.

بينما هما يستقلان العربة قال غولدموند:

«لدي رغبة أخيرة. دعنا نتخذ الطريق المارة بسوق السمك، ثمة شخص أود أن أراه».

انطلقوا. وأخذ غولدموند ينظر عاليا إلى كل نافذة من نوافذ القصر، ليتأكد من أن آغنس ليست واقفة في إحداها. غير أن عينيه لم تقعا عليها ثانية. وتابعا المسير، مخترقين سوق السمك. وكانت ماري قد أصابها الرعب قلقا على سلامته، واستأذن منها الرحيل، ومن والديها، ووعد بالعودة قريبا، ثم استأنفوا المسير. ووقفت عند الباب تتابعه بنظرها حتى غاب الركب عن الأنظار. وببطء عادت إلى المنزل وهي تعرج.

انطلق الأربعة جنبا إلى جنب: نرسيس، وغولدموند، والراهب الفتى، والجلف المسلح.

سأل غولدموند: «هل ما زلت تذكر «بليس»، مهري الذي كان مربطه الخاص في الدير؟».

«طبعا. وإن كنت لن تجده الآن، ولا أظنك توقعت ذلك قط. لقد

مرت الآن سبع سنين أو ثمان منذ أن ذبح».

«آه، أراك تذكر ذلك؟».

«آه، نعم أذكر».

لم يتألم غولدموند على موت مهره، لكنه فرح لأن نرسيس تذكره بوضوح تام – هو الذي لم يأبه لأي حيوان، وحتما ما كان ليعرف اسم حصان آخر موجود في مربط الدير. وابتهج لذلك.

بادر بالقول: «لعلك تضحك لأن أول ما أردت معرفته من أخبار كان عن مهري الصغير المسكين. إن هذا غير لائق مني. الحق، إن لدي أشياء أخرى أفضل أسألك عنها، وأريد أولا أن أسألك عن الأب دانييل. ولكن بما أنك أنت الآن رئيس الدير، فلا بد أنه قد توفي. وأنا لا أريد أن أسأل عن أي شيء آخر غير الموت. وبالنسبة إليّ فإن هذا الوقت ليس الوقت المناسب للتحدث عن الموت، وذلك بسبب ما جرى لي ليلة أمس، وبسبب الوباء، الذي رأيت من آثاره على الطرقات ما يكفي ويزيد. ولكن الأمر عندي سيان الآن ، كلنا سنموت في يوم من الأيام ! احك لي متى توفي الرئيس دانييل وكيف؟ إني أجلّه أيّما إجلال. وهل ما زال الأب مارتن حيا؟ والأب آنسليم؟ لم تصلني أية أخبار عن أي منكم. إلا أني على الأقل سعيد الآن لأن الوباء لم يصل إليكم، على الرغم من أني لم أتخيل قط أنك من الممكن أن تموت. كنت دائما أعرف من صميم قلبي أن شملنا سيلتئم من جديد. بيد أن المعتقدات يمكن أن تخدعنا، وقد تعلمت هذا بثمن باهظ، منذ أن أدركت أن معلمي، المعلم نيقولاس، حفار الخشب، الذي ما خطر ببالي قط أني سأجده ميتا، واعتمدت بقوة على العودة للعمل معه، وعندما عدت إليه كان قد اندثر إلى الأبد «.

قال نرسيس: «لقد قيل شيء بسرعة. إن الرئيس دانييل توفي منذ

زمن بعيد يعود إلى ثماني سنوات، دون أي مرض أو دون أن يعاني. وأنا لست خليفته. أنا لم أصبح رئيسا للدير إلا منذ العام الفائت. لقد خلفه الأب مارتن، وكان يدير المدرسة، كما تذكر، وتوفي قبل عام، وكان قد شارف على السبعين. والأب آنسيلم أيضا توفي. كان يحبك، وكثيرا ما كان يتحدث عنك. وخلال سنواته الأخيرة، أصبح عاجزا عن السير، وكان الاستلقاء يسبب له ألما مبرحا، لأنه مات متأثرا بداء الاستسقاء. نعم، وقد حل الوباء بنا أيضا. ولكن دعنا من الحديث عنه! هل من أسئلة أخرى لديك؟».

«طبعا لدي – والكثير منها. عن كل شيء. كيف أتيت إلى هنا، إلى مدينة الأسقف، وإلى ضابط الأمن؟».

«تلك حكاية طويلة وسوف تضجرك. تنطوي على الكثير من السياسة. إن الكونت مفضل لدى الامبراطور، ويحظى في بعض المسائل، بمطلق السلطة منه، وفي الوقت الحاضر هناك الكثير من الأمور التي تتطلب التسوية بين الامبراطور وبين رهبانيتنا وقد فوضتني الرهبانية بالتعامل مع الكونت. وكان نصيبي من النجاح ضئيلا».

صمت، وكف غولدموند عن طرح الأسئلة. ولم يتح له قط أن يعرف كيف أن نرسيس حين طلب له العفو ليلة أمس كان عليه أن يدفع مقابلها تنازلات، وإلا ما كان الكونت حتما ليوافق.

تابعوا الطريق، وازداد إحساس غولدموند بالإرهاق، وسرعان ما أصبح الركوب على متن الحصان يؤلمه. وبعد صمت طويل سأله نرسيس: «أصحيح أنهم قبضوا عليك بتهمة السرقة؟ لقد اعتقد الكونت أنك تسللت إلى القصر لتسرق ملابس من الغرف الداخلية».

صمت غولدموند وقال: «هذا ما بدا في الظاهر دون شك. أنا لست

لصا، ولكن كنت مجتمعا مع عشيقته. إني منذهل لأنه أطلق سراحي بهذه السهولة».

«إن الأمر لم يكن سهلا جدا».

لم يتمكنوا من قطع المرحلة التي كانوا قد قرروا قطعها. لقد كان غولدموند أشد إرهاقا من أن يواصل الركوب، ورفضت يداه أن تمسكا باللجام. وفي تلك الليلة حلوا في إحدى القرى، حيث مدد على سرير وقد ظهرت عليه علائم حمى خفيفة، وظل هكذا مستلقيا طوال اليوم التالي. ومن ثم تابع الركوب من جديد. وسرعان ما أخذ يستمتع، بعد أن تحسنت حالة يديه، بملمس الحصان. لقد كان قد مر عليه وقت طويل منذ أن ركب صهوة حصان. واستعاد حيويته، وعاد يشعر بتدفق الشباب وبفيض الحياة، وتسابق مع السائس على امتداد أميال عديدة مقابل رهان، ومن ثم، كان أحيانا يمطر نرسيس بوابل من الأسئلة، المتلهفة، البرمة: وترك نرسيس غولدموند يسأله قدر ما يشاء. ومن جديد، وقع تحت سحره ، أحب سيل شكوكه وطلباته، وقد طرحت كلها بدافع ثقته المطلقة في مقدرته على حلها.

«أريد أن أسألك سؤالا واحدا يا نرسيس. هل حدث قط أن أحرقتم يهودا؟».

«نحرق يهودا؟ ولم نفعل؟ لا يوجد أي يهود في أي مكان بالقرب من ماريابرون».

«افهمني يا نرسيس. إني أقصد ما يلي: هل تتخيل أن بإمكانك في أي لحظة أن تعطي موافقتك على ذبح يهود، أو أن تأمر بذلك؟ لقد كان هناك العديد من الدوقات والأساقفة وعُمد المدن، وأمثالهم من السادة، الذين يصدرون مثل هذه الأوامر».

«من ناحيتي لا يمكن أن أصدر مثل هذا الأمر. لكني قد أضطر

إلى أن أتنحى جانبا، وأشهد ممارسة الوحشية».

«إذن فسوف تتحمل ذلك؟».

«دون شك، إذا لم تكن لديّ القدرة على منعه. هل شاهدت أيا من اليهود يحرق يا غولدموند؟».

«آه، نعم»

«حسنا، وهل منعته؟ ألم تفعل؟ إذن كما ترى».

أخبره غولدموند بقصة ريبيكا، وبينما هو يفعل كان يزداد اتقادا ويمتلئ بالأسى.

ثم أضاف بغضب: «فانظر في أي عالم نعيش. أليس هو أقرب شبها بالجحيم؟ إنه رهيب، ويملؤني بالحنق».

«لا شك في ذلك. هذا هو العالم».

هتف غولدموند: «حسنا، كم مرة قلت لي إن العالم قدسي، وإنه تناغم عظيم من الدوائر، هذا ما قلته، وإن الخالق يتربع في وسطه على عرشه، وإن كل ما صنعه خير، إلخ، إلخ.. وقلت إن كل هذا مثبت في كتابات أرسطو والقديس توما! إني تواق إلى أن أسمعك وأنت تحل مثل هذه التناقضات».

«إن قوة ذاكرتك مثيرة للعجب. ومع ذلك لقد ارتكبت بضعة أخطاء. إني طالما بجلت الخالق بوصفه كاملا، لكني لم أعتبر عمله كذلك. لم أنكر قط وجود الشر في العالم. وكون الإنسان طيب، أو أن حياتنا الأرضية عادلة، ومفعمة بالتناغم، فهذا يا صديقي، يفوق كثيرا ما قاله أي مفكر حصيف. وواضح أكثر في الأسفار المقدسة، أن كل الصراعات والأحلام التي تضطرم في قلوبنا بعيدة عن الكمال، وهذا ما يتأكد كل يوم».

«عظيم. أخيرا بت أفهم كيف تعلمت تكوين رأيك حول الأمن، إذن حسب رأيك، فالبشر أشرار وحياتنا على الأرض مشحونة بالخساسة، والرعب: - أنت تعترف بهذا إذن. لكنك في مكان ما خلف كل ذلك، بين طيات أفكارك وكتب المبادئ الأخلاقية، تكتشف عدالة ما وكمالا ما. إنهما موجودان هناك، ويمكن إثباتهما، ولكن لا أحد يستفيد منهما».

«لقد نجحت في إضمار الكثير من الحقد ضدنا نحن اللاهوتيين، o amice. ولكن مع ذلك فأنت لم تصبح مفكرا بعد. أنت تخلط الأمور، وما زال أمامك القليل لتتعلمه. لماذا تقول، إننا لا نستفيد من فكرة العدالة؟ إننا نفعل في كل يوم، وفي كل ساعة، من ساعات النهار. أنا، مثلا، رئيس دير، وأدير ديرا، والناس في ذلك الدير بعيدون عن الكمال وكثيرو الأخطاء، كأي إنسان في العالم الخارجي. لكننا نعمل بلا كلل، ودون توقف على تطبيق فكرة العدالة على الخطيئة الأصلية لطبيعتنا، ونكافح لنقدّر بها مدى نقصان حياتنا، ونسعى إلى القبض على الشرير، ونظل على صلة وثيقة مع الله».

«آه، لا، يا نرسيس – لم يكن أنت من عنيت. أنا لم أقل قط إنك لست رئيس دير جيدا. لكني أفكر في ريبيكا، وفي اليهود المحترقين، وحفر الموت، وفي الموت الجماعي في كل المنازل والشوارع، عندما كانت جثث الوباء تتعفن وتنتن، وفي كل الرعب والخراب! أفكر في الأطفال الهائمين على وجوههم في الطرقات، دون أصدقاء أو أنسباء، أو من يأويهم، أو في كلاب الأفنية، تكاد تموت جوعا وهي مربوطة بسلاسلها.... وحين أستعرضها مرة ثانية أمام عيني يبدو لي وكأن أمهاتنا قد ولدننا في عالم من الشياطين. كان من الأفضل ألا نخلق، وألا يكون الله قد خلق هذه الأرض المرعبة، وكان من الأفضل لو أن المخلص لم يعلّق دون فائدة على الصليب فداء لنا».

هز نرسيس رأسه موافقا: «معك حق أفرغ كل ما في قلبك، واحك لي كل شيء. ولكن ثمة أمر واحد كنت فيه أبعد ما يمكن عن الصواب. أنت تخطئ إذ تعتقد أن كل تلك هي أفكارك، إنما هي مشاعرك – مشاعر إنسان تحثه وحشية الحياة على العمل. ولا تنس أبدا أن مشاعر أخرى، مختلفة، يمكن أن تحتشد في مواجهة هذا اليأس. إنك حين تكون في حالة انسجام مع حصانك، وتنطلق به تقطع فيافي تسرّ النظر – أو عندما تتسلل ليلا الى أحد القصور لتغازل عشيقة الكونت، دون أن تدري كيف سينتهي الأمر، فإن العالم يبدو مكانا مختلفا كثيرا، ولا يمكن لكل اليهود المحترقين أو للمنازل المبتلية بالوباء أن تعيق سعيك وراء لذة موجودة فيه. أليس هذا صحيحا ؟».

«هو صحيح دون ريب. و لأن العالم مملوء بالموت يجب أن أنسى الموت، ساعة من الزمن، و لكن، مع ذلك، الموت دائما يلازمني».

«أحسنت القول. عظيم، إنك تجد نفسك في عالم زاخر بالموت والرعب، و هكذا، و لكي تفر منه، تهرع الى الانغماس في الملذات. لكنّ الملذات سرعان ما تخبو، تموت و تتركك وسط الفقر».

«نعم، هو ذاك».

«هذا هو حال أغلب الناس o'amice و إن كان قليلون من يفكرون في الأمر بعمق، أو يعبّرون عنه بالحيوية نفسها التي عبّرت أنت بها عنه. وأقل منهم حتى، يشعرون بالحاجة إلى الوعي بما يشعرون. ولكن قل لي: إلى جانب هذا التذبذب اليائس رواحا ومجيئا من الرعب الى المتعة، والعودة مرة أخرى، و تلاعب المشعوذ هذا بحبك للحياة وخوفك من الموت– هل فتشت عن أية طريقة أخرى لنيل السعادة؟».

«اه، نعم، حتما. لقد حاولت أن أعثر على سعادتي كنحات. وقد أخبرتك كيف حققت هذا ذات يوم. ففي أحد الأيام كنت قد أمضيت

ربما سنتين على الطرقات، ولجت كنيسة دير، فوجدت هناك صورة العذراء المباركة، محفورة على الخشب، فاضطرب قلبي من فرط جمالها، وأسرني، حتى أني رحت أبحث عن العالم الذي حفرها. وعثرت عليه وقد كان مخضرما مشهورا. ثم أصبحت متمهنا لديه، وعملت معه مدة سنتين».

«ستحكي لي المزيد عن هذا فيما بعد. ولكن ما نوع العزاء الذي كان النحت يزودك به؟ ماذا كان يعني لك؟».

«كان يعني قهر كل ما يفنى. لقد وجدت أنه يمكن أن يتبقى من تشقلب أولئك المهرجين وفي رقصة الموت، شيء من حياتنا، ويعيش بعد موتنا- هو صورنا. بيد أنها هي أيضا تفنى في النهاية. فهي تطمر، أو تتعفن، أو تتكسر من جديد. ومع ذلك فعمرها أطول من أي حياة إنسانية، بحيث إننا نحصل بالصور، وخلف كلّ لحظة تمر، على أرض مملوءة بالأضرحة المقدّسة والتماثيل النفيسة التي يخيّم عليها السكون. وكنت أجد العمل فيها شيئا جيدا وكان يريحني لأنه يعي تثبيت الزمن الى الأبد».

«إن كلامك يسعدني، يا غولدموند، وآمل أن تتوصل إلى حفر المزيد من تلك الصور. إن ثقتي في مهارتك عظيمة. في ماريابرون يجب أن تكون ضيفنا لفترة طويلة، واسمح لي أن أقيم لأجلك هناك ورشة عمل. منذ سنين كثيرة لم يحو ديرنا على فنانين محترفين. لكني أظن، بالاعتماد على كلامك، أنك لم تستنفد كل عجائب الفن. أعتقد أنه لكي تحتوي الصور الأكثر صدقا على أكثر من ذلك الشيء الحيّ ويراه الجميع، يجب أن تكون خالدة، وهكذا تنجو من الموت. لقد شاهدت الكثير من أعمال الرسامين والنحاتين، العديد من صور القديسين وصور السيّدة العذراء، ولا أعتقد أنها تمثل نسخا صادقة

لشكل أي شخص كان حيا ذات يوم، أحاط الصانع بشكله ولونه ومن ثم حفظه».

هتف غولدموند:» معك حق، ولم يخطر ببالي قط أن لديك كل هذه المعرفة بما يمكن للمحترف الحقيقي أن يفعله. إن نموذج أي صورة ليس شكلا أو هيئة حقيقية، حية، على الرغم من أن مثل هذه الهيئات قد تحث الصانع على صنعها. ونموذجها الأول الحقيقي ليس من لحم ودم، وإنما يسكن في الذهن. ومثل هذه الصور مسكنها في روح الفنان المحترف. وداخلي أيضا يا نرسيس، تعيش صور مثلها، آمل أن أسلكها ذات يوم، و أعرضها عليك».

«هذا يسرني كثيرا. ولكن انظر يا amice، كيف دون أن تدري انحرفت، وولجت الى الفلسفة، وسميت أحد أسرارها».

«لا يجوز أن تسخر مني».

«وأنا لا أسخر منك. لقد تكلمت عن «النماذج الأصلية»- وعن صور لا وجود لها الا في روح النحات، لكنه يحولها الى مادة يجعلها مرئية. وهكذا، قبل أن يصبح بالإمكان رؤية أشكال هذا النحات بوقت طويل، لتحقق بذلك واقعها الشكلي، تكون موجودة فعلا، كصيغ داخل روحه. وهذا «النموذج الأصلي»، نفسه - هذا الشكل - هو، وبدقة متناهية، ما سماه الفلاسفة الأقدمون «الفكرة» «.

«يبدو هذا صحيحا تماما».

«ولكنك حالما تتحدث عن أفكار، تكون قد أخذت تلج عالم الفكر، عالمنا نحن اللاهوتيين والفلاسفة، وبهذا تعترف أنه وسط كل هذه الفوضى والألم، ساحة الوغى- رقصة الموت المرهقة التي لا نهاية لها، هذه التي تؤديها مادتنا الحية والجسدية، هناك روح تصوغ أشكالا أبدية. اسمع، إني لطالما أدركت فيك هذه الروح، منذ أن جئت إليّ أولا

وأنت فتى. لكن أفكارك ليست أفكار فيلسوف، وإن كانت قد أنارت لك سبيل الخروج من حالة الحيرة والحزن التي تغمر أحاسيسنا، والتقلب القلق بين اليأس والشهوة. آه، يا غولدموند- كم يسعدني أن أسمعك وأنت تتكلم هكذا. إنّي أنتظر هذه اللحظة منذ الأيام الخوالي، منذ تلك الليلة التي غادرت فيها أستاذك، ووجدت الشجاعة الكافية لتكون نفسك. وها نحن قد عثر أحدنا على الآخر ثانية».

بدا لغولدموند في تلك اللحظة، كأنما أصبح لحياته معنى- أصبح يرى كل شيء بوضوح، وكأنما من عل، رؤية واضحة، من ثلاثة أبعاد: اعتماده على نرسيس، أيام حريته وتجواله، تناغمه من جديد مع نفسه، نضج المحصول و إيناعه.

تلاشت الرؤيا. لكنه عثر على علاقة قيّمة مع صديقه. لم يعد نرسيس المعلم وهو التلميذ. لقد أصبحا حرّين ومتعادلين ويمكن لكل منهما أن يقدم يد المساعدة للاخر. بإمكانه أن يكون ضيف رئيس الدير هذا دون تلكؤ، ما دام قد رأى فيه نرسيس ندا له. وبينما كانا يخبان معا على الدروب، راح يحلم، باشتياق، وسعادة مضطردتين، باليوم الذي سيكاشف فيه نرسيس، ينشر حياته الروحية، على صورة أشكال عديدة. الا أنه كان أحيانا تنتابه بعض الهواجس.

قال يحذره: «أخشى يا نرسيس أنك لم تأخذ في حسبانك مصاعب ما أنت مقدم عليه. أتدري من الذي دعوته إلى ديرك؟ أنا لست براهب ولن أكون. أنا أعرف النذور الثلاثة العظمى، وعلى الرغم من أنه ليس لدي ما أقوله ضد الفقر، فإني أمقت العفة و الطاعة. أما بالنسبة إلى الحماسة، فلم يتبق منها شيء لدي. و منذ سنين عديدة لم أصل، أو أعترف، أو أتلق القربان».

لم يدع نرسيس هذا يكدره:

«يبدو أنك تحولت الى وثني. لكننا لا نخشى أيا منهم. لست بحاجة الى أن تفخر بخطاياك الكثيرة. لقد عشت الحياة الدنيوية المبتذلة، ورعيت الخنازير مع كل المسرفين، حتى بت الآن لا ترى في أي قانون، أو رهبنة جيدة، أي معنى. لا شك في أنك ستكون راهبا سيئا جدا. لكني لم أطلب منك قط أن تنظم الى الرهبنة. إنّ كل ما أطلبه هو أن تعيش معنا كضيف لنا، وتدعنا نقيم لك ورشة عمل. وثمة أمر آخر- لا تنس أني كنت من أيقظ أحاسيسك، في فتوتك، وجعلتها تقودك الى قلب العالم. وقد تكون رجلا صالحا أو طالحا، وسأكون أنا بعد كل شيء المسؤول عن ذلك. سوف أعرف حقيقتك، بما أنك سوف تكشف لي عنها بالكلام، وبسرد قصة حياتك، وبالصور. فإذا وجدت أن بيتنا لا يلائمك فسوف أكون أول من يطلب منك أن تغادرنا».
كانت هذه الكلمات كلما تفوه بها نرسيس تملأ صديقه بالإعجاب. وعندما كان يتكلم هكذا، كرئيس دير، بنبرة الثقة الهادئة التي تسود صوته وتلميحه الساخر إلى عشاق الدنيا وإلى حياتهم، يدرك غولدموند ماذا صنع صديقه من نفسه. هاك رجلا - كاهنا حقا، ذا يدين رقيقتين، بيضاوين، ووجه رجل دين، لكنه رجل ملؤه الشجاعة والعزم، ومسيطر، يتنكب مسؤولية كل شيء. إن هذا الرجل نرسيس، لم يعد ذاك الطالب الفتى الذي عرفه، لم يعد القديس يوحنا، التلميذ الرقيق اللطيف. يجب أن ينحت تمثالا آخر لهذا الصديق الجديد، إن هذا الفارس والقائد يلزمه يديه لتشكلاه. كم من أشكال تنتظره! لنرسيس، وللرئيس دانييل، وللأب آنسيلم، وللمعلم نيقولاس، ولريبيكا، وللرقيقة آغنس، ولكثيرين كرههم أو أحبهم، أحياء وأموات. لا، إنه لا يريد أن يكون راهبا. إنه يريد أن ينحت، ومع ذلك فهو يفرح حين يفكر في أن بيته الأول سيكون ورشته.

تابعوا طريقهم في طقس أواخر الخريف، البارد، إلى أن وصلوا، في يوم امتدت فيه أغصان الأشجار في الصباح، وابيضّت بفعل الصقيع، وخيّمت فوق الدروب، إلى أرض سخية رقراقة المياه، تكتنفها من كل جانب مساحات واسعة من المرج ذي اللون الأسمر المحمرّ، حيث بدت حدود التلال النائية الممتدة مألوفة بشكل غريب، إلا أنها بدت كأنها تنطوي على شيء من التهديد، وتقدموا على طول حواف أيكة عالية من أشجار السنديان، بالقرب من جدول جار، مرورا بحظيرة جعل مرآها قلب غولدموند يثب. والآن تعرف من جديد، بمزيج من الفرح والحزن على تلك التلال نفسها التي كان قد اعتلاها مع ليديا، وشاهد المرج الذي كان قد سار عليه بخطى متعبة، منبوذا وحزينا، مخترقا رقائق الثلج الرقيقة. ثم وصلوا إلى سرخس جاري الماء،إلى الطاحونة،والقصر، إلى أن شاهد، بفرح موجع، نافذة الغرفة ذاتها التي سمع من خلالها، في أيام فتوته، قبل زمن بعيد، الفارس يقص حكايا الحج، وكان ساعد سيده في سد الثغرات في معرفته باللغة اللاتينية. واصلوا تقدمهم إلى الفناء، بما أن تلك كانت إحدى مراحل رحلتهم. والتمس غولدموند من رئيس الدير ألا يذكر اسمه هنا، بل أن يدعه يتناول الطعام مع القرويين، على المائدة السفلى. وهكذا كان. لم يعد الفارس موجودا، ولا ليديا. لم يبق إلا بضعة من الخدم العجائز والصيادين، وداخل المنزل كانت سيدة مزدرية، وفائقة الجمال، تسيطر على المكان وتعيش فيه مع زوجها – إنها جوليا، جالسة إلى جانب زوجها على المائدة العالية. وما تزال عذبة كما تذكرها، ومشرقة، مع شيء من الخبث. ولم تتعرف هي ولا زوجها الفارس على غولدموند.

بعد العشاء تسلل، تحت جنح عتمة المساء، خارجا إلى الحديقة،

ملقيا نظرة خاطفة عبر السياج إلى مساكب الزهور التي ذوت، وتدرج ببطء إلى باب الاسطبل، وراح يتلصص من خلال أحد الشقوق إلى الجياد. ثم نام مع ساسة الخيل وسط القش. وجثم عليه حمل من الذكريات حتى أن نومه اضطرب مرات عديدة بسببها. كم كانت حياته مشتتة وعقيمة، غنية بألوان صورها، غير أنها تهشمت إلى شظايا كثيرة جدا، وشحيحة القيمة، وفقيرة في الحب. وعندما استعدوا في اليوم التالي للانطلاق من جديد ألقى نظرة قلقة إلى النوافذ، لعله يرى جوليا تطل من إحداها. تماما كما فعل قبل فترة وجيزة، وهو يقف في فناء قصر الأسقف، حين أخذ يلتفت وراءه، ليتأكد من أن آغنس لم تظهر، لكنها لم تأت، ولا جوليا أيضا جاءت! وقال في نفسه، هكذا كانت حياته، رحيلا دائما، هروبا، ثم يطويه النسيان، ويعود وحيدا صفر اليدين، بارد القلب. وظل طوال يومه والتفكير في هذا يسممه، ولم يقدر على البوح، بل ظل جالسا على سرجه، عابسا. وتركه نرسيس مع حالته النفسية.

لكن، ها هم أخيرا يقتربون من بيتهم، وبعد مرور بضعة أيام بلغوه. وقبل فترة وجيزة من ظهور أبراج الدير وسقوفه للعيان قطعوا الأرض المراحة الحجرية نفسها التي كان — كم من السنين مرت على ذلك — قد خرج إليها ليقطف منها أعشابا للأب آنسيلم، واجتازوا الحقل الذي جعلت منه الغجرية، ليزا، فيه عاشقا. مروا من البوابات، وترجلوا تحت شجرة الجوز في الساحة. وداعب غولدموند جذعها برفق. وانحنى ليلتقط شقة من القشرة الخارجية الواخزة، كانت قد وقعت على التربة، بنية اللون وذاوية.

الفصل الثامن عشر

في أول الأمر قطن غولدموند في قبو الضيوف داخل المعتزل. ومن ثم، وبناء على طلبه، أعطوه مسكنا يواجه دكان الحداد، في أحد الأبنية الإضافية العديدة المحيطة بالفناء الشاسع، الواسع كساحة السوق.

هذه العودة كانت تخبّئ ذكريات قوية التأثير حتى أنه كان يشعر أنه مفتون. وهؤلاء القوم، من رهبان وأناس عاديين، انهمكوا في أعمالهم، وتركوه وشأنه. وواصلوا حياتهم القوية المحكمة التنظيم من حوله. لكن الأشجار الباسقة في الفناء تعرفت عليه، والأبواب المقوسة، والنوافذ المدببة، وحجارة الرصيف اللوحية في كل ممر، وشجيرات الورد الذابلة في الدير، وأعشاش طيور اللقلق المبنية فوق سقف حجرة الطعام، ومخزن القمح. إن كل عود وحجر يحمل ذكرى ما رقيقة عن أيام فتوته، وحبه يحمله على أن ينشد كلا منها، وأن ينصت من جديد إلى كل صوت في الدير، إلى قرع نواقيس يوم الأحد، ونواقيس الشعائر الدينية، وخرير جدول الطاحونة القاتم الجاري بين جدرانه الضيقة، الخضراء اللون من نمو الطحالب، وقرقعة الصنادل، وخشخشة المفاتيح في المساء، أثناء قيام الأخ البواب بجولاته الليلية. وبجانب الميزاب الحجري الذي كان ماء المطر يقطر فيه من سطح قاعة طعام المدنيين، كما في أيام زمان، كانت الأعشاب الصغيرة نفسها ما تزال تنمو، إبرة الراعي ولسان الحمل. وشجرة التفاح النامية في حديقة

الحداد، كانت تنشر واسعا أغصانا كثيرة العقد، كعهدها في السابق. ولكن ما كان يبهجه أكثرمن أي صوت أو مشهد آخر، هو سماعه الرنين الناعم لجرس المدرسة، وأيضا مراقبة تلاميذ الدير أثناء ساعة اللعب، وهم يهرولون مقعقعين هابطين الدرج إلى الفناء. كم بدوا جميعا غضين ونضرين وحمقى. أكان حقا هكذا غضا، ومرحا ومتورد الوجنتين وغرا؟.

لقد عثر داخل هذا الدير الذي عرفه حق المعرفة، على دير آخر، بالكاد تعرف عليه. في اليوم الأول صدمه، ثم أخذ جماله و مغزاه يتناميان، بحيث استغرق منه الأمر بعض الوقت حتى أصبح جزءا من الآخر. وهذا الدير الجديد لم تكن له معالم جديدة، فكل شيء قائم بالضبط حيث ألفه وهو فتى، وحيث كان موجودا منذ مئات السنين قبل مجيئه. إنه هو الذي لم يعد ينظر بعيني فتى. إنه يستطيع أن يشعر بتراكم هذه الأبنية و يعجب به، وبقوة الأسقف المعقودة في الكنيسة، وبجمال الرسومات القديمة، وبالتماثيل الخشبية و الحجرية القائمة فوق المذبح، وفي كل مشكاة فوق الأبواب. إلا أنه كان قد تعرف عليها كلها من قبل. والآن أصبح يقدر جمالها و جمال الروح التي صنعتها.

كان يقف في الكنيسة العليا أمام تمثال أم الرب الحجري القديم حتى في عهد فتوته كانت تشيع السرور في نفسه، وقد حاول أن ينسخ صورتها مرات عديدة. ولكن الآن فقط أصبح يعي، وعيا تاما، أنها تحفة فنية، عمل لن يتمكن أبدا من التفوق عليه، حتى ولو بذل في ذلك أقصى طاقات حرفيّته. وهناك الكثير من الروائع مثلها في ماريابرون، ولكن ولا واحدة منها تبرز بوصفها مصادفة سعيدة، وكلها انبثقت من روح واحدة. وكل منها تحتل مكانها الخاص تحت هذه الأسقف المعقودة، بين هذه الجدران والأعمدة العتيقة، وكأنها

تؤلف بيتها الطبيعي.

إن كل ما بنته تلك القرون العديدة، ونقشته، ورسمته، وأخرجته فكرا، وعاشته، وعلمته هنا، انبثق من أروقة واحدة، ولد من روح واحدة، وهو مترابط كأغصان الشجرة.

شعر غولدموند بالصغر وسط هذا العالم المنظم. وأكثر ما شعر بالصغر عندما رأى نرسيس، رئيس الدير يوحنا، صديقه الحميم يحكم هذه الوحدة العظيمة ويتحكم فيها. ومهما كان البون الشاسع القائم بين الأفراد يميز بين هذا الرئيس يوحنا المثقف الرقيق الشفتين والرئيس دانييل اللطيف، البسيط، العطوف، فإن كلا منهما يخدم المجموعة ذاتها، الفكر ذاته، قانون الحياة ذاته، ومنحها جسمه كتَقَدِمَة، وأخذ منها المنزلة والقيمة. وهذا ما جعلهما متشابهين كردائهما.

هنا وسط ديره الخاص، تنامى نرسيس حتى أضحى عملاقا في عيني غولدموند، وإن ظل ينجح في معاملته كضيفه الدمث ورفيقه المخلص. وسرعان ما بات لا يجرؤ على مناداته بنرسيس.

ذات مرة قال له: «اسمع أيها الرئيس يوحنا، سوف أضطر إلى أن أتعلم أن أناديك بهذا في آخر المطاف! يجب أن أبلغك بأني أجد المقام معك ممتعا. لقد كدت تنجح في استدراجي إلى الإدلاء باعتراف عام، حتى إذا تمت التوبة بعد ذلك، أتوسل إليك أن تقبلني كأخ عادي لك. ولكن اسمع – إن ذلك سيعني نهاية صداقتنا. سوف تكون رئيس الدير، وسأكون أنا أخا عاديا. أما أن أعيش هكذا كما أنا إلى الأبد، وأقف لأتفرج عليك تكد وتتعب، وأبقى أنا لا شيء، لا أفعل أي شيء – فهذا ما لن أحتمله بعد الآن. أريد أن أعمل، أن أريك ما أنا فعلا، حتى تحكم عندئذ إن كنت تعتقد أني أستحق أن أنجو من المقصلة».

قال نرسيس بلهجة أكثر رسمية ودقة حتى من المعتاد: «إني فرح بسماعي هذا الكلام، وسوف أرسل في طلب الحداد والنجار على الفور وآمرهم أن يكونا تحت تصرفك. استخدم ما في استطاعتك أن تعثر عليه في الدير، أو أي شيء آخر تحتاج إليه، يمكنك أن تضعه في قائمة وترسلها إليّ وسوف أرسل في طلبها على وجه السرعة. والآن، ستسمع رأيي فيك وفي أهدافك. يجب أن تمنحني بعض الوقت لأبوح لك بما يجول في خلدي. أنا فقيه، وسوف أكافح لأعالج المسألة كما أفهمها. وليست لدي لغة أخرى غير لغة الفيلسوف. فهل ستنصت إلي من جديد، بصبر وأناة، كما كنت تفعل في السابق؟.

«سأحاول أن أتابعك يا نرسيس».

«أتذكر كيف كنت كثيرا ما أقول لك، حتى في أيام المدرسة، إنك شاعر؟ وفي تلك الأيام كنت أعتبرك شاعرا، بما أنه كان هناك دائما في كتاباتك كما في نوعية قراءاتك إحساس معين بضيق الصدر من كل ما هو مجرد ومفاهيمي. كنت أكثر ما تحب في اللغة رنينها، أو أية كلمة تنقل صورة محسوسة، بمعنى كلمة ترسم لوحة».

قاطعه غولدموند: «اغفر لي، ولكن أليست هذه المفاهيم والمجردات التي تقول إنك تفضلها على الصور هي لوحات بحد ذاتها؟ أم هل يحتاج الأمر حقا إلى استخدام الكلمات التي لا تعطي أي صورة واضحة عن أي شيء؟ كيف يمكنك أن تفكر، إلا إذا تصورت شيئا».

«سؤال جيد! لا شك أبدا في أن في استطاعتنا أن نفكر دون اللجوء إلى الصور. ليس هناك أي صلة على الإطلاق بين التفكير والتصور. التفكير لا يتم عن طريق الصور، وإنما بالمفاهيم، والصيغ. فحيث ينتهي الشعر تبدأ الفلسفة، وهذا ما كنا غالبا نتشاجر حوله، أيام زمان. إن العالم بالنسبة إليك كان يتألف من صور، أما بالنسبة

إليّ فمن المفاهيم، لطالما كنت أقول إننا لن ننجح في جعلك فقيها، وقلت أيضا إن هذه ليست نقيصة فيك، بما أنك كنت لا يُشق لك غبار في عالم الصور. والآن، أنصت، وسوف أوضح لك كل شيء. لو أنك بدل من أن تهرب إلى العالم الخارجي، مكثت هنا وصرت فقيها، فلعل نهايتك كانت ستؤول إلى تحطيمك معنويا، كنت ستتحول إلى صوفي. والصوفيون، وسأقولها لك بفصيح العبارة، هم أولئك المفكرون العاجزون عن تحرير عقولهم من الصور، وبالتالي فهم ليسوا بمفكرين على ي حال، إنهم شعراء سرّيون، شعراء بلا شعر، ورسامون بلا ريشة رسم، موسيقيون بلا أَي نوتات. هناك الكثير من الصوفيين الجيدين والفائقي الموهبة، لكنهم جميعا بلا استثناء تقريبا تعساء. وكان من الممكن أن تغدو واحدا منهم. ولكن ها أنت، والحمد لله، حرفي ماهر، قهرت عالمك الخاص، الذي يمكنك أن تكون فيه سيدا وخالقا، بدل أن تظل مفكرا ناقصا».

قال غولدموند: «أخشى أني لن أحيط بشكل صحيح بأسلوبك في التفكير بمنأى عن الصور».

«آه، نعم، سوف أشرح لك، وعلى الفور. اسمع، إن المفكر يجهد كي يكتشف جوهر العالم بواسطة المنطق، وبالتالي يحدده. إنه يعرف أن فهمنا ومنطقنا، أداته، هما آليتان ناقصتان في الاستخدام — تماما كما أن الحرفي الماهر يعرف حق المعرفة أنه لا يوجد أية فرشاة رسم أو إزميل يمكنه أن يعطي شكلا مثاليا ساطعا كقديس أو كملاك. ولكن كلا النوعين — المفكرين والحرفيين — يكافحان لفعل ذلك، كل على طريقته. وهذا كل ما يمكنهما عمله، أو يجرؤان على عمله. وهذان يمثلان أرقى، وأهم نشاطين إنسانيين، بما أن كليهما يكافح لتحقيق ذاته بواسطة المواهب التي منحتها الطبيعة لهما. لهذا تراني اعتدت

أن أقول لك: «لا تحاول أن تقلد الزهاد والمتفقهين، بل كن ذاتك، واعمل على تحقيق ذاتك».

«أكاد لا أفهم ما ترمي إليه. ولكن ما معنى قولك: «حقق ذاتك»؟».

«هذا مفهوم خاص بالفيلسوف، ولا أستطيع أن أشرحه لك بأيّ كلمات أخرى. بالنسبة إلينا، نحن أتباع أرسطو والقديس توما، إن أسمى المفاهيم جميعا هو الوجود الكامل. والوجود الكامل هو الله. وكل موجود آخر هو فقط ناقص. إنه ناقص ويصيرعلى الدوام، وهو مزيج، مؤلف من مجموعة احتمالات. لكن الله كل. هو واحد، ولا احتمالات له، وهو كمال كلي وواقع كلي. أما البشر فزائلون. نحن نصير، نحن احتمالات، وبالنسبة إلينا لا وجود للكمال، وليس هناك وجود نهائي. ولكن من خلال كل ما نمر به، من الإمكانية إلى الفعل، من المحتمل إلى المنجز، لنا نصيبنا من وجود لله الحقيقي هذا. هذا ما أعنيه عندما أقول «تحقيق الذات». لا بد أن تكون تجربتك قد علمتك هذا، وأنت قد نحت أشكالا كثيرة في حياتك. فحين يبدو لك أي من هذه الأعمال قد أنجز فعلا، وبعد أن تخرج شكلا إنسانيا إلى الوجود، متحررا من كل ما هو غير جوهري، ويحتفظ داخله بصيغته الواضحة والمثالية، فإنك كحرفي تكون قد «حققت» صورة ذاك الإنسان».

«لقد فهمتك».

«إنك تراني amice، هنا في دير، أشغل منصبا يسهل نسبيا لشخص له مثل طبيعتي أن يحقق ذاته. إني أعيش في مجتمع وتراث يعززان جهودي. إن الدير ليس جنة، إنه مملوء بالنقص، وبالخطيئة: ولكن مع ذلك، بالنسبة إلى أمثالي، إن قانونا مطبّقا جيدا أفضل بكثير من الحياة الدنيوية. وأنا لا أتحدث فقط عن السلوك والعادات والمبادئ الأخلاقية، وإن كان الفكر المجرد، الذي يجب أن أستخدمه

وأعلمه، بحكم مهنتي، يتطلب، حتى في الممارسة، حماية معينة من مؤثرات دنيوية. وهكذا، كانت مهمتي هنا، في ماريابرون، أسهل بكثير لأحقق ذاتي من خلالها من مهنتك أنت في الحياة في الخارج. إني شديد الإعجاب بك لأنك عثرت على سبيلك وجعلت من نفسك حرفيا وفنانا. لقد كانت حياتك أصعب بكثير من حياتي».

احمر غولدموند خجلا لدى سماعه هذا المديح، لكنه أشاع البهجة في نفسه، وقاطعه، ليغير الموضوع.

«على الرغم من أني فهمت معظم ما كنت تقوله، إلا أن ثمة شيئا واحدا لا أستطيع إدراكه. هذا الشيء الذي سميته لتوّك «الفكر المجرّد» لا بد أنه نوع من الفكر لا يحتوي على أي شيء، أو فلأقل إن الكلام فيه لا يعبر عن أي شيء».

«حسنا، إليك مثال لتوضيح الأمر. فكر في الرياضيات. ما الصور التي تحصل عليها من الأعداد؟ من علامتيّ الزائد والناقص؟ أو من المعادلة؟ لا شيء على الإطلاق. و عندما تحل مسألة رياضية أو جبرية فلن تساعدك في ذلك أية صورة مهما كانت. إن كل ما تفعله هو أنك تقوم بفرض منهجي، باستخدام طريقة معينة كنت قد تعلمتها».

«هذا صحيح، يا نرسيس. فعندما تكتب لي صفا من الأرقام أو العلامات، أستطيع أن أشق طريقي دون اللجوء إلى أية صور، وأترك أمر مساعدتي إلى علامات الزائد والناقص، والجذور التربيعية، والأقواس، وهلم جرا. أو بعبارة أصح كنت أستطيع أن أفعل ذلك ذات مرة! أنا اليوم نسيت كل شيء. لكنني لا أفهم كيف يمكن لمثل هذا الفرض المنهجي أن يفيد أي إنسان إلا بوصفه تدريبا ذهنيا لتلاميذ المدرسة. لا شك في أنه من الجيد جدا أن نتعلم الحساب. لكنني أعتقد أنه لا معنى من أن يمضي الإنسان حياته جالسا يحل مسائل حسابية،

ويملأ صفحات من الورق بصفوف من الأرقام».

«أنت مخطئ يا غولدموند. أنت تتصور أن مثل هذا المنهك في الحساب يحسب ويحسب، ويحل فروضا مدرسية جديدة، وضعها أستاذ مدرسة. لكن في استطاعته أن يضع لنفسه مسائله الخاصة، ويمكنها أن تتنامى في ذهنه حتى تكتسب قوة جبارة. ولا بد أن المفكر قد عمل على فراغ حقيقي أكثر وأشد تخيلا، رياضيا، وخطط له، قبل أن يجرؤ على مواجهة مشكلة الفراغ ذاته».

«نعم، ولكن مشكلة الفراغ هذه، بوصفها موضوعا للتفكير، لا تبدو لي أنها تستحق من أي إنسان أن يبدد جهده وسنين عمره عليها. إن كلمة «فراغ» لا تعني لي أي شيء. ولا تستحق بحد ذاتها أي تفكير، إلا إذا كان بوسعي أن أتصور فراغا حقيقيا - فلنقل فراغا بين النجوم. وإن كان مما لا شك فيه أن رؤية هذا، وقياسه، لن يكون طريقة سيئة لقضاء الوقت». قاطعه نرسيس مبتسما:

«إن ما تعنيه حقا هو أن التفكير في حد ذاته يبدو لك عقيما، وليس تطبيق الفكر على العالم المرئي والعملي. وأستطيع هنا أن أجيبك. إننا سوف لن نعدم الفرص، ولا الإرادة، لتطبيق فكرنا. إن هذا المفكر، محسوبك نرسيس، على سبيل المثال، قد استخدم نتائج تفكيره، أكثر من مئة مرة، نيابة عن غولدموند، صديقه، ونيابة عن كل راهب من الرهبان، وأفعل هذا في كل ساعة. ولكن كيف يمكن للمفكر أن يطبق أي شيء، إلا إذا تعلمه، ومارسه أولا؟ إن الشعراء والحرفيين يمارسون على الدوام مشاهداتهم وأخيلتهم، ونحن نمتدحهم على مهارتهم، حتى وإن استخدموها لإعطائنا صورا سيئة أو زائفة، لا يمكنك أن ترفض فكرا كهذا، ومن ثم لا تطلب إلا «استخداماتها العملية». إن التناقض واضح. إذن دعني في سلام لأقلّب أفكاري، وأعطني رأيك

حين أعرض عليك نتائجها، تماما كما أني سوف أحكم على حرفيتك من خلال أعمالك. وأنت حاليا قلق ومتقلب المزاج لأنه ما زالت هناك عقبات تقف حائلا بينك وبين حرفتك. أزحها، إذن! جد ورشة عمل، أو ابن واحدة، وباشر العمل. وبهذا سوف تحل الكثير من المشاكل».

لم يكن غولدموند ليطلب أفضل من هذا.

انتقى سقيفة بجوار بوابة الفناء، وكانت في ذلك الوقت خالية وتصلح كورشة عمل. وطلب من النجار طاولة رسم، وقطع أثاث أخرى أعد لها أوراق القياسات. و وضع لائحة بكل ما على حمالي الدير أن يحضروه له، قطعة فقطعة، من المدن المجاورة - لائحة طويلة. وانتخب قطعا من الخشب من دكان النجار، أو من الغابة، من كافة أنواع الخشب المقطوع، ووضعها جانبا، كومها واحدة فوق الأخرى، وتركها لتجف، في قطعة أرض معشوشبة تقع خلف ورشته، وهناك، وبيديه، أقام سقفا فوقها. وعهد إلى الحداد أيضا كثيرا من العمل، وقد افتتن أي فتنة بابنه، وهو فتى غض حالم، وحظي بدعمه. فكانا معا يقفان، حتى منتصف النهار، في دكان الحداد، أمام السندان أو حجر الشحذ، يطرقان كل أنواع سكاكين النقش، والمثقاب، وحديد الحلاقة، المعقوف الشفرة منه أو المستقيم مما احتاجاه للعمل في الخشب. وأصبح ابن الحداد، وهو فتى في العشرين اسمه إريش، صديقا لغولدموند، وكان يساعده في كل شيء. كان تواقا إلى التعلم، وأحيانا عندما كان مرأى نرسيس وديره يملآن قلب غولدموند بالخجل في إحساسه بالكسل، كان دائما يجد عزاءه في إريش، الذي كان يكن له حبا جيا، وجعل منه بطلا. وكان الفتى يتوسل إليه أن يحكي له حكايا عن مدينة الأسقف وعن المعلم نيقولاس، وكان غولدموند يلبي طلبه بكل سرور، إلى أن يشعر فجأة بالدهشة إذ يجد نفسه جالسا هكذا، كرجل عجوز مملوء

بحكايا وإنجازات وترحالات تنتمي إلى زمن غابر، عندما كانت حياته مجرد بداية.

ما كان لأحد، بما أنه لا أحد هنا كان يعرفه مسبقا، أن يدرك كم عملت هذه الأشهر الأخيرة على إنضاجه وتغييره، على جعله أكبر سنا من عمره الحقيقي. لعل حياة المتشردين المحفوفة بالمخاطر وأوقات الشدة قد بدأت تستنفد قواه، عندما واجه الوباء، بكل ما صحبه من مشاهد مرعبة، وعانى تجربة السجن على يد الكونت، والفزع الذي تملكه في تلك الليلة في سرداب القلعة. لقد هزت هذه التجارب كيانه من الأعماق، ولا يزال الكثير من دلالات معاناته باقيا، كالشعر الشائب في لحيته الصهباء، والتجاعيد الرقيقة المرتسمة على وجهه، والليالي التي يضطرب فيها نومه، وأحيانا ينتاب قلبه إرهاق معين، وتراخي الرغبة والفضول عنده، والإحساس الغامض بالتخمة. لكن الشباب عاوده من خلال حكاياه مع إريش. في الأوقات التي كان في إمكانه أن يتوانى خلالها في دكان الحداد والنجار، عندئذ كان يمتلئ بالحياة، وكان الجميع يحبونه، وإن كان في أحيان أخرى يجلس على مدى ساعة يحلم ويبتسم بينه وبين نفسه، مفعما بأغرب فتور في الشعور، واللامبالاة.

أما أصعب الأمور عليه فكان تقريره أي الأشكال سيبدأ أولا بحفره. هذا الأمر، هذا البدء في عمله، الذي ينفذه كرد على ضيافة الدير له، يجب ألا يكون نتاج المصادفة والكسل، منجزا بسرعة لإثارة الفضول، بل يجب أن ينبع من قلب حياة ماريابرون، وأن يكون، مثل تلك المنقوشات القديمة الموجودة في الكنيسة، جزءا نفيسا من الطراز نفسه. وكان يفضل فوق كل شيء أن ينحت منبر وعظ أو مذبحا، ولكن لم يكن لأي منهما حاجة، ولا فراغ. غير أنه مع ذلك فكر في شيء

يعادلهما في الجودة. فكانت هناك مشكاة داخل جدار حجرة طعام الآباء، يقف داخلها أخ صغير ويقرأ بصوت عال حياة القدّيسين، أثناء تناولهم الطعام. وكانت هذه المشكاة خالية من أي زخرفة، فقرر غولدموند أن يغطي الدرج الموصل إلى المقرأ، والطاولة نفسها التي يقرؤون منها، بكساء خشبي من الزخرفة، مع تماثيل عديدة، كتلك المحيطة بمنبر الوعظ، بعضها منحوت بشكل نافر، والبعض الآخر يكاد يكون متحررا من الخشب. وحين باشر أخيرا العمل، كان عيد الميلاد قد مضى، وتغطت الأرض بالثلوج.

اتخذت حياة غولدموند شكلا آخر. بدا الآن وكأنه غادر الدير. لم يعد أحد يراه ، لم يعد ينتظر نهاية أحد الدروس ليراقب كتيبة الفتية تهبط إلى الباحة، لم يعد يتسكع في الغابة، ولا يتمشى بتكاسل في أنحاء الدير. أصبح يتناول وجبات طعامه مع الطحان - غير أنه لم يكن الطحان ذاته الذي كان يزوره وهو فتى - ولم يعد أحد يدخل إلى ورشته، ما عدا مساعده، إريش، وإن كان أحيانا حتى هو لم يكن يسمع كلمة واحدة منه، مع بقائهما معا لأيام.

من أجل الرواق الدائر حول المقرأ فكر في اللحظة التالية: بالنسبة إلى النصفين اللذين سيقسّم إليهما العمل، فواحد سيمثل العالم، والآخر كلمة الله. النصف السفلي الدرج الصاعد إلى الطاولة، البارز من خشب السنديان القوي، ويدور حوله، سيمثل الخليقة كلها، وأعمال الطبيعة، والحياة البسيطة للبطاركة والأنبياء. والنصف العلوي، قداس الطاولة، سوف يحمل تماثيل الأنجيليين الأربعة. على أحدها سيخلع وجه الرئيس دانييل، وآخر سيكون خليفته، المرحوم الأب مارتن، وعلى تمثال لوقا سوف ينقش هيئة المعلم نيقولاس تخليدا لهم. كانت أمامه عوائق كثيرة عليه تجاوزها، وكانت أصعب

بكثير مما خمن. وهذا أحزنه، بيد أنه كان حزنا ممتعا. كان يتودد إلى القطعة التي يعمل عليها ويغويها، يملؤه اليأس والابتهاج وكأنه يغازل امرأة عصية، يتصارع معها، برقة وحزم، كصياد سمك يصنّر سمكة كراكي كبيرة، يتعلم من كل صعوبة يمر بها، و رويدا رويدا يجعل أصابعه أكثر رهافة. نسي كل شيء آخر في الدير، وكاد ينسى حتى نرسيس، وعلى الرغم من أن رئيس الدير استعلم مرارا إلا أنه لم يكن ينجح إلا في مشاهدة رسومات.

ولكن ذات يوم، وكتعويض له، فاجأه غولدموند بطلب تقديم اعترافه والحصول على الكفارة.

قال: «لم أتمكن قبل الآن من الإقدام على تقديم هذا الطلب إليك. كنت في الأساس أشعر بالصغر أمامك. الآن لم أعد أشعر بكثير من الصغر. فلديّ عملي، ولم أعد نكرة، وقبل أي شيء، بما أني أعيش في دير، أشعر أنّ عليّ أن أخضع لطقوسه، أسوة بالآخرين».

لم يعد يرغب في الانتظار، بما أنه بات الآن يشعر أن الساعة قد أزفت. وزيادة على ذلك فخلال الأسابيع الأولى التي قضاها في التأمل هنا، غارقا في ذكريات مفاجئة، وليدة مرابع الصبا. خلال هذا كله - وأيضا لاحقا، وهو يحكي لإريش - وجد، لدى استعراضه أحداث حياته الماضية، أن لأيام حياته شكلا معينا ونظاما.

تقبل نرسيس اعترافه دون مراسم. واستغرق اعترافه ساعتين كاملتين. واستمع رئيس الدير، دون أن تند عن وجهه حركة واحدة، إلى كل مغامرات صديقه وأحزانه و خطاياه ، طارحا عليه الكثير من الأسئلة، دون أن يتدخل فيما كان يسمع، ومنصتا دائما، دون أي تشويش، إلى غولدموند، وهو يؤكد أنه كان يفتقر إلى أقل قدر من الإيمان، معترفا بأنه تخلى عن الإيمان سواء بعدالة الله أم برحمته.

وقد صُدم بأمور عديدة أفضى بها التائب إليه، وأدرك مدى عمق اهتزازه، وغور ندب جرحه وكم اقترب أحيانا من التحطم الكامل. غير أنه على الرغم من كل ذلك اضطر إلى أن يرسم ابتسامة أمام براءة صديقه الطفولية، صديقه الذي وجده مسربلا بمشاعر الندم وبالوجع، يملؤه اليأس لما اعتبره أفكاره المدنسة، مع أنها كانت بريئة تماما، إذا قورنت ببعض تلك الأفكار التي كانت تسكن كاهن اعترافه - وحتى أعمق أعماق الشك في عقل نرسيس.

دهش غولدموند بل أصيب بالخيبة، لأن نرسيس تلقى خطاياه بكل تلك الخفة، رغم أن هذا الكاهن حثه على أداء واجبه وأنزل به عقابا بلا حدود بسبب إهماله للصلاة وللأسرار المقدسة. أنزل به كفارة أن يعيش حياة طهر وصيام طوال شهر، قبل أن يتناول خبز القربان من جديد. وكان عليه أن يستمع إلى أول قداس في الصباح، ويرتل الصلاة الربانية، وترتيلة دينية لمريم، كل ليلة.

ثم قال: «أتوسل إليك و أستحلفك ألا تأخذ هذه الكفارة بخفة. لا أدري إن كنت لا تزال تحفظ نص القداس. يجب أن تتبعه كلمة كلمة، وتدع معناه يغوص داخل وجدانك. بالنسبة إلى الصلاة الربانية وبعض التراتيل فأنا سأعطيك إياها، سوف نباشر معا اليوم، وسوف أبين لك فيها بجلاء تام قيمة فقرات وكلمات معينة. لن نلفظ أبدا كلمات الرب، ولن ننصت إليها كما نتكلم وننصت إلى كلام بقية الناس. فإذا وجدت أنك ترددها صما (وهذا سيحدث معك كثيرا) فيجب أن تفكر فيما أقوله لك الآن. ومن ثم ستبدأ بالصلاة من جديد، مرددا الكلمات بشكل يجعلك تشعر بها من أعماق قلبك. والآن سأقول لك كيف تفعل ذلك».

سواء بفعل مصادفة سعيدة أو لأن معرفة رئيس الدير بالأرواح

قد تعمقت إلى درجة أن يستخلص هذه النتيجة، فإن الزمن الذي أمضاه غولدموند في تنفيذ العقوبة والكفارة جلبت إليه أيّاما كثيرة من السلام والتناغم، أياما أبهجت عقله، وسط هموم عمله، والعقبات التي اعترضت سبيله. فكان في كل صباح ومساء يشعر بتجدد مستمر عن طريق التدريب الروحي الخفيف، وإن كان دقيقا ومنتقى بعناية: تخلص من الكفاح القلق الذي طبع أيامه، وانسحب قلبه وعقله من العزلة الخطرة لحرفته، وأضحيا على صلة قرابة مع نظام أرقى – مع يقين حرر قلبه، وقاده وكأنه طفل إلى مملكة الرب.

لقد كانت هذه هي الساعة الوحيدة من العزلة الرخية، وهو المضطر إلى أن يجاهد في وحدة تامة مع صوره التي تعود به، مرة بعد مرة، إلى الرضى. وكثيرا ما كان يستشيط غيضا، أثناء عمله، أو يملؤه ابتهاج مجنون: لقد كانت هذه العقوبة الهادئة التي أنزلها صديقه به أشبه بغوصه في مياه باردة، عميقة، وهي تنظفه من كبرياء رغبته، ومن كبرياء يأسه. لكن هذا لم يكن دائما ينجح. فكثيرا ما لم يكن يجد أية سكينة أو رضى بعد انقضاء يوم عمل كادّ. وفي مرات عديدة كان ينسى تلك الصلوات كلها. وغالبا ما كان يعذبه ويعيقه أن يفكر، وهو يجاهد كي يعود للانغماس في سكينتها من جديد، في أن كل الصلوات ليست في النهاية إلا كفاحنا الصبياني للعثور على إله لا وجود له في حقيقة الأمر، أو، إن كان موجودا، فلا قدرة له على مساعدتنا. وجاهر بشكواه هذه إلى صديقه.

قال نرسيس: «ابق عليها، لقد وعدت ويجب أن تلتزم. لست أنت المؤهل للتفكير فيما إذا كان الله ينصت إلى صلواتك، أو إن كان موجودا حقا، كما تتخيله أنت. وليس من شأنك أن تغتاظ أو تنتابك الحيرة حول ما إذا كانت كل صراعاتنا الإنسانية ما هي إلا لعب أطفال. يجب

أن تحرّم على نفسك تحريما تاما تقليب كل تلك الأفكار الصبيانية الحمقاء أثناء تدربك. اتلُ الصلاة الربانية وترتيلتك، وكرّس نفسك للكلمات، امتلئ بها، دعها تنفذ فيك، وكأنك تغني أو تعزف القيثارة. فحين تغني أو تعزف لا تدع عقلك يشرد ليتصيد أفكارا وتأملات حاذقة، إنما أنت تكافح لإخراج كل نغمةٍ تنقرها بأقصى ما بطاقتك في وضوح وكمال. وعندما نغني لا نعيق أنفاسنا بتساؤلنا عن جدوى الغناء، إننا نغني، لا أكثر! وهكذا يجب أن نصلي».

و نجحت مرة أخرى، مرة أخرى برزت ذاته المضطربة النهمة إلى السيطرة الكاملة على هذا الدير، وتدفقت الكلمات الجميلة إلى أعماق قلبه، وتغلغلت في أنحاء جسمه كنجوم لا تحصى.

أخذ رئيس الدير يراقب بسرور كيف أن غولدموند، حتى بعد أن نال عقوبة الكفارة، وبعد أن تناول جسد الرب، ما زال يواصل تدريبه اليومي الذي أعده، وظل على هذا الوضع شهورا وأسابيع طويلة.

في تلك الأثناء كان العمل يتقدم. و برز من وَضَم الخشب العريض المقطع إلى درجات لولبية، عالم من الأشكال النافرة، والنباتات والحيوانات، ورجال متضافرون معا، وقد وقف وسطهم الأب الجليل نوح، بين كروم عنبه المثقلة بعناقيدها.. كان كتاب صور وأنشودة شكر نابض من كل مخلوقات الله بكل جمالها، وكل منها حر على طريقته، ومع ذلك يسير على هدى الطبيعة، وقانون سري.

خلال تلك الأشهر كان يمكن لإريش أن يسهر على العمل وحده، وهو المعتاد على بذل جهد المبتدئين فيه، بحيث إنه بات لا يفكر إلا في أن يصبح هو نفسه نقاشا. ولكن حتى هو كان محرّما عليه، في أيام كثيرة أن يدخل ورشة العمل، وإن كان غولدموند في أيام أخر يغدو صديقه، فيرشده، ويدعه يجرب، ويفرح في دخيلته أنه عثر على تلميذ

ومريد. وعندما ينتهي العمل، إذا كان جيدا، كان ينوي أن يستجدي إريش من والده، ويأخذه معه كعامل دائم.

لم يكن يستطيع أن يعمل على تماثيل الإنجيليين إلا في أفضل أيامه، وهو خالي البال، ولا يشوش تفكيره ألم ولا حيرة. وكان يشعر أن أفضلها هو الذي استمد شكله من الأب الرئيس دانييل. وأحبه حبا جما، لأن البراءة والرقة تشعان من وجهه. وكان سروره بصورة المعلم نيقولاس أقل، على الرغم من أن إعجاب إريش بها كان هو الأشد. كانت تبرز حزنا شديدا وصراعا، وبدت مفعمة بمشاريع نبيلة تنتظر الخلق، لكنها حبلى بالمعرفة السرية بأن كل أعمالنا لا قيمة لها، وتتعذب لتحقيق وحدتها المفقودة وبراءتها.

عندما أصبح تمثال الأب الرئيس دانييل جاهزا تماما طلب من إريش أن يكنس الورشة. وغطى بقية التماثيل كلها بالقماش، تاركا هذا فقط معرّضا بأكمله للنور. ومن ثم انطلق يبحث عن نرسيس ولكن، بما أن رئيس الدير لم يكن لديه وقت يضيعه معه، انتظر بصدر ضيق حلول الصباح. وقرابة الظهيرة قاد نرسيس إلى الورشة.

وقف صديقه وحدق. استغرق وقتا كافيا في تفحص التمثال الماثل أمامه بكل عناية الفقهاء وانتباههم. وانتظر غولدموند خلفه وهو صامت، يحاول أن يخمد العاصفة المضطربة في قلبه.

قال في نفسه: «آه، إذا أخفق أحدنا الآن فستكون كارثة! إذا لم يكن عملي جيدا، أو أنه لم يفهمه، فعندئذ سيكون جهدي قد ذهب سدى. في كل الأحوال كان عليّ أن أنتظر».

تلك الدقائق بدت كساعات. وتذكّر يوم وقف المعلم نيقولاس وهو يحمل رسمه الأول، وانتظر، وهو يضغط يديه الرطبتين الملتهبتين إحداهما إلى الأخرى.

لكن عندما التفت نرسيس أدرك أنه قد نجا. لقد رأى شيئا يتدفق من ذاك الوجه النحيل، الحاد التقاطيع، بَرعَمَ ابتهاج لم يكن قد رآه منذ أيامهما معا في فترة الفتوة: ابتسامة تكاد تكون حيية وفيها خوف، ومضت حول تينك العينين، الزاخرتين بالإرادة وبالذكاء، ابتسامة حب لا ينضب، خفقة نور، وكأن كبرياءها وعزلتها قد كسرا في تلك اللحظة، ولم يبق مرئيا غير القلب، بما يملؤه من حب.

قال نرسيس، برقة متناهية، وكان حتى ذلك الوقت يزن كلامه: «غولدموند لا يمكن أن تطلب مني فجأة أن أصبح ناقدا للتماثيل، فأنا لست كذلك، كما تعرف جيدا. لا يسعني أن أدلي بأي شيء حول فنك، دون أن يبدو من قبيل الثرثرة بالنسبة إليك. ولكن فلأقل شيئا واحدا – لقد أدركت منذ النظرة الأولى أن هذا الإنجيلي يحمل صورة الأب الرئيس دانييل، ليس فقط كما كان، وإنما بكل ما يمثله بالنسبة إلينا في تلك الأيام، جلاله ورقته، وبساطته. وكما كان الأب الرئيس دانييل المتوفى يمتثل أمام عيوننا وتوقيرنا الفنيّ، كذلك أراه هنا من جديد، ومعه كل ما كان قدسيا عندنا في تلك الأيام، كل ما جعل ذاك الزمان ذكرى لا تنسى. لقد قدرت صداقتي بأثمن تقدير يا غولدموند فأنت لم تكتف بأن أعدت إليّ الأب الرئيس دانييل، بل وكشفت لي عن دخيلتك كاملة ولأول مرة، الآن، لقد رأيتك كما أنت. كفانا كلاما عن هذا – لا أجرؤ على قول المزيد. آه، يا غولدموند، ما أحلى هذه الساعة التي عادت إلينا».

شمل الغرفة سكون عميق. ولاحظ غولدموند مدى عمق فرح صديقه. غير أن ثمة شيئا خنق إجابته.

قال باختصار: «نعم، أنا سعيد بهذا، أما الآن فقد حان وقت ذهابك إلى قاعة الطعام».

الفصل التاسع عشر

استغرق هذا العمل من غولدموند سنتين، وبدءا من الثانية أصبح يتخذ من إريش مساعدا له طوال اليوم. وعلى درابزين سلّم بيته الخشبي زرع جنة صغيرة أخرى، وكان ينقش وهو سعيد، بريّة بسيطة مؤلفة من جذوع أشجار كثيفة الأوراق وأعشاب مخضلة، وعصافير تحط على الأفنان، وأجسام حيوانات ورؤوس كامنة تتلصص من كل مكان من خلال السويقات. ووسط هذه الحديقة الواعدة، النامية، وضع مشاهد من حياة البطاركة. و كانت تمر عليه أيام يجد خلالها من المستحيل أن ينقش أي شيء، وذلك عندما كان قلق العقل وإرهاقه يبعدانه عن الورشة. وخلال تلك النوبات كان يوكل إلى إريش مهمة تستغرق منه اليوم بأكمله، ويخرج هو يهيم على وجهه بين الحقول، أحيانا على صهوة جواد، ليتذوق قليلا من التشرد والحرية، ليجدّ في ملاحقة ابنة أحد الفلاحين في إحدى القرى، ليتصيد، أو ليستلقي طوال ساعات وسط العشب الباسق، يحدق عاليا إلى قناطر الغابة من خلال غاب من السرخس والرتم. بعد ذلك كان يعود إلى العمل بحماس جديد، ينقش بفرح مزرعته التي من الأعشاب والأشجار، مستدرجا برقة وجوه الرجال كي تبرز من الخشب، فيحفر فما ببضع ضربات صارمة، أو خط عين، أو لحية كثة. وخلافا لإريش لم يكن أحد يشاهد هذا العمل إلا نرسيس، وكان غالبا ما يأتي إلى الورشة، التي

كانت أحيانا تبدو غرفته المفضلة في الدير.

هنا كان يجلس ويراقب كل شيء، مذهولا ومبتهجا. ها هي، أخيرا، كل الأشياء التي طالما أخفاها صديقه في قلبه الطفل، الجريء، المرتاب، مزدهرة في عمله. إنها تزهر هنا في كل ركن – إبداع، عالم صغير، يخرج براعم، لعلها لعبة، لكنها دون شك ليست أسوأ من لعبة القواعد اللغوية، والمنطق، واللاهوت – وذات يوم قال بذهن شارد:

«إني أتعلم الكثير منك يا غولدموند. بدأت أفهم ما يفعله الفنانون. و حتى الآن لم يكن قد تبدى لي قط أن فنهم، بالمقارنة مع فكري وعلمي، يجب أخذه بعين الجدية الكاملة. كنت أفكر بشكل أو بآخر على النحو التالي: بما أن الإنسان هو قبل كل شيء خليط ملتبس من المادة لا تجره إلا إلى الأسفل نحو الموت، ونفسه مغلولة إلى كل ما هو فان، فعليه أن يكافح ليبتعد عن الحسيات إلى الروح، وبهذا يمجد حياته، ويضفي عليها معنى. الآن فقط بدأت أدرك كم من دروب تؤدي بنا إلى المعرفة، وأن الدراسة ليست الدرب الوحيد المؤدي إليها، ولعلها ليست الأفضل في ذلك. هي بدون شك دربي أنا، ويجب أن ألتزم بها، إلا أني أراك تتخذ الدرب المقابلة، تلك التي تقود عبر الأحاسيس، وتوصل عميقا إلى المعرفة بقدر ما يحققه أغلب المفكرين في الوصول إلى جوهر وجودنا وسره، وبأسلوب أكثر حياة بكثير».

قال غولدموند: «ها أنت تفهم الآن لماذا لا أتوصل إلى إدراك أي فكرة بدون تخيلها».

«لقد أدركت هذا منذ زمن بعيد. إن الفكر هو تبسيط أبدي – هو الوصول إلى النتائج، بعيدا عما تراه العين، محاولة بناء عالم من الفكر الصرف. أما أنتم أيها الحرفيون فتضمون أشد الأشياء قابلية للفناء إلى قلوبكم، ومن قلب فنائها وفسادها تعلنون معنى الحياة. إنكم لا

تنظرون أبعد من ذلك أو فوقه، بل تكرسون أنفسكم له، ولكن من خلال تكريسكم ترفعونه إلى أعلى الذرى، حتى يبدو صورة مصغرة عن الأبدية. إننا نحن المفكرين نكافح لنصل إلى ربنا بإبعاد العالم من أمام وجهه. إنك تأتي إليه، تحب خلقه، وتعيد تشكيله من جديد. وكلا الإثنين هما عملان إنسانيان ناقصان، ولكن من بين الإثنين الفن هو الأكثر براءة».

«لا أستطيع أن أقول هذا يا نرسيس. ولكن يبدو أنكم معشر المفكرين واللاهوتيين يمكنكم أن تنجحوا أفضل مني بكثير في الإحاطة بالحياة، وتحضنون اليأس بملء أذرعتكم. إني منذ زمن بعيد كففت عن حسدك على علمك، يا صديقي، لكني أحسدك على هدوئك، على سكينتك، وتوازن طبعك».

«ليس لدي ما أحسد عليه يا غولدموند. ليست هناك سكينة بالمعنى الذي ذكرته. لا شك في أن هناك سكينة، لكن ليست تلك السكينة التي تقيم فينا، و لا تفارقنا. على الأرض هناك فقط تلك السكينة التي يجب أن نقهرها مرة بعد مرة، من يوم إلى يوم، بهجمات و انتصارات متجددة دائما. إنك لم ترني قط أهاجم. لا تعرف شيئا عن شكوكي أثناء دراستي، وعذاباتي في صومعتي عند تلاوة صلواتي. من حسن حظك أنك لا تتعرض إلى هذا. إن كل ما تستطيع أن تراه هو أني أقل عرضة لتقبات المزاج منك، فتظن أني و لا شك في حالة سكينة. ولكن كما هو الحال في كل حياة حقيقية، كلها صراع و تضحية. مثل حياتك أنت أيضا، يا amice».

«لا حاجة بنا إلى التشاجر حول هذا. ولكنك مع ذلك فأنت لا ترى كل صراع يجري في قلبي. ولا أدري إن كنت تفهم شعوري عندما أعتقد أن عملي سوف يكتمل قريبا. سوف ينقل وينصب، وسوف يقرضني

الناس عليه، وبعد ذلك سوف أعود إلى ورشتي الخاوية، يعتصرني الحزن لكل ما فيها من نواقص، وللأشياء الكثيرة التي لا يستطيع الآخرون أن يروها، وقلبي فارغ ومتوحد مثل المكان».

قال نرسيس: «لعل هذا صحيح، ولن يتمكن أي منا من فهم الآخر فهما تاما. غير أن كل أصحاب النوايا الطيبة يشتركون في هذا- في إحساسنا بأن أعمالنا في نهاية المطاف تجلب لنا العار، وأن علينا دائما أن نباشر تلك الأعمال من جديد، وتتجدد تضحيتنا دائما وأبدا».

بعد بضعة أسابيع من ذلك أصبح عمل غولدموند جاهزا، و نصب. وقد حدث كل شيء الآن كما كان قد حدث قبل سنين. وأصبح العمل ملكا لأناس آخرين، شوهد، وقيم، ومدح، وتلقى صاحبه التشريف. لكن قلبه وورشته ظلا مخذولين، ولم يعد يدري إن كان كل ما بذله من جهد مقابل أي شيء له قيمة. وفي يوم رفع الستارة عنه تناول الطعام في قاعة طعام الأب الرئيس. وأقيمت وليمة، وقدم فيها أعتق خمر في الدير. وأكل غولدموند السمك اللذيذ ولحم الطرائد. أما ما أشاع فيه الدفء و المرح أكثر من الخمر المعتق النادر فكان سرور نرسيس، الذي شرفه، وهلل لعمله.

للتو بدأ بتصميم عمل آخر، نزولا عند أمر الأب الرئيس ورغبته، وأعد رسوماته، وهو مذبح لكنيسة السيدة في نوزل، وهي كنيسة- دير، يخدمها أب من الدير. ولهذا المذبح،قرر إعداد تمثال لأم الرب، كان سيستخدمها لينقذ وإلى الأبد ذكرى لا تنسى من أيام شبابه، ابنة الفارس، الحيية، الحلوة، ليديا. أما باقي العمل فلم يكن يعني له إلا أقل القليل. وإن بدت فرصة طيبة لترك إريش يجرب يده كعامل ماهر. فإذا نجح الفتى فسوف يكون لديه عامل جيد يخلفه، يمكنه أن يحل محله ويحرره ليتفرغ لتلك الأعمال التي لا شيء غيرها أثر في قلبه.

وخرج مع إريش لجمع الخشب لصنع المذبح، وليدعه يعده لذلك. وكان غولدموند كثيرا ما يتركه يعمل وحده، وينطلق هو على مدى يوم كامل في الغابة. وكان قد بدأ يهيم على وجهه بعيدا عن الدير، وذات مرة، وكان قد غاب عن الدير على مدى عدة أيام، أخبر إريش رئيس الدير بغيابه، فخشي أن يكون قد فر من جديد وإلى الأبد. ثم رجع، وعمل مدة أسبوع على صورة ليديا - مادونا، ومن ثم عاد يهيم على وجهه.

لقد كان قلقا. كانت حياته، منذ أن انتهى من العمل العظيم، قد عادت تتخبط في الفوضى القديمة. ولم يعد يهتم بحضور قداس الصباح الباكر، وكان ضجرا متبرما إلى أقصى حد. وكثيرا ما كان يفكر في المعلم نيقولاس، ويتساءل إن لم يكن هو أيضا سيصبح قريبا مثله تماما، مشغولا، فظا، وماهرا، لكنه سيكون عبدا، قلبه خال من الشباب. ومر بتجربة جديدة شغلت باله. فذات يوم، وهو في الغابة قابل قروية صغيرة، اسمها فرانشيسكا، أشاعت السرور فيه إلى درجة أنه بذل ما بوسعه للفت نظرها، مستخدما كل حيلة ليجعلها عشيقته. وأنصتت الحسناء إلى كل حكاياه، وضحكت من كل قلبها على نكاته، غير أنها رفضت حبه، وهكذا ولأول مرة في حياته أدرك أنه بدا للفتاة الصغيرة رجلا عجوزا. ولم يعد إلى مقابلتها، ولم ينس الأمر. لقد كانت فرانشيسكا على حق، لقد تغير. هو نفسه يشعر بذلك، والسبب الحقيقي لهذا لم يكن ما ظهر لديه من بضع شعرات شائبة، وقبل أوانها، ولا هي التجاعيد الصغيرة التي أحاطت بعينيه - بل كان شيئا أعمق، شيئا كامنا في عقله وفي روحه. لقد شعر أنه عجوز، وأصبح يشبه إلى حد غريب المعلم نيقولاس، وراح يتأمل نفسه بكآبة في المرآة، وهز كتفيه أمام ما رأى. لقد أصبح آمنا ومدجّنا ككل المواطنين، ولم يعد الآن أرنبا بريا أو نسرا، بل كلبا منزليا. وكلما تجول في الحقول،

وجد نفسه يفتش عن ذكريات قديمة، وكان ذهنه يمتلئ بأفكار عن مغامرات ماضية بدل أن يعمر بسعادة جديدة. وبالحرية يصبح مرتابا ومتلهفا ككلب اشتم رائحة. وكان قضاء يوم أو يومين من المرح بعيدا عن الدير كافيا لجعله يشعر أنه متهرب من أداء واجبه، متذكرا أن الخشب ينتظر مستعدا في ورشته. وشعر بمسؤولية قلقة عن المذبح، وعن إريش، عامله الماهر. إنه لم يعد حرا، ولم يعد شابا.

بناءً على هذا اتخذ قرارا راسخا. فعند انتهاء العمل في هذا التمثال لليديا – مادونا سوف يخرج ليهيم على الطرقات للمرة الثالثة. لقد كان العيش بين الناس مطولا أمرا سيئا. إن تبادل الحديث مع الناس أمر طيب، ولا شك، فهم يفهمون بشكل جيد عمل الحرفي، ويفكرون فيه بحذاقة. أما في كل ما عدا ذلك، في الرقة والبهجة، في المرح والثرثرة، والاستمتاع دون حاجة إلى التفكير، من أجل هذه الأشياء يلزم الأمر نساء وتشرد، والدروب وما تحمله من تغيرات ومغامرة، ولا يمكن تحقيق أي من هذا بالقرب من الدير. إن كل شيء هنا، وكل المناطق المجاورة للدير قد زادا من كآبة قلبه ورصانته، من ذكورته وثقل همه، ولوّثه وتغلغل في دمه.

بثت فكرة الانطلاق في رحلة أخرى البِشْرَ في نفسه. وانكب بجد على عمله، ليتحرر منه في أقرب فرصة، ومع ظهور الشكل العام لليديا بالتدريج من الخشب – وهو ينقش التضاعيف الطويلة للرداء بخطوط مستقيمة بدءا من ركبتيها الرقيقتين وإلى الأسفل – تدفقت فيه سعادة عميقة تهز الكيان، وتفان حزين لصورتها، هذا الشكل المتماسك، الرعديد لحسناء شابة، وكل ما استحضره من ذكريات عنها، عن عهد شبابه، وحبه الأول، وبهجته الأولى. وعمل ببطء شديد وعناية، شاعرا أن هذا الشكل متحد مع كل ما يعمر به قلبه من سرور،

ومع فرحه وأعذب ذكرياته. وكان تشكيل انعطافة جيدها، وابتسامتها، والفم الحزين، ويديها الجميلتين، والأصابع الطويلة، وكؤوس أظافر منحنية جميلة، كان شيئا رائعا. وإريش أيضا كان كلما أتيح له يتأمل التمثال في حيرة متيّمة.

عندما اقترب من إنهاء عرض تمثال ليديا على الأب الرئيس.

قال نرسيس:

«هذا أجمل عمل لك يا غولدموند. ليس لدينا ما يجاريه هنا في الدير. ويجب أن أقول لك إني خلال الأشهر الأخيرة كنت شديد القلق حول سعادتك. لاحظت أنك مضطرب جدا وتتلوى من الألم، وعندما خرجت وغبت أكثر من يوم، خشيت ألا تعود إلينا أبدا. وها أنت الآن قد صنعت لنا هذا التمثال الجميل. أنا شديد الفخر بك يا صديقي وسعيد».

أجابه غولدموند: «نعم، لقد كان التمثال في النهاية جيدا. ولكن اسمع يا نرسيس: «إن صنع ذلك التمثال استهلك مني كل شبابي، استلزم كل تشردي وعلاقاتي الغرامية، وكل امرأة عرفتها. هذا هو مصدر عملي، وقريبا سينضب المعين، لأن قلبي يذوي باطراد. سوف أنهي تمثال ماريا هذا، بعد ذلك سوف أطلب إجازة طويلة — لا أستطيع أن أقول لك كم ستطول. يجب أن أرحل من جديد، وأفتش عن شبابي، عن كل ما جعل الحياة عزيزة علي. هل تفهم؟ حسنا، أنت تعلم أني ضيفك. ولم أتلق قط أي أجر على عملي».

هتف نرسيس: «لقد عرضت عليك كثيرا».

«نعم، والآن قررت أن آخذه. سوف أطلب صنع ملابس جديدة لي، وعندما تصبح جاهزة سأحضر إليك وأطلب منك جوادا، لأنطلق من جديد، وبضع تاليرات ذهبية لتكاليف الرحلة. لا تعترض يا نرسيس،

ولا تحزن ! هذا لا يعني أني لم أكن سعيدا هنا – فما كنت لأجد قط حياة أفضل – بل هو شيء آخر. فهلا لبيت لي طلبي؟».

لم يضيفا شيئا على هذا. وطلب غولدموند تفصيل سترة بسيطة له وحذاء ركوب، ومع اقتراب الصيف أنهى تصويره لمادونا، وكأنه كان آخر عمل يقوم به. وبينما هو يضع اللمسات الأخيرة الدقيقة على شعرها ويديها، وعلى وجهها الحزين، كان يفعل ذلك وكأنه يعمل على تأخير رحيله، وكأنه يؤجله مرارا وتكرارا من أجل إلقاء النظرة المرهفة الأخيرة على جمال ليديا. ومرت الأيام تباعا، وظل أمامه إجراء هذا التحسين أو ذاك. وكان نرسيس، رغم أن رحيل غولدموند كان يسبب له الأسى، كثيرا ما كان يبتسم لحماسه ، الذي بدا أنه يشده بقوة إلى أم الرب ذاتها.

ثم كان يوم أدهشه غولدموند بزيارة مفاجئة، ليستأذنه بالرحيل. وكان قد قرّ قراره بين ليلة وضحاها. جاءه مرتديا سترته الجديدة، والحذاء، والقلنسوة، طالبا مباركة رئيس الدير. وكان قبل ذلك بقليل قد اعترف، وتلقى القربان المقدس. لقد كان هذا الفراق يجثم ثقيلا عليهما معا، على الرغم من أن غولدموند تظاهر باللامبالاة المتكررة أكثر مما كان يشعر.

سأله نرسيس: «ألن أراك مرة أخرى؟».

«آه، نعم، ستراني حتما – إلا إذا كسر حصانك عنقي. والآن لم يعد هناك ما يستدعي مناداتك بـ«نرسيس» وإزعاج رأسك. سوف تراني مرة أخرى، لا تخف. لا تنس مع ذلك أن تعتني بإريش ولا تدع أحدا يمد يده إلى تمثالي الجديد. يجب أن يظل قائما في غرفتي، كما قلت لك، ولا تسلم المفتاح قط لأي كان».

«هل أنت سعيد لأنك راحل؟».

ضيّق غولدموند عينيه.

«حسن، لا أنكر أني أحب التفكير في هذا. أما الآن وأنا مزمع على الرحيل لا أجده أمرا جيدا جدا كما كنت آمل. سوف تضحك مني وتقول إني أحمق، لكني لا أجد من السهل علي البتة أن أغادرك، بيد أن هذا الإتكال عليك يكدرني. وكأنه مرض. إن الشبان الأصحاء، لا يتصرفون هكذا. غير أن المعلم نيقولاس تصرف هكذا. آه، لم نسرف في هدر الكلمات. باركني يا نرسيس. أريد أن أذهب».

وانطلق.

لم يكفّ نرسيس عن التفكير في صديقه، لقد كان يخشى عليه، ومع ذلك اشتاق إلى عودته. هل سيعود الطائر الذهبي، الشارد، أبدا إلى يده؟ ليحفظه الله ويعيده سالما إلى موطنه. كم سبب له هذا الفتى ذو الشعر الأشقر من هموم كثيرة، وكان يتذمر طوال الوقت من أنه يصبح عجوزا، ومع ذلك يرنو إليه بتينك العينين البريئتين. كم هو خائف عليه الآن. هذا الفراشة وقد سار في دربه المتعرج، نحو الخطر ربما، إلى الموت أو إلى سجن جديد، وسرت فيه الرعشة، إلا أنه فرح. امتلأ في أعماق دخيلته بالبهجة لأن الطفل المبكر النضج صعب المراس، ولأن نزواته كثيرة ولا شيء يكبح جماحه.

في كل يوم، في ساعة أو في أخرى، كانت أفكار الأب الرئيس تعود إلى غولدموند، قلقا واشتياقا، حبا، وامتنانا، وأحيانا ينتابه الشك، وتأنيب الضمير. أما كان عليه ربما أن يبدي دلالات خارجية أكثر على حبه، أن يبين لغولدموند أنه لا يريده أن يكون غير ما كان عليه، وإلى أي مدى عمل هو ونقشه على إغنائه؟ لقد كان قليل الكلام، وربما شحيحا جدا، في هذا المجال. من يدري ربما كان نجح في الاحتفاظ به.

غير أن غولدموند لم يعمل فقط على إغناء حياته، بل جعله

أيضا أشد فقرا وأكثر ضعفا، ولا شك في أنه كان من الأفضل أن يحتفظ بهذا السر. وهذا العالم الذي فيه بيته، هذا الدير، وثقافته ومنصبه، وكامل بناء فكره الراسخ المتين – ألم يتزعزع من أساسه، وكاد يفقد إيمانه به، بتأثير حياته مع غولدموند؟ لا شك في أنه، لدى النظر إلى أساليبه من موقعه في الدير، وسط يقين العقل، والأخلاق، تبدو أفضل، وأكثر عدالة بكثير: إن أيامه المنظّمة بالخدمة الصارمة، وتضحيته المتجددة دائما، وسعيه الحثيث الدائم وراء الوضوح، وما يجلبه من عدالة عظمى: تشكل حياة أفضل من أي حياة يمكن لهذا المتشرد أن يفخر بها، هذا الفنان الفاسق.

ولكن عند النظر من عل – من وجهة نظر الله – فهل يعتبر هذا النظام والأخلاقيات المنسقين، هذا التخلي عن العالم، وعن المتع الحسية، هذا الانسحاب المتحفظ من الدم والوجل إلى الصلاة والفلسفة، أفضل؟ أحقا خلق الناس لكي يعيشوا حياة منظمة، تؤدي فعالياتها وواجباتها على قرع الناقوس؟ هل خلق الإنسان لكي يدرس مؤلفات أرسطو والـ summa[1]، ويعرف اللغة اليونانية، وأن يخمد أحاسيسه ويتجنب العالم؟ ألم يخلق الله الإنسان مع شهواته وكبريائه، وقلب من الدم والظلام، ومع الحرية في أن يأثم، ويحب وييأس؟ كان نرسيس كلما فكر في غولدموند تكون مثل هذه الأسئلة أول ما يخطر بباله.

نعم، وربما ليس فقط من الأبسط والأكثر إنسانية أن نعيش نمط حياة غولدموند في العالم، ربما في نهاية المطاف سيكون من الأكثر بسالة، وأعظم في نظر الله، أن نواجه تيارات الواقع، والإثم ونقبل بعاقبة الإثم المرة، بدل أن نتنحى جانبا، بيدين نظيفتين تماما،

(1) Summa أو summa theologica لتوما الإكويني. وهو كتاب «الوافي في اللاهوت».

نعيش في أمان رزين، هادئ، نزرع حديقة جميلة من الأفكار المحكمة الترتيب، ومن ثم نتمشى بين مساكب محمية من جنة صغيرة، في جهل لا تشوبه شائبة، وربما من الأصعب ويحتاج إلى قلب أكثر ثباتا اختراق فرح الغابة بحذاء ممزق، وقطع الطرقات بخطى متعبة، ومعاناة المطروالثلج، والفاقة، والقحط، والاشتراك في الألعاب الحسية، ودفع ثمن كل خسارة نقترفها بألم مبرح.

على الأقل هذا ما بيّنه له غولدموند - أن الإنسان الذي خلق ليعيش حياة نبيلة يمكن أن يغوص إلى عمق سحيق في بحر الدماء والشبق الذي يسميه البشر العيش. ويرشش نفسه برذاذ من الوحل والدم، ولكن دون أن يتشوه او يتقزم، ودون أن يقتل فكرته عن الله، وعلى الرغم من أنه يتجول على مدى سنين طويلة خلال أحلك ظلام، فإنه يظل يحمل الشعلة التي جعلت منه مبدعا، دون ان يخشى أن تنطفئ.

لقد اكتشف نرسيس بصيرة عميقة داخل روح صديقه المتقلبة، ولم يضعف احترامه أو حبه بأي حال بتأثير ما رأى. آه، كلا - ومنذ أن تابع مولد كل تلك الروائع الجامدة، ولكن المفعمة بالحياة، ولكل شكل قانونه الداخلي وكماله، وتلك الوجوه الموقرة ذات العيون الغائرة، التي تشع منها الروح بكل بهائها، وتلك الأيادي المتضرعة أو المانحة الغفران، وكل تلك الصور الواضحة المعالم أو الرقيقة، المتكبرة أو الورعة، أدرك بحق كم من النور ومن نعمة الرب أضاء قلب هذا المتشرد الفاسق.

لقد وجد أنه من الأسهل كثيرا أن يبدو أكثر حكمة من غولدموند أثناء تبادلهما الأحاديث، وأمام حماس صديقه يبرز الوضوح المنظم لعقله. ولكن ألم تكن كل إيماءة في هذه التماثيل، كل عين أو فم، كل

حالق، أو ورقة نبات، أو ثوب مثنيّ، أكثر واقعية، أكثر حياة، ولا غنى عنه أكثر من كل ما يمكن لأي مفكر أن ينتجه؟ ألم يبدع هذا المتشرد، المترع قلبه بالحاجة وبالتناقض، للأبدية ولكل البشر، رموز حاجاتنا الإنسانية، في أشكال يتوجه إليها كلّ توق وبهجة، ومخاوف وآمال أعداد لا تحصى من البشر، بحثا عن السلوى، والقوة والأمان؟.

ابتسم نرسيس مع أنه كان مفعما بالأسى، وهو يتذكر كل ما مر به في عهد فتوتهما، عندما بدا أنه يرشد غولدموند ويسدي إليه النصح. وكان غولدموند ينصت إلى دروسه بامتنان، ولم يحتج مرة واحدة، أو يثور غضبا لاتخاذه السهل لموقع القيادة والسلطة. والآن ها هي هذه الأعمال، ابتدعها بكل هدوء، كنتيجة لكل عواتي وآلام هذه الحياة المنهكة – بلا كلمات، بلا مواعظ، بلا إسداء نصائح، بل هي الحياة ذاتها، شامخة وجليلة. كم بدا مجدبا إلى جانبها جميعا، بعلمه، ومنطقه، وأخلاقيته كراهب.

هذه هي الأفكار التي ظلت تلح عليه. وكما كان، قبل سنين عديدة، قد وضع يدين محذرتين على شباب غولدموند، وهز عزمه منبها، ووضع له حياته في اتجاه جديد، هكذا الآن عاد صديقه ليعكر صفو روحه، ويدفعه إلى الريب ومساءلة الذات. إن غولدموند هو نده، إنه لم يأخذ أي شيء من نرسيس دون أن يعيده إليه مئة ضعف.

هذا الصديق الغائب منحه فسحة من الوقت ليفكر خلالها، ومرت أسابيع طويلة، وكانت شجرة الجوز قد أزهرت منذ زمن طويل، وخضرة براعمها الصافية، الوديعة، قد تقسّت وأضحت سمراء داكنة منذ ردح بعيد. وكانت طيور اللقلق الجاثمة فوق أبراج البوابة قد أخرجت صغارها منذ وقت طويل، وعلمتهم الطيران. وكلما توانى غولدموند أكثر في عودته أدرك نرسيس بحد أشد مبلغ خسارته جراء

غيابه. لقد كان لديه عدة آباء مثقفين كضيوف في الدار، أحدهم ضليع في أفلاطون، وآخر نحويّ مجيد، وإثنان من اللاهوت اللامعين. وبين رهبانه كان هناك واحد أو إثنان من ذوي الأرواح المؤمنة الصالحة، الذين يعني لهم نداءهم الباطن أمرا جللا. ولكن لا أحد من أولئك كان ندا له، لا أحد منهم كان في إمكانه حقا أن يباري روحه. لقد كان غولدموند يتمتع بمثل هذه الموهبة التي لا تعوض، والآن بات من الصعب الاستغناء عنها. كم يشتاق إلى صديقه!.

كان كثيرا ما يتوجه إلى الورشة، ليشجع الحرفي الماهر إريش، الذي كان ما يزال يواصل العمل على قطعة المذبح، وكان أيضا شديد الشوق إلى رؤية معلمه ثانية. ومن ثم كان يفتح غرفة نوم غولدموند، التي يقوم فيها تمثال «أم الرب» الجديد، ويرفع عنها قطعة القماش، التي تغطيها بعناية، ويجلس بعض الوقت يتأمل صورتها. لم يكن يعرف أي شيء عن مصدر إلهامها. فلم يكن غولدموند قد أخبره بقصة ليديا. غير أنه كان يشعر بما وراءها وفهم أن قسمات هذه الفتاة قد سكنت ولسنوات عديدة قلب صديقه. لعله قبل زمن بعيد، أغواها، وخيب أملها، ومن ثم رحل. ولكنه ظل يحمل صورتها في قلبه، وصانها، كأصدق ما يفعله أفضل الأزواج، إلى أن عمل في آخر الأمر، ربما بعد مرور سنوات عديدة، لم يرها قط خلالها، على صنع تمثال هذه الفتاة الغضة الرقيقة، السمحة، ووضع في وجهها، وفي هيئتها، وفي يديها، كل ما كان يتسم به حبهما من رقة وروعة، وبهجة وشوق.

التماثيل القائمة حول مقرأ قاعة الطعام كانت تحوي أيضا، بالنسبة إلى نرسيس، الكثير من قصة حياة غولدموند — قصة حياة فاسق متشرد، بلا مأوى، ولا إيمان، جوّاب الدروب، لكن كل ما تركه منها، هناك في الخشب، كان جميلا، وحقيقيا، ومفعما بالحب

النابض. كم يمكن أن تكون الحياة غريبة، وما أشد حلكة السيل وتخبطه، وما أنقى وأجمل ما تبقى معنا !.

خاض نرسيس صراعا ضاريا مع نفسه. وانتصر وظل وفيا للطريق التي اختارها، ولم يخفف قط مثقال ذرة من خدمته الصارمة. بيد أنه تكبد خسارة صديقه، وغالى أيضا من إدراكه مدى المساحة الهائلة التي احتلها ذاك الصديق في قلبه، في حين أن عليه أن يتكرس بكليته لله ولأداء واجبه.

الفصل العشرون

انصرم فصل الصيف، وذبل الخشخاش وعبّاد الشمس، والمنثور البريّ والحشيشية النجميّة، ثمّ تلاشت، وكفّ ضفدع بحيرات صيد السمك عن النقيق، وحلّقت طيور اللقلق عاليًا، استعدادًا للرحيل. حينئذ عاد غولدموند.

حين رآه إريش ارتعب. صحيح أنّه تعرّف إليه من النظرة الأولى، وطفر قلبه من الفرح لمرآه. ولكن بدا أنّ الّذي عاد كان رجلاً آخر، أكبر بسنين عديدة، غولدموندًا زائفًا، معتلّ الصحّة ومُنهكًا، ذا وجه مُعفّر، رماديّ اللّون، متهدّل، وإن لم يبدُ في عينيه ألم، بل ابتسامة، ابتسامة عجوز، سمحة، صبور. كان يجرّ خطواته جرًّا، وبدا مُستنزَفًا.

هذا الغولدموند الغريب الّذي يصعب التعرّف إليه أمسك بيد الحرفيّ الشاب، وراح يمعن النظر في عينيه. لم يجعل من عودته حدثًا عظيمًا، بل تصرّف وكأنّه قادم من الغرفة المجاورة. ظلّ مُمسكًا بيد إريش، لكنّه لم ينطق بأيّ كلمة، لا عبارات ترحيب، لا أسئلة، لا حكايا مسافر. واكتفى بالقول: «أنا نعسان»، وبدا من الإرهاق حتى كاد يعجز عن الحركة. ثمّ صرف إريش، وتوجّه إلى غرفة نومه المجاورة للورشة. وهناك خلع قلنسوته، ورماها على الأرض، ورفس حذاءه، واستلقى على السرير. وفي الزاوية البعيدة المظلمة من الغرفة استطاع أن يرى تمثاله للمادونا. مدثرا بقماشة مشمع. فأومأ إليها لكنه لم يقترب

منها ليزيل عنها أغطيتها، أو ليحييها. وبدل ذلك زحف نحو النافذة الصغيرة، التي كان إريش القلق ما يزال واقفا خارجها، وهتف:

«إريش، لا تخبر أحدا أني عدت. أنا مفرط التعب. هناك وقت حتى الصباح».

تمدد دون أن يخلع ملابسه. غير أنه، لما لم يجد إلى النوم سبيلا، سرعان ما نهض واقفا من جديد، وجر قدميه بتثاقل إلى الجدار، ليمعن النظر في المرآة المعلقة هناك. حدق بتمعن إلى الغولدموند الذي بادله التحديق من خلال دائرة المرآة، العجوز، المتعب، الذاوي، تتخلل لحيته خطوط بيضاء ناصعة. لقد كان الشخص الذي بادله التحديق من الدائرة الصغيرة الباهتة عجوز أشعث، بوجه ليس وجهه، على الرغم من أنه تعرف عليه، وجه شخص غريب. وجه لم يشعر أنه موجود فعلا، لأنه لم يكن يشبهه في شيء. وقد ذكّره وجهه بوجوه أخرى كثيرة، ذكره قليلا بالمعلم نيقولاس، وقليلا بالقديس جيمس في الكنيسة – القديس جيمس، العجوز الملتحي، الذي بدا شيخا عجوزا متهدّما أبيض الشعر يستظل بقبعة الحج الواسعة، إلا أنه عجوز لطيف، طيب القلب.

تمعّن في وجهه بانتباه شديد، وكأنه يتوق إلى معرفة كل ما يمكنه هذا العجوز الغريب الأطوار. ثم أومأ برأسه، وتعرف عليه ثانية كغولدموند. نعم، إنه هو، وهو يطابق مع إحساسه بنفسه. عجوز منهك، فاتر النشاط، عائد من رحلة طويلة، شيخ هادئ، وعلى الرغم من أنه لم يعد ينفع لشيء، لم يكن يكنّ له أي ضغينة، بل وجد أن من السهل التعايش معه. هذا الشيخ المتهالك في وجهه شيء كان غولدموند الآخر الوسيم يفتقده. فعلى الرغم مما تحمله هاتين العينين من إرهاق فثمة نظرة رضا فيهما – أو لا مبالاة. وقهقه برقّة، وراقب

الشكل الباهت يردد القهقهة. شيء جميل أن يعود إلى البيت بصحبة هذا الشيخ الرائع! لقد تركته رحلته الصغيرة الممتعة بحقّ مُستهلَكًا باليا، وها هو الآن بلا حصان، وبلا حقيبة سفر، وبكيس دراهم خال من القطع الذهبية. وفوق كل هذا، لقد خلف وراءه قوته وشبابه، وثقته بنفسه، وتورد وجنتيه، وبريق عينيه. غير أن الصورة مع ذلك سرته: فهذا الشيخ الضعيف الذي يطل عليه من المرآة هو أفضل كرفيق من الغولدموند الذي عاش معه ردحا مديدا من الزمن. إنه واهن، يثير الشفقة، لكنه أكثر مسالمة بكثير، وأكثر رضا. ومن الأسهل قضاء حياة هادئة معه. وضحكك وغمز بأحد جفني عينيه المتغضن. ومن ثم تمدد على السرير، واستغرق في النوم.

في اليوم التالي جاء نرسيس لزيارته وكان قد جلس، يحاول أن يرسم قليلا، منحنيا أكثر فوق طاولة ورشة العمل. وتوقف رئيس الدير عند ممر الباب.

هتف: «الحمد لله! لقد أخبروني للتو أنك عدت. إن سعادتي غامرة. وبما أنك لم تسأل عني جئتك أنا. هل أعيق عملك؟».

اقترب منه، وانتصب غولدموند قائما عن رسمه، ومد يده. وعلى الرغم من أن إريش كان قد حذره مسبقا فإن قلب نرسيس كاد يتوقف عن الوجيب لدى مرأى صديقه. وبش غولدموند في وجهه قائلا:

«مرحبا بك يا نرسيس. منذ مدة طويلة لم يشاهد أحدنا الآخر. سامحني لأني لم أبادر إلى زيارتك».

نظر نرسيس في عينيه مباشرة. هو أيضا نفذ أعمق مما بدا على هذا الوجه من إرهاق مهلك، يبعث على الشفقة، ورأى تلك النظرة الهادئة بشكل غريب، التي تنم عن قناعة داخلية – عن إذعان رجل عجوز يثير الشفقة. ولكونه خبيرا في استشفاف الوجوه الإنسانية،

أدرك على الفور أن هذا الغولدموند، المذلل، الغريب الشكل لم يعد بحق صديقه، الذي عاد ليرحب به - فإما أن روحه قد انفصلت عن الواقع وراحت تهيم على وجهها على درب أحلام نائية، أو أنها وقفت عند البوابة التي تؤدي إلى خارج الحياة.

سأله برقة: «أأنت مريض؟».

«آه، نعم، أنامريض أيضا. لقد مرضت منذ الأيام الأولى لترحالي. لكني لم أرغب أن تضحك مني، وهكذا كما ترى لم أستطع أن أعود أدراجي. كنت ستضحك وأنت تنظر إلى عودتي السريعة، ثم وأنا أخلع بهدوء حذاء ركوبي. لا - لم أكن أحتمل ذلك. وهكذا تابعت طرقي، وتجولت لفترة من الوقت هنا وهناك، كان يخجلني التفكير في أن رحلتي قد أخفقت. ولم أحسب حسابا لمضيفي، وهكذا، كما ترى، شعرت أني أحمق. آه، حسن، أنت إنسان حكيم، وقادر على الفهم. آه، سامحني - ماذا سألتني؟ لعلي سُحرت، لأني صرت أنسى على الدوام كل ما يقال لي. إنها تلك المشكلة مع أمي، يا نرسيس! لقد أحسنت معالجة الأمر، في الحقيقة. لقد آذاني ذلك كثيرا عندئذ، ولكن -».

ختم بربرته بابتسامة.

«سوف نعتني بك يا غولدموند، سوف تحصل على كل شيء. ولكن، آه - لماذا لم تعد حالما بدأت الأمور تسوء معك؟ صدقا ما كنا أبدا لنعيّبك. كان يجب أن تدير لجام حصانك».

ضحك غولدموند وقال:

«آه، نعم - الآن تكشفت لي الأمر! إني لم أثق من نفسي حتى في العودة ببساطة إلى هنا. كان ذلك سيضعني في موضع مخز. ولكني الآن عدت. أنا على ما يرام ثانية الآن».

«هل عانيت آلاما مبرحة؟».

«ألم؟ آه نعم، عانيت ما يكفي من الألم. ولكن اسمع – إن ألمي ألم جيد. لقد أعادني إلى صوابي، ولم أعد أشعر بالخزي – حتى وأنا معك. وعندما أتيت إلى السجن لتنقذ حياتي ... كان يجب أن أعقد عزمي عندئذ يا نرسيس، لقد شعرت بالعار الفادح عندما رأيتني هناك. أما الآن فسيان عندي».

ووضع نرسيس يده على ذراعه، فصمت على الفور، وأغمض عينيه ورسم ابتسامة. وذهب رئيس الدير مسرعا، والخوف يملأ قلبه، ليستدعي طبيب الدير، الأب أنطون، ليفحص الرجل المريض. وعندما عاد كان غولدموند قد استغرق في النوم، وهو جالس على طاولة الرسم. فوضعاه في سريره. وبقي الطبيب ملازمه.

اتضح بعد ذلك أن مرضه مستعصيا، فنقل على وجه السرعة إلى أحد أجنحة الدير. وأصبح إريش حارسه ليل نهار.

لم يتوصل أحد قط إلى معرفة كامل قصة المغامرة الأخيرة لغولدموند على الطرقات. وقد روى بعضها، وترك معظمها للتخمين. وكان كثيرا ما ترتفع درجة حرارته، وهو مستلق في شبه غيبوبة، ويبدأ بالهذيان. أحيانا يكون كلامه واضحا، ومن ثم، وفي كل مرة، كان يتم استدعاء نرسيس، الذي احتفظ بمخزون كبير من ذاك الكلام الأخير.

دوّن نرسيس بعض مقاطع من قصة غولدموند ومن أفكاره، والبعض الآخر دونه إريش.

«متى بدأت آلامي؟ حدث ذلك قرابة بداية رحلتي. كنت أشق طريقي خلال الغابة، فإذا بالفرس الهرم يتعثر ويوقعني فسقطت في جدول، وبقيت ملقى طوال الليل في المياه الباردة، ومنذ ذلك الحين وأنا أشعر هنا في الداخل، حيث أضلعي مكسورة بالألم. وعندما وقع لي هذا

لم أكن بعيدا عن هنا، فلم أستطع أن أدع هذا الأمر يعيدني أدراجي. لقد كنت أشبه بطفل أحمق، يخشى أن يبدو أحمق. فتابعت المسير، ولما عجزت عن مواصلة الطريق بسبب الألم بعت الفرس الهرم، ولزمت النزل لفترة طويلة. وها أنا قد عدت إلى الأبد يا نرسيس: لا ركوب خيل بعد الآن، ولا تجوال على الطرقات، ولا رقص مع النساء. آه، لو لم يحدث ما حدث لكنت بقيت هائما فترة أطول بكثير، لسنين أكثر. لكني حين أدركت وأنا هناك، أنه لم يبق لي مسرات أقطفها، فكرت قائلا: «أريد أن أرسم قليلا قبل أن أوارى الثرى، وأن أنحت بعض التماثيل». إن على الإنسان أن يحصل على نوع من المتعة».

عندئذ أجابه نرسيس:

«إن مما يبهجني أن تعود وتنضم إليّ. لقد افتقدتك كثيرا، وكنت أفكر فيك كل يوم. وكثيرا ما كان ينتابني الخوف من أن لا تعود أبدا».

هز غولدموند رأسه:

«آه، حسن، ما كنت لتخسر الكثير».

مال نرسيس فوق صديقه، وبركان من الحب والأسى يمور في قلبه، وفعل ما لم يكن قد فعله قط قبل الآن، خلال كل سنوات صداقتهما الطويلة: قبّل جبين غولدموند، وشعره. للوهلة الأولى ذهل غولدموند، ومن ثم كان كالمأسور، واعتبر فعله شيئا استثنائيا.

همس له رئيس الدير: «سامحني يا غولدموند لأني لم أتمكن من قولها قط من قبل. كان يجب أن أقولها في ذاك اليوم في مدينة الأسقف، عندما أتيت لأحررك من السجن، أو هنا عندما عرضت علي أول تماثيلك، أو في أي وقت آخر أتيح لي ذلك. دعني أقولها الآن، وأعبر لك عن مبلغ حبي لك، وكم كانت حياتك دائما تعني لي الكثير، وكم أغنيت كياني. إن هذا لن يعني لك شيئا. أنت اعتدت على ان

تحب، وبالنسبة إليك هو ليس بالأمر غير العادي، فقد ضمتك الكثير من النساء بين أذرعهن، وتعلقن بك. أما بالنسبة إليّ فالأمر مختلف. لقد فاتني الأفضل، وكانت حياتي فقيرة بالحب. لقد أخبرني أبونا الرئيس دانييل أني أبيّ، ويبدو أنه محق فيما قال. وهذا لا يعني أني غير منصف مع الرجال. لقد كافحت بعزيمة قوية كي أكون عادلا معهم وصبورا. بيد أني لم أحبهم قط. ومن بين اثنين من الرهبان المثقفين في الدير، كان الأكثر ثقافة بينهما هو الأقرب إلى قلبي. إني لم أحب قط فقيها سيئا على الرغم من ضعفه، ومع ذلك، وعلى الرغم من كل هذا، فأنا أعرف ما هو الحب، والفضل يعود إليك. إنه أنت من أحببت، وأنت وحدك، من بين كل البشر. لن تتمكن أبدا من سبر عمق ما يعنيه هذا لي. إنه أشبه بنبع في قلب الصحراء، بشجرة مزهرة وحيدة في قلب البرية. لك وحدك الشكر لأن قلبي لم ينضب معينه ويفنى، لأنه ما زال لدي شيء يمكن أن يتأثر بالجمال».

ابتسم غولدموند بسعادة ولكن بقلق. وقال بصوت ساعات صفائه، الخفيض، الهادئ:

«بعد أن حررتني. وانطلقنا معا عائدين إلى الوطن، سألتك عن أخبار فرسي «بليس»، فأبلغتني بموته. ثم أدركت كيف أنك كنت ترعى فرسي الصغير «بليس» وأنت الذي لم يكن ينتبه إلى وجود أي حصان آخر في الدير. لقد فرحت كثيرا، لأنك فعلت ذلك إكراما لي الآن بت أفهم أني كنت كما اعتقدت نفسي، وأعرف بحق أنك تحبني. ولطالما أحببتك يا نرسيس. ونصف حياتي كانت سعيا حثيثا لكسب حبك. كنت أعلم أنك طالما راعيتني، لكني لم آمل قط في أنك سوف تبوح لي بذلك – أنت أيها الأبي ! لقد قلتها الآن، بعد أن لم يتبق لي أحد غيرك، لا حياة ولا حرية في العالم، والنساء أدرن ظهورهن لي. إني

أقبل حبك، وأشكرك عليه».

كانت ليديا مادونا تراقبهما من موقعها في زاوية الغرفة.

سأله نرسيس: «أما زلت تفكر في الموت؟».

«آه، نعم، أفكر في الموت. وأفكر كيف تشكلت حياتي. حين كنت فتى، وكنت أنت ما تزال طالب فقه، كنت أود أن أصبح حكيما مثلك. وبينت لي كيف أني لا أنفع لذلك. ومن ثم اتخذت المنحى الآخر للحياة، وتبعت أحاسيسي، وسهلت النساء لي السبيل للعثور على المتعة في ذلك، كن جميعا ذوات رغبة عارمة، وشبق. ولكن لا أريد أن أبدو وكأني أحتقرهن، أو أن أقول في حقهن أي كلام فاسق. لقد كنت أعيش حياة جسدية غاية في السعادة، ونلت نعيم معرفة أن الجسد يمكن أحيانا أن يكون هو الروح. وهذا يخلق الحرفي. أما الآن، فقد خبا اللهب كله، لقد فقدت متعة الأثداء والشوق إليها. ولن أتمكن اليوم من الحصول عليها، حتى ولو رغبت النساء فيّ من جديد. ولم أعد أرغب في نحت مزيد من التماثيل. لقد أنجزت ما يكفي. ما أهمية عدد التماثيل التي يخلفها الحرفي؟ وقد حان وقت الموت. وأنا راغب فيه كل الرغبة. بل إني أصبو إلى مجيئه».

سأله نرسيس: «لماذا تصبو إليه».

«أعتقد أنك تظنني أحمق – ومع ذلك فأنا أصبو إلى الموت. وليس إلى الحياة الأبدية يا نرسيس، فهذه لا تهمني أبدا، وبعبارة أوضح أقول إني لم أعد أؤمن بها. لا وجود لما يسمى بالحياة الأبدية. إن شجرة ذابلة هي ميتة إلى الأبد، وعصفور متجمد لن يعود أبدا إلى تحريك جناحيه. فلم يجب أن تكون جثة الإنسان في حال أفضل؟ قد يظل ذووه على ذكره لبعض الوقت، ولكن بما أنه قد رحل فإن ذلك لن يستمر طويلا. لا، إني أصبو إلى الموت لأني لا أزال أؤمن، أو أحلم،

بأني عائد إلى أحضان أمي، لأني آمل في أن يكون موتي سعادة عظمى – عظمى مثل تلك التي حصلت عليها من حبيبتي الأولى. لا أستطيع أبدا أن أتخلص من التفكير في أنه ليس الموت من سيأخذني بمنجله، وإنما أمي هي التي ستضمني إلى حضنها، وتقودني في عودة إلى العدم والبراءة».

في إحدى تلك الزيارات الأخيرة، حين كانت قد مرت عدة أيام لم يتكلم خلالها غولدموند، وجده نرسيس مستيقظا، وتواقا إلى الكلام.

«يقول الأب أنطون إنك لا بد تعاني آلاما مبرحة. كيف تستطيع أن تتحملها بكل هذا الهدوء يا غولدموند؟ أعتقد أنك حققت سلامك أخيرا».

«تقصد سلامي مع الله؟ لا، لم أعثر على هذا. إني لا أبغي سلاما مع الله. لقد خلق العالم شريرا جدا، ولا مبرر لدينا لاحترام هذا العالم، ولن يأبه الله سواء أمدحته أو ذممته. كم خلق العالم بشكل سيء! لكنك محق في قولك إني حققت السلام مع آلام أضلعي وفي وقت من الأوقات كان يصعب علي كثيرا أن أتحمل الألم، وعلى الرغم من أني كنت أعتقد أن من السهل أن أموت، إلا أني كنت مخطئا. وفي تلك الليلة حين بدا الموت قريبا وأنا في سجن الكونت هاينريش، أدركت ذلك. فلم أقبل الموت، هكذا ببساطة! لقد كنت من القوة والجموح بحيث رفضت الموت عندئذ: كان عليهم أن يقتلوا كل عضو فيّ مرتين. وكل هذا تبدل الآن».

كان الكلام يرهقه وأضحى صوته واهنا. فناشده نرسيس كي يرحم نفسه.

قال: «لا، أريدك أن تسمعني. وفي وقت من الأوقات كنت أخجل من مصارحتك. حتى الآن سوف تسخر مني – ولكن اسمع. في

ذلك اليوم حين امتطيت صهوة جوادي وغادرتك، لم يكن ذلك سعيا وراء أي مغامرة قد أصادفها. لكني كنت قد سمعت إشاعة مفادها أن الكونت هاينريش قد عاد إلى هذه النواحي ثانية، ومعه عشيقته، السيدة آغنس. طبعا، هذا لا يعني لك أي شيء، واليوم حتى لي لم يعد يعني شيئا. لكني حين سمعت ذلك التهبت عواطفي حتى أني لم أعد أفكر في أي شيء آخر غير آغنس. لقد كانت أعذب من ضاجعتهن، وهكذا تقت إلى ملاقاتها ثانية. رغبت في تذوق طعم السعادة معها من جديد. وانطلقت، وخلال أسبوع من الزمن عثرت عليها. كانت ما تزال جميلة، ونجحت في التحدث إليها، واستعراض نفسي. ولكن تصور يا نرسيس – لقد رفضت أن تلقي علي نظرة. قالت إني عجوز جدا، وإني لست جميلا أو شابا، أو مفعما بالحيوية بحيث أناسبها. والآن لم تعد تأمل في الحصول على أي متعة معي. عندئذ كانت رحلتي قد انتهت فعلا، ومع ذلك واصلت المسير. في الواقع لم أتمكن من العودة خشية أن تعنفني. ولكن حتى عندئذ، بينما كنت أتابع الانطلاق، لا بد أن قوتي، وشبابي وجاذبيتي، كانت قد تخلت عني، لأني سقطت في أخدود مع حصاني، داخل جدول وكسرت أضلعي، وانطرحت في المياه طوال الليل. وكانت تلك أول آلام مبرحة أشعر بها. وفي لحظة سقوطي نفسها شعرت بشيء ينكسر في صدري، لكن الانكسار بدا لي أشبه بالمتعة. لقد كنت سعيدا. أحسست به مصحوبا ببهجة. وهكذا استلقيت هناك في المياه وعرفت أني يجب أن أموت. عندئذ لم يعد لي أي اعتراض عليه. لم يبد الموت بالسوء الذي كان يبدو عليه وأنا في السجن. فأحسست بتلك الآلام المبرحة نفسها تحت أضلعي والتي كثيرا ما أحس بها منذ ذلك الحين، وهي التي جعلتني أرى حلما، أو رؤيا – سمه ما شئت، في أول الأمر بدا الألم كلسع النار، واستلقيت

هناك، ورحت أصرخ، وأكافحه بالمقاومة، إلى أن سمعت فجأة صوتا، يضحك مني – كان صوتا اعتدت أن أسمعه وأنا صغير. لقد كان صوت أمي، صوت امرأة، رخيا، عميقا، مفعما بالحب، وبالفسق. وعندئذ أدركت أنه صوت أمي. لقد كانت معي، تضمني في حجرها، ثم أحدثت ثقبا في صدري، وأدخلت أصابعها عميقا بين أضلعي، لتفك قلبي من مكانه وتخرجه. وعندما عملت ذلك، لم يعد ما أشعر به ألما والآن، عندما تعاودني الآلام، لا تكون آلاما – ليست أعداء. إنها أصابع أمي، تخرج قلبي. إنها منهمكة في هذا العمل. وأحيانا تزيل الأنين بالضغط، وكأنها تعاني من لواعج الحب. أحيانا كانت تضحك وتدندن فوقي. وكثيرا ما كانت ترتفع إلى عنان السماء، وأرى وجهها من بين السحب كبيرا بحجم غيمة، يحوم هناك، ويبتسم لي ابتسامة حزينة. وتقترب ابتسامتها الحزينة من قلبي، وتنتزعه».

أخذ يتكلم عنها ويعيد الكلام.

في أحد أيامه الأخيرة سأله: «أتدري إلى أي حد كنت قد نسيت أمي قبل أن تنهضها، وتعيدها إليّ؟ حتى ذلك كان يسبب لي ألما مبرحا. وكأن رؤوس حيوانات تنهش أحشائي. ثم إننا كنا ما نزال ولدين يا نرسيس – ولدين رائعين، نحن الإثنان، في تلك الأيام. ولكن حتى في ذلك الوقت كانت أمي تناديني. وتبعتها. لقد كانت موجودة في كل مكان. كانت هي ليزا الغجرية، والمادونا الحزينة التي صنعها المعلم نيقولاس. كانت هي الحياة والمجون، والخوف والجوع، والحب. والآن هي الموت، وقد أدخلت أصابعها داخل صدري».

توسّل نرسيس إليه: «لا تكثر الكلام يا صديقي، انتظر حتى الصباح».

وجه غولدموند عاليا ابتسامة إلى عينيه، ومع الابتسامة الجديدة

كان قد عاد إلى البيت من أسفاره، الابتسامة التي بدت غاية في البشاشة والعجز، وأحيانا متلبسة وبلهاء، بيد أنها نمت عن طيبة صافية وحكمة صرف.

همس: «يا عزيزي، لا أستطيع أن أنتظر حتى الصباح. يجب أن أرحل، وأخبرك بكل شيء أثناء رحيلي. اسمعني بضع دقائق أخرى. أريد أن أخبرك عن أمي، وكيف أبقت أصابعها محيطة بقلبي. منذ سنين وأنا أتمنى أن أصنع تمثالا لأمي، وكان ذلك أروع أحلامي كلها. كان سيكون أفضل أعمالي قاطبة، لأنها كانت دائما ماثلة في مخيلتي، في شكل مفعم بالحب، وبالسرّية. وحتى قبل فترة وجيزة كنت أشعر أن من الصعب عليّ أن أموت دون أن أنقش صورة أمي. كانت حياتي ستبدو عقيمة. أما الآن انظر إلى أي حد نجحت في عملها. فبدل أن تشكل يداي صورتها، قامت هي بتشكيل صورتي، ونفخت فيّ الحياة. وأحاطت قلبي بأصابعها، وحلته عن مكانه، وأفرغتني. ثم قادتني إلى الموت، ومات حلمي معي – التمثال الذي صنعته لحواء، من الخشب، أم البشر جميعا. لا أزال أراه وسوف أنحته، إذا تبقت أي قوة في يدي. لكنها لن تسمح بذلك. لن تسمح أبدا بكشف سرها. وسوف تقتلني قبلها. ومع ذلك يسعدني أن أموت، إنها تسهل الأمر عليّ».

استمع نرسيس إلى هذه الكلمات الأخيرة وهو مكروب. وكان عليه لكي يميزها أن ينحني إلى أسفل مقتربا من وجه غولدموند. والكثير منها لم يسمعه إلا جزئيا، والكثير منها سمعه، لكن ظلت معانيها مستغلقة عليه. ثم فتح المريض عينيه مرة أخرى، عينين يغيّبهما الموت. وهمس، مع إيماءة صغيرة، وكأنما يكافح ليهز رأسه:

«ولكن كيف يمكن أن تموت أنت يا نرسيس؟ أنت لا تعرف لك أما. كيف يمكننا أن نحب دون أمّ؟ إننا بغير أمّ لا نستطيع أن نموت».

لم تكن بقية الكلمات الت.ي غمغمها واضحة. ظل نرسيس يلازم سرير غولدموند طوال اليومين الأخيرين والليلتين، وهو يراقب النور ينطفئ من وجهه، وكلماته الأخيرة ما تزال تلفح قلبه كألسنة اللهب

ألف راء

علامات في الرواية العالمية

سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي

الساعة الخامسة والعشرون

المؤلّف: قُسطنطين جيورجيو

البلد: رومانيا

ترجمة: فائز كم نقش

إنّ رواية «الساعة الخامسة والعشرون» أحد أكثر الأعمال السردية الباعثة على أسئلة جذرية حول مصير الإنسان المأسَوِيّ، رواية تتجلّى فيها أصداء الملاحم الكبرى، والتراجيديات الإغريقيّة والمآسي الشكسبيريّة، ومجمل الأعمال التي انصبّ اهتمامها على مصير الإنسان، لذلك فهي تنتسب إلى سلالة الآداب السرديّة الرفيعة الخالدة.

ولعلّ القرّاء يشاطرونني الرأي القائل إنّ كثيرا من الزوايات يتلاشى حضوره من الذاكرة بمرور الأيام، وتصبح استعادة أجوائه صعبة، وربما شبه مستحيلة، وقليلا منها يدمغ الذاكرة بختمه الأبدي، ومن ذلك القليل النادر، في ما أحسب، رواية «الساعة الخامسة والعشرون»

د. عبد الله إبراهيم

أحدثت هذه الرواية ضجّة في أوروبا كلّها لم يحدثها كتاب مماثل من قبل، فترجمت إلى أكثر من 40 لغة وأعيد طبعها في فرنسا وحدها 78 طبعة، أمّا في شرقنا العربيّ فقد حظيت بتقريظ واف، فقال بعضهم فيها: «إنّها أفضل كتاب صدر بعد جمهوريّة أفلاطون» وقال آخرون: «لم يسبق لكاتب أن نجح في هزّ مشاعر جماهير العالم كلّه نجاح مؤلّف هذا الكتاب»

فائز كم نقش

قطار الليل إلى لشبونة

المؤلّف: باسكال مرسييه
البلد: سويسرا
ترجمة: سحر ستّالة

منذ الصفحات الأولى لقطار الليل إلى لشبونة يُسمع صدى صوت عنيد، يكبر على امتداد الصَّفحات و لا ينفك يردد بأن هذا الكتاب الضخم رواية عظيمة. رواية قادمة من عصر آخر، عصر الإنسانيات قبل أن تدمّر السخرية أو اللامبالاة حبّ المعرفة.

الفيغارو

تتداخل الأحداث والأمكنة والذكريات، وتتدفّق المشاعر والمعارف والأفكار في نهر واحد ليس شيئًا آخر سوى نهر الذّات وهي تستيقظ على نداءاتها المكتومة وأسئلتها المهملة: «إذا كان صحيحا أننا لانعيش إلّا بجزء صغير ممّا يعتمل في داخلنا، فما هو مصير بقية الأجزاء إذن؟». سؤال مهمل من بين أسئلة كثيرة أخرى لايكفّ هذا العمل الساحر عن إيقاظها فينا حتى تغدو حياتنا بأسرها موضع سؤال. ماالأدب إن لم يكن طريقا إلى الإنسان؟ وما قطار الليل إن لم يكن رحلة في خبايا الذات؟ وما الذّات إن لم تكن الفريد والمختلف والغريب في وجه المشترك والمؤتلف والمألوف؟

لاقطار ولا ليل ولا لشبونة، إنّها دعوة لكلّ واحد منّا كي يقتطع تذكرته الخاصّة بحثا عن الإنسان فيه، الإنسان الذي تركه غريبا مُهملا في محطة مهملة على سكّة الحياة.

شوقي العنيزي

هيّا نشترِ شاعرا

المؤلّف: أفونسو كروش
البلد: البرتغال
ترجمة: عبد الجليل العربي

كيف نقدّم، أدبيًا، مجتمعا معاصرا داخل فضاء ماليّ فيه تعلو القيم المادية على كل شيء لتصبح جوهر العلاقات الإنسانية؟

سؤالٌ حارقٌ يجيب عنه الروائي البرتغالي أفونسو كروش باقتراح طريف يتمثّل في شراء شعراء مثلما تُشتَرى أيّة بضاعة أخرى من المحلات التجاريّة. فقد طلبت طفلة مراهقة عمرها 12 سنة من والديها، شراء شاعر أسوة بالعائلات الأخرى التي تجد في الحيوانات (قططًا وكلابًا...) ألفةً في البيوت، أوّلاً لأنه لا يكلف كثيرًا من الناحية المالية، وثانيا لا يترك أوساخا مثل الرسّامين والنحّاتين.

بهذه الفكرة التي تبدو لنا ساخرةً وغريبةً يعرّي الكاتب مجتمعًا بأكمله، مجتمعًا يقيس الناس بالأرقام والموازين، وتحدّد العلاقات الإنسانية فيه بدرجة نفعها، وكل ما خرج عن ذلك النظام فهو باطل.

هل هناك مكان للشعراء في مجتمع كهذا؟ هل انتهى زمن الشعر وآن الأوان لكي نشيّع القصيدة إلى مثواها الأخير؟ أم أنّ القصيدة هي حصن الإنسان الأخير للحفاظ على إنسانيّته واستعادة ما هُجّر منه تحت أسماء كثيرة: الحداثة، التقدّم، النجاعة، الربح...؟

ذلك ما تتكفّل بالإجابة عنه هذه الرواية.

عبد الجليل العربي

المتطوّعون

المؤلّف: مواسير سكلير
البلد: البرازيل
ترجمة: أماني لازار

«قد يكون سكلير أفضل من يطلعنا من بين المؤلفين على عالم أدب أمريكا اللاتينية الرائع».

صحيفة سان فرنسيسكو كرونيكل

«أظنُّ أن قصَّة هذه الرِّحلة يمكن أن تُروى الآن. فأصحاب الشَّأن لم يعودوا هنا، وعلاوةً على ذلك، أيّ شيء يمكن القيام به في الحياة عدا رواية القصص؟»

هكذا يبدأ مواسير سكلير حكايته الطويلة الظريفة عن تشكيلة من الأشخاص غير الأسوياء الذين يكافحون من أجل البقاء، حتى وهم يعملون بشراسة على أن يدمّر بعضُهم بعضا في سفينة «المتطوعون».

تم الاعتراف بمواسير سكلير، منذ أن نُشرت أعماله لأول مرة باللغة الإنكليزية عام 1984 باعتباره واحدًا من أهم كتاب أمريكا الجنوبية ومن أعظم كتاب الأدب في العالم. تتجلى تقنيته، بحسب الواشنطن بوست، في «دمج العالمين السحري والخيالي في العالم الواقعي».

كل كاتب يبتكر واقعه الخاص، وبهذا يضيء عالمنا. عالم سكلير قوي وفاتن للغاية، وهو يوفَّق في فرض سحره على القراء المتشككين».

ألبرتو مانغويل.

المؤتمر الأدبي

المؤلّف: سيزار آيرا
البلد: الأرجنتين
ترجمة: عبد الكريم بدرخان

«إذا كان هنالك كاتب معاصر لا يمكن تصنيفه، فهو سيزار آيرا. عندما تبدأ قراءته فإنك لن تستطيع التوقف، إنه واحد من أفضل ثلاثة كتّاب بالإسبانية.»

روبرتو بولانيو

«المؤتمر الأدبي، هي العربة الأمثل لـ سيزار آيرا، العربة التي تقوده إلى زعامة الأدب في القرن الواحد والعشرين.»

Goodreads Review

«إنّها رائعة سيزار آيرا، رواية تُقرأ على طبقات. وهي أشبَهُ بنفقٍ مستقيم، يفتِنُك ويُغريك بمواصلة الركض فيه حتى النهاية.»

The National

«ليست روايةً عن مؤتمر أدبي، إنها عزف متنوّع على أوتار الاستنساخ والأدب والعبقرية، قبل أنْ تبلغ ذروةَ الخيال العلمي المتعدّد الألوان.»

The Guardian

«لقد نقلَ محورَ الأدب اللاتيني الأمريكي، من الواقعية السحرية التي استهلكتْ نفسها منذ عام 1980، إلى ثقافة أوروبية تجمع بين العقلانية واللامعقول.»

The New York Review of Books

أنشودة المقهى الحزين

المؤلّف: كارسن ماكالرز
البلد: أمريكا
ترجمة: علي المجنوني

«خيال جريء... جسارة تكفي لتناول الفظاعة في الطبيعة الإنسانية من دون فقدان الأعصاب أو الوقار الرصين أو الحب. ماكالرز حكاءة لا تضاهى وذات بصيرة فريدة... إنها كاتبة من الطراز الرفيع.»

ڤيكتور سودن پريتشيت

«ينبغي أن تكون «أنشودة المقهى الحزين» في عِداد أحزن القصص في كل اللغات على الإطلاق.»

أوليڤر إيڤانز

««أنشودة المقهى الحزين» قصة المنبوذين حين يقعون في الغرام، لكنها أكثر من ذلك. إنها احتفاءٌ بقوة الحب نفسه ورثاءٌ لفواته.»

ريتشارد كوك

«لقد وجدتُ في أعمالها من القوة ونبل الروح ما افتقدناه في أدبنا المنثور منذ هيرمن ميلڤيل.»

تينيسي ويليامز

لاعب الشطرنج

المؤلّف: ستيفان زفايغ
البلد: النمسا
ترجمة: سحر ستّالة

كتب ستيفان زفايغ إلى صديقه هرمان كيستن قبل انتحاره بخمسة أسابيع: «ليس هناك شيء مهم أقوله عن نفسي. كتبت قصة قصيرة حسب أنموذجي المفضّل البائس، وهي أطول من أن تنشر في صحيفة أو مجلة وأقصر من أن يضمّها كتاب وأشد غموضا من أن يفهمها جمهور القراء العريض وأشد غرابة من موضوعها في حد ذاته».

إنّ «لاعب الشطرنج» على بساطتها رواية مراوغة ظاهرها حكاية طريفة ممتعة عن سيرة لاعب شطرنج، وباطنها رسالة وداع وجّهها الكاتب زفايغ إلى الإنسانية جمعاء بعد أن فقد الأمل في الإنسان كما حلم به ودافع عنه، الإنسان الذي تحوّل إلى آلة تدمير لا هاجس لها غير السيطرة والربح: رجل الدين، رجل الأمن، المحامي، التاجر، لا أحد نجا من الإدانة، ولا أحد حافظ على هويّته في لعبة التحوّلات. لقد غربت الشمس وآن الأوان لكي نقول وداعًا.

شوقي العنيزي

آخذك وأحملك بعيدا

المؤلّف: نيكولو أمانيتي
البلد: إيطاليا
ترجمة: معاوية عبد المجيد

«آكلو لحوم البشر» اسم جيل روائيّ جديد تزعّمه نيكولو أمانيتي، اسمٌ مُدوّ، جارح، محيّر ومربك، متوحّش وفضّاح، العالم مخز، هذه هي الحقيقة، ولحم البشر مأكول ورخيص وهو أقلّ الأشياء اعتبارا في عالم تهاوت جميع قيمه، اسم يقلق الرّاحة، يزيل القشرة ويكشف الوسخ المتلبّس باللحم والعظم، ولأنّه كذلك فإنّ أمّانيتي يستنبط أسلوبا خاصّا، لم نألفه من قبل لا في الرواية الإيطاليّة ولا الأوروبية، علامتُه الفارقة: «آخذك وأحملك بعيدا».

رواية طويلة تقرأ مرّة واحدة، لن تقدر على تركها قبل إكمالها، ستجد نفسك غارقا في التّفكير في حياتك قائلا «متى سأستفيق من هذه الخرافة؟»، حينما ستبدأ الإجابة يكون الكتاب قد تحوّل من كلام على الورق إلى طريق، ما حقيقتك؟ هل لديك القدرة على تغيير مسارات حياتك؟ هل يجب أن تكون على هامش الحياة، أم أحد أبطالها؟ أسئلة لم تطرح أبدا في أثر روائي بكلّ هذه القسوة والدويّ.

الآن أكملت القراءة، وليس أمامي إلاّ وضع قدميّ على أوّل الطّريق.

نصر سامي

السنة المفقودة

المؤلّف: بيدرو ميرال
البلد: الأرجنتين
ترجمة: أشرف القرقني

«إنها رواية الزهد اللاتيني، رواية الصمت وخيبة الأمل أيضا. سالفاتييرا الذي سيصاب بالخرس في طفولته، بعد سقوطه من على ظهر حصان، سيهتدي إلى لغة أخرى بعد أن فقد نعمة الكلمات، وسيقضي ستين سنة في رسم لوحة واحدة طولها أربعة كيلومترات. لم يكن يفكر في عرضها على المتاحف وتجّار الفن وهواة الأرقام القياسية، لم يلجأ إلى الإعلام، لم يكن معنيا على الإطلاق بمكبرات الصوت والصورة في عالم الفن. لقد كان سالفاتييرا منشغلا بالرسم فقط، بتلك اللوحة التي ظلت تتدفّق على طول السنين ولم يوقفها سوى الموت.»

عبد الرحيم الخصّار

«تكون في راحة من عقلك وبمجرد أن تتصفّح الكتاب يختلّ توازنك، وتمضي في نهر الحكاية مسحوبا باندفاع التيّار، بعيدا عن غرفتك، عن طاولتك وكرسّيك ومصباح مكتبك، وأنت تجذّف خلف الرّاوي باحثا عن لفافة الرسم الضائعة. تجتاز قرى أرجنتينية، تقابل صيّادين ومهرّبين، تمشي على طول أنهار موحلة وتركب عبّارة صدئة في جنح الظلام قبل أن تهتدي إلى أنّك كنتَ بصدد البحث عن قصيدة رسمها بيدرو ميرال وكتبتها عيناك على الطريق وأنت تقرأ».

زياد عبد القادر

«هي رواية صغيرة، ولكنها عبقرية، فيها تتكلّم رسوم سالفاتييرا من تلقاء ذاتها لتقول لنا: كان يا ما كان...»

صالح علماني

ساعي بريد نيرودا

المؤلّف: أنطونيو سكارميتا
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

هي حقّا رواية بطعم الفاكهة، تبدؤها فإذا أنت متورّط فيها حدّ المتعة، تنال من كلّ حواسّك وتسحبك من عالمك إلى عالمها فلا تستطيع لها تركا ولا منها فكاكا قبل أن تقرأ الجملة الأخيرة .. رواية شحيحة الشخصيّات قليلة الأحداث يمكن تلخيصها في كلمة «نيرودا» وهو ممدّد على فراش المرض ردّا على ساعي بريده «ماريو خيمينث» وهو يسأله عمّا يشعر.. فيجيبه بكلّ بساطة وعمق: «أشعر بأنّي أحتضر. وباستثناء ذلك ليس هناك ما هو خطير».

أيّة مفارقة أجمل من لعبة اللغة توحي وتسخر وتمكر؟ لغة هي النّسيج واللّباس والرّائحة والالتباس. تلتبس عليك الأحداث فلا تعرف ما الواقع وما الخيال وما السّحر. وتلتبس عليك الشّخوص والشخصيّات والأشخاص فتتساءل: من البطل؟ ولا جواب .. كلّهم أبطال ولا بطل.

نحن إزاء رواية علامة في تاريخ الأدب العالميّ. علامة تنساب المتعة مع سطورها كخدر الحبّ في العروق لذلك فهي تكره القارئ العاديّ وتنشد قارئا عاشقا شبقا لا ينتهي من الصفحة حتّى يستزيد إلى أن يفقد الوعي... أي يسترجعه.

ظافر ناجي

ذئب البراري

المؤلف: هرمان هيسه
البلد: ألمانيا
ترجمة: أسامة منزلجي

عمل سرديّ باهر من أبرز سماته الإحاطة بمرحلته الزمنيّة الحرجة والتغلغل في ما وراء الصمت، ولكنّ الأسئلة التي تطرحها الرواية ما تزال متلبّسة بالكائن الإنسانيّ الممزّق بين ذئبيته وتوحّشه وبين ما يطمح إلى بلوغه من كمال وسكينة... أسئلة تنتقل بكلّ وهجها من جيل إلى آخر، من مثقّف عاش ما بين حربين رهيبتين إلى مثقّفين يتوغّلون في القرن الواحد والعشرين زمرةً من الغرباء المهمّشين المغيّبين بشتّى الوسائل عن عصرهم ومجتمعهم....

إنّنا أمام «ذئب» هارب من وليمة دم ، تنبّأ بالحرب الرهيبة القادمة وخيّر وحشة العزلة على المشاركة في الجريمة الكبرى.

لذلك سيجد إنسان اليوم المهدّد بموجات التوحّش والتطرّف والانغلاق ومقت الآخر، صوتا يمثّل هواجسه ومخاوفه، ووجها يشبهه في غربته ووحشته، إنّ ما اعتمل في باطن «هاري هاللر» من اضطرابات نفسيّة عاصفة وما عاشه من خيبات وآلام، يحدث لأغلب المحشورين اليوم في الغابات المدنيّة التي تُطلق عليها جزافا أسماء «أوطان» و«دول»، وما هي في الحقيقة غير أطر لصراع محموم بين قوى مستضعفة وقوى جائرة وشديدة الجشع ، هذا ما تفضحه الرواية وتعرّيه دون السقوط في تقريريّة فجّة أو خطاب أجوف، فقدر المبدع أن يخلق من جرحه وردة ، لا أن يعتنق الصراخ فيزيد العالم ضجيجا ...

محمّد الهادي الجزيري

هرمان هيسه

نرسيس وغولدموند

تتناول الرواية، من خلال تتبع غولدموند، أغلب التناقضات التي قد يمر بها المرء وهو يواجه الحياة، وتُشير أيضًا إلى أن نرسيس قد واجهها جميعًا وهو في مُعتزله: الخير والشر، الحياة والموت، الله والشيطان، الخلود والفناء، الصديق والعدو، الأمان والخوف، الحضارة والغابة، التنظيم والفوضى، الوفاء والخيانة، الحُب والكره. كان هدف غولدموند غير المُعلن من خلال تجواله هو مُراكمة الخبرات، وكان عدوّه غير المُعلن أيضًا هو تجدّد غاياته، تجدّد ما يُريد تحقيقه وتبدّله كلّما حققه. أما نرسيس فلم يكن عدوّه سوى فكرة واحدة: أن لا تكون نفسك، أن تحاول تزييف ما أنت عليه، ولذلك فقد كان هدفه طوال حياته ومصدر عذاباته هو أن يجد نفسه، أن يرى نفسه كما هي دون تأثير الآخرين فيها ودون أهداف موضوعة لها من خارجها.

هناك دائمًا صديقٌ تُحب أن ترى نفسك شيخًا إلى جانبه. صديقٌ يُعطيك وجهُه شكلًا تقريبيًّا لما وصل إليه حال وجهك. تقيس عمرك بنفس المسطرة التي يقيس بها عمره، تتبادلان إشارات مختصرة كأنها شفرات عن أحداث لا تحتاج إلى شرح أو إطالة. هناك صديقٌ تُحب أن تشيخ إلى جانبه.. جِدْه، وقُل له ذلك، في وجهه.

أحمد العلي

ISBN: 978-9938-833-68-3



